AL - MARIFA
المعرفة
مجلة ثقافية شهرية
تصدرها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية

العدد ٥٩٧- السنة ٥٢ - رجب ١٤٣٤هـ - حزيران ٢٠١٣م

الشباب والحوار الوطني.
أوغاريت والبحث عن نشأة الموسيقا.
الكون كما يراه علماء اليوم.
العدالة الاجتماعية علم أصيل وفن رصين.
هل الكون منظومة معلوماتية؟
شعراء صعاليك لكنّهم نبلاء.
الذاكرة الكاذبة أو المصطنعة.. قضية جدليّة.
جورج طرابيشي المبدع والمفكر والمترجم.
القلق آفة العصر.

زخارف - للفنانة مي شطّي

الخط العربي ونقوشه الأثرية

نص البيت:

من (يسل) الناس يحرموه وسـائل الله لايخـــيب

يعود الفضل في تطور الخط العربي، وانتشاره في شتى أرجاء الوطن العربي، والعالم الإسلامي، إلى القرآن الكريم، حيث كان المسلمون يحفظونه عن ظهر قلب، ويكتبونه على المواد الكتابية المتوافرة في عصر الرسول (صلى الله عليه وسلم) وامتداداً إلى عصر الخلفاء الراشدين. وقد تطور الخط العربي بعد ذلك في عصر الخلافة الأموية والعباسية؛ فاشتهر فن الكتابة والتدوين في الكوفة ودمشق والبصرة وبغداد ومصر والقيروان والأندلس وغيرها.. وأصبح الحرف العربي عنواناً وعنصراً مهماً في الفنون والعمارة العربية والإسلامية، وفي كثير من الصناعات المعدنية والخشبية والنسيج وغيرها..

لقد قام علماء الآثار والنقوش القديمة في كثير من الدول العربية والإسلامية، بتوثيق الآلاف من النقوش العربية المكتشفة في شتى أرجاء العالم القديم، وجاءت النتائج لتؤكد تطور هذا الخط وتعدد فنونه وأشكاله منذ الحروف الخالية من النقط، إلى مرحلة التنقيط، وتطور أشكاله وخطوطه كـ (الكوفي - النسخي - الديواني - الفارسي..) وتتميز النقوش المكتشفة بمضامينها ومعانيها التي تجمع بين الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة والأدعية والأقوال المأثورة، والأبيات الشعرية، فشكل مجموعها مصدراً لدراسة تطور فنون الخط العربي وزخارفه وتأثيره في فنون بناء المساجد والقصور والعمارة باختلاف وظائفها وجمالياتها.

ع.ق

AL - MARIFA
المعرفة
مجلة ثقافية شهرية

تصدرها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية

العدد ٥٩٧ - السنة ٥٢ - رجب ١٤٣٤ هـ - حزيران ٢٠١٣ م

رئيس مجلس الإدارة

أ. الدكتورة لبانة مشوّح

وزيرة الثقافة

رئيس التحرير

د. علي القيّم

معاون وزير الثقافة

أمينة التحرير

سمر الزركي

الهيئة الاستشارية

د. طيب تيزيني — أ. وليد إخلاصي

د. حسام الخطيب — د. بدر الدين عرودكي

أ. شوقي بغدادي — أ. محمد قجة

الإشراف الفني والطباعي

أنس الحسن

التصميم والإخراج

أحمد إسماعيل

التنضيد

ريما محمود - ابتسام عيسى

دعوة إلى الكتاب والمثقفين العرب

- ترحب مجلّة المعرفة بإسهامات الكتّاب والمفكرين العرب في مجمل قنوات المعرفة الإنسانية.
- يفضل أن يتراوح حجم المقال بين ١٠٠٠ - ١٥٠٠ كلمة وحجم البحث بين ٢٠٠٠ - ٢٥٠٠ كلمة.
- يُراعى في الإسهامات أن تكون موثقة بالإشارات المرجعية وفق الترتيب التالي:

اسم المؤلّف - عنوان الكتاب - مكان الطباعة وتاريخها - رقم الصفحة مع ذكر اسم المحقق في حال الكتاب محققاً، واسم المترجم في حال الكتاب مترجماً.

- ترجو المجلة من كتّابها أن يقرنوا إسهاماتهم بتعريف مُوجز لهم.
- ترجو المجلة أن تردها الإسهامات منضدة على الحاسوب ومراجعة من قبل كاتبها.
- تلتزم المجلة بإعلام الكتّاب عن قبول إسهاماتهم خلال شهر من تاريخ تسلّمها، ولاتعاد لأصحابها.

يرجى توجيه المراسلات إلى المجلة
الجمهورية العربية السورية - دمشق - الروضة
رئيس تحرير مجلة المعرفة
تلفاكس: ٣٣٣٦٩٦٣
www.moc.gov.sy

المواد المنشورة في المجلة تعبر عن رأي أصحابها ولاتعبر بالضرورة عن رأي المجلة

سعرُ النسخة ٢٥ ل.س أو ما يُعادلها
تُضافُ إليها أجرة البريد خارج القطر

في هذا العدد

كلمة الوزارة

الشباب والحوار الوطني أ. الدكتورة لبانة مشوح
وزيرة الثقافة

كلمة العدد

أوغاريت والبحث عن نشأة الموسيقا
د. علي القيم
رئيس التحرير

الدراسات والبحوث

شعراء صعاليك... لكنهم نبلاء ..... إبراهيم محمود الصغير ١٣
سليمان العيسى وأدب الرحلة..... د. ملكة أبيض ٢٦
جورج طرابيشي المبدع والمفكر والمترجم ..... أسعد طرابية - مروان رضوان ٣٨
سياسة كل مجتمع هي الابنة الشرعية لثقافته ..... د. أحمد عمران الزاوي ٥٨
الذاكرة الكاذبة أو المصطنعة قضية جدلية ..... د. محمد قاسم عبد الله ٦٩
مواقع أثرية في منطقة اللجاة في جنوب سورية ..... د. خليل المقداد ٩٤
تاريخ العولمة ..... د. جهاد ملحم ١١١
هل الكون منظومة معلوماتية ..... المهندس فايز فوق العادة ١٢٤
تقنيات نظم المعلومات لمواجهة الأزمات والكوارث ..... وهدان وهدان ١٣١
الحياة في عالم كمومي ..... موسى ديب الخوري ١٤٤
يوم التبدل في منهجية التفكير العلمي ..... إبراهيم سلوم ١٦٣
الكون كما يراه العلماء اليوم ..... ترجمة: محمد الدنيا ١٧٧

شعر

على باب المغارة ..... سليمان العيسى ١٩٣
قريتي وموعد الربيع ..... محمد حسن حشمة ١٩٤

قصة

المرآة المائلة..... صلاح دهني ١٩٧
الرايات ..... يوسف جاد الحق ٢٠٤

آفاق المعرفة

ضفاف السرد القصصي..... عبد الباقي يوسف ٢٠٩
العنصرية في الأدب الصهيوني..... محمد قرانيا ٢٢٣
الآلية الفكرية للمجتمع المدني عند هيجل..... ترجمة وإعداد: هبة الله الغلاييني ٢٣٢
فرص الإبداع والمبدعين في الحالة العربية الراهنة..... د. خير الدين عبد الرحمن ٢٤١
القلق آفة العصر ..... د. معمر نواف الهوارنة ٢٤٩
النفوذ الاجتماعي ..... محمد علي درويش ٢٥٧
العدالة الاجتماعية.. علم أصيل وفن رصين..... منيب هائل اليوسفي ٢٦٤
تقنية المحاكات الحاسوبية وسبر أغوار العلوم ..... رحاب محمد ٢٧١

حوار العدد

مع المفكر الفلسفي محمد ياسر شرف..... إعداد: محمد خالد الخضر ٢٨٣

متابعات

صفحات من النشاط الثقافي..... إعداد: أحمد الحسين ٢٨٩

كتاب الشهر

متعة المتخيّل.. حوارات مع كتاب عالميين..... د. إسماعيل مروة ٣٠٠

آخر الكلام

محمد عيسى.. يخفي قصائده تحت غيمة..... رئيس التحرير ٣٠٩

كلمة الوزارة

أ. الدكتورة لبانة مشوّح
وزيرة الثقافة

الشباب والحوار الوطني

يسرّني أن أرحب بكم جميعاً في هذه الندوة الثقافية التي تعقد في ظروف غير عادية، مما دعانا لأن نطرق باباً في غاية الأهمية ألا وهو دورُ الشباب وموقعُهم وموقفُهم من الحوار الوطني.

لم يأتِ اختيار عنوان هذه الندوة عبثاً، بل له مدلولاته العميقة. فألم سورية مجبول اليوم بالأمل، وهذا ما حدا بنا لاختيار عنوان لها يجمع بين كلمتين مفتاحيتين «الشباب» و«الحوار الوطني»... وهما يشكّلان عنصرين أساسيين في بث روح التفاؤل والأمل بإمكانية إنقاذ الوطن من محنته، وبلسمة جراحاته، والنهوض به لبناء مستقبل يسوده السلام والمحبة والوئام.

وهل من سلام ووئام يمكن أن يسودا في أي مجتمع إنساني كان بغير ثقافة الحوار؟ ومن أحقّ برسم خطوط المستقبل الذي نرنو إليه وأقدر على إعلاء بنيانه، من

• كلمة وزيرة الثقافة التي ألقتها في افتتاح ندوة «الشباب والحوار الوطني» – في مكتبة الأسد في دمشق بتاريخ ٢٠١٣/٠٤/٢٨.

تلك النفوس المتّقدة طموحاً وحماساً، والسواعد الشابة القوية، والعقول المستنيرة المنفتحة، المسلّحة بأمضى سلاح، سلاح العلم، المحصّنة بالمعرفة والحسّ الوطني ضد كل أشكال التطرّف والإقصاء، المدركة لمخاطر الانغلاق والتعصّب، والتي ترنو لبناء مستقبل أفضل؟

أيُّها الحضور الكريم

لقد كان للأحداث المؤلمة التي تشهدها البلاد منذ عامين ونيّف أثر سلبيٌ بالغٌ على كافة مناحي الحياة. تضرر الاقتصاد الوطني وهُدّمت البنى التحتية ونُهب التراثُ الثقافي. لكن الأذى الأكبر هو ذاك الذي لحق بالإنسان، فقد اهتزّت منظومة القيم لدى البعض واستُبدلت بمفاهيمَ وأفكار وممارساتٍ غريبة عن أخلاقنا، بعيدةٍ كل البعد عن سُنن حياتنا وجوهر قيمنا.

ولعلّ شريحة الشباب كانت الأكثر تضرراً في هذه المحنة، بل لعلّها كانت الأكثر استهدافاً... فشبابنا هم الكوادر التي بُذِل الكثير لإعدادها... هم الطاقة الخلّاقة، والفكر المبدع، هم القلب الذي يضخّ الدم المتجدد في جسد الوطن... هم حاضره المشرق ومستقبله الواعد، والنيل منهم جسداً وفكراً إنَّما هو هدم لهذا الحاضر وتهديد للمستقبل بالفناء.

ولأنَّ الشباب ينبض عطاءً، ويشع طموحاً، فهو قادر على قلب المحنة منحة.

من هذا المنطلق، أقمنا ندوتنا هذه لتكون خطوة باتجاه دفع الحراك الثقافي نحو التفكّر في واقع الشباب وطموحاتهم ومدى امتلاكهم لثقافة الحوار، ودورهم المأمول في الحوار الوطني الذي سيؤسس لسورية المستقبل. كما نتمنى أن تتحوّل في جانب منها إلى منصة تتحاور فيها العقول وتتلاقى القلوب وتتصافح الأيدي.

أيَّتها الأخوات... أيُّها الأخوة

إذا كانت الثقافة، نتاجَ موروث من العادات والتقاليد، فإنَّها أيضاً ثمرةُ منظومة معرفية تبنى تراكمياً، وتنعكسُ ممارسةً وسلوكاً. وكلما تنوّعت مشاربها كلما اغتنت وازدادت عمقاً. وهي بالتالي تحمل في طياتها بذورَ الانفتاح على الآخر، وتقبّل الاختلاف وإيّاه، واستيعاب التنوع، بناءً للإنسان المدرك لحقيقة وجوده، المعتزّ بمنظومة قيمه، والحريص في آن معاً على القيام بمراجعة تقييمية تقويمية لأفكاره وسلوكه، تهذيباً للنفس وتصويباً للأفكار والممارسات وتصالحاً مع الذات والآخر.

إنّ الثقافة أحاديةَ اللون والصوت ثقافةٌ عقيمة، لا تنتج إلا نفسها ولا تسمع إلا صدى صوتها، ولا تثمر إلا ركوداً فكرياً وانغلاقاً على الذات. والفكر غير المتجدد يخبو مع الزمن ويؤول إلى التلاشي... لأنّ في الركود موتاً وفي التجديد شباباً وحياة.

واليوم نحن مدعوون أكثر من أي وقت مضى لتبنّي ثقافة الحوار، وتغليب الكلمة الطيبة الصادقة، والتحفيز على سلوك سُبل الخير والمحبة والتسامح. لكن الحوار حتى يكتب له النجاح ويؤتي أُكُله، لا بد أن ينبع من قناعة صادقة وإيمان راسخ بجدواه وبضرورة أن يكون قائماً على المساواة واحترام الرأي الآخر.

نعاود اليوم اللقاء التزاماً بعهد تعاهدنا عليه يوم التقينا في ندوة «الحوار الوطني من أجل سورية»، أن نستمر في جهودنا، وأن نفتح المنابر الحرّة لتبادل الرأي. نعاود اللقاء إدراكاً منَّا جميعاً للمخاطر التي تحيق بسورية إذا ما استمر نزف الدم فيها.. ولقناعتنا أنَّ الحوار الوطني هو سبيلنا الوحيد في المرحلة

القادمة للمّ الشمل والخروج سوية برؤى لما نريد جميعاً أن تكون عليه سورية المستقبل.

يمكن لندوتنا هذه أن تخرج بآراء وأفكار تفتح بعض الأبواب الموصدة، وتنير الطريق، وتعزز الأمل، وتسهم في رسم معالم مستقبل آمن مزدهر، في وطن الإخاء والمحبة....وطن يتّسع حضنه لكل أبنائه، يحمي حقوقهم ويصون كرامتهم ويعزز انتماءهم وشعورهم بالمواطنة في ظل دولة العدل والقانون.

ما زال في الوقت متسع، وما زال في الأفق أمل. لم يفت بعد أوان التلاقي. فلنتلاقى ولنتحاور.. ولنختلف حتى نعاود اللقاء، لقاء العقول والقلوب.. لقاء الأيدي المخلصة البنّاءة، الممدودة لإنقاذ هذا الوطن العظيم، وطن الأبجدية الأولى، والمدن الأقدم في التاريخ.

أشكر كلَّ من تكبّد عناءَ الحضور للمشاركة في هذه الندوة، وأخص بالشكر السادة الباحثين وكل من بذل جهداً في تنظيم هذه الندوة التي أتمنى لأعمالها كل النجاح.

❁ ❁ ❁

كلمة العدد

د. علي القيّم
رئيس التحرير

أوغـــاريت
والبحث عن نشأة الموسيقا

في عام ١٩٨٨م، صدرت الطبعة الأولى من كتابي «الموسيقا تاريخ وأثر» عن دار الشيخ في دمشق، وقمت فيه برصد تطور الآلات الموسيقية القديمة من خلال مكتشفات الآثار في بلاد الرافدين وسورية، وقد وجدت أنَّ للموسيقا في حضارتنا القديمة، تاريخاً طويلاً يمتد إلى أكثر من خمسة آلاف سنة مضت، وهذه الموسيقا، كانت الأصل الذي تطورت منه موسيقا شعوب العالم، وأصبحت تشكل تراثاً إنسانياً أكثر منها تراثاً محلياً، صنعته عبقرية أجدادنا، وقامت بتطويره من عصر إلى عصر، ومن جيل إلى جيل، وكانت في كل جيل تبدع آلة جديدة، أو تدخل تحسينات على آلة قديمة، فيشيع ذلك، وتتلقفه الأنامل وتشدو بوساطته الحناجر..

المواضيع التي طرحتها في هذا الكتاب الذي أعيد طباعته، كانت، ومازالت مثيرة للجدل، لأنَّ موضوع الموسيقا وآلاتها، وكيف نشأت وتطورت وانتشرت في

العالم، مازال مثار بحث ودراسة بين كثير من الباحثين والعلماء والمهتمين؛ لأنَّ قصة الموسيقا وآلاتها، على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلت، مازالت ضائعة بين ثنايا التاريخ القديم، ومخلّفات وآثار الإنسان القديم، وسبيلنا إلى معرفة ذلك يرتبط بالملاحظة والمقارنة والدراسة والتكهّن والاستنتاج، وتتبع مكتشفات مواقع الآثار.

السبب في صعوبة تفسير نشأة الموسيقا وآلاتها يعود إلى أن هذا الفن العريق، قد رافق الإنسان منذ بداياته الأولى، فهو قديم قدمه، وكان من مستلزمات حياته الفردية والاجتماعية وفي أفراحه وأتراحه وأعياده ومآتمه، ولهوه وعبادته، وجدّه وعبثه، وفي جميع أطوار عمره، من المهد إلى اللحد.. آخر الأبحاث تقول إن الموسيقا، نشأت في منازل السحرة، ومن موسيقا السحر ولد الغناء، وفن الإيقاع الموسيقي، فقد كان الإنسان البدائي يعتقد أنَّ للموسيقا قوة سحرية قاهرة، وأنَّ تأثيرها فعّال وقاطع، فكان يلجأ إليها ويستعين بها للتأثير على تلك الأرواح الشريرة، والأفكار المخيفة للتغلّب عليها، لذلك كانت له أناشيد خاصة، لكل مناسبة تتعلق بظاهرة معيّنة، ويعتقد بأنها تأتي بالمعجزات لقهر تلك الأرواح التي تخيفه وتقلق أفكاره وحياته..

لم تكن الموسيقا في البدء فنّاً أو علماً، بل كانت أصواتاً غير مهذبة، بلا قانون ولا قاعدة، وقد ارتقت وتطوّرت معه في كل أدوار حياته ورقيه وتطوره، وكانت مقياساً لحياته الفكرية والدينية والاجتماعية، لذلك فالباحث عن أصل الموسيقا، كالباحث عن أوّل ضاحك أو باكٍ في البشر، ومع ذلك يرى العلماء أنَّ الموسيقا مرّت في تطورها المبكر بمرحلتين:

- الأولى: هي موسيقا العصور «الباليوليتية» التي استمرت فترات طويلة جداً من الزمن، ومعظم هذه الموسيقا كانت عبارة عن غناء وتنغيم لصوت الإنسان..

- الثانية: التي تطورت في العصر الحجري الحديث المتأخر، وما تلاها في عصور أكثر حداثة في تاريخ الشرق القديم، وقد ازداد فيها الميل إلى التعبير الموسيقي باستخدام الآلات الموسيقية، التي تتراوح بين الآلات الوترية البسيطة، وآلات القرع كالطبول والجلاجل وغيرها، وكانت معرفة الإنسان للموسيقا من الإيقاع، فالإيقاع ضرب من النغم، وأصل النغم. ومنه بداية تكوّن الموسيقا..

❁ ❁ ❁

لقد اخترع الإنسان الآلات الموسيقية ليريح جسده من الرتابة، وقام بالمشاركة بين صوته وصوت الآلة، فتكوّن من ذلك انسجام جديد، وجاءت طقوس العبادة، والأديان لتقوّي فكرة التوافق الحركي والصوتي، ولتقوم بترسيخ حب الموسيقا والتعلّق بها، حيث أصبحت الموسيقا متممة لرسالة المعابد والهياكل، وأداة للتعبّد الجماعي، وبعث النشوة الروحية بين المتعبّدين، وقامت الموسيقا بدورها في تحريك الوجدان وتغذية المشاعر لإنسان عاش طويلاً في عصور العنف والقسوة والقوة الغاشمة، وصراع الطبيعة ومن خلال البحث والتقصّي والدراسة، ثبت أنّ الموسيقا في حضارتنا القديمة، كانت تشكّل جزءاً من الحياة، وعنصراً أساسياً في العبادة، فكان الإنسان، إذا فرغ من عمله اليومي يقوم بالاستمتاع بأنغام الموسيقا الهادئة الشجيّة، وكان في المعابد جوقات موسيقية، ومغنيات للآلهة، كما كان في القصور الملكيّة بعض الفرق المؤلفة من العازفين الذين يقومون بتقديم الوصلات والاحتفالات الخاصة في المناسبات المختلفة..

تبين الآثار المكتشفة في بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام، أن ميلاد الموسيقا، بمعنى الكلمة، قد عاصر ميلاد الدين، فهي قديمة قدمه، شاركته في أداء طقوسه التي يمثّل الغناء ركناً أساسياً فيها، ومن هذه الآثار ما يعود تاريخه إلى أكثر من خمسة آلاف سنة خلت، ومنها ما أخبرتنا عن فرقة للإنشاد الموسيقي كانت

موجودة في معبد «ننجرسو» الكبير في مدينة «لاغاش» الرافدية، حيث كان يقوم بتدريبها موسيقي على الغناء والعزف على الآلات الموسيقية، وكانت الفرقة مكوّنة من الرجال والنساء، وتسجل لنا الوثائق الأثرية أنَّ بعض المدارس الموسيقية قد ألحقت بالمعابد، وقد عثر المنقّبون على مجموعة من النصوص الدينية التي كانت تدرّس في معبد بل (إله الشمس ورب العدالة والعرافة)، ومن خلال قراءة الرُّقم المسمارية الكتابية التي وجدت في مملكة ماري السورية على الفرات الأوسط، قرب بلدة (البوكمال) تبيّن لنا أنّ الملكة «شيبتو» زوجة الملك «زيميري ليم» كانت تدير شؤون القصر الملكي، وتختار من الصبايا، من تراها جديرة بتعلّم العزف على الآلات الموسيقية في الألف الثاني قبل الميلاد، حيث كانت الموسيقا في ماري من الضروريّات الأساسية لاستكمال الثقافة العالية..

أمَّا عن الشعر الذي كان يرافق الغناء، فيرى الدكتور ثروت عكاشة في كتابه «الفن العراقي القديم»: «أن الشعر الغنائي القديم، كان يكتب من مقطع واحد، تصاحبه ميلودي صغيرة، محصورة في نطاق السلّم الموسيقي المعروف، آنذاك، وهو السلّم الخماسي المكوّن من خمس أنغام فقط في الأوكتاف، تلاه في مرحلة متأخرة نسبياً- السلّم السباعي.. وكانت الميلودية تصاغ في قوالب غنائية متعارف عليها، كما يصاغ الغناء الديني في قوالبه الخاصة: النشيد، والبكائيات، والصلاة، والضراعة، وكثيراً ما اشتملت الأغنية على مقاطع عدّة، تصاغ لكل منها ميلودية خاصة، ويتخللها فاصل موسيقي».

ويرى العالم «ميكابي» أن «مرثية» مدينة «نيبور» الرافدية كانت تصاغ في ست ميلوديات مختلفة تسهم في أدائها الطبلة والكاسات وآلة «الكنارة»، وكان قالب الدعاء في الصلاة أكثر القوالب شيوعاً، ويغلب عليه طابع الابتهال والتوسل.. ومن المؤكد أن التقاليد والعادات الموسيقية في حضارتنا القديمة، منذ الألف الثالث قبل الميلاد قد تطورت تطوراً كبيراً في العصور اللاحقة..

❁ ❁ ❁

من خلال تتبعي مسار تطور الموسيقا في حضاراتنا القديمة، وجدت أنّ الموسيقا في الحضارة السومرية في جنوب بلاد الرافدين كانت في البداية وسيلة من وسائل التقرّب من الآلهة، وكانت آلهة سومر متعجرفة، وسريعة الغضب، لأنها كانت تضجر من ضوضاء الناس ولا تحتمل ذلك، فكان السومريون يعزفون لها على آلات القيثارة (الكنارة) وغيرها، ويقومون بالغناء لتسكين غضبها، كما أن السومريين كانوا يعتقدون أن لآلهتهم طبيعة موسيقية.

ولعلّ الإلهة «إنانا» السومرية، وتقابلها «عشتار» عند البابليين كانت الناطقة باسم مجمع الآلهة في سومر، فهي تؤكد أن إله الحكمة «أنكي» أعطاها الآلة الموسيقية المدوّية، وأعطاها فن الغناء، كما أنّها كانت تحتضن السلم الموسيقي من أوّله إلى آخره، من خلال قولها: «أنا الوتر الأوّل.. أنا الوتر الأخير» وعشتار هنا تتحدث أيضاً عن «الأوكتاف» الموسيقي في السلّم السباعي، الذي يكون فيه الوتر الثامن تكراراً للوتر الأوّل.

و«الأوكتاف» يعني شيئاً له علاقة بالعدد ثمانية، وبمسافة الأوكتاف الذي أكدته عشتار: «أنا الوتر الأوّل.. أنا الوتر الأخير» حيث إنَّ الوتر الأخير هو الثامن، وهو تكرار للوتر الأوَّل بدرجة أعلى أو أخفض، بحسب الاتجاه، لأن السلّم الموسيقي كان في الحضارات السومرية والبابلية والأوغاريتية، سباعياً، وهذا يلتقي مع عدد أيام الأسبوع، وما أثبتته القراءات العديدة لأنشودة العبادة الأوغاريتية التي اكتشفت في مدينة أوغاريت على الساحل السوري، ويعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، والتي أكدت النظرية الموسيقية فيما يتعلّق بطبيعة السلالم الموسيقية، والمسافات الصوتية، وأن أقدمها وجد في هذه المدينة العريقة، ودحضت الخطأ العالمي الشائع الذي يقول بأنها تنسب إلى «فيثاغورث» اليوناني سنة ٥٠٠ق.م، والمشكوك في هويته، حيث يعتقد أنه من أصل سوري، فضلاً عن أن كلّ ما ينسب

إليه مقتبس من الشرق، حول هذا الموضوع يقول الباحث العراقي الأستاذ علي الشوك: «لقد حاول فنسنزو غاليلي (والد العالم غاليلو) الذي كان موسيقياً ضليعاً بفن الموسيقا، إعادة بعض التجارب التي تنسب إلى فيثاغورث، وتوصل إلى أنّها مشكوك في صحتها تماماً، لكن فيثاغورث بقي يُعتبر المنظّر الموسيقي الأوّل في التاريخ، وهذا افتئات على الحقيقة التاريخية».

في أسطورة الملك الأوغاريتي من القرن الرابع عشر قبل الميلاد، يطلب الملك من ابنته المساعدة في تقديم الأضحية قائلاً لها:

«خذي الدف بيدك..

والطنبور (العود) احضنيه

وقفي مكانك مع مغنيّات الملك

وقدّمي طلباتك على أنغام الموسيقا

فإنّ الرب سيصغي إليها..»

وفي أوغاريت وجدت آلات موسيقية، مثل صنجات مصنوعة من البرونز، وبوق عاجي، ودمية طينية لعازفة على الصنج يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، مما يثبت أهمية الموسيقا في حياة أوغاريت الدينية والثقافية والاجتماعية، فقد كان العزف على الآلات الموسيقية معروفاً، وكان صنّاع الموسيقا، يعرفون المسافات الموسيقية، التي تعد من أهم أركان القواعد في الموسيقا، فهي أساس تركيب السلم الموسيقي، وأساس علم الانسجام الصوتي (الهارموني) وتقابل الأصوات (الكونتربوانيت) وأهل أوغاريت عرفوا السلّم السباعي الدياتوني، الذي هو أصل السلم الموسيقي المعمول به حتى يومنا هذا، في شتى أرجاء العالم.

شعراء صعاليك.. لكنهم نبلاء

إبراهيم محمود الصغير*

الشعراء الصعاليك، أمراء الكلمة والبيان، وفرسان المعارك والقتال، وأنجم البيد المضيئة في الليالي المظلمة، وسحابة الخير والعطاء للبائسين والمعدمين، وشعلة الحرية وارفة الظلال، والمزهرة بالإنسانية، والمتدفقة بالمشاعر الصادقة والنابعة من قلوب تفيض بالصبر والعزم والجلد، إنَّهم طلائع الثائرين على قوانين المجتمع الظالمة، وعلى القبيلة وأعرافها وتقاليدها الجائرة، إنَّهم المتمردون ضد الظلم والاضطهاد، وضد الرق والعبودية، وضد التمايز والعنصرية.

* أديب وناقد سوري.

كان تمردهم بالكلمة والسيف، والنفور والابتعاد عن القبلية وعن المجتمع، واللجوء إلى حيث لا تطولهم أي سلطة ظالمة وجائرة بحقهم.

كان التجار وأصحاب الثروة في المدن، وهم قلة، يملكون كل شيء، في حين كانت الأكثرية لا تملك شيئاً، وكان حق التشريع محصوراً في أيديهم، فكانوا يسنون من الشرائع ما كان يوافق مصلحتهم، مثل (مكة)، ويستغلون الفقراء، الذين كانوا يعيشون في بيوت ومضارب حقيرة في شعاب البلدة وأطرافها البعيدة، وكانت (مكة) في الجاهلية حرماً مقدساً (لا ظلم ولا بغي فيها)، نظراً لوجود الكعبة فيها، فهي مدينة لها نظامها الاجتماعي، ولا تصلح أن تكون ميداناً لحركات الصعاليك المتمردين.

ومن هنا لم يجدوا مفراً من الخروج منها إلى البادية الواسعة حيث فوضى الحياة، وحيث طوائف المشردين، وقطاع الطرق، وذؤبان الصحراء، فإذا ما ضاقت بهم الحياة، فإنَّ طريق العودة إلى (مكة) ميسر، وأبواب البلد الحرام مفتوحة لكل لاجئ، أو خائف، أو طريد «من دخله كان آمناً، ومن أحدث في غيره من البلدان حدثاً ثم لجأ إليه فهو آمن إذا دخله».

ومن هنا نستطيع أن نفهم السر في كثرة الخلعاء من شتى القبائل فيها، واتخاذهم منها مركزاً يلتقون فيه آمنين على حياتهم في الطلب.

أمَّا في البادية العربية، حيث البعد عن النشاط التجاري، فإننا نجد صراعاً بين الفقر والغنى، فالمجتمع البدوي القبلي يتكون من طبقتين اقتصاديتين أساسيتين، طبقة أصحاب الإبل، وطبقة الصعاليك، وكانت ثروة الأفراد في المجتمع البدوي تقاس بمقدار ما يملكون من الإبل، وإلى جانب هذه الطبقة من أصحاب الإبل، وجدت طبقة من الصعاليك لا تكاد تملك شيئاً، أو كما يعبر عن ذلك بعض شعرائهم قائلاً:

وإني لأستحيي من الله أن أرى
أجرّر حبلاً ليس فيه بعيرُ

وكانت حياتهم بائسة حتى ليضطر بعضهم إلى قتل أولادهم خشية إملاق.

ومن هنا لم يكن أمام هؤلاء البدو الفقراء إلا أن يعملوا للأغنياء في الرعي وخدمة الإبل، أو يعينوا نساء الحي، على حد تعبير (عروة بن الورد) فإذا رفضت نفوسهم ممارسة هذه الأعمال المهينة، لم يكن أمامهم إلا الغزو والإغارة والنهب، محاولين أن يزيلوا هذا الحيف المقدر بالسيوف وأسنة الرماح، وكأنَّهم يتمثلون بقول (أبي ذر الغفاري) رضي الله عنه:

((**عجبت لمن لا يجد قوت يومه ولا يخرج إلى الناس شاهراً سيفه مطالباً بحقه!**)).

ويعرّف الدكتور (شوقي ضيف) الصعلوك فيقول:

«الصعلوك في اللغة هو الفقير الذي لا يملك من المال ما يعينه على أعباء الحياة، ولم تقف هذه اللفظة في الجاهلية عند دلالتها

اللغويــة الخالصة، فقــد أخذت تدل على من يتجردون للغارات وقطع الطريق» كما يعرّفها (محمــد مظلــوم) في (أناشيــد الصعاليــك) قائلاً:

«يبدأ التصعلك من أصل لغوي يعني الفقر، ليذهــب إلى مفهوم واسع من الافتقار المركب، والانكشــاف متعــدد المستويــات، فالصعلوك في معاجــم اللغــة: هــو الفقير الــذي لا مال له، وليســ له نسب يقويه، كمــا تنطوي كلمة الصعلــوك على معنى النبذ والانفراد، وكذلك تنطوي على دلالة العري والانكشاف، من حيث افتقــار الصعلوك إلى غطــاء جماعي، ففيما يتعلــق بالافتقار إلى النســب سنجد أنَّ حركة الصعاليــك، مــن طورها الأوَّل، قــد تأسست مــن أولئك الأفراد الذين كانوا يعانون افتقاراً من جانب نســب الأم، ويصح هذا على معظم الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي».

ويمكن أن نميز ثلاث فئات من الصعاليك في العصر الجاهلي:

مجموعــة من الخلعاء الذيــن تخلت عنهم قبائلهم لكثرة جرائرهــم، فأصبحوا منبوذين مطرودين بعد أن تــبرأت منهم قبائلهم، وكان الخلــع يتخذ صورة إعــلان رسمي يذاع على الناس في المواسم والأســواق، وهؤلاء الخلعاء كانوا يمــدون حركة الصعلكة بمجموعة كبيرة من صعاليك العرب.

والمجموعة الثانية هم من أبناء الحبشيات ممــن نبذهم آباؤهم مثل (السليك بن السلكة، وتأبط شــراً، والشنفــرى)، وكانــوا يشاركون أمهاتهم في سوادهــم فسموا (أغربة العرب)، وكانــوا يعاملون معاملة العبيــد، ويعملون في الرعي وخدمــة أسيادهم، وقد كان (عنترة بن شــداد) أحدهم، حيث كانــت أمه (زبيبة) أمة حبشية ســوداء، فعامله أبــوه (شداد) معاملة العبد، وجعله يعمل في رعي الإبل والأغنام، إلى أن استطاع أن يكســب حريته بشجاعته وحد سيفه، وأن يصبح من فرسان وسادة عبس.

أمَّا الجماعة الثالثة فهــم الذين احترفوا الصعلكة احترافاً، وكان ديدنهم النهب والسلب والإغارة علــى القبائل والقوافــل، وقد يكون الصعلــوك فرداً مثل (عروة بــن الورد) أو قد يكونون قبيلــة برمتها مثل (هذيــل) و(فهم)، اللتــين كانتا تنــزلان بالقرب مــن (مكة) و(الطائف).

لقد كانــت حركة الصعاليــك في العصر الجاهلي مظهراً من مظاهــر الاحتجاج على الفــوارق الاجتماعيــة في المجتمــع، وخاصة الظلــم الاجتماعي والتمييز اللوني، وكان هذا الاحتجــاج بالكلمة والســلاح، وهو تعبير عن الشعــور بالاضطهاد والعبوديــة، لذلك تمرد الصعاليــك على النظــام الاجتماعي للقبيلة وعلــى كل مــا يشمله مــن نظــم اقتصادية وفكريــة، وسعوا إلى تكوين بيئــة خاصة بهم، جسدت نزعتهم الاستقلالية، وكان (الأغربة) أشد الصعاليك ثــورة، وأكثرهم بطشاً وعنفاً، وأقربهم إلى حيــاة الذؤبان، لأنَّ آباءهم تخلوا

عنهم، وعاملوهم معاملة العبيد، فقط لأنَّهم أبناء حبشيات، وأنَّهم سود مثل أمهاتهم، فبأي حق يستعبد الآباء أبناءهم السود؟ إنَّهم يستنكرون ذلك، كما استنكره فيما بعد، الخليفة (عمر بن الخطاب) حين قال قولته المشهورة:

«متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟».

ولعلَّ (الأغربة) معذورون في اتخاذهم موقفاً عنيفاً وقاسياً من المجتمع، بسبب الظروف القاسية التي عانوا منها، وهم يختلفون عن بعض الصعاليك المعتدلين مثل (عروة بن الورد) وفي ذلك يقول الدكتور (يوسف خليف):

«إنَّ (عروة بن الورد) يمثل الجانب الإنساني في حركة الصعاليك، أمَّا (الشنفرى) وهو من (الأغربة) فيمثل الجانب الشيطاني منها».

وعلى العموم فإنَّ الصعاليك، خاصة في العصر الجاهلي، كانوا يتميزون بثلاث مزايا أصلية تكاد تنتظمهم جميعاً هي: الثورة على الظلم وطلب الحرية، والشجاعة في طلب الحق حتى تبلغ حد التهور، والكرم في مشاركة الأرامل والفقراء والأيتام، إلى حد إيثار الصعلوك الفقير أخاه الفقير بلقمة عيشه، تلك المشاركة التي تبدو لنا شكلاً من أشكال الاشتراكية في معناها القريب ولونها الساذج البسيط.

كان شعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ويمكن أن نطلق عليهم (الشعراء أو الصعاليك المؤسسين) والذين يمكن أن نتعرف على صفاتهم من خلال قصائدهم ومقطوعاتهم وأخبارهم في كتب التراث، كانوا فاتكين وعدائين، والافتخار سمة من سمات خطابهم الشعري، وهم (ذؤبان) يتلصصون على ذوي المال، ويصيخون السمع لأدق الأصوات وأبعدها في الفلوات، وأغلب هؤلاء الشعراء الصعاليك مات قتيلاً، بعد أن قتل من قتل، وقد تركوا بعد قتلهم نهباً للوحوش، أو فقدت آثارهم، أو جرى التمثيل بهم، وهي ميتة كان العديد من الصعاليك يتوقعونها لأنفسهم، بل ويسعون إليها بخطواتهم السريعة.

أمَّا طرق معيشتهم، فكانت تنحصر كلها بالسلب والنهب والغارات ليلاً، والتلصص بخفة ورشاقة، فكانوا يروعون النساء والأطفال، ويبلبلون عقول الرجال، حتى إذا خافوا الخيل أن تدركهم، اتجهوا نحو الجبال المنيعة، والأودية الوعرة، والأدغال الموحشة، فتغلغلوا فيها، وقد روى الرواة عن (الأغربة) كثيراً من أخبارهم وغاراتهم، إلى حد أن امتزجت فيها الحقيقة بالخيال، واختلط التاريخ بالأسطورة.

ونلاحظ في شعر الصعاليك، في العصر الجاهلي، أنَّه شعر مقطوعات، والتي خرجوا فيها على بعض القيم الفنية والفكرية السائدة في القصيدة الجاهلية تعبيراً عن نقمتهم على أعراف المجتمع وتقاليده، فطبعت رغباتهم،

في الثورة على المجتمع، أشعارهم بسمات ثورية تلائم قلقهم النفسي، والثورة القابعة في أعماقهم، وفقدانهم حس الانتماء إلى القبيلة وقيمها، فتخلصوا من الوقفات الطللية، والمقدمات الغزلية، التي عرفها الشعر الجاهلي، وتخلوا عن التصريح، وتجلت في أشعارهم الروح الفردية، وتحللوا من الأغراض الشعرية الأخرى المباشرة، سواء في مضمونها أو في صيغتها الفنية، فبرز ما نقلوه من الطبيعة القاسية، وما صوروه من شدة فتكهم وبطشهم، وغلب النهج القصصي البسيط على مقطوعاتهم، لاهتمامهم بسرد غاراتهم ومغامراتهم، والحوادث التي مروا بها.

وغصت أشعارهم بكل ما هو وحشي وفطري ودموي، فاتسمت صيغهم الفنية بالتهويل والمبالغة، والخوارق، وطبعت ألفاظهم وصورهم بالقسوة والغلظة والجفاف، على أنَّ أبرز ما في شعرهم هو ظاهرة الوحدة الموضوعية، فالقصائد لها موضوع واحد، باستثناء قصائد معدودة، وهناك ظاهرة أخرى في شعرهم هي الواقعية والصدق، واقعية اللغة الأدبية، وصدق التعبير عن الذات، وغرابة اللفظ، لذلك يندر في شعرهم المدح، لأنَّ في المدح كذباً ومبالغة وإسباغ صفات حميدة على الممدوح قد لا تكون فيه، وابتعدوا عن المستهل الطللي، الذي اتبعه الشعراء الجاهليون، وأصبح لهم مستهل آخر مختلف، وهو مستهل سفر ورحيل ووحشة، يتجه نحو مخاطبة نسائهم خطاباً تفنيدياً مثل (دعيني أسعى، دعيني أسافر، دعيني أطوف، دعيني أجوب..)، وبينما كان شعراء المعلقات، مثلاً، يبحثون عن نسائهم، ويقتفون آثارهن، كان الشعراء الصعاليك في هجران دائم لنسائهم، ونكران مستمر لديارهم، وكانوا يشدّون من سفر إلى سفر، ومن غارة إلى أخرى.

لقد شكلت أشعار الصعاليك من خلال ما حملته من سمات فكرية، ظاهرة جديدة في الشعر الجاهلي، أغنته بنقل تجارب نفسية ومادية خاصة بحياة الصعاليك، وفارقته في النظرة إلى العدالة الاجتماعية، ومظاهرها القبلية، وبقي هذا الموضوع يتطور مع العصور كلها.

ولم تتوقف حركة الصعلكة عند العصر الجاهلي فقط، وإنما امتدت لتشمل صدر الإسلام ثم العصر الأموي، وبعدها العصر العباسي، ويقول الدكتور (حسين عطوان) في هذا الموضوع:

«تضاءلت حركة الصعلكة في صدر الإسلام، وقل عدد الصعاليك، لأنَّ الإسلام وضع الحلول لكل المشكلات التي صادفت الصعاليك في العصر الجاهلي، وحملتهم على الثورة والتمرد، ولكن ظهرت حركة الصعاليك بوضوح في العصر الأموي، وكانت نتيجة لعوامل عدّة أنشأتها وعملت على ظهورها واستمرارها، إذ استشعر الصعاليك الظلم الاقتصادي، الذي أوقعته عليهم وعلى قبائلهم سياسة بني أمية،

فثـــاروا لدفع الظلم، والمحافظـــة على كيانهم وعزتهم وكسب أقواتهم».

وتحولـــت المواجهـــة مابـــين الصعاليـــك والقبيلـــة إلى مواجهة بين الصعاليك والدولة، فهـــم الآن أعداء الدولـــة ونظمها، وهم كذلك سجناء تلك النظـــم الجديدة، أما الموضوعات الجديدة التـــي طرحوها فأشهرهـــا وصفهم لحياة السجـــون وحراسها وعقابهـــا، وأدوات التعذيب بهـــا، ووسائله، ومن يقومون بتنفيذه، ومنهـــا الحنين إلى الاستقـــرار، والتخلص من حياة التشرد والبعد عن أوطانهم وأهلهم، كما كثرت قصائد التوبة والعودة إلى قطع الطرق، وأنتجت هذه الحقبة، داخـــل الطبقة نفسها، مجموعـــة من الشعـــراء الخلعـــاء الطريدين، ورواد العـــزلات البعيدة، والهاربين من السجن البشري الكبير، ولغة هؤلاء لغة وحشية متأتية من حياة الانفراد والعزلة، ومعاشرة الحيوانات البرية، والمكابدات الطويلة في يوميات القسوة والتأمـــل في الطبيعة، وانقطاعهـــم عن حياة الدعة والرفاهية.

وفي هذه الحقبـــة أيضاً، تحـــول الشاعر الصعلـــوك مـــن نابـــذ ومنشـــق في العصـــر الجاهلـــي، إلى منبـــوذ ومنفـــي، أو طريد أو سجين في العصرين الإسلامي والأموي، فبعد أن كان يوصف، في مرويات الأقدمين، بالفاتك والشجاع والمـــارد وسواها من أوصاف تنطوي علـــى مناقبية واضحـــة، تحـــول في مدونات معاصريه من النقـــاد والمؤرخين، إلى مستودع لدلالات المثالب واللمز.

وقـــد كتب الشعـــراء الصعاليـــك في هذه الحقبة، أشعـــاراً تصور هـــذا التحول، وتعبر عنه بلغة أخرى مختلفة، وبمحتوى يكشف هذا العـــري الجديد، حيث غـــدوا لصوصاً سجناء مطروديـــن، أو ينوءون بأثقالهـــم وقيودهم في السجون، بعد أن كانوا يطلقون سيقانهم للريح، ويسابقـــون الظلال بحرية ورشاقـــة، وصاروا يعيشون بأسماء غريبة، وكنى وحشية مستعارة من وحشتهم.

أمَّا الصعاليك في العصر العباسي، فيقول عنهـــم (محمد مظلوم) في مقدمتـــه لـ (أشعار الصعاليك):

«أمَّا في العصر العباســـي، حيث أصبحت الدولـــة إمبراطوريـــة مترامیـــة الأطـــراف، وتداخلت فيها الثقافات، انعكست تأثيرات هذا التحول على صورة الصعلوك، فتأثرت جماعة الصعاليـــك بها، وأدخلـــوا جرعات جديدة في أنماط سلوكهم وتنظيمهـــم، وفي هذه المرحلة كان أغلب الصعاليك من الموالي، أي من رعايا البلـــدان التي دخلت في الإسلام، وبهذا عادت عقدة النســـب إلى الظهور من جديد في شكل آخر.

صار الصعاليك من (المكدّين) أي المتسولين، ويعرفـــون بـ (بني ساســـان)، وهي كنية لا تدل علـــى الانتماء العرقـــي، وإنَّما علـــى انتساب ثقـــافي واجتماعـــي، وبعد أن كانـــوا يوجهون

سلاحهم نحو الآخريــن لاستحصال أرزاقهم، صاروا يبسطون اليد لا للأخذ والعطاء، وإنَّما للاستعطاء، وبطقوســ فقر تصل إلى مستوى ابتداع الحيل واستدرار العطف، ولعل التحول الجديــد في هويتهم يلخصــه شاعرهم الأبرز (الأحنف العكبري):

هم الصعاليك إلا أنَّهم عدلوا
عن السلاح إلى الأخبار والنتف

وإذا كان مصطلح الفتك مرتبطاً بشخصية الصعلــوك في الجاهليــة، واللصــ والطريد في العصــر الأموي فــإنَّ الصعلوك في العصر العباســي أصبح عيــاراً، أو متطفلاً، بل حتى متسولاً، وهــو ما أوجد تعريفــاً أدبياً جديداً للشعراء الصعاليك، الذيــن صاروا يُعرفون بـ (الشعراء المكدّين)، وصــار التسول، والعيارة، والشطارة، هي الصفة الجديدة التي يستر بها هــؤلاء الصعاليك عريهم عبر تحولات الزمن، وفي مواجهة حالات التبدل الاجتماعي، والتغير المدني، بعــد أن تكفــل نشوء الدولــة، وقيام الإمبراطورية بإنجاز ترويض أولئك (الذؤبان) واتصفت مضامــين أشعارهم في هذه المرحلة بالتهكــم بسخرية سوداء، والهجــاء الظريف على الذات الجمعية، وعلى أنفسهم وحضر في قصائدهم التعري من البلاغة، ونبذ الديباجة الفخمــة، بما يتناسب مــع الحالة الرثة، التي كانــوا يعيشونهــا، فهوية الصعاليــك إذاً هي هوية متشظيــة، وطبقــات شعرائهم متحولة مع العصور، أمــا تاريخهم فهو تاريخ الخروج الدائم عن الطاعة عبر الحقب».

لقد كانــت حركــة الصعلكــة، في جميع مراحلها، مظهراً مــن مظاهر الاحتجاج على الفوارق الاجتماعية في المجتمع، وهو احتجاج، كما ذكرنا سابقاً، بالكلمة والسلاح، غير أنها لم تتخذ طابعاً جماهيرياً واسعاً ومنظماً ليكتب لها النجــاح، وهي مع ما حملته من أمل في تحرير الإنسان من الظلــم، لم تخل من مواقف سلبية تجلت في كــره شعرائها للمجتمــع وانعزالهم عنه، وحقدهم على الناســ والتماسهم حلولاً غير مجدية في حل مشكلتهم الاجتماعية.

ولكن، وبشكل عام، كان للشعراء الصعاليك أثرهــم في المجتمــع العربــي، مــن الناحية الإنسانيــة والثقافيــة والأدبيــة، إذ أصبحت قصائدهــم تتــداول بين الناســ، وقصصهم وأخبارهم تروى في كل المجالس والأمكنة، وقد اكتسبــوا إعجاب الناســ ومحبتهم وتقديرهم لسمــو أخلاقهــم، ونبــل أفعالهــم، وإنسانية مشاعرهــم، ولشجاعتهم الفائقــة وبسالتهم النادرة، وصبرهم العظيم على المكاره والنوائب، ولصفاتهــم وعاداتهم الفردية والخارقة، حتى نسجت حولهــم بعض الأساطــير والقصص الخياليــة، وحتــى وصل تأثيرهــم أيضاً، كما يكتب بعضــ النقاد، إلى الشعــراء الأوروبيين في العصور الوسطى (شعراء التروبادور) وهم الشعراء والمغنون الذيــن كانوا يجوبون البلاد ينشرون فيها قصائدهــم وأغانيهم بمصاحبة قيثاراتهم.

ومن منا لم يعجب بإنسانية وشاعرية (عروة بن الورد)، ذلك الشاعر والفارس، الذي اتخذ من صعلكته باباً من أبواب المروءة والتعاون الاجتماعي، يقتضي الأغنياء رزقه بحد السيف، ويجمع إليه نفراً من الفقراء الصعاليك من أبناء قبيلته، يوزع عليهم الغنائم في غاراته بالعدل.

حتى عرف بـ (أبي الصعاليك) أو بـ (عروة الصعاليك) وكان جواداً وكريماً وهو الذي يقول:

وإني امرؤٌ عافى إنائي شركة
وأنت امرؤ عافى إنائك واحد
أفرّق جسمي في جسوم كثيرة
وأحسو قراح الماء والماء بارد

ويعد شعر (عروة) أجلى صورة لنموذج الصعلوك في عصره الذهبي، وتمثيلاً فصيحاً لنزعة المشاعية لدى جماعة الصعاليك، لذا يهاجم البخل قائلاً:

وقد علمت سُليمى أن رأيي
ورأي البخل مختلف شتيت
وأني لا يريني البخل رأياً
سواء إن عطشت وإن رويت

حتى (الأغربة) من الصعاليك، الذين عرفوا بالقسوة والفتك، كانت نفوسهم تختزن الكثير من الرقة والشاعرية، والروح الإنسانية، ولا عجب في ذلك فهم شعراء، والشعراء رقيقو الحس ومرهفو المشاعر، وجياشو العواطف، فهذا (الشنفرى) الصعلوك القاتل، يرسم صورة إنسانية رائعة لأرملة تطعم أولادها، وهي تحاول أن تقلل من الطعام خوفاً من أن لا يبقى ما تطعمهم إياه فيما بعد، وهي مهما حاولت فسيبقى أولادها جياعاً:

وأم عيال قد شهدت تقوتهم
إذا أطعمتهم أوتحت وأقلّت
تخاف علينا العيل إن هي أكثرت
ونحن جياع، أي آل تألّت

كما يصف الصعلوك حياته وصفاً دقيقاً بقوله:

أنا السمع الأزلّ فلا أبالي
ولو صعبت شناخيب العقاب
ولا ظمأ يؤخّرني وحر
ولا خمص يقصّر من طلاب

فهو يقول أنه كالذئب السريع فلا يبالي إذا كانت الطرق صعبة إلى رؤوس الجبال، وأنه لا الظمأ ولا الحر ولا الجوع يعيقه عن طلب الرزق.

وهذا الشاعر (تأبط شراً) واسمه (ثابت ابن جابر) ولقب تأبط شراً لأنه كان يضع سيفه وقيل خنجره، وقيل أيضاً سهامه وقوسه تحت إبطه، لذلك لقب تأبط شراً، وكان فارساً فاتكاً ومن أغربة الصعاليك. عرض عليه أحد الرجال أن يشتري اسمه ليخيف به الناس، ويعطيه فوق ذلك كنيته، فقال (تأبط شراً) مفتخراً بنفسه وساخراً من الرجل:

فهبه تسمى اسمي وسمّاني اسمه
فأين له صبري على معظم الخطب؟
وأيــن لـه بـأس كبـأسـي وسـورتـي
وأيــن لـه في كـل فـادحـة قـلبـي؟

كما يصــف نفسه أيضاً بقلة التشكي أمام الأمور الخطــيرة، وأنه كثير الأهــواء ومتعدد السفر وأنــه يسبق الرياح بسرعته الخارقة في الجري:

قـلـيـل الـتـشـكـي لـلـمـهـم يـصـيـبـه
كثير الهوى، شتى النوى والمسالك
ويسبق وفد الريح من حيث ينتحي
بمـنـخـرق مـن شـدة المـتـدارك

أما (السليك بن السلكــة) وهو من أغربة الصعاليــك، وكان شاعراً فاتكاً، كما كانت أمه شاعرة أيضاً، وهــو أحد العدّائين وبه يضرب المثل (أعدى من السليك) وهو يقول عن نفسه أنه لم يحظ بالغنائم إلا بعد أن تصعلك طويلاً وجابــه الموت، وأنه قد قاسى الجوع حتى غدا يدور في الظلام من شدة الجوع:

ومـا نلتها حتى تصعلكت حقبة
وكــدت لأسـبـاب المـنـيـة أُعــرف
وحتى رأيت الجوع بالصيف ضرّني
إذا قمت تغشاني ظلال فأسدف

ويقول لإحداهن معاتباً بأنه ربّي على فعل الرجال الكرام الجميلين:

فـإنــي يـا ابـنـة الأقــوام أربــي
على فعل الوضيء من الرجال

وكذلك الشاعر الصعلوك (عمر بن برّاقة) واسمه (عمرو بن منبّــه) وكان فارساً صعلوكاً وثالث ثلاثــة (تأبط شراً والشنفرى) في أخبار كثيرة وغزوات مشهورة، وكان عداءً أيضاً، وقد أدرك الإسلام وأسلم وهو شيخ أعرج.

يقول (عمرو بن براقة) يخاطب إحداهن، عندمــا نصحتــه أن لا يذهــب في طلب المال الــذي اغتصبه منه بعضهم، وذلك خوفاً عليه من القتل:

تـقـول سـلـيـمـى لا تـعـرض لـتـلـفـة
ولـيـلـك عـن لـيـل الـصـعـالـيـك نـائـم
ألم تعلمي أن الصعاليك نومهم
قـلـيـل إذا نـام الـخـلـيّ المـسـالـم؟
متى تجمع القلب الذكي وصارماً
وأنـفـاً أبـيـاً تجـتـنـبـك المـظـالـم
ومـن يـطـلـب المـال المـمـنّـع بـالـقـنـا
يـعـش مُـثـريـاً أو تـخـتـرمـه المـخـارم

ويقــول أيضاً، واصفاً إبــاءه ونبله وترفعه عن الصغائر، وهاجياً رجلاً تعرض له:

ومـا هـو لي نـد فـأشـتـم عـرضـه
ولا هـو لي عـبـد فـأبـطـش بـالـعـبـد

أمَّا الشعراء الصعاليك في العهد الإسلامي وعهد بني أميــة، فجل شعرهم ثــورة عارمة ضد البؤس والفقر والظلم والواقع المؤلم الذي يعيشــون فيه، كمــا يختلط شعرهــم بالفخر والاعتزاز بالذات، وعدم تقبل الضيم، والصبر على المكاره والمحن، فهذا الشاعر (أبو خراش الهذلي) وهو شاعر مخضرم، نشأ في الجاهلية،

وأدرك الإسلام فأسلم، ومات في خلافة (عمر بن الخطاب).

يقول (أبو خراش) أنه يصبّر نفسه على الجوع، ويوفّر الزاد لأولاده ولا أن يحيا بمهانة وذلة:

وإني لأثوي الجوع حتى يملّني
فيذهب لم يدنس ثيابي ولا جرمي
أرد شجاع البطن قد تعلمينه
وأوثر غيري من عيالك بالطعم
مخافة أن أحيا برغم وذلة
وللموت خير من حياة على رغم

كما يفتخر بنفسه قائلاً:

وإني لأهدي القوم في ليلة الدُّجى
وأرمي إذا ما قيل: هل من فتى يرمي؟

وهناك شاعر آخر شبيه بـ (أبي خراش الهذلي) هو الشاعر (أبو النشناش النهشلي) وهو شاعر صعلوك في عصر (مروان بن الحكم)، وكان يعترض القوافل بين الحجاز والشام فيسلبها، فحكم عليه بالسجن، ولكنه تمكن من الفرار، يكاد مذهبه في التشرد وشعره يشبهان إلى حد بعيد مذهب الصعاليك في الجاهلية وشعرهم، وهو ثائر على حياة الفقر وتنكر الأقرباء له، ويفضل الموت أو الحياة في البراري ولا أن يطلب العون والمساعدة من الأقارب والأصدقاء الكارهين له، لذلك يقول:

وسائلة: أين الرحيل؟ وسائل
ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه؟
مذاهبه أن الفجاج عريضة
إذا ضنّ عنه بالنوال أقاربه
فللموت خير للفتى من حياته
فقيراً، ومن مولى تدب عقاربه
ولم أر مثل الهمِّ ضاجعة الفتى
ولا كسواد الليل أخفق طالبه

ومن الشعراء الصعاليك في العصر الأموي، أيضاً، (مالك بن الرّيب) الذي اشتهر بقصيدته التي يرثي فيها نفسه، وكان لصاً وقاطع طريق في بادية البصرة، وكان متزعماً لمجموعة من الصعاليك.

إلا أنه تاب والتحق بجيش (سعيد بن عثمان بن عفان) المتجه للغزو والفتح في بلاد فارس، وقد مات في (مرو) ودفن هناك، ومن قصيدته التي يرثي فيها نفسه:

ألم ترني بعت الضلالة بالهدى
وأصبحت في جيش ابن عفان غازيا
تذكرت من يبكي عليّ فلم أجد
سوى السيف والرمح الرُديني باكيا
وأشقر محبوك يجر عنانه
إلى الماء لم يترك له الموت ساقيا
وقد كنت عَطَّافاً إذا الخيل أدبرت
سريعاً إلى الهيجا إلى من دعانيا
وقد كنت صبّاراً على القرن في الوغى
ثقيلاً على الأعداء غضباً لسانيا

ويظهر (مالك بن الريب) إيمانه بالله وقضائه وهو ينصح ابنته قائلاً:

ليس شيء يشاؤه ذو المعالي
بعزيز عليه فادعي المجيبا
ودعي أن تقطعي الآن قلبي
أو تريني في رحلتي تعذيبا
أنا في قبضة الإله إذا كنـ
ـت بعيداً أو كنت منك قريبا

وهناك الشاعر (الأحيمر السعدي) وكان من الصعاليك، وعاش بين الدولتين الأموية والعباسية، طرده أهله لكثرة جناياته، فراح يقطع طريق القوافل، فطلبه والي البصرة فهرب إلى الفلوات، وصاحب الوحوش، ليس قصيدة واحدة شهيرة يصف فيها ألفته للحيوانات ونفوره من الناس، كما يشكو الفقر والبؤس وفيها هذه الأبيات:

عوى الذئب فاستأنست
بالذئب إذا عوى
وصوّت إنسان فكدت أطير
يرى الله أني للأنيس لكاره
وتبغضهم لي مقلة وضمير
وإني لأستحيي من الله أن أرى
أجرّر حبلاً ليس فيه بعير
وأن أسأل المرء اللئيم بعيره
وبعران ربي في البلاد كثير

وله بيت مفرد جميل وطريف يقول فيه:

نهق الحمار فقلت أيمن طائر
إن الحمار من التجار قريب

ومعنى البيت: أنه يستبشر بصوت الحمار إذا نهق، لأنه يشير إلى أنَّ التجار باتوا قريبين ليغير عليهم ويسلبهم.

أمَّا الصعاليك في العصر العباسي فقد غلب على شعرهم، كما مرَّ معنا، التهكم بسخرية سوداء والهجاء الظريف، ووصف البؤس والفقر والحالة الرثة التي يعيشون فيها، وذلك بشكل فكاهي وطريف، فهذا الشاعر (أبو الشمقمق) واسمه (مروان بن محمد) وهو شاعر من الموالي، أصله من (خراسان)، و (أبو الشمقمق وكنيته تعني الطويل) كان صعلوكاً ظريفاً متبرماً وذا لسان لاذع وساخر، وعن سوء حظه يقول:

لو ركبت البحار صارت فجاجاً
لا ترى في متونها أمواجا
ولو أني وضعت ياقوتة حمراء
في راحتي لصارت زجاجا

ويصف بؤس حاله، وفقره المدقع قائلاً:

أنا في حال تعالى الله ربي أي حال
ليس لي شيء إذا قيل لمن ذا؟ قلت: ذا لي
ولقد أهزلت حتى
محت الشمس خيالي
ولقد أفلست حتى حلَّ أكلي لعيالي

كما يقول ساخراً من نفسه، ولكن سخرية سوداء تدل على بؤسه وفقره:

أنا من زوار بيتي
وأنا ضيف لنفسي
أشتري في كل يوم
حزمة البقل بفلس

وإذا ما ذقت خلاً
كان من أيام عرسي

ومثله أيضاً الشاعر الصعلوك (جحظة البرمكي) ويعود نسبه إلى (يحيى بن خالد البرمكي)، أجداده البرامكة، وقد نكل بهم (هارون الرشيد) بعد عز وسيادة، فعاش فقيراً معدماً، وكان في شعره ظرف وتهكم أسود، ولغة متقشفة بلاغياً، وذات نكهة سوريالية غير معهودة في الشعر العربي، وهو يشكو الدهر الذي يشقيه ويتعبه قائلاً:

يطول عليّ الليل حتى أمله
فأجلس والنوام في غفلة عني
فلا أنا بالراضي من الدهر فعله
ولا الدهر يرضى بالذي ناله مني

وهو يحيا بثياب بسيطة أشبه ما تكون بثياب الإحرام:

وقائلة لي: كيف حالك بعدنا
أفي ثوب مثر أنت أم ثوب مقتر؟
فقلت لها لا تسأليني فإنني
أروح وأغدو في حرام مقتّر

كما يقول عن الدقيق:

إلا الدقيق فإنه قوت لنا
فإذا غلا يوماً فقد نزل البلا

أمَّا (الأحنف العُكبري) واسمه (أبو الحسن عقيل بن محمد العكبري) ولد في (عكبر) قرب مدينة (الدجيل) شمال (بغداد) ولقب بالأحنف لأنه كان أعرج، وهو شاعر المكدّين وظريفهم، وظريف الجملة كما وصفه (الثعالبي)، مارس قراءة الطالع والتنجيم كجزء من ضرورات الحياة الصعبة، التي كان يعيشها، وكانت أشعاره شكوى في القلة، وتذمراً من الذلة، وإشادة بالعزلة، وكان يغلب عليه التشاؤم، حيث يقول:

وأحلم في المنام بكل خير
فأصبح لا أراه ولا يراني
ولو أبصرت شراً في منامي
لقيت الشر من قبل الأذان

وكثيراً ما يتذمر من عيشته وفقره، وعدم امتلاكه بيتاً، مع أن للعنكبوت بيتاً وللخنفساء بيتاً، إلا هو لا يملك بيتاً، لذلك يقول:

العنكبوت بنت بيتاً على وهن
تأوي إليه وما لي مثله وطن
والخنفساء لها من جنسها سكن
وليس لي منهما إلف ولا سكن

ثم يبدي تشاؤمه، وعدم اكتراثه بالحياة، لوصوله إلى حد اليأس، وركونه إلى سوء حظه:

ما أبالي بأي أرض حللت
إنني حيثما سقطت لقطت
سائح بالنهار حتى إذا الليـ
ـل بدا دجنه نفخت ونمت
راحتي قصعتي وبطني جرابي
وبجلدي عن الثياب قنعت

ومع أنَّه من الشعراء المميزين في وقته، إلا أنَّ شعره لم يغنه شيئاً، ولم يفده بشيء، وظل فقيراً يحلم بالدقيق، وفي ذلك يقول:

رأيــت الشعـر لا يغـني فتيلاً
إذا مـا البيـت أعــوزه الدقيـق
إذا فُقـد الدقيـق فقـدت عقلي
ويبقى العقل ما بقي الدقيق

ونأتــي إلى شاعــر صعلوك آخر هــو (أبو دُلــف الخزرجي الينبوعــي) واسمه (مسعر بن مهلهل) وهو شاعر عباسي «كثير الملح والظرف، مشحوذ المديــة في الجدية، خنــق التسعين في الإطراب والاغتراب، وركوب الأسفار الصعاب، وضــرب صفحة المحراب بالجــراب، في خدمة العلوم والآداب، وفي تدويخه البلاد» كما وصفه (الثعالبي) في يتيمته، له قصيدة مشهورة تعرف (الساسانيــة) تلخصــ تجربــة الصعاليك في العصر العباسي، وهــي تعارض قصيدة شبيهة لها (للأحنف العكــبري)، وفي مقطوعة شعرية صغيرة له، يتكلم عن اللحم فيقول:

تـركـت الـلـحـم لـلإفـلاس والـدشـة والـضـيـق
فـقـالـوا بـل تـثـوبـون بـظـن غـير تحـقـيـق
ولـو مـرّ بـنـا (مـانــي) أكـلـنـاه عـلـى الـريـق

و(ماني) هــو مؤسس الديانة المانوية، ومن تعاليمهــا تحريم الذبــح وأكل اللحــوم. ومن قصيدة طويلة له، يقول عن تجربته الأليمة في الحياة وبؤسها وشقائها:

ألا إني حلبت الدهر من شطر إلى شطر
وجبت الأرض حتى صرت في التطواف كالخضر
وللغربة في الحر فعال النار في التبر
وما عيش الفتى إلا كحال المد والجزر

كمــا أن له فلسفة خاصة في الحياة، حيث يقول:

ويــحــك هــذا الــزمــان زور
فــلا يــغــرنــك الــغــرور
لا تــلــتــزم حــالــة ولــكــن
در بــالــلــيــالي كــمــا تــدور

وأخــيراً، لا يسعنا إلا الاكتفــاء بما ذكرناه، وكان بودنا أن نذكر جميع الشعراء الصعاليك في المراحل الثلاث، الجاهلية، والأموية، والعباسية، وأن نذكر شيئاً من أخبارهم وأشعارهم ولكن هذا يستحيل في مثل هذه المقالة، لذلك اكتفينا بذكر بعضهــم في كل مرحلة مع نمــاذج من شعرهم، آملين أن نكون قــد وفقنا في إعطاء لمحة عامة عن الشعراء الصعاليك وعن شعرهم في المراحل الثلاث خلال التاريخ.

المصادر والمراجع

١- الجامع في تاريخ الأدب العربي-حنا الفاخوري- دار الجليل- بيروت-ط١- ١٩٨٦م.
٢- تاريخ الأدب الجاهلي- شوقي ضيف- دار المعارض- القاهرة- ط٨ - ١٩٩٦م.
٣- اللاميتان- أعدها وعلق عليها عبد المعين ملوحي- وزارة الثقافة- دمشق-١٩٦٦م.
٤- أناشيد الصعاليك - اختارها وقدم لها محمد مظلوم وكتاب في جريدة -العدد/١٥٣/-دمشق- أيار ٢٠١١م.
٥- ديوان الشنفرى-جمع وتحقيق وشرح إميل بديع يعقوب- دار الكتاب العربي- بيروت- ط٢- ١٩٩٦م.
٦- الادب العربي والنصوص -الصف الاول الثانوي- وزارة التربية - دمشق -٢٠٠٩م.
٧- اللغة العربية وآدابها- الصف الأوَّل الثانوي- وزارة التربية-دمشق- ٢٠١١م.

سليمان العيسى وأدب الرحلة

د. ملكة أبيض ❁

-١-

هذا العنوان يثير تساؤلات عدة، أولها:

هل تضمنت كتابات سليمان العيسى مؤلفات أو نصوصاً في أدب الرحلات؟

والجواب أنَّ النتاج الغزير للشاعر يضم مؤلفاً كاملاً تدور موضوعاته حول عدد من الرحلات التي قام بها معي أو بمفرده. كما أنَّ لديه نصوصاً متناثرة في العديد من دواوينه التي صدرت في نهاية القرن الماضي وبداية هذا القرن تتناول هذه الموضوعات.

أمَّا المؤلَّف الذي خصه بالرحلات فهو: **مدن وأسفار**، صدر عن الهيئة العامة للكتاب،٢٠٠٩م؛ وأمَّا الدواوين التي تضم، فيما تضم، نصوصاً حول رحلاته، فهي:

١- **الأعمال الشعرية**، (٥) مجلدات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٥ -١٩٩٦م، ولاسيما في المجلدين الأخيرين.

٢- **كتاب الحنين**، الهيئة العامة للكتاب، دمشق، ٢٠٠٥م.

٣- **الديوان الضاحك موجزاً**، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٩م.

٤- **ديوان العراق**، اتحاد الكتَّاب العرب، دمشق،٢٠١٠م.

٥- **السفر الجميل**، دار جداول، بيروت، ٢٠١١م.

❁ أديبة ومترجمة وأستاذة التربية في الجامعات العربية.

٦- **دفتر النثر**، دار جداول، بيروت، ٢٠١٢م.

٧- **النعيرية قريتي**، اتحاد الكتَّاب العرب، دمشق، ٢٠١٢م.

ومن هذه النصوص ما يتحدث عن رحلات قريبة العهد، ومنها ما يعود إلى فترات سابقة، وحتى إلى مرحلة الطفولة.

والواقع أنَّ الشاعر قرر -بعد نكسة حزيران- أن يتجه بنتاجه إلى الصغار ويسهم في تنشئتهم، وهذا ما جسَّده الأدب الذي كتبه للأطفال. كما رأى أن يفتح نافذة يطلّ منها على ذاته في تأملاته مع نفسه وعلاقاته بالآخرين، فكانت كتاباته النثرية والمسرحية، وكانت نصوصه التي تحدثت عن أسفاره تلبية لدعوةٍ إلى مشاركة أدبية أو ثقافية، أو بقرار منا، بغية الترويح، وارتياد الآفاق، ولقاء الأبناء والأصدقاء.

وقد تحدثتُ عن أدب الأطفال لديه، وعن نثره ومسرحياته، في بحوث سابقة. وأتوقف الآن عند كتاباته حول الأسفار، وهو ما يدخل في باب «أدب الرحلات».

والسؤال الثاني الذي يتبادر إلى الذهن هنا:

ما هو أدب الرحلات؟ وهل يُمثِّل جنساً أدبياً متميزاً، حتى نفرد له المؤلفات والدراسات؟

والحقيقة أنَّ الرحلات لدى الإنسان قديمة جدّاً، بل إن الكائنات الحية الأخرى تشاطره فيها. كما أنَّ أدب الرحلات قديم من دون شك، وكان تداوله يتم شفاهاً في البداية. ثم ظهر كتابياً في الكتب الدينية، مثل رحلة النبي نوح في السفينة التي أنقذت البشرية من الطوفان، والملاحم الأولى مثل ملحمة جلجامش التي تتحدث عن سفر البطلين جلجامش وأنكيدو إلى لبنان وسواه من الأماكن، وفي كتب التاريخ مثل رحلة هيرودوتس «أبي التاريخ» إلى مصر، أو على جدران المعابد مثل الرحلة البحرية التي وجّهتها الملكة المصرية حتشبسوت إلى بلاد بونت (وهي الصومال الآن) لأغراض تجارية.. وقد عرف أدبنا العربي هذا النوع منذ القرن العاشر الميلادي. فمع ازدهار الحضارة العربية، ظهر أدب الرحلات ليشكل أحد أهم تجليات الثقافة في ذلك العصر؛ وأدى الرحّالة العرب ابن فضلان، والإدريسي، وابن جبير، وابن بطوطة وغيرهم، مهمة سامية إذ أسهمت كتاباتهم في التعريف بالمعالم المميزة للبلدان التي زاروها من حيث طبيعتها الجغرافية، وظروفها المعيشية؛ وألقوا الضوء على تاريخ هذه البلاد وعاداتها وتقاليدها ومعتقداتها.. إلخ فساعدوا بذلك على نقل بعض ثقافات الشعوب الأخرى وإثارة الاهتمام بها.

إلا أن النصوص التي كتبوها كانت

جغرافيــة إلى حد كبــير، ذات طابع عملي، تنقصــه المسحة الفنية التــي تميز الأدب. ويمكن قول الشيء نفسه عمَّا كتب في الغرب في عصر الاكتشافات الجغرافية ذات الغرض التوسعي الاستعماري بالدرجة الأولى.

علــى أنَّ العصر الحديث رفــع مستوى توقعاتــه مــن هذا النــوع مــن النصوص، وطالبها بأن تعكس شعوراً ومعاناة، وأن تعبر عن ذلك بأسلوب فنــي شائق يغري القارئ بمواصلة القراءة من دون كلل؛ ويجعله يتعايش مع الأحداث والأماكن، ويندمج فيها.

المهم أنَّ أدب الرحلات في العصر الحاضر لا ينتظــر منه أن يكون وصفــاً جافاً للمعالم الجغرافيــة، أو الاجتماعية، بــل هو تعبير عــن مشاعر تختلج في نفس الأديب المغترب إزاء ما عاناه في بلــد الاغتراب من جوانب إيجابية وسلبية. والأديــب حرّ في اصطناع الأسلوب الذي يختاره لأداء ذلك سواء أكان ذلك بالقصص أو الحوار أو الشعر..

ولنعد إلى أدب الرحــلات عند سليمان العيسى.

-٢-

هذه الكتابات تسجــل جانباً من تجربة الشاعــر في الحيــاة. ففي طفولتــه شارك في الرحــلات العائلية من قريته إلى مزاريّ «الخضر» و«الأعرابي» القريبين من القرية؛ ورافق تلامــذة أنطاكيــة في النزهات شبه الأسبوعيــة إلى شلالات دفنــة؛ وهاجر من وطنــه الصغير (لواء الإسكندرون) إلى المدن السورية الأخرى للدراسة، ثم للاستقرار بعد انتزاع وطنه الصغير من أمه سورية وإلحاقه بتركيا، ومنع أبناء اللواء من المغادرة.

وفي شبابــه ذهــب إلى العــراق لإتمام دراستــه في دار المعلمين العالية، مع عودات صيفية طاف خلالها بلدات الساحل السوري وقراه داعياً مع رفاقه إلى النضال في سبيل الوحدة العربية والعدل الاجتماعي.

وخلال سنــوات العمل، كــثرت جولاته في المدن السوريــة والأقطار العربية وبعض الدول الأجنبيــة في نشاطات أدبية وتربوية وسياسية وترويحية؛

وحين تقاعد عن العمل الرسمي، رجحت كفــة زيارات الأبنــاء والأصدقــاء. على أنَّ الرحــلات الأخرى لم تتوقف حتى نهاية عام ٢٠٠٨م. وكانت برفقتي، بالطبع.

إنَّ الكتابــات عن هذه الرحلات تختلف مــن نــوع إلى آخــر، مــن حيــث أسلوبها، وتركيزهــا، ودور الخيــال والواقــع فيها.. ولا أقــول زمــن كتابتهــا، لأنَّ الشاعــر لم يلتفت لتسجيل رحلاتــه في مرحلة الشباب التي غلب عليها الشعــر القومي والانفعال الشديد، وإنَّما في مرحلة النضج بعد أن ودّع

الاندفاع والحماسة البالغة، ومال إلى التعقل والمعالجة الهادئة.

ولنبدأ برحلات الطفولة.

كتبت هذه الرحلات من الذاكرة، أوَّل ما كتبت، ونشرت في «كتاب الحنين» عام٢٠٠٥م، وهي تتضمن ثلاثة عناوين: **الخضر، الأعرابي، دفنة.**

وربما كان من الممكن إدراج «**مدرسة العفّان الابتدائية**» في هذه القائمة، لأن دخول الشاعر إلى هذه المدرسة يشكل المرحلة الثانية من طفولته، حيث انتقل من الكتّاب في قريته «النعيرية» إلى مدرسة «العفّان» في أنطاكية، وكان ذلك حلم كل طفل قروي في تلك المنطقة. وعن هذه التجربة يقول:

«**.. لَكَم كان رفاقي تلامذة المدرسة (من أهل المدينة) يبدون سعداء في نظري، لأنَّهم ما يكادون يغادرون بيوتهم في المدينة حتى يكونوا قد انتظموا في باحتها..**

أمَّا أنا.. فقد كان عليّ أن أجتاز الطريق سيراً على قدميَّ من القرية المجاورة «الجَكْمَجة» التي أتيح لي أن أنزل فيها ضيفاً على أحد البيوت الصديقة الكريمة، إلى مدرسة العفّان. ولم تكن المسافة قريبة ولا سهلة على صبيّ يحمل كتبه كلَّ صباح، وينطلق من القرية إلى المدينة، ليعود مع الغروب، ويعاني ما يعاني من أمطار الشتاء ووحله وبرده في الطريق..».

على أنَّ هناك متعاً كثيرة تأتي مع الالتحاق بمدرسة المدينة، ومنها مشاركة التلاميذ في نزهاتهم الأسبوعية التي كانت شلالات دفنة محطّها في الغالب. يقول الشاعر في ذلك على هامش كلمة مطوّلة عن دفنة:

«**كنتُ أهرع مع عدد من رفاقي**
التلامذة الصغار
صباحَ كلِ جمعة
لنصل إلى الشلاّل
ونتأمل الروعة الهادرة
التي تنحدر من قمة الجَبَل
إلى حضن «العاصي»..
كانت شلاّلات دفنة «الحربيات»
متعةَ الصغار الأولى
إنَّها ما تزال حيَّةً نابضة
في أعماق الذاكرة والحنين..»

إنَّها ذكريات تعود إلى قرابة خمسة وسبعين عاماً. ومع ذلك ما تزال حيّة نابضة في نفس الشاعر، وفي كتابته عنها. ومن منا لا تهزه ذكريات الطفولة والمدرسة الأولى.

على أنَّه يتوسع في نصوصه عن زيارات أهل النعيرية والقرى المجاورة للخضر، والأعرابي. ففيما يتعلق بزيارة الخضر يذكر الشاعر أنَّ أسرته -شأنها في ذلك شأن الأسر الأخرى- تستيقظ يوم الجمعة قبيل الفجر وتُعِدّ حاجاتها لقضاء يوم وليلة في

ذلك المكان الذي يقع على شاطئ السويدية عند مصب نهر العاصي، وهو مكان رائع لقضاء عطلة الأسبوع، ولا سيما في فصل الصيف.

إلا أنَّ غرض القرويين المعلن من هذه الزيارة هو التماس البركة ووفاء النذور. فالخضر يوزع بركاته على الناس، ولاسيما الفقراء الذين يحتاجون إليه أكثر من غيرهم، لذلك كان هؤلاء ينامون إلى جواره مفترشين الرمل الناعم حتى الصباح، وقلما كانوا يستخدمون الغطاء.

وهذه الزيارة الدينية المقاصد لا تخلو من معالم ترويحية، كالسباحة، والتعرض للشمس والهواء الطلق، وتناول الطعام الذي يقدم على وجبتين، واحدة خفيفة في النهار، وأخرى غنية في بداية السهرة ويرافقها سمر وغناء ودبكة حتى ساعة متأخرة من الليل.

هكذا نرى أنَّ هذا النَصّ يركز اهتمامه على وصف تقاليد القرية، وما فيها من متع جميلة تعوّض عن ضيق حالها؛ ويحاول رسم الواقع بكل تفاصيله. إلا أنَّ نص «**الأعرابي**» يجنح إلى الخيال في تفسير تقديس هذا الشخص وعلو مقامه على رأس الجبل الذي تقع القرية في سفحه، حتى إنَّ قلة من الناس كانوا يستطيعون الصعود إليه لوعورة الطريق. ولكن الجميع كانوا يحلفون الأيمان باسمه ويخصّونه بنذورهم إذا أصابهم مكروه، أو عنّت لهم أمنية.

كانت زيارة معظم الأهالي تقتصر على الوصول إلى عين رقراقة تنفجر تحته، وسنديانة ضخمة تملأ الفضاء فوقها. على أنَّ بعض الشجعان كانوا يصعدون الطريق الوعر ويقضون سحابة نهارهم إلى جواره يلتمسون منه البركة والرضا.

وهكذا تخيل الشاعر أنَّ هذا الولي زاره في الحلم خلال نومه في خيمته الصيفية التي أقامها في قلب شجرة التوت التي تظلل باحة داره في القرية، وأعلمه أنه فجع في شبابه بوفاة فتاته البدوية سعدى إثر مرض خطفها منه، فراح يهيم في الأرض ويساعد المساكين، وألقى عصا الترحال إلى جانب هؤلاء القرويين الطيبين الذين أحبهم وأحبوه، إلى أن قضى أجله بينهم. وقد ظلوا يلقبونه «الأعرابي» في حياته وبعد مماته.

ويضيف الشاعر:

«.. وأفيق من حُلُمي..
لأهبط من خيمتي..
وأُهرع إلى الوالد الشيخ أحمد..
أقصُّ عليه قصة هذا الطائف العجيب
الذي طاف بي
وما يلبث الوالد الوقور أن يبتسم قائلاً:
لقد خَصَّك الأعرابي بواحدة من أعظم
بركاته

يا بنيّ

حين روى لك هذه القصة..

التي لم يسمع بها أحد قبلك..»

وهكذا تنتهي الزيارة..

إنَّها بعض ذكريات الطفولة العزيزة على قلب الشاعر وأحلامها. وهي نموذج يعكس أهم خصائص أدب الرحلات، وهي الحرية:

حرية الكاتب في اتخاذ الأسلوب الذي يراه لتحقيق هدفه، ألا وهو جذب القارئ إلى موضوعه، ونقل مشاعره إليه، حتى الانبهار - إن أمكن.

وقد ضمّن الشاعر نصّه جميع المعلومات المفيدة في الرحلة: الموقع - الطريق - الزوار - أغراض الرحلة..[1]

-٣-

لن أتحدث هنا عن الرحلتين اللتين شكلتا هجرة الشاعر من وطنه الصغير (اللواء)، إلى المدن السورية الأخرى في عام ١٩٣٨م بالباص مع لفيف من الطلاب والطالبات، وعام ١٩٣٩م سيراً على الأقدام عبر الجبال مع أخيه الأكبر، لأنهما حصلتا على تغطية جيدة في إطار سيرة حياة الشاعر.[2] ولكني سأنتقل على الفور إلى رحلته للدراسة في العراق، وقد تحدث عنها في رسالة إلى صديق عراقي، أثبتها في مقدمة كتابه «ديوان العراق»، بعنوان: همسة حب إلى بغداد، يقول فيها:

«قبل نيّف ونصف قرن من عمر الزمن، وفي مساء خريف حارٍ، لا يخلو من عذوبة ورقة، وهل يمكن أن يمر مساء في بغداد بلا عذوبة ورقة؟

قبل خمسة وخمسين عاماً يصل فتى مشردٌ من لواء إسكندرون إلى بغداد، بعد أن أنفق يومين كاملين في عربة بائسة في «قطار الشرق السريع». والطريف أنَّ هذا القطار- السُّلَحفاة- ما يزال يحتفظ بلقب السريع، تحمله العربة البائسة من حلب إلى عاصمة الرشيد، عن طريق الموصل. وأشهد أن الفتى عانى في هذه الرحلة من صنوف المشقة والعذاب ما لم يعانه من أية رحلة شاء له قدره القاسي أن يقوم بها حتى الآن. كنا قافلة التشرد الأولى.

وتضمني البعثات العربية بين جناحيها مع عدد من رفاقي المشردين الذين يبحثون عن مكان يتابعون تحصيلهم فيه.

شكراً للبعثات العربية وللعراق.

وفي اليوم التالي، أكون طالباً في دار المعلمين العالية- كلية التربية الآن.. خمسة وخمسون عاماً تستيقظ في هذه اللحظة، حيث يجمد الزمن، ويتحول إلى لحظة شعر، وحب، وأحلام».

ولا ينسى بهـذه المناسبة أن يذكر حدثاً هاماً جرى له آنذاك:

«على باب دار المعلمين العالية، ومنذ اليوم الأول، ألتقي «أنشودة المطر»، ألتقي الفتى الضامر النحيل مثلي، القادم من البصرة، من أبي الخصيب، بدر شاكر السيّاب. وفي «الدار» نواصل رحلة الدراسة، والشعر، والحب، والنضال..».

وبمناسبة الحديث عن العراق، لابدَّ لي أن أذكر أنَّه سافر إلى هناك عشرات المرات بعد ذلك لتقديم أمسيات شعرية والمشاركة في أنشطة أدبية أخرى. ولكنه يتوقف في هذه الرحلات عند زيارته لبابل. وكلنا يعرف ما تعني بابل لأديب عربي يعرِّف أمته كما يقول في هذين البيتين:

وأبعدُ نحنُ من عبسٍ
ومن مُضرٍ نعم أبعدْ
حمورابي وهاني بَعْل
بعضُ عطائنا الأخلدْ

يبدأ هذه الرحلة بسؤال يوجهه إليه أحد الأصدقاء، وكان حينئذ يشارك في مهرجان المتنبي الذي أقيم في بغداد في أواسط السبعينيات:

«- هل رأيتَ بابل؟

- لا، لم أزر بابل مع الأسف حتى الآن، على الرغم من أني أقمت في العراق فترة دراستي الجامعية كلها.

قال: هيا إذن. سنذهب إليها على الفور، سيارتي تحت تصرفك..»

وخلال هذا الحوار القصير يذكر الشاعر موقع المدينة التاريخية على مسيرة ساعة ونصف الساعة بالسيارة جنوب بغداد.

ويطلب من الصديق التوقف عند المكان الذي أقيمت فيه حدائق بابل المعلّقة وهي إحدى عجائب الدنيا السبع التي أشادها ملك بابل لزوجته بنت آشور كيلا تحس الغربة، عن بيئتها الجبلية التي نشأت فيها، في مقامها الجديد السهلي المنبسط. وبعد أن يبدي الشاعر تأثره لحلول أكوام من التراب محل الحدائق، يتحدث عن متانة الآجر الذي صُنعت منه ويقارنه بحجارة الأهرام المعاصرة له. ويختم بقول الصديق: لقد صنع الأجداد من هذا الآجر في بناء بابل على مرّ العصور ما يكفي لرصف طريق طويل يصل إلى القمر، كما يقول دارسو الحضارات في بلادنا؛ فيرفع بذلك من مستوى الإبهار الذي تمتع به النص من البداية.[٣]

على أنَّ الوقفة الطولى في كتابات سليمان عن أسفاره في العراق كانت عند عام ١٩٧١م، حين دُعي لحضور رفع الستار عن تمثال صديقه المرحوم الشاعر العراقي بدر شاكر السياب في مدينة البصرة، وجرى استضافته خلال أسبوع في «جزيرة السندباد»

بشط العــرب. هذه الرحلــة أعطت ديواناً كاملاً بعنــوان «أغنية في جزيرة السندباد»، غلب عليه الخيال. ذلــك أن الشاعر فضّل أن يتجول في الماضــي بدل الحاضر ويقابل الأعلام الذين عاشوا في هذا المكان، أو مرّوا به، وتركــوا بصماتهم عليه على مر التاريخ كالخليل بــن أحمد، والجاحظ، والأصمعي، والفــرزدق، وجريــر، وأبي نواســ.. جولة ثقافيــة تؤدي فيهــا شهــرزاد دور الدليل، والشاعــر المسافر دور السندباد الذي يختم الجولة بعرض رؤيته الخاصة لهذا التاريخ، ومضيفاً رحلة ثامنــةٍ إلى رحلات السندباد السبع.

كما أعطــت هذه الرحلة نصــاً قصيراً بعنوان «عينــاك غابتا نخيل»، اختلطت فيه أبيات بدر شاكر السياب الغزلية بانطباعات سليمان العيسى عن مشاهد غابات النخيل، ومياه الشط، والنسمات الباردة التي تحملها رؤوســ الأشجــار فتنقل عذوبــة الجو إلى مسافات بعيدة.(٤) مما يجعله أجمل نصوص أدب الرحلات على الإطلاق.

-٤-

لنأت الآن إلى كتابه «مدن وأسفار».

هنا أيضــاً لا يستطيع الشاعر التحدث عن جميع أسفاره، فهي كثيرة، بعضها عادي لم يترك انطباعــاً قوياً، إلا أنَّ بعضها الآخر جدير بالتسجيل لأنــه ترك انطباعاً مميزاً في نفســه. وهناك أسفــار تتابعت في زخم جعلــه يقدمها مجتمعــة في فصل واحد من الكتاب، كالفصــل الأوَّل الذي حمل عنوان الكتاب نفسه وبلغ خمساً وخمسين صفحة، والفصل الثاني بعنوان «خيوط من الذكرى» وهو في عشريــن صفحة، والثالــث بعنوان «عجائب الدنيا السبع» وهو في حوالى عشر صفحات.

يتحــدث الفصل الأوَّل عن سفر الشاعر إلى موسكــو لحضور مهرجان السلم العالمي الذي عقــد عــام ١٩٥٧م، ثــم انتقاله مع مجموعــة صغيرة اختارتها الصين، إلى بكين بالقطار عــبر سيبيريا في رحلــة استغرقت عشرة أيام.

يلفت النظر في هــذا العرض استخدام الكاتــب تقنية مستعارة مــن السينما، وهي «البدء من وسط الحــدث أو آخره، والعودة إلى أوله»، فقــد بدأه من فندق بكين في ٢٧ آب ١٩٥٧م، ثــم عاد إلى الوراء للحديث عن بداية المهرجان، وألمح إلى العلاقات الحميمة التــي كانت قائمة آنئذ بين القوتين الكبريين في العــالم الاشتراكي (الاتحــاد السوفييتي والصــين) ووصــف الرحلة المتعبــة الممتعة في آن. ويعــود إلى الفندق ليستعيد مشاهد زيارتــه لجامعة بكــين وحديقتهــا، ويعقد بــين هذه الحديقة وحديقــة قصر الزهراء بقرطبة مقارنــة تستدعي أبيات ابن زيدون الغزلية بحبيبته ولادة.

وينقله هــذا التداعي إلى مشاهداته في قصر الإمبراطور الصيفي، ولا سيما الزورق الصغير الذي حملهم إليه.

ذكريات جميلــة، حديثة وقديمة، ينتقل الكاتــب مــن إحداها إلى الأخــرى وينهيها بزيارة السور العظيم. إحدى عجائب الدنيا السبع. ثــم بزيارة شانغهاي في قطار بطيء يمتلئ حكمة ورصانة كأصحابه..

وما يلفــت النظر في هــذا العرض هو التقنية الجديدة، والتلوين، والتعليق المستقى من ثقافة الكاتــب العميقة وخياله الواسع، وعــدم التوقف عند التفاصيــل المملة، مما يشعر القارئ أنَّ الكاتب يعمل على إبداع نص فني، لا كتابة تقرير.

يضم الفصــل الأوَّل من مــدن وأسفار أيضــاً نصاً يتحدث عــن رحلة عائلية قمنا بها مع الأولاد صيف عام ١٩٦٤م لزيارة أهل سليمان في اللــواء، وهي المرّة الوحيدة التي سمحت له فيها السلطــات التركية بدخول اللواء بعد مغادرته عام ١٩٣٩م.

وقــد انتقلنا من النعيريــة وأنطاكية إلى مرســين لزيارة شقيقته، ومــن ثمَّ إلى أنقرة وإستامبــول للاطلاع والترويــح. ولابد من القــول هنا أن من الطبيعي أن يحفل النص بمشاعر الفرح للقاء الأهل والوطن الصغير؛ إلا أنه يحفل أيضاً بالتأملات والأفكار.

ففيما يتعلق بأنقرة يقول الشاعر:

«هنــاك مدن تصنعهــا الطبيعة قبل أن يتدخل البناء والعمران، أمَّا أنقرة العاصمة الأنيقة الرشيقة فإنَّها من صنع الإنسان..».

وعن إستانبول يقول: «إنَّها الزمردة التي يشطرهــا الماء، وتقف لتشــع جمالاً وبهجة وسحراً بين قارتــين». ويتابع: «**أسبوع كامل أمضينــاه في هذا البلد الــذي انصهرت فيه الحضــارات، وتلاقــت الشعــوب، وتعانــق في رحابه الشرق والغرب؛ ولكن رائحتنا، رائحة الحضارة العربية الإسلامية ظلَّت تعبق فيه، وتملأ الجــو كلّه بنكهتها وتراثها وتقاليدها وعاداتها ومآذنها وقبابها..**

رائعة البوصــيري الطويلة التــي ازدانت بهــا جــدران (تــوب كابــي) أوَّل قصــر بنــاه العثمانيــون في عاصمتهــم الجديــدة، لا يــرى فيه السياح الأجانــب إلا زخرفاً ونقشاً علــى جــدار. أمَّا أنا فكنــت أردد أبياتها التي تلــفّ جــدران القصر كلــه تقريبــاً، في داخل الغــرف، والتــي خطّها خطّاط مــا أشكّ أنه كان أمهــر من أمســك بقلم عربي للخط في عصــره، واختار لأبياتها اللــون الأزرق المُشِعّ، كأنمــا ينقل إليك زرقــة البحر المجاور، يملأ بــه بصرك وخيالك متعة لا حدود لها، وفناً عربياً يبلغ حد الإعجاز.

أمــن تــذكــر جــيران بــذي سَلَــم
مزجتَ دمعاً جرى من مقلةٍ بدمِ؟

وتنســاب القصيــدة شريطــاً مــن الروعة الفنيــة علــى أعلــى الجــدار، في كل حجــرة من حجــرات القصــر العريق لتهبــه جلاله

ومعناه في رأي المصمم العظيم الذي أوصى بنقشها، ورأي السلطان نفسه الذي ربما رأى في قصيدة «البُرْدَة» النبوية حِرزاً له من الأعداء، ووِقاء من نوائب الزمان»..

إنَّها ثقافة الشاعر العربية العريقة، وحساسيته الفنية العميقة التي تمكنت من التقاط مواضع الجمال وتفسيرها للقارئ، لجعله يحس بها ويدركها كما فعل. وأظن أنَّ قلة من الكتّاب يملكون هذه الثقافة وهذه الموهبة.

-٥-

هذه نماذج من نصوص «مدن وأسفار» لا أظن أن مساحة البحث تسمح بعرضها كلها. إضافة إلى روسيا والصين وتركيا يتحدث الفصل الأوّل عن أسفاره إلى اليمن، والجزائر، وباريس، وأثينا، ودبي، ومونتريال، وواشنطن، والرياض..

ويتحدث الفصل الثاني «**خيوط من الذكرى**» عن بداية علاقة الشاعر باليمن التي توِّجت بإقامته فيه خمسة عشر عاماً.

في مطلع كانون الأوّل/ ديسمبر ١٩٨١م أقيم مهرجان الشعر الخامس عشر بدعوة من «اتحاد الأدباء والكتَّاب العرب». وقد بدأ المهرجان في عدن.. وانتهى في صنعاء، بغية تشجيع اليمن على إنهاء التشطير وإقامة الوحدة.

ألقى الشاعر قصيدة في حفل الختام في جامعة صنعاء، والتقى بعدها رئيس الجامعة آنئذ الشاعر الدكتور عبد العزيز المقالح- ثم تتالت الدعوات للشاعر ولي لزيارة جامعة صنعاء واليمن.. وتتالت الزيارات:

سليمان يقدم أمسيات أدبية.. وأنا أحاضر في الجامعة بصفة أستاذة زائرة حتى عام ١٩٨٩م حيث قررت التعاقد مع الجامعة للتدريس فيها، وقرر سليمان مرافقتي متفرغاً للكتابة والأنشطة الأدبية الأخرى..

يتحدث الفصل عن بعض هذه الأسفار، وعن قيام الوحدة اليمنية في ٢٢ أيار/مايو ١٩٩٠م.

ويتحدث الفصل الثالث «**عجائب الدنيا السبع**» عن العجائب السبع القديمة. فقد حملت الرحلات الشاعر إلى مصر وشاهد أبا الهول والأهرامات، وإلى العراق فشاهد بابل وحدائقها المعلَّقة، وإلى الهند فتوقف عند تاج محل، وإلى الصين فتناول غداءه على سورها العظيم.. ويذكِّر بأن معظمها كان في وطنه العربي.. وأن العجائب الآن تعدّ بالمئات، بل بالآلاف..

ويتوقف فصل آخر عند رحلة في المحيط الأطلسي إلى جزيرة برمودا، على ظهر باخرة سياحية، بعنوان «**ساعة مع المحيط**»، وهو يلتقط هنا مشهداً واحداً في هذه الرحلة.. إنَّه ظهور حوت من حيتان المحيط الهائلة.. ويعرضه بشكل مثير معلقاً: «**الباخرة الأنيقة تتحرك.. وأنا أتذكر قصائد «بايرون» التي أملاها الموج الهادر؛ و«موبي ديك» و«الشيخ والبحر»، وفرس عقبة بن نافع الذي وقف**

على شواطئه متحدياً ذات يوم، ثم ألقى عصا التحدي في عباب موجة جَبَّارة.. كل هذا كان يمر أمام عيني، والزرقتان ما تزالان تفتحان أبواب المجهول أمامي: زرقة السماء وزرقة الماء.

فجأة: يشق صدر المحيط الحالم شيء ضخم، يرتفع فوق الماء كالشهاب الساطع، ثم يهوي، ثم يرتفع مرة أخرى..

في هذا المشهد أيضاً تتضافر ثقافة الشاعر الواسعة، وإحساسه العميق ليقدما عرضاً مثيراً باهراً، يدفع القارئ إلى متابعة القراءة بشغف..

ويقتطف فصل «**صباح في جنة العريف**» حواراً قام بين الشاعر وسائحة برازيلية، خلال زيارته للأندلس، حول اسم حدائق قصر الحمراء. فهي تلفظه «خنا ناريف» بالإسبانية المحرّفة عن الاسم الأصلي العربي «جنة العريف»، وهو يُصحِّحه، ويعلق على ذلك:

«صباحُ الخير..
يا ظُللَ العريف!
صباحُ الخير.. يا بستانَ أهلي
عبيرُ دمشقَ ملءُ دمي
وأنتِ حديقتي..
وإذا مددتُ يدي هنا..
فإلى قطوفي.»

وفي الفصول الأخيرة «في بودابست زمرّدة أوروبة» و«رحلة إلى ليل» و«فيلادلفيا في البال»، يختار أجمل المعالم الطبيعية، والأبنية الأثرية، والأنشطة الثقافية والفنية، ويتحدث عنها شعراً، أو بنثر يكاد يكون شعراً.

و«في بودابست»، يتوقف عند نهر الدانوب ويهديه قصيدة ترجمت على ما يَذْكر إلى الفرنسية والإنجليزية، ويستمع في جزيرة «مارغريت» إلى فرقة موسيقية تعزف ألحان فرانز ليست، ترافقها مجموعة من الفتيات والفتيان بثيابهم المزركشة، يرقصون رقصاتهم الشعبية على هذه الألحان.. ويؤكد: «**..لا أريد أن أتحدث بالتفصيل عن كل ما شاهدناه في بودابست وما حولها، خلال إقامتنا فيها لأني لا أحب السرد العاري. إنني أؤثر أن ألتقط من هذه الزيارة ما كان له أثر يمكن أن يبقى في النفس، وأن تستعيده الذاكرة بشيء من الحب والحنين**».

وفي «**رحلة إلى ليل: النجمة المتعددة الأشعة**»، يطلق هذه الصفة على المدينة لأنَّ المسافر قادر على أن يختار كل يوم شعاعاً من هذه الأشعة، ينسرب في طريقه ويمضي نهاراً ممتعاً في مدينة قريبة أو بلد مجاور.. وأهم شعاع انسرب فيه خلال زيارته كان «نفق بحر المانش.. هذا المنجز الأوروبي الذي قرأتُ عشرات المقالات، وسمعتُ مئات الأخبار عن بنائه قبل أن يتم..» وفي «فيلادلفيا في البال» يفتتح العرض بقوله:

«هناك مُدُن تستقبلُك بفتور..
وأنتَ تضع قدميكَ على بابها لتدخلَ..
ومُدُن لا تشعرُ بوجودكَ حين تدخلُ
ومُدُن.. تحس أنَّها تفتح ذراعيها لكَ
وتستقبلكَ.. وهي صامتة..
ومدن تحتضنكَ عندما تخطو أولى خطواتكَ
فيها وتغمركَ بالقُبَل..
كانت فيلادلفيا، مدينة التاريخ في أمريكا،
إذا ما تحدثنا عن تاريخ أمريكا الذي لا
يضرب في القدم أكثر من نيِّفٍ ومئتي عام..
كانت هذه المدينة البيضاء، عاصمة بنسلفانيا
الفاتنة تستقبلنا وهي صامتة
ولكنها جعلتنا نشعر- منذ الخطوات الأولى-
أن كل ما فيها يرحب بنا بلغة شاعرة،
وليست اللغة الشاعرة غريبة عليها،
فقد أحسستُ منذ اجتزت أولى شوارعها
أن فيلادلفيا نفسها قصيدة مترامية الآفاق.
تملؤك طرباً ومتعة كلما أوغلتَ في قراءتها،
أعني.. في شوارعها الجميلة..»[٥]

ويكمل بالحديث عن متحفها الرائع الواقع على قمة الهضبة المطلة عليها، والذي أمضينا نهارنا كله بين طوابقه الثلاثة الغنية، ولا سيما في الطابق الخاص بالمشرق.

أتوقف عند هذه الكلمات وأنا آسفة لأني لا أملك مزيداً من المساحة لأتابع هذه الجولة في أدب الرحلات عند سليمان العيسى.. وأرجو أن أعود إليه في وقت لاحق.

الهوامش

١- سليمان العيسى، كتاب الحنين، الهيئة العامة للكتاب، دمشق، ٢٠٠٥م.
٢- سليمان العيسى، الأعمال الشعرية، المجلد(٥)، على طريق العمر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،١٩٩٦م.
٣- سليمان العيسى، ديوان العراق، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق،٢٠١٠م.
٤- سليمان العيسى، دفتر النثر، دار جداول، بيروت،٢٠١٢م.
٥- سليمان العيسى، مدن وأسفار، الهيئة العامة للكتاب، دمشق، ٢٠٠٩م.

المراجع

١- مجلة عالم الفكر، المجلد١٣- العدد٤- ١٩٨٣م.
٢- الإنترنت: أدب الرحلات - دراسات ومقالات نقدية وحوارات أدبية- مشاهير الرحّالة في العالم.

جورج طرابيشي
المبدع والمفكر والمترجم

❁ أسعد طرابية
❁❁ مروان رضوان

تميز الكاتب والمترجم جورج طرابيشي بكثرة ترجماته ومؤلفاته حيث إنه ترجم لفرويد وهيغل وسارتر وبرهييه وغارودي وسيمون دي بوفوار وآخرين، وبلغت ترجماته ما يزيد عن مئتي كتاب في الفلسفة والأيديولوجيا والتحليل النفسي والرواية. وله مؤلفات هامة

❁ كاتب وعضو في الجمعية الكونية السورية. ❁❁ كاتب ومتخصص في العلوم السياسية.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

في الماركسية والنظرية القومية وفي النقد الأدبي للرواية العربية، حيث كان سباقاً في اللغة العربية إلى تطبيق مناهج التحليل النفسي عليها.

من أبرز مؤلفاته: «معجم الفلاسفة» و«من النهضة إلى الردة» و«هرطقات ١ و٢».

إضافة إلى مشروعه الضخم الذي عمل عليه أكثر من ٢٠ عاماً وصدر منه حتى الآن أربعة مجلدات في «نقد نقد العقل العربي»، أي في نقد مشروع الكاتب والمفكر المغربي محمد عابد الجابري. ويوصف هذا العمل بأنه موسوعي، إذ احتوى على قراءة ومراجعة للتراث اليوناني وللتراث الأوروبي الفلسفي وللتراث العربي الإسلامي ليس الفلسفي فحسب، بل أيضاً الكلامي والفقهي والصوفي واللغوي، وقد حاول فيه الإجابة عن هذا السؤال الأساسي:

هل استقالة العقل في الإسلام جاءت بعامل خارجي، وقابلة للتعليق على مشجب الغير، أم هي مأساة داخلية ومحكومة بآليات ذاتية، يتحمل فيها العقل العربي الإسلامي مسؤولية إقالة نفسه بنفسه؟

أهم ما يذكر في المسار الفكري لجورج طرابيشي هو انتقاله عبر محطات عدة أبرزها الفكر القومي والثوري والوجودية والماركسية لينتهي إلى تبني نزعة نقدية جذرية يرى أنها الموقف الوحيد الذي يمكن أن يصدر عنه المفكر، ولا سيما في الوضعية العربية التي يتجاذبها قطبان: الرؤية المؤمثلة للماضي والرؤية المؤدلجة للحاضر.

أولا: من كتاب شرق وغرب أنوثة ورجولة

في مجتمع أبوي شرقي، متخلف متأخر، مشحون حتى النخاع بأيديولوجيا طهرانية، متزمتة، يغدو مفهوم الرجولة والأنوثة مفهوماً موجهاً لا للعلاقات بين الرجل والمرأة فحسب، بل أيضاً للعلاقات بين الإنسان والعالم.

بمعنى آخر تفترض الأيديولوجية الأبوية أنَّ الإنسان هو المبدأ المذكر في العالم الذي هو المبدأ المؤنث.

بما أنَّ علاقات الرجل بالمرأة في ظل الحضارة الأبوية كانت منذ آلاف السنين وما تزال علاقات سيطرة واضطهاد، فإنَّها تنسحب على علاقة الإنسان بالعالم.

فتغدو الحرب رجولة، والسلام أنوثة، والقوة رجولة، والضعف أنوثة، والسجن للرجال، والبيت للنساء. وحتى ألعاب الأطفال: فالصبيان تستهويهم المسدسات والبنادق البلاستيكية، والبنات يملن إلى الدمى والعرائس وأشغال الإبرة. وحتى المجلات المصورة: فالمراهقون يقبلون على

قصص المغامــرات والبطولات والمطاردات السوبرمانيــة، والمراهقــات يتهافــتن على قصص الحب والعواطف والجنيات.

إنَّ الرجال هم صانعــو الثورة، وصانعو التاريخ، كما أنَّ الفن والإبداع إطلاقاً، مهنة الرجال. إذا صدقنــا فرويد، فإن التصعيد ميزة للرجال، بينما تقضي «الشهوة..» على النســاء بدونية شبه أبديــة، إنَّ علم النفس التحليلي يكرس ثنائيــة الرجولة- والأنوثة وبالتــالي الفعــل- الانفعــال، الإيجــاب- السلب.

وفي مضمار الأمراضــ النفسية تذهب الفرويديــة إلى أنَّ الساديــة انتصار للمبدأ المذكر من حيث هو مبدأ فعل، وأن المازوخية من حيث هي مبــدأ انفعال، انتصار للمبدأ المؤنث. وبالتــالي تؤول العلاقــات البشرية في الساديــة والمازوخيــة إلى علاقات قوة، علاقات سيطرة وخضوع.

كما يؤكد فرويــد أنَّ هذه الثنائية تطال الأحلام أيضــاً، «فالأسلحة المدببة، وجذوع الأشجــار والقصب، تمثــل العضو المذكر، بينما الخزائن والعلــب والعربات والمدافئ تمثل العضو المؤنث في الحلم».

صحيــح أن التحليل النفســي يقرر هنا حقيقــة واقعة، ولكنــه إذ يقــرر الحقيقة الواقعة يكرسهــا، ووظيفة التحليل النفسي هنــا تشبه اللغــة، فاللغــة لا تكتفي بتذكير الفعل (اللغة مذكرة) بل تتجاوز ذلك لتشحن المفــردات الدالة على العلاقــات الجنسية بمنطــوق الثنائيــة. فجميع الألفــاظ التي تدل على الجمــاع في اللغة العربية تنم عن علاقة قوة وسيطرة، فالرجل هو الذي يأتي المرأة، ولهــذا يقال: غشيها، وطئها، دعكها، وسمها.. إلخ.

وقــد عرفــت ثنائية الرجولــة والأنوثة ازدهاراً عظيماً في عصر الفتح والاستعمار والعنصريــة. وليس من قبيــل المصادفة أن يكون نعت «العــذراء» قد أطلق على قارات ومناطق لم يتم فتحها من قبل المستعمر.

وليس من قبيل المصادفة أيضاً أن يكون مالك العبيد والمستكشف والفاتح والمستعمر والمستوطن قد سمي بـ«الرجل الأبيض». إنَّ علاقة المستعمِر بالمستعمَر، يفترض فيها أن تكون علاقــة رجل بامرأة، أي فتح وسيطرة من جانــب، ورضوخ واستســلام من جانب آخــر، وفي الوقت الذي تؤكد فيه الدراسات الاجتماعيــة والنفسية على الفارق الجنسي الطبيعــي بين البيض والســود. نجد مثالاً شبيهاً من العصر العباسي، حيث تمارس تقنية إخصاء العبيد، كما يقدم لنا مجتمع القنانة مثالاً آخر على تجنيس علاقات الاضطهاد الطبقــي في منحــه السيــد الإقطاعي حق الليلة الأولى في عروس الفلاح.

يذكــر فرانــز فانــون في كتابــه «جلد

أسود وأقنعة بيضاء» بأن الرجل الأبيض، باغتصابه المرأة السوداء، يشعر الزنجي بأنه رجل مخصي، والزنجي بإقامته علاقات جنسية طوعية أو غصبية مع المرأة البيضاء، ينتقم من المستعمر ويثبت له أنه رجل مثله.

يصف حسنين البطل البرجوازي الصغير في رواية نجيب محفوظ «بداية ونهاية» مشاعره إزاء فتاة نقية البشرة من الطبقة الأرستقراطية، فيقول: هذه امرأة إذا ركبتها فقد ركبت طبقة بأسرها. ومن المؤكد أن جدل القهر الكولونيالي والاغتصاب الجنسي قد جعل الكثيرين من أبناء المستعمرات المقهورين والمخصيين نفسياً يعتقدون أنَّهم في حال ركبوا امرأة بيضاء البشرة، فهذا يعني أنَّهم ركبوا أمة بكاملها.

إنَّ الرجل الأبيض يعتقد أنَّ جميع نساء المستعمرات مباحات له، ويرد الرجل المستعمَر بتطرف مماثل: إنَّ كل امرأة بيضاء مشتهاة، ونقاء بشرتها دعوة دائمة إلى الاغتصاب.

إنَّ الرجل المستعمِر، يرخي العنان لجماح غرائزه، وشهواته الملجومة ما أن تطأ قدماه أرض المستعمرة. وكذلك يفعل الرجل المستعمَر، إذا ما قيضت له الأقدار أن يجيء إلى الدولة المتروبولية (المستعمِرة)، لأنه يريد أولاً أن يثأر لنفسه ولرجولته، ولأنه يعاني ثانياً من كبت جنسي شديد ناشئ عن الأيديولوجية الأبوية المتزمتة. وزوال الاستعمار، بشكله الاستيطاني والاحتلال المباشر، لا يغير كثيراً من طبيعة العلاقات بين المستعمِر والمستعمَر.

وكذلك الأمر ينسحب على عصر الإمبريالية (الاستغلال الاقتصادي غير المباشر) فالأمة المستعمَرة سابقاً ماتزال، بفعل عملية المثاقفة acculturation، أي استيراد ثقافة المتروبول، تحس إحساساً ساحقاً بدونيتها «المؤنثة» إزاء «رجولة» ثقافة الغرب وفحولتها.

إنَّ عملية المثاقفة، والتي تكون بين طرفين غير متكافئين، موجب وسالب، فاعل ومنفعل، مُلقَح ومُلقِح، تطرح نفسها على أنها بين قطبين مذكر ومؤنث. إنَّ المثاقفة لا توقظ في الطرف المتلقي إحساساً بالدونية المؤنثة بقدر ما تبعث فيه شعوراً مرهقاً بالخصاء الفكري والعنة الثقافية. وتحت وطأة هذا الإحساس الذي لا يطاق، يلوذ مثقف المستعمِرة أو المستعمَرة السابقة، بماضيه الحضاري الذي يعتقد أنه تعبير عن الرجولة.

لكن بعث الماضي الثقافي لا يمكن أن يكون كافياً. وإن ما يحتاجه مثقفنا هو المقدرة الحاضرة التي تمكنه من القبض على الروح التقنية الحديثة. على فرض أنَّ إحياء التراث القومي كافٍ ليستعيد رجولته

في نظر نفسه، إلا أنَّه بأمس الحاجة ليستعيد رجولته في نظر الطرف الفاعل في عملية المثاقفة بوصفها علاقة تحد وسيطرة وعنف وحتى اغتصاب.

يجب أن نذكر أنَّ المثقف المعني هنا هو المثقف «الشرقي» المغترب، المثقف الذي يدخل طرفاً متلقياً في عملية المثاقفة وهو في بلاد الغربة، في حاضرة الدولة المستعمِرة سابقاً. إنَّ جميع الروايات العربية التي عالجت مشكلة العلاقة بين الشرق والغرب، ابتداءً من «عصفور من الشرق» لتوفيق الحكيم مروراً بـ«الحي اللاتيني» لسهيل إدريس وصولاً إلى «موسم الهجرة إلى الشمال» للطيب الصالح، قد اختارت إطاراً مكانياً لها بين باريس ولندن. وكان الغرب غرباً في هاتين العاصمتين، وكان الشرقي ليس شرقياً إلا هائماً.

إنَّ أبطال هذه الروايات وبلا استثناء هم المثقفون الذين قد قدموا الغرب طلباً للعلم أو الأدب أو الفن. وكل رواية هي بمثابة تجربة ذاتية، حتى لو لم ترو بضمير الأنا، بل إنَّ الرسوم التي تصور بعض المشاهد من «عصفور من الشرق» تمثل توفيق الحكيم شخصياً، إذ يمثل نفسه بشخصية محسن، وهكذا فإنَّ الرواية العربية الحضارية تستحيل إلى ضرب من أدب الاعترافات.

وهذا المثقف أو هذا البطل الروائي هو على الدوام رجل. وإن موضوع العلاقات الحضارية لم يأخذ طريقه إلى الرواية النسائية. ثم إنَّ الخصاء لا يطال سوى الرجال وحدهم، لذلك فالمثقف الآتي من المجتمع الكولونيالي «التابع» يصدق لعبة المثاقفة، ويسلم بمنطقها.

إنَّه يعترف بتجنيس عملية المثاقفة، ويقبل لا شعورياً على الأقل بأن يقيم علاقة تساوٍ وتماه بين الثقافة والرجولة، وبالتالي تماه بين الثقافة والذكورة. فإحساسه بالخصاء الثقافي لن يزيده إلا تشبثاً بذكورته.

فلئن لم يكن رجلاً في مضمار الثقافة فليكن رجلاً في مضمار الرجولة الطبيعي. وهذا معناه، إن رده على عملية مثاقفته سيكون بسطوته الجنسية. يحملها أينما ذهب معربداً، أينما حل وارتحل، وعلى الأخص في أماكن الثقافة: في مدرجات الجامعة، في دور السينما، في صالات المعارض، وقاعات الموسيقى. لن يرى إلا المرأة، ولن يصغي إلا لموسيقى ساقيها، ولن ترتجف أرنبة أنفه إلا لرائحتها، ولن تطيب له إلا عاشقات الفكر والفلسفة، وإن لم يتوفرن فقاطعات التذاكر في شباك المسرح.

إنَّ طاقته الجنسية، وهو القادم من مجتمع متزمت، مختزنة في عروقه إلى حد الانفجار، فلا ينضب له معين. وإنَّ هذه الطاقة المختزنة تجعله ينقض على كل

امــرأة تتاح لــه دونما تمييز وبــلا اختيار. وبعــد أن يتحــرر مــن ذلك الضغــط شبه الحيــواني، ويفرج عن بعض مخزون طاقته، ويبــدأ بالاختيار، هنا يأتــي دور المثقفات، وعلى الأخص اللائــي يتراءين له منيعات، محصنــات، عازفات عن المــرأة التي فيهن، مأخــوذات إلى حــد التصوف بعــوالم الفن والشعر والعلم المحض.

فما دامت العلاقة بــين الشرق والغرب هي بالضرورة علاقــة مجنسة لأنها علاقة قوة وتحد، فمــن المحال أن تتســع لمبدأين مذكرين. ويكفي أن يثبت أحد الطرفين أنه الذكر، حتــى يكون قد قــام بالبرهان على أنوثة الطرف الآخر. لكــن المثقف الشرقي حتى بعــد تقديمه البرهان علــى أنه رجل، يظل يشعر بالحاجة إلى إثبات أنوثة الغرب، وهذا بــكل بساطة لأنَّ دليلــه على رجولته كانت باءته الجنسية لا ثقافته.

وهكــذا فإنه يرد علــى التحدي الغربي لرجولتــه الثقافيــة بإشهار سيــف ذكورته، ثم إنَّه يقيم وحــدة بين الأنثى الغربية وبين الغــرب، فيستحيل الغــرب إلى مجرد فرج. شأنــه في ذلــك شأن بطــل نجيب محفوظ، سيساوره شعــور مزهو بأنه يركــب أوروبة بكاملهــا كلما ركــب فتاة أوروبيــة. وبذلك تكون جميع المعادلات قد قلبت، ولو بالوهم. وبذلك تكون دائرة الوعي الكاذب قد أغلقت بإحــكام، لأنَّ المثقــف الشرقــي يــرد على الاستلاب باستلاب مماثل.

لقد تبنى المثقف الشرقي تصور الغربي، من حيث إنَّ المثاقفة مجامعة. وشعر أنّه تلقى ضربــة في صميم رجولتــه. وعندما تتاح له الفرصة فإنَّه سوف يرد لا كمثقف بل كذكر. والأمر الذي جعلــه يسلك هذا السلوك هو الكبت الجنسي الخانق في مجتمعه المتزمت. وكمــا أنــه قد وحّد بــين قضيتــه وشهوته الجنسية، كذلك فإنه سيوحّد في الهوية بين الغرب والفرج. ولكن ما فاته في إطار وعيه لعلاقة الراكب والمركوب، هــو عدم إدراكه بــأنَّ النضال لا يكون بتبني منطق رد الفعل السلبي أي منطق الظلم، حيث يقوم اعتباره على أنَّ الغرب هو الذي بدأ والبادئ أظلم.

مــا نستنتجــه ممــا سبــق: إنَّ تجنيس العلاقات الحضارية بــين الأمم يساهم في تأبيد عبودية المرأة في المجتمع المتخلف وفي تأبيد تخلف هذا المجتمع بالذات.

يجــب أن لا يغيــب عن بالنــا أنَّ منطق الرمــز في الروايــة العربية هــو في الوقت نفسه رمز لمنطق: منطق رجال في عالم رجال وثقافــة رجــال ورواية رجــال. إنَّهم رجال شرقيون بامتياز.

ثانيا: من كتاب هرطقات

الهرطقــة في المعجم اللاهوتي المسيحي

تقابلها البدعة في المعجم الإسلامي، ولكن على حين أنَّ الهرطقة في المعجم الأوَّل لا تعني سوى الخروج على العقيدة القويمة، فإنَّ البدعة مشتقة في العربية من المصدر نفسه الذي تشتق منه كلمة إبداع، فكأن لا مبدع إلا أن يكون مبتدعاً أي خارجاً في محصلة الحساب على الإجماع والفكر الجماعي، ومن هنا الطابع «المهرطق» للدراسات المجموعة في هذا الكتاب والتي لا تقدم أجوبة بقدر ما تثير أسئلة وتعيد صياغة الإشكاليات، ومن هنا إشكالية الديمقراطية: هل هي ثمرة برسم القطف أم بذرة برسم الزرع؟ وهل هي محض آلية مرهونة بصندوق الاقتراع أم هي أيضاً ثقافة ومرهونة بالتالي بصندوق جمجمة الرأس؟

ومن هنا تكمن مفارقة الشرط الوجودي والمهني للكاتب، فمهما يكن من حرصه على الانتماء بضميره إلى أهل الجماعة، فلا خيار له إلا أن ينتمي بقلمه إلى أهل البدعة، هذا إن كان حريصاً على أن يرقى في نظر نفسه على الأقل إلى مصاف كاتب مبدع.

«إشكالية الديمقراطية في العالم العربي»:

هنالك فرق مفهومي بين الإشكالية والمشكلة، فالإشكالية لا تتحرى جواباً بقدر ما تعنى بصياغة السؤال وسوقه إلى مجال الوعي وبالتحريض على البحث والتحري عن جواب أو أجوبة، ونحن هنا ضد على منطق المعجزة المباطن لزوماً لكل أيديولوجيا خلاصية، نصوغ ونطور صياغة الإشكاليات التالية حول المسألة الديمقراطية في العالم العربي.

أولاً- مشكلة المفتاح والتاج:

هل الديمقراطية هي المفتاح السحري الذي نفتح به جميع الأبواب المغلقة، أم أنَّ الديمقراطية هي على العكس من ذلك التاج الذي يتوج التطور العضوي للمجتمع المعني وينهض مقياساً على تطوره؟

وبعبارة أخرى: هل الديمقراطية شرط مسبق أم هي أيضاً نتيجة وحصيلة تطور مجتمع بعينه؟

من البديهي أنَّه في أي صيرورة عضوية تاريخية - والديمقراطية سيرورة من هذا القبيل- لا يمكن فصل الشرط عن النتيجة والنتيجة عن الشرط، لكن النظرة الأيديولوجية الخلاصية تفسخ العلاقة الجدلية مابين الشرط والنتيجة، فالديمقراطية تعمل من منظور الأيديولوجيا الخلاصية كمطلق، فهي شرط لكل نتيجة لاحقة.

ثانياً- إشكالية البذرة والثمرة:

هل الديمقراطية ثمرة يانعة برسم القطف؟ أم بذرة برسم الزرع؟

عندما تستزرع الديمقراطية في غير تربتها فإنَّها تكون عرضة للموت أو للتحول إلى عشبة سامة إذا لم يضاعف كم مجهود الرعاية. إنَّ الأيديولوجية الخلاصية تصور الديمقراطية بأنَّها لا تقتضي جهداً بل تعفي من الجهد، إنَّها وصفة سحرية قادرة على انتشال المجتمعات العربية من هوة الفوات الحضاري المتعمقة، ونحن نرى بأن الديمقراطية شرط من شروط الإقلاع ولكنه شرط لازم من دون أن يكون كافياً، بل هو شرط مشروط.

ثالثاً- إشكالية مفتاح المفتاح:

إنَّ الديمقراطية قبل أن تكون مفتاحاً هي نفسها بحاجة إلى مفتاح، ولعلَّ بابها لا ينفتح إلا بعد أن تكون سائر الأبواب قد انفتحت أو بالتوافق معها.

«الفلسفة العربية المستحيلة»:

يرد جورج طرابيشي سبب استحالة وجود فلسفة عربية حديثة أو معاصرة إلى ثلاث مسائل أساسية:

أولاً- إنَّ الفلسفة المعاصرة نفسها، على الصعيد العالمي في أزمة، ومرد هذه الأزمة إلى تطور العلم بالذات، فبعد أن طرح العلم نفسه كأداة وحيدة للمعرفة والسيطرة على الكون راح مجال الفلسفة يتقلص، فتطور الفيزياء الرياضية قد أغنى عنها في معرفة الطبيعة والكون، وتطور علم الأحياء والتشريح قد وضع حدّاً للتفلسف في مجال خلقة الإنسان، وجاء مولد علم النفس ليستنقذ منها موضوعه الأثير في النفاذ إلى كنه النفس البشرية، وبالتالي يمكن القول بأن الثقافات الوحيدة المنتجة للفلسفة اليوم هي الثقافات المنتجة للعلم، وحسبنا أن نقرر أن الثقافة العربية غير منتجة للعلم حتى نفهم لماذا يتحتم أن يكون المتفلسفون العرب عالة سواء على الفلسفة الإسلامية القديمة أو الفلسفة الغربية الحديثة، فانتفاء شرط الإنتاجية العلمية لا يترك لهم من نصاب آخر سوى أن يكونوا في الفلسفة من المستهلكين، أي من المحاكين شرحاً أو ترجمة.

ثانياً- إنَّ الحضارة الغربية بحكم أسبقيتها في الحداثة أصبحت تتحكم بالزمان الثقافي للحضارات الأخرى، وعدا الخروج من التاريخ والسقوط في الهمجية لم يبق للمتخلفين اليوم بهذا العالم من مستقبل آخر غير حاضر المتقدمين، بالتالي فكل ما يمكن أن يفكر به الملتحقون بالحداثة هو مفكر به مسبقاً، إضافة إلى أن كل ما يمكن

أن ننقد عليه الحضارة الغربية قد سبقتنا هي نفسها في نقده.

ونلاحظ في هذا السياق أنَّ الفلسفة النقدية التي يدعو إليها حسن حنفي تحت اسم الاستغراب كرد على الاستشراق لا تعدو هي نفسها أن تكون فلسفة وكيلة، فمن دهن الفلسفة الغربية لا يفتأ هو نفسه يسقي نقده لهذه الفلسفة الغربية.

ثالثاً- إنَّ الفلسفة نبتة لا تزهر إلا في تربة العقل واستقلالية العقل، فالعقلانية هي الشرط الشارط لتمخض الفلسفة، ونلاحظ أنَّ العقلانية مازالت بعيدة عن أن تكون صاحبة الكلمة العليا في الثقافة العربية المعاصرة، ولا نعني بالعقلانية سوى هذا المبدأ البسيط والثوري معاً: إنَّه لا يجوز أن تعلو فوق سلطة العقل أي سلطة أخرى.

«الأنتلجنسيا العربية والإضراب عن التفكير»:

تمثل المناظرة التمثيلية التي جرت بين مفكر المغرب محمد عابد الجابري، ومفكر المشرق حسن حنفي على صفحات اليوم السابع عام ١٩٨٩م، مثالاً لأنتلجنسيا رافضة لأداء وظيفتها، أي أنتلجنسيا هي في حالة إضراب عن التفكير، وتقدم لنا ثالث حلقات هذه المناظرة التي دارت حول «العلمانية والإسلام» مثالاً تطبيقياً حول ما يمكن أن تعنيه حالة الإضراب عن التفكير.

وفي البدء من الضروري القول بأن كلمة «مناظرة» لا تنطبق على ما دار بين الرجلين من حوار، فكيف يعقل أن «يتناظر» مفكران، هما في الأساس متفقان بالموقف من العلمانية، فالجابري يتبرأ من العلمانية بحجة أن «الإسلام ليس كنيسة كي نفصله عن الدولة» كما يقول عنوان مداخلته، والثاني يغسل يديه من العلمانية بحجة أن «الإسلام لا يحتاج لعلمانية غربية» كما يقول عنوان مداخلة حسن حنفي.

إنَّ عنوان كل من المداخلتين ينطوي على قدر من اللاتفكير، فعنوان الجابري ينطوي في بنيته على المنطق الصوري: العلمانية هي فصل الكنيسة عن الدولة، الإسلام ليس فيه كنيسة، إذاً الإسلام لا يحتاج العلمانية، ويختم الجابري مداخلته بالقول: «العلمانية بمعنى فصل الدين عن الدولة غير ذات موضوع في الإسلام، لأنه ليس فيه كنيسة حتى تفصل عن الدولة أو تفصل الدولة عنها».

وكما في كل منطق شكلي فإنَّ العملية الاستدلالية يثبت فسادها ومن ثم خلوها من التفكير إذا أمكن الطعن في مقدمتها الكبرى أو الصغرى تمهيداً للطعن بنتيجتها، واستدلال الجابري قابل للطعن في مقدمتيه

الكبرى والصغرى تمهيداً للطعن بالنتيجة.

المقدمة الكبرى: العلمانية هي فصل الكنيسة عن الدولة.

المقدمة الصغرى: الإسلام ليس فيه كنيسة.

النتيجة: الإسلام لا يحتاج للفصل.

ونلاحظ أنَّ المقدمة الكبرى عند الجابري مبنية على حيلة شكلية، فليس صحيحاً تعريف العلمانية بأنها فصل للكنيسة عن الدولة، فالكنيسة هي حالة جزئية من حالات ذلك الكلي وهو الدين. وبالمنطق فحين تبنى المقدمة الكبرى فمن الواجب كما يعلمنا المنطق أن تبنى من خلال الكلي الأكثر كلية، والجابري اختار أن يرد الكلي وهو الدين إلى إحدى جزئياته فقط أي الكنيسة، لأنه لو بنى محاكمته ابتداء من الكلي لأفلتت من يده النتيجة التي يتوخاها ولأخذت المحاكمة الشكل التالي: العلمانية هي فصل الدين عن الدولة، الإسلام دين، الإسلام يحتاج للفصل.

إنَّ الجابري يعرف سلفاً النتيجة التي يريد الوصول إليها ولم يكن أمامه سوى التلاعب بتعريف العلمانية ويزيحه بوصة أو بوصتين عن منطوقه الأكثر شمولية ليجعله يعني فقط فصل الكنيسة عن الدولة، لا فصل الدين عن الدولة.

ولنأتي للمقدمة الصغرى التي يفترض بها منطقياً أن تتصل بتقرير الوقائع أكثر مما تتصل بتقرير المبادئ، فمن البداهة أن الإسلام ليس فيه كنيسة ولكن من البداهة أيضاً وجود سلطة دينية في الإسلام، وصحيح أن الإسلام ليس فيه كهنوت لكنه ككل دين فيه رجال دين ووظيفتهم القيام بشؤون الدين، وصحيح أن وظيفتهم ليست كما في الكاثوليكية أن يكونوا وسطاء بين الإنسان وربه، ولكن وساطتهم لا غنى عنها بين الإنسان وشؤون دينه، وقد يقع خلاف حول وظيفتهم وجواز تسميتهم رجال دين لكن لا يمكن أن يقع خلاف على الواقع التاريخي لوجودهم فهم كانوا موجودين والآن هم موجودون أيضاً وليس ثمة ما يحمل على الاعتقاد أنَّهم لم يكونوا موجودين، فلا دين من دون رجال دين.

إذن، ليس في الإسلام كنيسة أو كهنوت، لكنه ككل دين فيه سلطة دينية، وبطبيعة الحال فالعلمانية لا تعني إلغاء السلطة الدينية بل تعني فقط فصل السلطة السياسية عن السلطة الدينية، وتبدو الحاجة للفصل أكثر إلحاحاً في الحالة العربية، خاصة في هذه المرحلة حيث تجري عملية تسييس الدين وتديين السياسة. وباستطاعتنا أن ندرك عدم لزوم النتيجة التي ينتهي إليها الجابري ترتيباً على مقدمته الصغرى، ومن قبلها على المقدمة الكبرى المكافئة لها في

عـدم المطابقة، من خلال التذكير أن مفكراً مثل طه حسين في كتابـه «مستقبل الثقافة في مصر» كان قد استنتج من المقدمة نفسها (الإسلام ليس فيه كنيسـة) نتيجة معاكسة تماماً لنتيجة الجابري، حيث رأى طه حسين بأنـه ما دام لا يوجـد في الإسلام كنيسة أو لاهـوت وطالما لم تنشأ فيـه طبقة منفصلة ذات مصالح في سيطرة الدين على المجتمع فإن الفصل بين الدين والدولة سيكون أسهل على المسلمين.

والواقـع أننا لو أجرينـا مقارنة بين ما يقوله الجابـري لإثبات عدم لزوم العلمانية مع ما يقوله الأصوليون، فسنجد أنهم يصلون لنتيجـة الجابـري نفسها ولكـن بصراحة ومن دون مـراءاة ولا يلجؤون لحيل المنطق، فالأصوليون يجرون المحاكمة التالية:

العلمانية هي فصـل الدين عن الدولة، الإسـلام دين ودولـة، فالإسـلام لا يحتاج للعلمانية. والواضح أن استدلالهم أقوى من استدلال الجابري لأنه على الأقل يقوم على مقدمـة كبرى صحيحة، في حـين أن نقطة ضعفه تكمن في مقدمته الصغرى.

إنَّ الجابـري يدعـو لسحـب مصطلح العلمانية من قاموس الفكر العربي وتعويضه بشعـاريّ الديمقراطيـة والعقلانية لأنهما تعبران عن حاجات المجتمـع العربي تعبيراً مطابقاً، ومن الغريب أن تصدر هذه الدعوة من مفكر لأن مهمته كمفكر هي أن يوسع – ما أمكنه – قاموس الفكر، لا أن يضيقه.

إنَّ الجابـري يمارس ضربـاً من العزل والتقطيـع والبتر للمفاهيم حينما يدعو إلى الاستعاضة عـن شعار العلمانيـة بشعاريّ الديمقراطيـة والعقلانية، وعلى هذا النحو تتحول الحداثة إلى سوق للخردة نبتاع منها بأبخـس الأثمان مـا نشاء، ونـدع ما نشاء إذا تخوفنا من ارتفاع مـا في ثمن التكلفة. والواقع أن استبعاد الجابري للعلمانية أشبه بفعل من يريد أن يجعل كرسي الحداثة يقف على قائمتين بدلاً مـن ثلاث أو أربع، ومثل هذه العملية البهلوانيـة كان يمكن مع ذلك أن تكون ممكنة لـولا أن المنشار لا يستطيع أن ينشر قائمة العلمانيـة من دون أن ينشر بعضاً مـن قائمتي العقلانية والديمقراطية بالذات.

إنَّ مبدأ المنشار كبديل عن مبدأ التفكير، هـو ما يعتمـده المناظر المفترض للأستاذ الجابـري، أي الدكتـور حسن حنفي، حيث يرى حنفي هو الآخر بأن «الإسلام لا يحتاج

علمانية غربيــة» لأن العلمانية منقولة إلينا من الغرب.

إنَّ حسن حنفي لو أنه مارس فقط التفكير اللامتماسك المنطقي لكنا اعتبرنا ممارسته عينة أخــرى من إضــراب الأنتلجنسيا عن التفكــير فقط، لكن هــو يتعدى ذلك إلى ما يمكن تسميته مع جــورج قرم بثقافة الفتنة أي ثقافــة التحريضــ الطائفي، حيث يرى حنفــي أنَّ كل العلمانيــين كانوا من نصارى الشام الذيــن كان ولاؤهم الحضاري للغرب ولا ينتسبــون للإسلام دينــاً وحضارة، ومن المخجل حقيقة الرد على كلام حنفي.

إنَّ العلمانيــة لم تنقــل إلينــا مــن قبيل التغريب والتقليد الببغاوي، وما يقوله حنفي عــن ربــط العلمانية بالتغريــب نقول نحن عكسه هــو الأصح، ففي مصــر و(+(بنك: سوريــة)+)، وعقب الاحتلالــين الإنكليزي والفرنسي، جاءت مبادرة رفع شعار العلمانية من قبل الوطنيــين والقوميين، من مسلمين ومسيحيين على حد ســواء، وذلك رداً على محاولة الاستعمار الضرب على وتر التفرقة الدينية وتطوير الحساسيــات المذهبية إلى «مسألة طائفية» تكون بمثابة رديف تبريري وتدعيمي للمسألة الكولونيالية.

«الذات العربية وجرحها النرجسي»:

«عــودة إشكاليــة الــتراث والحداثــة في الثقافة العربية»:

في مقــال نشــره سيغمونــد فرويد عام ١٩١٧م، تحــت عنــوان «الجــرح النرجسي الكوني»، تحــدث عن جــرح نرجسي فريد يصــح أن نسميه الجــرح النرجسي الكوني، إذ قــد نشأ هذا الجرح بسبب الإذلال الذي تعرضــت له كبريــاء البشرية وعــزة نفسها الكونية ثلاث مــرات على التوالي من جراء تقدم العلم وتوالي كشوفه.

وقد كان أوَّل تلك الجروح التي منيت بها النرجسيــة الكونية الجــرح الكوسمولوجي، وهو ذاك الــذي أحدثته نظرية كوبرنيكوس عندمــا قلبــت معادلــة الجاذبيــة الكونية وبدلت قطــب المركزية في النظــام الفلكي وقررت الحقيقة المؤلمة بالنسبة إلى عزة نفس البشرية وهــي: أن الأرض هــي التي تدور حول الشمس وليس العكس.

ثــم كان بعــد ذلك الجــرح البيولوجي، فالإنســان الــذي تفاخــر بأنه مــن أصل سمــاوي وجد نفسه مكرهــاً وتحت ضغط البرهان العلمي على الاعتراف بأن السلالة البيولوجية التي ينحــدر منها هي السلالة الحيوانية.

أمَّــا ثالث الجــروح النرجسية فكان من

طبيعة سيكولوجية، وقد كان من فعل مؤسس علم نفس الأعماق، فرويد نفسه. فالتحليل النفسي مثل كذلك نظرية انقلابية، فكما أن الأرض لم تعد مركز الكون مع كوبرنيكوس، وكما أن الإنسان السماوي لم يعد مركز سلالته مع داروين، كذلك فإنَّ النفس البشرية لم تعد مع فرويد مركز ذاتها، فتحت سطح الوعي يكمن أوقيانوس اللاشعور.

وإضافة لهذه الجروح الثلاثة نضيف نحن جرحاً نرجسياً رابعاً، لا نتردد في وصفه بأنه جرح من طبيعة أنتربولوجية.

إنَّ صاحب نظرية الجرح النرجسي الكوني كان ابناً نموذجياً للحضارة الغربية، وبالتالي فإنَّ الإنسان المعني بتلك الجروح التي أنزلتها ثورة العلم الحديث ليس الإنسان بمطلقيته، بل الإنسان الغربي حصراً.

أمَّا الإنسان غير الغربي بالمقابل فكان كوبرنيكه بالأحرى هو الغرب عينه: فقد اكتشف نفسه متأخراً في مرآة الغرب المتقدم. وفي الحالة العربية، فإن هذا الجرح الأنتربولوجي كان مضاعفاً، فقد اقترن السؤال: لماذا تقدم الغرب؟ بآخر لا يقبل عنه انفصالاً: لماذا تأخرنا نحن العرب المسلمين؟

في الحالة العربية، نزع السؤال منذ البداية إلى أن يكون تراجيديا. إنَّ الجرح الأنتربولوجي العربي بالغ العمق، إنَّه جرح تقدم الآخر مع أنه كان في الوعي السائد، لحظة صدمة اللقاء مع الغرب، متأخراً. وجرح تأخر الذات مع أنَّها كانت في توهمها متقدمة.

إنَّ مفهوم التراث بل الوعي بوجود تراث بمعنى «ثقافة الأسلاف»، قد رأى النور هو نفسه عقب «صدمة اللقاء مع الغرب» ومن جراء الاحتكاك بثقافة الآخر، فإلى حين الحملة النابليونية على مصر، لم تكن كلمة تراث تعني إطلاقاً ما تعنيه اليوم، وبالإحالة إلى «لسان العرب»، فإننا نجد أنَّ كلمة تراث ما كانت تعني شيئاً آخر غير الإرث والميراث بالمعنى المادي للكلمة.

وبالعودة إلى مفهومنا عن «الجرح الأنتربولوجي»، فإننا نستطيع القول بأنَّ مفهوم التراث لم يفرض نفسه بالقوة التي فرض بها نفسه في الحقل التداولي للثقافة العربية الحديثة إلا على سبيل رد الفعل وكمحاولة واعية لتضميد ذلك الجرح.

فالتراث، بالكيفية التي وظف بها هذا المفهوم، هو رد فعل ثقافة ذات اكتشفت على حين غرة، في مواجهة ثقافة الآخر، أنَّها بلا ثقافة. أو فلنقل، إنَّه ردة فعل ثقافة اكتشفت على حين غرة، في مواجهة حاضر ثقافة الآخر، إنَّها بلا حاضر، فارتدت نحو ماضيها لتوصل ما انقطع.

وهكذا يكون الجرح الأنتربولوجي قد

اعتمل على مستوى قطيعتين: قطيعة العرب عن حاضر الغرب، وقطيعتهم عن ماضي العرب أنفسهم. وعلى هذا النحو، اقتحم ساحة الوعي العربي مفهومان تأسيسيان جديدان: الثقافة بالإحالة إلى الآخر، والتراث بالإحالة إلى الذات. وبين فكي كماشة هذين المفهومين لا يفتأ الوعي العربي منذ نحو قرنين من الزمن، يتقلب ويتخبط. فهو يريد نفسه في ثقافة العصر من دون أن يقطع مع تراثه، وهو يريد أن يحيي تراث ماضيه من دون أن يميت نفسه عن ثقافة العصر.

«العلمانية: مسألة سياسية لا دينية»:

ما يميز الخطاب العربي الحديث قدرته الهائلة على الاستدماج السريع للمصطلحات الأيديولوجية، فقبل قرن لا أكثر كانت اللغة العربية تجهل مئات المفاهيم التي باتت لها الغلبة في الخطاب العربي الحديث من قبيل القومية والأممية والرأسمالية والاشتراكية والليبرالية والفاشية والسريالية والبنيوية.. إلخ.

مفهوم واحد لم يأخذ طريقه إلى التبيئة: «العلمانية». وإن استطاع المصطلح أن يفرض نفسه في المشرق العربي حيث ثمة وجود لأقليات مسيحية، فاستعار من قاموسها اللاهوتي تعبير «العلماني»، بالتعارض مع «الإكليريكي»، فإنَّه في المغرب حيث لا وجود لتلك الأقليات لم يفلح إلا في أن يلجأ إلى التعريب الحرفي، فبات يقال للعلمانية «لائكية».

وبغض النظر عن اللفظ ذاته، فإنَّ المفهوم لم يفلح قط في أن يفوز بحقوق المواطنة، ولقد استبيح المفهوم واللفظ معاً إلى درجة أنَّ مفكراً مثل محمد عابد الجابري طالب بسحب مصطلح العلمانية نهائياً من القاموس التداولي للفكر العربي.

وفي سياق المساءلة الجديدة لإشكالية العلمانية يأتي كتاب «العلمانية» لموريس باربييه مدرس مادة العلوم السياسية في جامعة نانسي الثانية. كتاب مميز، لأنه يفك أسر العلمانية من قيود الأيديولوجيا أولاً، وثانياً لأنَّه يتقدم بنظرية في العلمانية تتمتع بمستوى عالٍ من الأصالة، وذلك بقدر ما تربط بين العلمانية وبين ما يسميه م. باربييه «الحداثة السياسية».

ففيما يتعلق بتنظيم العلاقات بين الدولة والدين، ثمة صيغتان كبيرتان تتسع كل منهما لتمايزات وتباينات في الجزئيات: فإمَّا أن تكون الروابط موصولة وموثوقة بين الدولة ودين بعينه، يحكمها ويقودها (وتلك هي الثيوقراطية أو الحكومة الدينية)، أو تدعمه وتقوده (وتلك هي الدولة الطائفية)، وإمَّا أن يكون بين الدولة والدين انفصال متفاوت في حديته بحيث لا تتدخل الدولة

في مسائل الدين، ولا تمارس الطوائف أي تأثير مباشر على الشؤون العامة.

إنَّ الفصل التام بين الدولة والدين لا يقوم إلا في بلدان قليلة: فرنسا، الولايات المتحدة الأمريكية، المكسيك، تركيا. وكثيرة هي بالمقابل الدول التي تعرف في أوروبة بـ«نصف علمانية» مثل ألمانيا وبلجيكا وهولندا. فالدولة في ألمانيا مثلاً، حيادية لا تنتصر لدين على دين، ولاوجود فيها لدين دولة أو لكنيسة قومية، وهي بهذا المعنى دولة علمانية، ولكنها بالمقابل لم تبت صلتها بالكنائس، البروتستانتية والكاثوليكية حصراً، وتعتبرها كهيئات اجتماعية تابعة للقانون العام وتقر لها بحقها في التعليم الديني لأتباعها في المدارس العمومية.

وأمَّا بريطانيا فإنها تقدم نموذجاً لدولة «لا علمانية» من دون أن يعني هذا أنَّها دولة دينية. فالكنيسة الأنغليكانية مازالت لها في انكلترا صفة الكنيسة الرسمية، والملك أو الملكة هو رأس هذه الكنيسة. وتقدم الحكومة للكنيسة نصف كلفة صيانة مبانيها، وتعفي مداخيلها من الضريبة، والأساقفة الأنغليكانيون أعضاء شرف في مجلس اللوردات.

هذا فيما يتعلق بالواقع التطبيقي للعلمانية، أمَّا فيما يخص نظريتها فإنَّ الجديد الذي يقدمه كتاب باربييه هو افتراضه بأنَّ العلمانية لا تقتضي فقط فصلاً بين الدولة والدين، بل فصلاً أكثر جذرية ما بين الدولة والمجتمع المدني، مما يستلزم بدوره تشكل دولة حديثة مكلفة بالمصلحة العامة، وفي الوقت نفسه تشكل مجتمع يستطيع الأفراد في إطاره أن ينشدوا بملء الحرية مصالحهم الخاصة.

هذا الفصل بين المجتمع المدني والدولة هو ما يسمح بالتمييز بين الإنسان كفرد وبين المواطن، وحقوق المواطن هي تلك التي يحوزها الأفراد بصفتهم أعضاء في المجتمع المدني، ومن ثم فهي لا توجد، ولا يمكن أن توجد إلا بعد أن يتكون المجتمع المدني بافتراقه عن الدولة وبحيازته استقلاله أو سؤدده الذاتي.

إذن، فالانفصال بين الدولة والمجتمع المدني يشكل شرطاً أساسياً للعلمانية، فالدولة الحديثة الحقة توجد بذاتها ولذاتها من دون أن تكون بحاجة إلى دين، وينجم عن ذلك أنَّ العلمانية مسألة سياسية في جوهرها، لا مسألة دينية. وهذا معناه أنها مسألة تابعة للدولة لا للدين، وبالفعل إن الدولة هي التي تقرر دوماً وتفرض العلمانية فرضاً أحياناً. فالدولة الحديثة الناجزة هي الدولة العلمانية، وإذا كان قوام المسألة السياسية تكوين دولة حديثة منفصلة عن المجتمع المدني، فإنَّ العلمانية تبدو في هذه الحال

عنصراً تركيبياً أساسياً في هذه السيرورة، إذ من دونها لا يمكن أن توجد دولة حديثة حقاً وعليه فإنَّ العلمانية مسألة سياسية أو جزء لا يتجزأ من المسألة السياسية.

«تذييل حول أصل كلمة علمانية باللغة العربية»:

هناك تصور شائع في الأدبيات العربية المعاصرة عن العلمانية مؤداه بأنَّ هذا المصطلح جرى نحته في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ووقع خلاف حول إعجام العين في هذا المصطلح المترجم: أهو بالفتح (عَلمانية) نسبة إلى العالم، أم بالكسر (عِلمانية) نسبة إلى العلم.

ولكن التنقيب عن أصل المصطلح أتاح لنا أن نربطه باللاهوت المسيحي المكتوب بالعربية، وهذا منذ القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي على الأقل.

ففي كتاب بعنوان «مصباح العقل»، وضعه الأسقف واللاهوتي القبطي ساويرس بن المقفع، والذي شغل منصب كاتب في الدولة الإخشيدية في العهد الفاطمي، وفي معرض الكلام عن الخلاف بين الطوائف المسيحية حول زواج الكاهن قال: «التزويج مختلف عندنا، لأنَّ للكهنة شروطاً ذكرها الكتاب، وهي ألا يتزوجوا بأرملة ولا مطلقة ولا زانية. وليس للكاهن أن يتزوج بعد امرأته الأولى بغيرها، هذا بإجماع النصارى. وقد رأى المتقدمون بعد ذلك رأياً في الأساقفة، أمّا المصريون فرأوا أن يكون الأسقف، بالإسكندرية خاصة، بتولاً لم يتزوج في حال عَلمانيته».

وليس لنا على هذا النص سوى تعليقين:

الأول- إن استعمال ابن المقفع القبطي لكلمة علمانية من دون أن تكون به حاجة إلى شرحها، إنَّما يدل على أنَّه ليس أوَّل من استعملها وعلى أنها كانت رائجة بالتالي في الحقل التداولي لرجال الكنيسة، وهذا معناه أنَّ تاريخ نحت المصطلح يعود إلى أبعد من القرن الرابع الهجري، وربما إلى القرن الثاني الهجري الذي شهد بداية تعريب الكنائس المسيحية.

الثاني- نظراً إلى السياق الذي وردت فيه الكلمة في النص وهو التمييز في الأسقف بين طوره الدنيوي وطوره الكنسي، إذ يشترط فيه البتولية (عدم الزواج) «في حال علمانيته»، فلا مجال للشك في أنَّ عين العلمانية ينبغي أن تعجم بالفتحة لا بالكسرة، لأنَّها لا تحيل إلى العلم، بل إلى العالم أي الدنيا. وهذا هو أصلاً معنى الجذر اليوناني (لايكوس) واللاتيني للكلمة. فاللايكوس هو من ينتمي للشعب، إلى العامة، ومن ثم إلى الأميين، وليس إلى طبقة رجال الكهنوت الذين كانوا يحتكرون العلم في حينه.

خاتمــة

يقــول طرابيشي: إنَّ الجيل الذي أنتمي إليه، عاشــ وعشنا معه قطيعــة كاملة مع التراث. لقــد اتجه تفكيرنا واتجــه بنياننا الذهنــي كلــه إلى الأيديولوجيــات الغربية الحديثة التي تحولت كلهــا على أيدينا إلى كتب مقدسة سواء أكانت ماركسية أو قومية أو اشتراكيــة أو وحدوية. عشنا قطيعة تامة مع تراث كنَّا ننظر إليه على أنَّه ليس أكثر من كتــب صفراء. بعد ذلك أمام فشل مشروعنا التحديثي وخيبتــه، إزاء فشل «ثورتنا» التي لم تنجــح إلا في إحراقنــا وإحــراق نفسها، ثــم أمام السقوط المــدوي للأيديولوجيات، حدث تبدل أساسي، خصوصاً وأنَّ ذلك كله تلا هزيمة العــام ١٩٦٧م، ثم امتداد أفكار التطرف والعنف، باسم الإسلام.

إنَّ هذا كله جعلني أنا شخصياً على الأقل أعيد النظر في موروثي الثقافي لأكتشف ما كان بيني وبين الــتراث من قطيعة. والحال إن هــذه القطيعــة بدت لعينــي أكبر حين اضطرتني الحرب اللبنانية للرحيل إلى باريس هربــاً وخصوصاً مــن الاقتتال الطائفي في لبنان الذي كنت أقيم فيه عند ذاك.

إزاء هذا كله راحت تتفاعل لدي، وعلى غير توقع مني، علاقتي مع التراث، إذ اكتشفت فيه بديلاً عن الوطن الذي غادرت. ومن هنا جاء اهتمامي بمشروع المفكر المغربي محمد عابد الجابري الذي كان أوَّل من طرح فكرة نقــد العقل العربي، راغبــاً لنفسه أن يكون أبستمولوجياً (معرفياً) في نقده، متكئاً على المناهج الحديثــة. لقد وجدت في مشروعه، أوَّل الأمر، نقيضــاً للمشروع الذي كنت قد عشت عليه. غير أنَّ رحلة إعجابي بالجابري لم تــدم طويــلاً، إذ شعرت بسرعــة أنَّ هذا المفكر أصاب العنوان لكنــه أخطأ الهدف. أي إنه لم يقم بعملية النقد التي اعتقدناها. بل صادر عملية النقــد في الوقت الذي كنَّا في أمس الحاجة إليها.

وفي المقابــل اكتشفت هنا في الغرب، أنَّ هذا الغــرب لم يبن نفســه إلا بقدر ما نقد نفســه. العقل الغربي صــار متفوقاً وعالمي الحضارة حين مارس النقد الذاتي. أمَّا نحن الذيــن لدينا موروث لا يقل أهمية أو حجماً عــن الموروث الغربي، فإننــا لن نستطيع أن نباشر مهمة التحديث والوصول إلى النهضة المرجــوة ما لم نقم بالعمليــة النقدية نفسها التي أخضع الغــرب نفسه لها. لن نستطيع أن نخوض معركــة الحداثة ونحن عراة من النقد الحقيقي.

فــإذا قارنا بــين حالنا وحــال اليابان سنجــد الفارق أساسياً: هــم لم يصطدموا، حــين بدؤوا نهضتهم بوجــود الاستعمار في أراضيهم. اصطدموا بالتقدم الغربي وأرادوا أن يتقدموا ففعلوا. أمَّا نحن فإننا اصطدمنا

مباشرة بالاستعمار، وكان ذلك قبل اكتشاف التقدم. وبالتالي كان على المثقف النهضوي أن يهدم ويبني في الوقت نفسه، كان عليه أن يحارب الاستعمار ويبني النهضة. فضاع بين الأمرين، فلا استطاع، هو أن ينتصر على الاستعمار لاحقاً، ولا استطاع أن يبني نهضة فكرية نقدية حقيقية.

ونحن نعرف، من دون ذكر الأمثلة، أنَّ عشرات من المفكرين العرب كتبوا تحت وطأة هذا المأزق في شقيه. ونعرف أنَّ النقد لا يمكنه إلا أن يكون جذرياً. وأنا، بالنسبة إلي اكتشفت لاحقاً حاجتنا العربية الماسة إلى النقد. لكنني اكتشفت أيضاً أننا، في فكرنا العربي، كنَّا كلما ابتعدنا عن الاستعمار، تزداد لدينا عقدة الانطواء والدفاع عن النفس، مما ولّد لدينا عصاباً جماعياً، لعل سببه الأحدث بالأساس، هو رضة حزيران. وأقول رضة لأنَّ الرضة أقسى من الصدمة. صدمة الحملة الفرنسية أوائل القرن التاسع عشر أيقظتنا من السبات وكشفت لنا الحاجة إلى التقدم والنهضة.

أمَّا رضة حزيران ١٩٦٧م فكانت مخدرة، ذهبت بعقولنا، مما دفعنا إلى البحث عن حل وسط جملة أوهام لا وجود لها في الواقع. بل أقول إن هذه الرضة لم توصل المثقف العربي (لئلا أقول الإنسان العربي) فقط إلى عصاب جماعي، بل إلى ذهان جماعي.

من هنا نلاحظ كيف أنَّ كثراً من أبناء جيل القوميين – بل الماركسيين حتى – انتهوا متطرفين غيبيين، رضة حزيران كانت أقوى منهم.

وهنا أود أن أوضح فارقاً أساسياً بين جيلنا على علاته، وجيل اليوم المتطرف. في سنوات الخمسين من القرن الماضي، كنا جميعاً نقاتل الاستعمار وكانت ثورة الجزائر قدوة لنا في ذلك.

كنَّا نقاتل ضد الاستعمار الغربي، لكننا كنَّا منفتحين كلياً على التقدم الغربي، وعلى الثقافة الغربية. اليوم انقلبت الآية، غُضَّ النظر تماماً عن الاستعمار والاستغلال الغربيين، لتنصبّ الكراهية كلها على الثقافة الغربية. وفي رأيي إن هذا أخطر مقلب تعيشه أمتنا ومنطقتنا. إنَّ المثقف العربي مسؤول، ولو جزئياً، عن هذا الواقع الذي يحمل قدراً كبيراً من التناقض والازدواجية القاتلة، انطلاقاً من بعدين: بعد اللاوعي، حيث إنَّ هزيمة حزيران دمرت قدرته على رؤية الواقع وقراءته بشكل صحيح، فكان أن التجأ إلى آليات دفاع لا شعورية، وبعد ذلك البعد الواعي الذي ساهمت فيه إغراءات سلطة المال والامتيازات التي أغرقت الساحة واشترت النشر والإعلام والنشاط الجامعي، في شكل لا سابق له في تاريخ العرب أو الغرب.

لقد أنفق في العالم العربي عشرات بلايين الدولارات لخلق ثقافة مضادة للحداثة. وبالتالي فقد المثقف سيطرته على الواقع. في المقابل بحث عن خطاب يسيطر عبره، فوجد خطاب التراث، فأمسك به كما هو وأعاد إنتاجه، ولكن بشكل سيئ، يبدو أكثر ضآلة من الشكل الذي به اشتغل عليه تراثيون سابقون، بحيث لم نجد لدينا، مثلاً، من هو في مستوى السيوطي أو الشافعي عمقاً وفاعلية. رحنا نأكل على مائدة التراث، لكننا لم نأكل سوى الفتات.

ولعلني أستطيع أن أتحدث هنا، للتوضيح، عن عقدة قتل الأب. فنحن، إذ قاطعنا التراث طويلاً أيام ازدهار «الثورة» أتت هزيمة حزيران لتولد لدينا مشاعر التأنيب فاكتشفنا أننا كمن قتل أباه. وبدا لنا أنَّ مشروعنا السابق لإيجاد بديل له قد سقط بدوره. وأتحدث هنا، طبعاً، عن جمال عبد الناصر، الذي أردته إسرائيل أولاً، ثم أرداه حلفاؤه. عبد الناصر كان يمكن أن يشكل بديلاً حقيقياً، لكننا ساهمنا في قتله، لنعود إلى أب مثالي كان هذه المرة: التراث.

أنا لا أقول هنا إنَّ التراث ليس أباً. بل هو بالفعل أب بين الآباء، لكن المشكلة فينا لأننا اكتفينا بطلب حمايته لنا، فلم نؤد له خدمة، بل ساهمنا في موته هو الآخر. كان -ولا يزال- المهم أن نحييه فعلاً، بوسائل حديثة، لا أن نهرب إليه من الحداثة في قطيعة معها.

إننا محتاجون إلى التراث، ولكن أن نتقدم منه من خلال سلاح النقد وحفريات المعرفة ومناهج الحداثة. يجب أن نعيد إحياءه لا أن نبتعثه كما كان قبل ألف سنة، إذا أردنا حقاً إحياءه يجب أن نمكنه من أن يتعايش مع العصر، لا أن نكرره معيدين إنتاجه وكأن الزمن واقف من دون حراك.

ينوس المثقفون العرب بين نزعتين: الذعر حتى الموت إزاء ذلك المخلوق، والإعجاب حتى التماهي معه. وما هذا إلا لأن المثقف العربي لا يزال -بشكلٍ عام- فاقد الفعالية التاريخية، باحثاً عن آباءٍ وهميين يحتمي بهم.

ولكن المسألة مسألة وعي، أمَّا كيف سيعم هذا الوعي في المجتمع، فسيرورة طويلة قد تحتاج إلى أكثر من مئة سنة. أنا لست متفائلاً قبل انقضاء قرن بكامله.

قبل عقود كنَّا نعتقد أنَّ المسافة التي تفصلنا عن الحداثة، مجرد مسافة اقتصادية - تكنولوجية. اليوم، بتنا واثقين أنَّها مسافة ثقافية - عقلية وهذه أخطر بكثير وأعمق بكثير من تلك التي كنَّا نتوهمها، ونتوهم أننا نستطيع ردمها بقفزة واحدة.

لن يبقى المجتمع على حاله خلال قرن،

فالصورة التـــي أتصورها تتضمن صدامات ومذابـــح كالتي تحدث الآن في العراق، وكان سبق لهـــا أن حدثت في لبنان والجزائر. كنَّا في الماضي نتحدث عـــن «القبرصة»، اليوم، الوضـــع أخطر ومرشح لمزيـــد من الخطر. اليـــوم نتحدث عن اللبننة ثـــم عن العرقنة، التي هي أخطر من اللبننة. وأنا واثق من أن من سيدفع الضريبة ليس المثقف بل المجتمع ككل، سيدفعهـــا من دمه ودم ضحاياه. مهما يكـــن فإنَّ حال العراق ستنتج في نهاية الأمر شيئـــاً شديد السلبيـــة. ففي العـــراق الآن حرب طائفيـــة أكثر منها حـــرب تحرير أو حرب تطوير، إنَّهـــا حرب طائفية مكشوفة، لو تفاقمت ستدفـــع كل المجتمعات العربية الثمن غالياً جدّاً.

كخلاصـــة لهذا كلـــه نحن أمـــام مأزق جوهري: إنَّ المتطرفين باسم الإسلام، غزوا المجتمع كله مـــن دون أن يطالبوا بالسلطة، اشتغلوا على المجتمع وهنا كمنت عبقريتهم، في المقابل نحن الذين، سواء أكنا قوميين أو ماركسيين ومـــا إلى ذلك، كان أوّل ما سعينا إليه هو السلطة مستبعدين حتى مطالب مثل فصـــل الدين عن الدولـــة، حتى لا نصطدم بالمجتمع!! .. وإذا استمر هذا المأزق سيكون هنـــاك دمار كبـــير كما حـــدث في العراق. عندها سيدفع المجتمع كلفة عالية.

المراجع

- التحليل النفسي لعصاب جماعي، جورج طرابيشي.
-شرق وغرب، أنوثة ورجولة: جورج طرابيشي.
- الإستراتيجية الطبقية للثورة: جورج طرابيشي.
- هرطقات: جورج طرابيشي.
- المدخل إلى علم الجمال (هيغل): ترجمة جورج طرابيشي.
- الحلم وتأويله (فرويد): ترجمة جورج طرابيشي.
- المقدمة وحياة المفكر وأعماله والخاتمة ومقالاته من المواقع الإلكترونية.

سياسة كل مجتمع هي الابنة الشرعية لثقافته

د. أحمد عمران الزاوي ❁

المتميزون فكرياً في كل مجتمع هم في كل زمن «المثقف» و«الأديب» و«الشاعر» والثلاثة يساهمون في الحراك السياسي ولكن لكل منهم موقعه ونشاطه.

قبل أن نلتقي بتحليل معاني هذه التسميات الثلاث.

ولأنَّ هذا المقال- ولو بالاختصار- يهدف إلى تحديد مساهمة كل من الثلاثة في المسار السياسي.

❁ أديب ومحامٍ وباحث سوري.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

وجب أن نتعرف على ما تعنيه كلمة السياسة.

فالسياسة: من السَّوْس والسَّوْس هو الرئاسة.

أنشد ثعلب:

سادةٌ قادةٌ لكل جميع
ساسةٌ للرجال يوم القتال

وفي الأثر: كان الساسة في بني إسرائيل «أنبياؤهم» لأنَّهم هم الذين كانوا يتولون أمورهم كما يفعل الأمراء والولاة في الرعية.

والسياسة هي القيام بالأعمال لصالح المجتمع.

فالوالي يسوس الرعية. حتى إن: «سوف» أصلها -كما يقول اللغويون- «سو» والفاء زائدة.

هذا المعنى اللغوي «للسياسة» لم يختلف استخدامه في الواقع على مدى الأزمان سوى أنه عمَّ استخدامه في جميع الأنشطة الاجتماعية من البدء إلى القمة فسائس الدواب هو سائس، فلا تختلف مهنته عن سائس الناس إلا باختلاف الموقع.

مع التطور توزعت معاني هذه الكلمة وتنوعت المهمات بحسب المواقع والحضور في حياة الناس.

فرئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والوزراء والمحافظون ومديرو المناطق والنواحي جميعهم ساسة توزعت بينهم سياسة الناس على موقع مواقعهم السلطوية.

بعد ذلك: نعود إلى المقلع اللغوي الذي نبشت منه كلمات «المثقف» و«الأديب» و«الشاعر» ومدى علاقة الأصل اللغوي بالمهمات التي تكلف بها كل منهم.

فالمثقف:

من «ثقف» ومعناها «حَذِق».

فثقَفَ الشيء يعني حذق به وظفر به.

وقد جاء في الآية ٥٧- من الأنفال «**فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ**».

أي إن ظفرت بهم، فشرد بهم مَن وراءهم، أي نكل بهم.[1]

ثم يندرج تحت معنى الثقافة تقويم الاعوجاج ومنه سُمي الرمح «المثقف» لأنَّ اعوجاجه وعقده قد أزيلت عنه فهو «مثقف» بعد أن مرَّت عليه عمليات التسوية.

وفي التعامل الحديث:

رجل ثقيف أي بيِّن الثقافة أي: اتَّسع اطِّلاعه حتى اشتمل على الكثير والمتنوع من العلوم.

وفي مقالة «أم حكم» بنت عبد المطلب ما يفيد هذا المعنى.

«إني حَصَانٌ فما أكلَّم وثقافٌ فما أعلَّم».

(الحَصَـان: معناها المتزوجـة إذ يعتبر الزواج حصناً مانعاً).

والأديب:

من الثلاثـي «أدَبَ» وهـو «الدعاء» أي «النداء» فالصنيع الـذي يدعى إليه الناس يدعى مأدبة.

ولذلـك أطلق على كل دعوةٍ إلى المحامد وإلى كل نهيٍ عن القبائح.

قال طرفة:

نحن في المشتاة ندعو الجفلى

لا ترى الأدب فينا ينتقر[٢]

وقال علي كرَّم الله وجهه:

«**أمَّا إخواننا بنو أمية فقادة أدَبَة**»، أي جمع أديب مثل «كاتب – كَتَبة».

وفي الحديث كما روى ابن مسعود:

«**إنَّ هذا القرآن هو مأدبة الله في الأرض فتعلَّموا من مأدبته**».

فقد شبَّه القرآن بصنيع الخير والمنافع صنعه الله للناس في القرآن ثم دعاهم إليه ومائدة الله هي العلم الذي دعاهم إلى السير وراءه.

«**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ**»(العنكبوت٢٠)

«**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**» (المجادلة ١١/٥٨)

«**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**» (فاطر ٣٥/ ٢٨)

أمَّا الشاعر:

فهو من الثلاثي شَعِر أي عَلِم.

وقد أطلق على نوعٍ من التعبير غلب عليه لتشرُّفه بالوزن والقافيَة.

وفي الحقيقة: كل علم هو شعر.

ولكننا نقول «غَلَب» على القول الموزون والمقفَّى اسم «الشعر» من دون سواه من العلوم التي استخرجت أسماؤها من صميم نشاطها.

فقد غلب اسم «الفقه» على علم الشرع.

وغلب اسم «العود» على المندل- أي الرائحة الذكية التي تضادُّ وتطرد الرائحة الكريهة.

قال: «أبو الطيب» في كافور وقومه:

لا يقبض الموت نفساً من نفوسهم

إلا وفي يده من نتنها عود

لذلك قال الأزهري:

«الشعر هو القريض المحدود بعلامات لا يجاوزها».

فالقائل شاعر والجمع «شعراء» وجمع الشعر «أشعار».

كما أطلقوا اسم شاعر على الفطين صاحب الإحساس الرقيق والتأثر السريع بما يجري خارج كيانه المادي ولكن ذلك كان من باب «الإطلاق» إذ يبقى التعريف بكلمة شاعر خاصاً بمن يعبِّرون «بالقريض الموزون والمقفى» ولكن الشعراء إذ ينصب

اهتمامهم على مشاعرهم لا يولون لما يجري من أحداث الواقع من الاهتمام ذات الدرجة لذلك قال القرآن:

«**وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ۞ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۞ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ**»

(الشعراء- ٢٦/ ٢٢٤- ٢٢٥- ٢٢٦)

لم يستثن غير «**إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا**». (الشعراء ٢٦/٢٢٧)

فقوله: «الغاوون» أي غواة القوم الذين يستمعون إليهم.

وقوله: «**في كل واد يهيمون**» أي في كل لغو من اللغو يخوضون.

مدحاً وذماً مغلوباً بالهوى هائماً على وجهه في كل فنٍّ من الكلام والمعاني.

وقوله: «**يقولون ما لا يفعلون**» أي يحثون على أشياء لا يفعلونها وينهون عن أشياء يرتكبونها. و«استثناؤه» الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

قصد به الذين لم يُنسهم الشعر «ذكر الله» ولا «عمل الصالحات».

لذلك يتضح مما تقدم.

أنَّ مفاهيم «السياسة» و«الثقافة» و«الأدب» و«الشعر».

أخذت أسماءها استخراجاً من نشاطها وما يقوم به كلٌّ منها من عمل لا يشترك فيه غيره.

فالشاعر:

بالمعنى اللغوي، قد لا يكون أديباً وقد لا يكون مثقفاً.

كما أنَّ أيَّاً من الأديب والمثقف لا يطلق عليه اسم الشاعر ما لم يخرج من مربعه ويبدل انتماءه تبديلاً حقيقياً.

الطبيعة المعطاء يستطيع أن يكون مثقفاً إذا حَذِق الأمور.

ولوكان شاعراً أو أديباً.

كذلك يستطيع المثقف أن يكون أديباً إذا تمتع بالأخلاق الواجبة في الأدب لأنَّ الثقافة:

هي مجموع المعلومات التي وفدت من الخارج.

والأخلاق: هي الصفات الكريمة التي تفد من الداخل.

فللثقافة والأدب بمفهومهما اللغوي ونشاطهما الحقيقي جو مستقل عن السياسة يمارسان فيه حريتهما الطبيعية واستقلالهما عن السلطة.

ولكن هذا الجو كان- وما يزال- يتعرض إلى هجوم سلطوي- يتخذ من الإغراء والرشوة أسلوب الجذب فإن استعصى صار الانتقال إلى الاعتقال ومن ثم إلى التصفية.

فرغبة السلطان منذ قديم الزمان أن

يتخلَّى الأديب عن ثوابته الأخلاقية والفكرية وأن يتحـول إلى كاريكاتوري يضخم الصغير ويصغر الكبير.

حينما يبلغ الأديـب أرذل العمر الأدبي يتحول أدبـه إلى مزمار لا تخـرج منه غير أصوات الترويج والتأييد..[٣]

في الأزمنـة الأخـيرة[٤] كثر قـول الزور لكثرة القائلين.

فأبنـاء الأزمنـة السابقة الذيـن كانوا يعلنون أن الله لا يشاء إلا كما يشاء الخليفة وأنَّ الأقـدار هي من مطوياتـه لايختلفون كثيراً عـن أبناء الأزمنة اللاحقـة إذ مثلما كانت كلمـة السابقين مطواعـاً لمن في يده البؤس والنعيـم والذل والعز والغنى والفقر هي حالها فيما تلا.

ولكن:

علـى الأدباء الحقيقيـين الذين تمردوا على الاسترقاق تعقد الآمال وهم إن كانوا قلة فسوف تجتـذب أشعتهم جماهير الصابرين لقد ضاقت مساحة الحرية الأدبية لأسباب عدّة منها:

آ- المساحة الكبيرة التي ملأتها السلطة المرتبطة مع أعداء الوطن.

ب- تحول الكثـير من الأدباء إلى صنف التجار الذيـن يتاجرون بالكلمة فهم يلهثون دومـاً وراء السعر الأعلى من دون أن يخطر على بالهـم أنَّ الأسعار مهمـا ارتفعت هي ثمن بخس[٥] لقاء ما يراق من كرامة الوطن والمواطنين وصفاء العين والضمير.

خاصة، إذا كان البائـع عربياً والمواطن والكرامة العربية هما من يقع عليهما البيع.. وكان المشتري أجنبياً غاصباً يريد المزيد.

في هذا الزمن الذي هو من أردأ الأزمنة في تاريخ أمتنا منذ قرون.

لم تعـد العمالـة تمارسـ في الخفاء بل صارت «وقاحةً جهيرة».

ولم يبق من حاجـة إلى أفراد الاستعمار بالاتهـام لأنَّ وقاحة العميل المجرم اخترقت الحياء حتى آخر محطة فهو بجهارةٍ وعلنية ينادي «تعالوا خذوني إن كنتم تقدرون».

كيـف تتوافر القدرة لأخـذه ومن حوله العشرات من بنادق الاستعمار؟

لم يبق من شك في أنَّ هذا الزمن هو زمن الزنا القومي وأنَّ الأمة تعاني من مواطنيها الزناة أكثر مما تعاني من الاستعمار.

فظلم ذوي القربى أشد مضاضةً

على المرء من وقع الحسام المهند

إنَّ كوننا نتلقى كل شيء من الغير.

يـبرِّر للحقيقـة أن تصنفنـا في زمـرة الشحاذين.

فالشحَّاذ- بحكـم موقعه- يربط محبته وولاءه بمن تلقَّى منه.

يعتصرنـا الألم ونحـن نصـف أنفسنـا بالشحاذين ولكن ما العمل؟

الأمم الحضاريــة تجتاز الأزمنة بسرعة الضوء أمَّا نحن فنسير ببطء السلاحف.

ما تزال حتى اليوم تتجاذبنا قوتان:

«السلفيــة» بشيخوختهــا وحكاياتهــا وأساطيرها.

و«المدنيــة» بثوبها الأرجــواني وشبابها الطاغي.

كلتاهما تشد بنا ونحــن مثل قطعةٍ من القماشــ يوشــك أن يمزقنــا التجاذب من المحزن أنَّ الجانب السلفي ما زال إلى اليوم هــو الغالب على مداركنا وهــو الذي أيبس عروقنا وأصاب طموحنا بالصَّنميَّة وألقى بنا لقمة سائغة بين فكي الطمع والاستغلال.

منذ أكثر من خمسة قرون نعاني من عمى الألوان مرض خطير يلغي قدرة التمييز بين الطبائع والألوان.

– انهــارت قوة محمد علــي على أبواب إستانبول وأُرغِم على أن يعود ويتقوقع داخل حدود مصر.

– ولما تمت أعمال «فرديناند دي لسبس» وصارت القنــاة جاهزة لأن تكون ممراً برياً دوليــاً[٦] وممراً بحرياً يربــط بين القارات فيما هو يربــط بوساطة البحر الأحمر بين «الأطلسي» و«الأبيض» و«الهادي».

بــادرت بريطانيا فتملكــت أكثرية أسهم السويســ واستلمت سلطــة الإدارة وأقصت مصر وقلَّصت دورها القانوني وجعلت منها تابعاً مطيعاً لبريطانيا.

فحينما رفع أحمد عرابي راية الاحتجاج وتجمع تحتها بعض الشرفاء من شباب مصر الذين أرادوا أن تتنفس بلادهم بحريةٍ[٧] ولم يكن قد مضــى على الوجود البريطاني أكثر من عشرين عاماً بادرت بريطانيا إلى تمزيق رايــة عرابي وتشتيت شمل رفاقه ونفيه عن مصر.

– وفي بلدان المغرب العربي.

قوبــل الاكتســاح الفرنســي بمباركــة بريطانيــة مثلما قوبــل الاكتساح البريطاني لمصر والقناة بمباركة فرنسا.

ففي بدايــة القرن التاســع عشر ارتفع العلم الفرنسي على عموم الجزائر ثم تمدَّد ونال استراحته في المغرب العربي وتونس.

– أمَّا في الشــرق العربي «سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الأردن والعراق والجزيرة العربية والإمارات».

فقد تقاسمته (فرنسا وبريطانيا) لأنهما كانتا الأقوى في العالم آنذاك تساءلنا وتساءل سوانا.

لماذا كان هذا؟

فجاء الجواب «واحداً» من جميع الجهات وبجميع الأصوات.

كان من القوة والضعف معاً.

فما كان لضعفنا أن يواجه قوتهم.

ومــع أنَّ واحــداً منا كان قــد قال تلك الحكمة.

تأبى الغصون إذا اجتمعن تكسُّراً

وإذا افـترقـن تـكـسـرت آحــاداً

ذلــك: لم نوله شيئاً من عنايتنا إذا مازلنا متفرقين بلداناً وجماعات ومصالح وجيوشاً وقوانين..

فأنظمة قوتهم وضعفنا هما حدا معادلة ما صرنا إليه.

والضَّعــف- وإن جاء الثاني في الكتابة- فهــو صاحب الدور الأساسي لأنَّ قوة الآخر أبرزهــا ضعفنــا كما أن تفرقنــا خلق فينا الضعف وجعل منَّا فريسة سهلة الاقتناص.

وبينما تتحدث سفن الفضاء عن الموانئ على شواطئ النجوم.

لا نزال نعيش الاختــلاف كل عام حول «رؤية الهلال» و«لا يزال قسمنا الأكثر يعيش الطاعــة لولي الأمر ولو كان عبداً كأن رأسه زبيبة» و«هل كان الإغواء في الجنة لآدم وحواء أم لحواء وحدهــا» و«وجوب التقيُّد بتقديم الرجل اليسرى عند الدخول إلى بيت الخلاء وتقــديم اليمنى عند الخــروج منه ووجوب قــول الخارج من الكنيــف الحمد لله الذي أذهب عنَّا الحزن وعافانا فيقول السامعون شوفيتم فيجيب الخارج عوفيتم».

هــذا وأمثاله من العبــث اللفظي الذي اعتبرنــاه من الأمور الدينيــة المفروضة مع الأمــور الإلهية وهي غير ذلك بل هي حزمة مــن الآداب الاجتماعيــة مورست في زمنها وكان عليها أن تنطوي مع ذلك الزمن.

ولكن-بــكلِّ حزنٍ وأسف- لا نزال نعيش بين حروف ذلك الزمن فلا نجد أي خلاص إلا فيه ولا رجاء إلا منه.

ممــا لا شك فيه أن الالتــزام بمضمون الآية (٦٠) من الأنفال كان أساس منعتنا في ذلك الزمن العظيم فهو الذي حمى حدودنا الأخلاقية والجغرافية وأكسبنا مهابة الأمم منا.[٨]

ولكــن ذلــك الألــق كسفتــه الرغبات والمصالح الدنيوية.

مــع أن الله يصــف الدنيــا بأنها متاع الغرور.[٩]

والنبي (صلى الله عليه وسلم) إبعاداً عن التعلــق بالدنيا أوجــب الإكثار من الحديث عن الموت الذي هو نهايــة الوجود الدنيوي فقال:

«**أكثروا من ذكر هازم اللذات**»

حديــث شريف أو كما قــال (صلى الله عليه وسلم).

وليســ ذهابنا وراء لــذات الدنيا فقط: بل ترافق ذلك مع الغرور القومي.

إذ نشــر التابعــون ومــن شايعهــم أننا بمقتضى التقييم الإلهي «**خَـيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**».[١٠] وأن هذا الاصطفاء من الله «لغة»

و«نبياً» و«كتاباً»، ثم لم يكتف المتناحرون بهذا الحد بل زعموا أنَّ النبي (صلى الله عليه وسلم) بشَّر بأن اللغة العربية هي لغة أهل الجنة.

هذا التفاخر بعث المشاعر القومية في الشعوب التي اعتمدت الدين الإسلامي فطرحت الفكر الشعوبي في ساحة الجدل.

فأكدوا:

- إنَّ خير أمة التي وردت في القرآن تعني بأنَّ العرب صاروا خير أمم ذلك الزمان التي لم تكن تأمر بالمعروف.

لأنَّ هذا التفضل اشترط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله والعرب لم يكونوا بهذه الأوصاف قبل الإسلام ولن يكونوا خير أمة بتركها.

كما لن يحجب هذا التفضيل عن أية أمة أو شعب يؤمن بالله ويأمر بالمعروف وينهي عن الفحشاء والمنكر.

- خلق الله الناس شعوباً وقبائل ليتعارفوا لا ليتفاخروا.[١١]

و«الناس سواسية كأسنان المشط».

بالشعوبية بدأ انهيار الوحدة في الصدور.

ثم بالإقليمية والطائفية والعشائرية تتالى حتى صرنا إلى ما صرنا إليه.

فوحدة الكلمة «رأياً وهدفاً» هي القادرة على إعادة الاعتبار.

والوحدة تقتضي عدم التفاخر «بالجنس» أو «بالدين» أو«بالموقع الاجتماعي»..

حينما نظم الشيخ إبراهيم اليازجي بائيته المشهورة توجه بها إلى قاطني البلاد العربية من «عرب وأكراد وتركمان وأرمن»[١٢]

لأنهم جميعاً يتكلمون العربية لأن العربية صارت نسباً جامعاً بعد قول النبي (صلى الله عليه وسلم): «ليست العربية بأب وأم العربية باللسان فمن تكلم العربية فهو عربي».

على هذا المبدأ بُنِيت «البائية» التي قال فيها الشيخ إبراهيم:

تنبَّهوا واستفيقوا أيها العرب
فقد طمى الخطب حتى غاصتِ الرُّكبُ
لا دولة لكم يشتد أزركم
بها ولا ناصر للخطب ينتدب
أقداركم في عيون الترك نازلة
وحقكم بين أيدي الترك مغتصب

بعد هذا التوغل في أحشاء الماضي:

يجب أن نحدق في تلافيفه وزواياه بحثاً عن دور الثقافة والمثقفين.

لن نتتبَّع ما كان ينبغي أن يكون في سالف الأزمان.

بل سوف نكتفي بالوقوف على المدى المنظور.

تعيش أمتنا اليوم حالات قصوى من التشتت منها:

- الإقليمية والطائفية والعشائرية.
- الثوار والمجابهون والحياديون.
- المسوخ التي اعتمرت النفط وتقلدت الدُّولار.
- أقاليم تعاني من تزايد السكان ومن الحصار السياسي والاقتصادي في هذه الأجواء من التشرذم.

أين يوجد المثقف؟ بل أين يجب أن يوجد؟

ما مدى تأثره وتأثيره فيما هو سائد من فكر وسياسة؟

هل لا يزال على خُطا الأسلاف يوم كان لا يعلو أي صوت على صوت الخليفة الذي خلق الله فيه «كمال» الفهم والعلم والدين والحزم؟

أم بدأت نار القومية تلسع قدميه وتنتشر في ثيابه؟

الزمن الحالي.

لا يطلب من المثقف غير جهاد بالقلم وصدقٍ بالمواقف.

على قلم المثقف أن يوقظ المواطن العربي من إغفائه الذي غيَّبه عمَّا يجري منذ قرون عدة وألاَّ يتخذ من المواقف غير ما يقوي ثقة المواطن العربي بنفسه وقدرته على تجاوز الصعاب.

حينما ارتفعت ثلاثية الثورة الفرنسية[١٣] فوق فرنسا وأوروبة وامتلأت الآفاق بأصوات مطارق الصناعة الحديثة.

صرخ الشرفاء من مثقفينا. «هذه بضاعتنا في حروفٍ جديدة».

ليس من اختلاف سوى أنَّ الثلاثية الفرنسية على السطور في حين أن ثلاثيتنا كانت في الصدور.

«**كلمة حق تقولها في وجه الظلم والظالم تعدل العبادة**» (حديث).

«**الإنسان أخو الإنسان أحب أم كره**» (حديث).

«**لا تقل عبدي وأمتي بل قل (أخي وأختي) فخوّلكم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا يحمِّله فوق طاقته وإن حمَّله فليساعده**» (حديث).

«**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**» (حديث).

«**دخول الجمل في سُمِّ الخِيَاط أيسر من دخول الغني في الجنة..**» (اقتباس من الآية -٤٠- من الأعراف).

قال شرفاء مثقفينا:

لقد تحقق لدينا حكم الشعب قبل أن يعرف العالم النظم الديمقراطية بأكثر من عشرة قرون.

عندما كان خليفتنا يقول: أيُّها الناس

وُليِّت عليكم ولست خيركم أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لي لديكم: كان يقول من مبادئنا الأخلاقية. وعندما قال الخليفة لعلي هل ساءك أنني ساويت بينك وبين خصمك حين قلت لك: قف إلى جانبه في مجلس القضاء؟ أجاب: بل ساءني أنك لم تساو فقد كنَّيتني وناديته باسمه.

كانت قناعة أبي الحسن بصواب ما يقول معتمدة على مبادئنا الأخلاقية.

أولى الواجبات على مثقفنا أن يمحوا انبهار العقل العربي بديمقراطية الغرب ومناعته وأن يبين له بالمنطق أن الذين استطاعوا في الأزمنة اليابسة أن ينثروا ورود الديمقراطية والعلم والمساواة على أمم ذلك الزمان في مقدورهم أن يضعوا القواعد الديمقراطية الجديدة.

حقوق الإنسان لم تكن جميع ما تفوقنا به بل كان بعضه إنَّ الحروف الأولى لأبجدية الصناعة والثقافة وضعت في هذه البلاد، أهرام مصر، وأبنية بعلبك، وبرج بابل، وأبنية تدمر، والحدائق المعلقة، وآثار ماري وأوغاريت وعلم التحنيط.

- وفي العصر الإسلامي الأوّل وضع جابر بن حيان أسرار الكيمياء وعلم الهيئة وسواها إذ ترجم الكثير من مؤلفاته إلى اللغات الأخرى.[١٤]

- الإدريسي أوّل من صنع مثالاً للكرة الأرضية. [١٥]

- الفارابي: الناقد الأوّل لجمهورية أفلاطون[١٦] والشارح المعدِّل لمنطق أرسطو.

- البتاني: أول من قاس السنة الشمسية.[١٧]

- أجدادنا الفينيقيون اكتشفوا أميركا قبل أن يخلق الله كولومبس بأكثر من أربعين قرناً وتركوا آثارهم على جباه الصخور العملاقة مكتوبة بلغتهم الآرامية القديمة.

- هم أوّل من رصد حنجرة الإنسان ووضع الحروف.

وفي جبيل صنعوا ورق الكتابة.

يجب على المثقف أن يزيل من الذهن العربي ما غرسوه فينا من «أزلية تقدمهم وتخلفنا وأبديته».

يجب على المثقف أن يستعرض أمام أشقائه العرب تلك الصفحات الخالدة.

لا لكي نذرف عليها الأقوال ولا لكي نستغني بها عن سواها بل لكي نتخذ منها محرضاً للتخلص مما نحن فيه والبدء بتشييد البناء الحضاري اللائق بأمتنا استرسلنا- ونعتذر- لسببين:

الأوّل: لأن القَلَم عربي ولأنَّ أكثر همومه هي هموم المواطن العربي.

الثاني: لنثبت أن الثقافة هي الأساس الذي قامت عليه السلطة في كل زمان وأن أي انهيار سياسي يسبقه الانهيار الثقافي.

الثقافة الأساس: هي التفوق في العلوم وقيام هذا التفوق مع نضج أخلاقي فالعلم الذي لم يبن على الأخلاق يقود إلى الطغيان والديكتاتورية والأخلاق من دون علم تخلق سلطة من القشور.

الهوامش

١- يجب أن نلفت النظر إلى السياق الذي يبدأ من الآية ٥٥ لأن منها ومن الآية ٥٦ يعرف السبب الذي برر النص على التنكيل والتشريد ففي الآية ٥٥: «**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ**». والآية٥٦: «**الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ**» ثم تأتي الآية ٥٧: ومن ذلك يتبين أن التنكيل هو في من نقضوا العهد مرات عدة وليس في جميع الخصوم والدواب: كل ما يدب على الأرض.

٢- الجفلى: أي الدعوة عامة، وينتقر: أي ينعزل.

٣- الرذيل هو الدون من الناس وقيل هو الرديء. والرذيلة هي ضد الفضيلة (ابن منظور).

٤- نقصد أزمنتنا العربية.

٥- البخس هو القليل وسمي الحرام بخساً لأنه لا بركة فيه.

٦- الطريق البري هو الذي يصل بريطانيا بالهند وفرنسا بجاوا وسومطرة وهولاندا بأندونسيا.

٧- أحمد عرابي باشا عاش بين (٨٤١-١٩١١م) ضابط وطني ثار على الأتراك ثم فيما بعد دعا إلى تحرير البلاد من النفوذ الإنكليزي على مصر وسيطرته الكاملة على القناة فتدخل الإنكليز وقصفوا الإسكندرية ودخلوا القاهرة وحلُّوا الجيش المصري ونفوا عرابي باشا عن مصر في عام (١٨٨٢م) حيث بقي في المنفى حتى عام (١٩٠١م) وبقي في القاهرة حتى توفي فيها في عام (١٩١١م).

٨- «**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ..**» (الأنفال- ٨/ ٦٠).

٩- (الحديد- ٥٧/ ٢٠).

١٠- (آل عمران- ٣/ ١١٠).

١١- (الحجرات- ٤٩/ ١٣).

١٢- الأكراد من الأصل الإيراني- هند أوروبي- ينزعون في «تركيا» و«العراق» و«إيران» و«سورية» والتركمان- قبيلة تركية، والأرمن- جماعة من أرمينيا.

١٣- بدأت في ١٤/٧/١٧٨٩م واستقرت في مجلس الإدارة منذ (١٧٩٥م) حتى (١٧٩٩م).

١٤- عاش بين ١٢٠-٢٠٠هـ ولد في طوس ودفن فيها ولكن لغته ومؤلفاته الخمسمئة كانت باللغة العربية هو الذي وضع اسم الكيمياء على هذا العلم حضر الزئبق والبوتاسيوم والصوديوم وماء الذهب والفضة وحامض الكبريت ودرس السموم وعلم التقطير والتذويب والتمويل والصهر المعدني والترشيح وبرع في الفلك والفلسفة والرياضيات والميكانيك والطبيعة وعلوم الدين صحب جعفر الصادق وأخذ عنه مبادئ علوم الكيمياء والفلك والدين. (الميسرة الإسلامية) حرف- ج-.

١٥- هو رحَّالة مغربي ولد في سبتة برع في الهيئة والطب والجغرافيا عاش بين (١١٠٠-١١٦٥م).

١٦- هو من أعظم فلاسفة العرب توفي في عام ٩٥٠م ولد في فاراب وتوفي في دمشق أقام في مجلس سيف الدولة لقب بالمعلم الثاني له كتب عدّة منها «آراء المدينة الفاضلة» و«رسالة العقل» و«التوفيق بين أرسطوا وأفلاطون» وغيرها.

١٧- هو أبو عبد الله محمد عاش بين عاميّ ٨٥٨- ٩٢٩م.

الذاكرة الكاذبة أو المصطنعة قضية جدلية

د. محمد قاسم عبد الله ❁

شهدت الأوساط العلمية والسياسية والقانونية، منذ عام ١٩٩٠م، جدلاً واسعاً حول دقة وصدق ذاكرة الأطفال الذين تعرضوا لسوء المعاملة الجنسية sexual abuse. فمن جهة أولى، كان الجدل بين الباحثين والمتخصصين في علم النفس الذين شددوا على أنَّ الأطفال الذين تعرضوا لصدمة خلال حياتهم، سيعانون من فقدان ذاكرة كلي أو جزئي partly or fully amnesia لهذه الصدمة وذلك لفترة زمنية، حيث تستعاد الذاكرة فيما بعد من جديد إمَّا بشكل تلقائي أو عن طريق العلاج.

ومن جهة ثانية، يرى الباحثون والمتخصصون الذين شددوا على أن الذاكرة التي تمَّ استعادتها (تلقائياً أو بالمعالجة) هي ذاكرة كاذبة أو غير حقيقية، فهي ذاكرة خيالية أو مصطنعة fictitious ، وأنها نتيجة افتراضات علاجية متعلقة بالحدث الضاغط أو بالصدمة التي مرَّ بها الفرد، والتي لم تحدث إطلاقاً، إلا أنَّ المريض تقبلها على أنَّها حقيقة واقعية.

هناك عاملان جوهريان في صلب هذا الجدل: العامل الأوّل يتعلق بالعلم، والثاني يتعلق بالسياسة. إنَّ أكثر هذا الجدل ذو طبيعة سياسية، ولكن كل وجهة نظر من

❁ باحث وأستاذ الصحة النفسية، في جامعة حلب.

الوجهتين السابقتين، دعمت بإثباتات علمية. ويقول أرمسترونغ Armstrong (١٩٩٤م): «من النادر أن يعتبر الأدب العلمي أن القضية سياسية». وقد يأخذ الجدل العلمي القضية على أنَّها سياسية الطابع، ولكن الرأي السياسي عادة يسهل فهمه، وهو بسيط، في حين أنَّ العلم أكثر تعقيداً. ويعتمد الاتجاه السياسي على وجهتين أيديولوجيتين متعارضتين: الأولى، تتعلق بالأشخاص الذين يعتقدون أنَّ الأطفال صادقون بشكل عام حين يقررون أنَّهم تعرضوا لسوء المعاملة، وأنَّ الراشدين هم أيضاً صادقون حين يشددون على أنَّهم عالجوا ذاكرة هؤلاء الأطفال الذين تعرضوا إلى سوء المعاملة (الجنسية أو الجسمية) حين كانوا صغاراً أو في مرحلة سابقة.

الثانية: تتعلق بالأشخاص الذين يعتقدون أنَّ عند الأطفال قابلية عالية للإيحاء، وبذلك فإنَّ تقاريرهم عن حالتهم موضع شك، وأنَّ الأطفال الذين تعرضوا إلى صدمات شديدة وخطيرة لا يمكنهم إيقاف أو كظم ذاكرتهم التي تمَّ استعادتها حديثاً أو حين يصبحون راشدين. وبذلك فإنها ذاكرة تسمى «معتقدات كاذبة» false beliefs غرسها المعالجون النفسيون في أذهانهم.

تجدر الإشارة إلى أنَّ جميع الاتجاهات أو وجهات النظر السابق ذكرها، إنَّما تشترك بخاصية واحدة تجمعها، وهي أنَّها جميعها لم تُشِرْ إلى أنَّ المعالجين النفسيين يستعملون تقنيات الإيحاء التي تدفع المريض لكي يتذكر أشياء ربما لم تحدث إطلاقاً. كما أنَّهم غير متأكدين ممّا إذا كان الأطفال صادقين أو غير صادقين يؤيدون أو ينكرون ذلك. وسنركز على الاتجاهات والنتائج العلمية عن طريق طرح أسئلة أساسية وتقديم الإجابات العلمية حولها.

حين يتعلق الجدل بالعلم، فهناك موضوعان رئيسان يواجهاننا: الأوّل هو الذاكرة، والثاني أثر العلاج أو التأثير العلاجي. ويتعلق الموضوع الأوّل بالإجابة عن الأسئلة التالية: هل يمكن شفاء وإعادة ذاكرة الأطفال الذين تعرضوا لسوء المعاملة بعد فترة طويلة من فقدانها؟

تعزى هذه الظاهرة لما يسمى «الإعادة أو الشفاء المتأخر للذاكرة» أو ما يسمى «الذاكرة المكبوتة أو المكظومة» أو كما يسميها ليندسي، وريد (Lindsay and Read ، ١٩٩٤) الذاكرة الوهمية illusory memory أو الذاكرة التي تمَّ إحياؤها، أو الذاكرة التفككية كما سماها العالمان سبيجل وشيفلن (Spiegel and Scheflin ، ١٩٩٤).

يتعلق الجدل حول الذاكرة الكاذبة false memory بجانبين مترابطين هما:

١- وثوقية الأطفال وصدقهم بأنَّهم تعرضوا للإساءة والتحرش molested .

٢- وثوقية الراشدين وصدقهم وتأكدهم من أنَّ هؤلاء الأطفال قد تعرضوا للصدمة trauma وخاصة سوء المعاملة الجنسية. ويتعلق هذان الجانبان بسؤال أساسي حول وثوقية وصدق الذاكرة عموماً، والمدى الذي يمكن أن يؤثر اجتماعياً.

يتعلق الاهتمام الثاني والأساسي بتأثير العلاج في الذاكرة. ينظر المعالجون النفسيون إلى دورهم على أنَّه تسهيل لعملية استرجاع وتذكر الصدمة أو حادثة سوء المعاملة التي يتعذر بلوغها واسترجاعها حتى هذه اللحظة، حيث يركز المعالجون عبر عملهم التاريخي الطويل، على شفاء المريض أو الشخص وتخلّصه من المعاناة النفسية أكثر من اهتمامهم بدقة ما تمَّ تذكره.

إنَّ جوهر الجدل القائم بالدور الذي يلعبه تأثير العلاج في الذاكرة. ويتعلق الاهتمام بشكل خاص، بما إذا كانت الذاكرة التي تمَّ استرجاعها وعلاجها لدى هؤلاء الأفراد متأثرة بحماس المعالج وما يغرسه في ذهن الفرد. ويعتقد بعض العلماء أنَّ ذاكرة هؤلاء الأفراد التي تمَّ استرجاعها بالعلاج النفسي هي تركيبات تخيلية أولية، وأنها مصطنعة أو مبتدعة created من قبل الراشدين في المخبر والجلسات العلاجية.

لقد بدأ العلاج الحديث للمرضى الذين تعرضوا لصدمات، والأشخاص الأكثر تعرضاً للصدمات، منذ ما يزيد عن قرن من قبل الروَّاد الأوائل الذين درسوا الهستريا ولاسيما شاركو (١٨٨٧م) وجانيه (١٨٨٩م) وبروير وفرويد (١٨٩٣-١٩٨٥م). لقد أدار جانيه مختبراً لدراسة الهستريا تحت إشراف شاركو في مشفى سليبتريير Salpetriere في فرنسا. وقد وضع نظريته في الهستريا في كتاب متميز عنوانه L،Automatisme Psychologue (١٨٨٩م).

وفقاً لجانيه، تعتبر الصدمة أو الرضة نتيجة أو محصلة لعدم القدرة على التعامل بفعالية، مع مواقف مهددة واقعية، أو عدم القدرة على مواجهة هذه المواقف بكفاءة. بعض الانفعالات، مثل الشعور بالعجز الكامل، تقوى وتزداد حين الاستجابة لمثل هذه المواقف المهددة. هذه «الانفعالات الشديدة والملتهبة» تتدخل في الذاكرة والوعي الطبيعي وتؤثر بهما. إنَّ هذه الانفعالات هي التي تسبب تفكك أو انقسام dissociation الشعور أو الوعي الطبيعي بحيث تصبح أجزاء منه خارج نطاق تحكم الشخص وضبطه. وإحدى الآثار الهامة الناتجة عن ذلك، هي أنَّ مجال الشعور الكلي سوف يصبح محدوداً وضيقاً.

ومن الآثار الأخرى الناتجة عن ذلك، أنَّ

محتوى الذاكـرة الجزئي الخاص بالصدمة سوف يبقى فعـالاً ضمن ما يسمى «الأفكار الثابتة ما قبل الشعورية» أو «الاستقلالية». هـذه الأفـكار أو الخـبرة المستقلـة تحمل إمكانية التنشيط والعمل في مواقف معينة، أو إمكانية التأثير العنيف.

١- في الخبرة الشعورية ،كما في حالات السير أثناء النوم، وصعوبات الانتباه والتركيز، وفي ردود الفعل الهسترية التحويلية.

٢- وفي الذاكرة على شكل فقدان ذاكرة أو حدة الذاكرة.

إنَّ هـدف العـلاج وفقـاً لجانيـه، هو مساعدة المريض علـى التعامل مع الذاكرة المضطربـة المتعرضة للصدمـة، وإدخالها لتصبح ضمن مجال وعي وشعور صاحبها.

وتمـر عمليـة المعالجـة هـذه بثلاث مراحل:

الأولى، تستهدف بناء علاقة مودة وألفة rapport مـع المريـض ومساعدتـه على تحقيق التوازن النفسي والثبات.

أمَّـا المرحلة الثانيـة، فتستعمـل فيها طرق التنويم المغناطيسـي والكتابة الذاتية والأحـلام حتى يتـم إدخال هـذه الذاكرة المضطربة الخاصـة بالصدمة لتتكامل مع الانفعالات الذاتية في وعي وشعور صاحبها، وقـد تستعمـل القابلية للإيحـاء التنويمي مباشرة لخفض الأعراض المرضية. وفي بعض الأحيان يتـم نقل المعتقـدات والانفعالات المترافقة بالصدمة عن طريق الإيحاء بحيث يحل محلها معتقدات وانفعالات إيجابية.

أمَّا المرحلة الثالثـة، حالما يكون إدخال الذاكـرة وتكاملها في مجـال الوعي قد تمَّ جزئياً أو كلياً، يقوم جانيه بمساعدة المريض بلـوغ الهوية الثابتة والمتزنـة وتعزيز قدرته على الأداء والسلوك.

يعتقـد جانيه، أنَّ الأعراضـ الهسترية تخدم كوظيفـة من وظائـف الدفاع، على اعتبارهـا تجعـل ذاكـرة الشخصـ خارج مجال شعـوره ووعيه. وبذلك يرى جانيه أن الهستريا «هي اضطراب في عمل الذاكرة، أو خوف مرضي من الذاكرة». والهدف الأولي من العلاج هو استعمال التنويم لتسهيل عمل الذاكرة وتكاملها حتى تختفي الأعراض، ولو بقيـت بعض الآثار في خلل الذاكرة. وبذلك فإنَّ تكامل الذاكرة هو الذي يقود إلى خفض الأعراض.

لقـد كان تفسير جانيه وفرويد للهستريا يحمل الطابع العقلي والثقافي نفسه للعصر الذي عاشاه مشددان على الفكرة الأساسية القائلـة بأنَّ «الذاكرة والعصاب لهما الجذر المشترك نفسه» وأنَّ المعالجة وتكامل الذاكرة همـا أساس خفض الأعراض المرضية. كما يشتركان في القول بـأنَّ الذاكرة المضطربة التـي تعرضـت لصدمـة عنـد صاحبهـا

ستبقى خارج متناول وعيه وشعوره، بسبب الخبرة الصدمية والرضية التي تعرض لها الشخص.

أمَّا بروير و فرويد فقد لخصا بحوثهما الإكلينيكية حول الهستريا في كتابهما المشهور «دراسات في الهستريا» عام ١٨٩٣م. وكما هو الحال عند جانيه، فقد اعتقد بروير وفرويد أنَّ الأعراض الهسترية التي عانى منها مرضاهم الراشدات adult female patients كانت ناتجة عن أحداث ضاغطة وصدمات واقعية مررن بها خلال حياتهن الواقعية، عادة تكون على شكل مضايقات ومشاكل جنسية في مرحلة الطفولة ضمن العائلة. وتعرف هذه النظرة للاضطراب باسم «نظرية الإغراء» seduction theory. وكما هو الحال لدى جانيه، فإنَّ بروير وفرويد شدَّدا على أنَّ المعالجة تتضمن كشف هذه الخبرات الجنسية المبكرة لأنَّها الأساس في معالجة الأعراض الهسترية. من هنا فإنَّ الذاكرة المرتبطة بخبرات جنسية سرية في الطفولة تستمر وتتظاهر بأعراض هسترية لسنوات عديدة، حتى يتم إعادتها إلى مجال وعي صاحبها وشعوره وذلك عن طريق العلاج الذي يعتمد التنويم المغناطيسي والإيحاء وتفسير الأحلام.

في وقت لاحق، عدل فرويد وجهة نظره حول أسباب الهستريا وتخلّى عن نظرية الإغواء . في مقالاته الثلاث عن «الجنسية الطفولية» وفي كتاباته اللاحقة، طور فرويد نظرية أوديب، ولم يستمر طويلاً في نظرته السابقة التي رأى فيها أنَّ المرضى الهيستريين قد عانوا خبرات رضية جنسية سابقة في طفولتهم، بل استبدل هذه النظرة بأخرى تقول، إنَّ أكثر ما يتذكره الذين تعرضوا لسوء المعاملة الجنسية من المرضى الهيستريين في ذاكرتهم، هي منتجات خيالية ناتجة عن صراعات أوديبية oedipal conflict .

لقد رجع المحلل النفسي ماسون إلى كتابات فرويد غير المنشورة، وأكد بأنَّ هذا الأخير قد رفض نظرية الإغراء فعلاً، ولكن السبب ليس قلة الأدلة العلمية لها. لقد كان فرويد قلقاً حول التطبيقات التخصصية والاجتماعية لنظرية الإغراء، لأنَّ التحقق من صدقها على المشكلات الجنسية في الطفولة، يتطلب تقبلاً وترخيصاً من المجتمع الفيكتوري، وخاصة في العائلات الفيكتورية. ويؤكد ماسون بأنَّ فرويد لم يكن يريد ببساطة الاستمرار بالتطبيقات السلبية لنظرية الإغراء ضمن تلك الظروف والبيئة الاجتماعية.

لقد لاحظ ماسون أنَّ نظرية فرويد عن الإغراء قد لاقت تقبلاً ضعيفاً جدّاً من قبل رفاقه وزملائه الذكور، وأنَّه كان غامضاً ويعرف بأنَّ أية فرصة يملكها في دائرة

تخصصه تعتمد على اسمه وسمعته الجيدة في المجال الطبي. كيف يمكنه أن يتحدث عن سوء المعاملة الجنسية في مرحلة الطفولة، ويبقى محتفظاً بماء وجهه وسمعته؟ لقد أوجد الحل باستعمال مصطلح عقدة أوديب وصراعاتها والاعتماد عليه في التفسير.

لقد أعيد الجدل وأثير من جديد في كتاب ماسون المنشور، ولكن في سياق جديد هذه المرة، وذلك من خلال تقدير وتشخيص ومعالجة اضطراب الشدة النفسية ما بعد الصدمة post-traumatic stress disorder (PTSD) واضطراب تفكك الهوية dissociative identity disorder (DID). وكما قال بعض المؤرخين فإنَّ التفسير المعاصر للتاريخ غالباً ما يقول لنا عن ثقافة المفسرين والمؤرخين وأوضاعهم أكثر مما يقول لنا عن التاريخ نفسه. وبذلك فإننا نتعلم الكثير عن ردود الفعل على كتاب ماسون حول وجهات النظر المعاصرة عن اضطراب الشدة النفسية ما بعد الصدمة واضطراب تفكك الهوية، والقليل عن أية نظرية من نظريات فرويد هي الصحيحة.

إنَّ الحركات الاجتماعية التي ظهرت مع نهاية القرن التاسع عشر، لوقاية الأطفال وحمايتهم، قد وجهت الانتباه نحو المحاكم والمؤسسات الحكومية الهامة ذات الصلة. عن مكاتب رعاية الأطفال ووقايتهم التي نشأت لحمايتهم من ظروف الاستغلال وسوء المعاملة بأشكالها المختلفة. وقد أشار بيهلمر Behlmer عام ١٩٨٢م، إلى أنَّ الأطفال الذين أسيئت معاملتهم هم معروفون جيداً وكثر في العصر الفيكتوري وما بعده. وبذلك فإنَّ هذه الحالات لم تكن منتشرة في عصر فرويد فقط وكانت بحاجة إلى تحليل وتفسير، ولكنها كما أشار «بيهلمر» إلى تردٍ خطير في الاهتمام العام بالطفل الذي أسيء معاملته بين عامي ١٩١٤ و١٩٦٠م.

البحوث المتعلقة بإساءة معاملة الطفل

لماذا انحدر الاهتمام العام بموضوع الأطفال الذين أسيئت معاملتهم بعد الحرب العالمية الثانية؟ يقول بيهلمر «إنَّ الجروح المادية والنفسية التي أحدثتها الحربان العالميتان وطول الأزمة الاقتصادية وانتشارها قد أدت إلى تحويل الاهتمام الإنساني إلى طرفي المحيط الأطلنطي». مع أنَّ نشوء المكاتب المختصة بوقاية الأطفال الذين أسيئت معاملتهم قد دفعت إلى الاهتمام بالمشكلة التي في طريقها إلى الحل.

الفترة الحديثة للاهتمام بالأطفال الذين أسيئت معاملتهم قد بدأت في الخمسينات،

حين قام الأطباء المختصون بالتصوير الشعاعي بتوضيح العلاقة بين أذيات الجمجمة لدى المواليد والأطفال وبين إمكانية حدوثها عمداً من قبل الوالدين اللذين أحدثاها في الأطفال. وبذلك فإنَّ هذه التقنيات بإمكانها أن تحمي هذه الحالات، ولكن الطبيب لم يستعملها لهذا الغرض حتى عام ١٩٦٢م مع صدور المقال الذي نشره طبيب الأطفال هينري كيمب Henry Kempe الذي كان يعمل في كلية الطب بجامعة كولورادو حينما تحدث عمَّا سماه «متلازمة الطفل الذي تعرض للعنف»، Battered child syndrome وقدَّم معلومات مفصلة وهامة عن الصدمة أو الرضة التي عانى منها الطفل الذي أسيئت معاملته.

في الفترة التي صدر فيها مقال كيمب في تموز عام ١٩٦٢م، تنبأت مجلة الرابطة الطبية الأمريكية أن «متلازمة الطفل الذي تعرض للعنف والإساءة ستكون سبب الكثير من الوفيات وأكثر مما نعهده عن الأمراض التي نعرفها مثل الليوكيميا (ابيضاض الدم)، والتليف المثاني cystic fibrosis والتي تمتد من تلك الناتجة عن العدوى والتسمم إلى تلك الناتجة عن اضطرابات في الجهاز العصبي المركزي». لقد دفع المقال الذي كتبه كيمب إلى الاهتمام بقضية إساءة معاملة الأطفال.

والاتجاه الذي تمَّ اعتماده كان يعتبر إساءة المعاملة على أنَّها اضطراب تشبه الأمراض الطبية الأخرى . ومنذ عام ١٩٦٠م تطورت الاهتمامات بهذه الحالة، وأصبح ينظر إليها على أنَّها مشكلة طبية مثلما هي مشكلة اجتماعية.

وفي عام ١٩٧٤م نشأت حركة سميت «الحركة الفيدرالية لوقاية ومعالجة الأطفال الذين أسيئت معاملتهم» وكانت تقدم خدماتها من قبل متخصصين في مختلف الميادين.

أمَّا التطور الآخر الذي حصل فهو تطوير برامج في مجالات:

١- القياس والتشخيص والتقدير والمعالجة لكل طفل تعرض لإساءة معاملة سواء كانت جنسية أم قسوة وعنف.

٢- البحث عن المذنبين أو المعتدين ومقاضاتهم.

ثم أصدرت المكاتب والمؤسسات التي تقدم خدماتها في هذا المجال ،العديد من القوانين. وبذلك فقد أصبحت المسألة إضافة إلى كونها طبية، اجتماعية وقانونية وسياسية.

إنَّ الفشل في تطوير ووضع معايير لدراسة إساءة معاملة الأطفال جنسياً

ومعالجتهم قد دفع إلى الابتعاد عن الهدف الذي اتجهت إليه الحركات الناشئة.

لقد كان التركيز الأساسي على تحديد وتطبيق تقنيات المداخلة الوقائية والعلاجية ومنع تعريض الأطفال للخطر، ثم توجه الاهتمام إلى التركيز على صحة الادعاء بأنَّ الطفل تعرض لإساءة المعاملة. كما أنَّ الذي يبحث في مثل هؤلاء الأطفال يواجه بمهمتين متعارضتين:

١- تقويم الأخطار وتقديم المداخلات الإكلينيكية الضرورية.

٢- ثم التأكد من أن الادعاء كان صحيحاً.

من هنا بدأ التركيز على بحث مدى صدق ادعاء الطفل وموثوقية أقواله. وقد أشارت الأكاديمية الأمريكية للطب النفسي للأطفال والمراهقين بأنَّ على الأخصائي والمعالج أن «يقرر ما إذا كانت حالة سوء المعاملة الجنسية للطفل قد حدثت فعلاً أم لا». ومن الآثار التي نتجت عن هذا الجدل، الرأي الذي قال بأنَّ المقابلة المكثفة المستخدمة في البحث كثيراً ما تتضمن أسئلة موجهة أو أسئلة يساء توجيهها أو محرَّفة بحيث تتحيز لما تقدم من ادعاءات.

إن تكتيك المقابلة والأسئلة يمكنها أن تدعم ما يسمى بالذاكرة الكاذبة، أو غير الصحيحة مما يلجأ إليه المحامون لتبيان درجة قابلية الطفل للإيحاء والتصديق وهو ما يؤكد أن شهادته غير موثوقة، وأنَّ الادعاء يكون كاذباً.

الطب النفسي في القرن العشرين

يعتبر الجدل المتعلق بالذاكرة الزائفة أو الكاذبة حصيلة مجالين مستقلين من المجالات المهنية والتخصصية:

الأوّل: يتعلق بالبحوث المتعلقة بالصدمات والرضات ومعالجتها. ويتضمن هذا المجال المعالجة التخصصية للاضطراب والصدمة والاهتمام المتزايد بالاضطرابات التفككية، وكذلك حركة المعالجة المستندة إلى المساعدة الذاتية، وبحوث الأطفال الذين أسيئت معاملتهم.

والمجال الثاني: وهو الحركة العلمية المتزايدة في بحث الذاكرة والعمليات المعرفية أو العقلية. هذان الاتجاهان يشكلان أساس الحركة الاجتماعية الواسعة المتعلقة بحماية الأطفال ورعايتهم الصحية والاجتماعية. وقد أثرت كل واحدة من هذه الحركات والاتجاهات في تكوين الجدل الخاص بالذاكرة الكاذبة.

نشوء علاج الصدمة:

إنَّ رفض فرويد لنظرية الإغراء قد أثر في دراسة الصدمة وسوء المعاملة حتى الحرب العالمية الثانية. والحدث الهام الذي

نتج عن الحرب هو الاهتمام المتزايد بعصاب الحرب ومعالجته، وبالمواطنين الذين عانوا من الأزمة وتأثروا بها، وكذلك الأحداث والإصابات. والاهتمام التخصصي والمهني الآخر في آثار الصدمة ومعالجتها، أدى إلى ظاهرة إكلينيكية خاصة بالصدمة والتعرض للرضات سماها ماردي هوروويتز: متلازمة استجابة الشدة النفسية أو الضغط النفسي Stress Response Syndrome والتي سميت حديثا اضطراب الشدة ما بعد الصدمة النفسية posttraumatic stress disorder. والعنصر الأساسي في نظرة هوروويتز لتكيف ما بعد التعرض للصدمة، هو الانتقال بين الخبرة المقتحمة أو المتطفلة، والتخدير العام في الاستجابة وسماه النموذج مزدوج الوجه biphasic model.

هذا النموذج الذي وضعه هوروويتز كان الأساس في تشخيص اضطراب الشدة ما بعد الصدمة الذي تبنته الرابطة الأمريكية للطب النفسي في دليليها التشخيصي والإحصائي للأمراض النفسية (DSM، ١٩٨٠).

وفقاً للذاكرة التي تمت معالجتها وشفاؤها لدى الأطفال المساء معاملتهم جنسياً، فقد كتبت الباحثات أنَّ المجتمع الغربي الحديث قد مرَّ بثلاث فترات: الأولى وتسمى فترة الرفض أو النكران (وتمتد حتى عام ١٩٧٠م)، والثانية عصر الإثبات والصدق (من عام ١٩٧٠م حتى ١٩٩٠م)، والثالثة تسمى عصر العودة ثانية (منذ عام ١٩٩٠م). ففي أوائل السبعينيات كانت «مؤامرة الصمت» حول انتشار إساءة معاملة الأطفال بما فيها الإساءة الجنسية.

وقد زاد الحديث عن سوء معاملة الأطفال جنسياً من خلال البحوث والدراسات الهامة التي أجريت أوّلاً على يد العامل كينزي (Kinsey ١٩٥٣) وبعدها صدمة الاغتصاب rape trauma .

ومع نهاية السبعينيات ونشوء حركات العنف وسوء معاملة الأطفال، زاد الاهتمام العام وزاد الوعي الشعبي مما دفع لمزيد من الاهتمام برياض الأطفال والمدارس والانتباه الحذر الذي وجه بسبب آثار الصدمة السابقة على الأطفال.

منذ نهاية السبعينيات بدأ الاهتمام يتوجه نحو النساء والأطفال، وكان التركيز على سوء معاملة الأطفال جنسياً. والذي ساعد على ذلك البحوث الإكلينيكية والطبية التي أجريت على الأطفال الذين تعرضوا للإساءة الجسمية والعنف. ومن الكتب المهمة التي نشرت حول سوء معاملة الأطفال جنسياً، كتاب بتلر «مؤامرة الصمت» (عام ١٩٧٨م)، وكتاب فور وارد وباكس «خون

وتضليل الطهارة» (١٩٧٨م)، وكتاب مسلمان عن المحارم Incest (١٩٧٨م) وكتاب جيستس المعنون «المحرم المهدم» أو«التابو المنهار» The Broken Taboo (١٩٧٩م) وغيرها كثير.

وحالما صدرت هذه الكتب بدأت النظريات الاجتماعية والبحوث التي درست الدينامية العائلية للمحارم وآثارها النفسية، ووضعت النظريات الاجتماعية التي حاولت تفسير آلية انتشار هذه الظاهرة بين العائلات الأمريكية والأوروبية. وقد تبين أنَّ هذه النسبة قد بلغت ١٩٪ ثم ٣٨٪ على التوالي بين النساء في أمريكا، وأنَّ ٣٢٪من النساء في هولندا قد صرحن بأنهن كن ضحايا ذلك حين كانت أعمارهن ١٨ سنة.

لقد وصفت مقالة سويميت Summit (١٩٨٣م) المعنونة «متلازمة إساءة المعاملة الجنسية للأطفال» كيف تؤثر هذه الحادثة والصدمة في ذاكرة الطفل وإدراكه. ومع نهاية الثمانينيات وخلال التسعينيات عكست الآداب النفسية والطبية الانتباه إلى الفروق الفردية في الاستجابة للمحارم، مع الفهم المتزايد للآثار النفسية الطويلة الأمد للمحارم والوقاية من آثارها المرضية.

وقد حصلت أثناء ذلك تطورات هامة في المعالجة النفسية التي تدخل في الإطار العام لمعالجة اضطراب الشدة ما بعد الصدمة النفسية، وذلك حين تعرض الشخص لأي حدث ضاغط أو صدمة مثل الحرب، أو الاغتصاب أو سوء المعاملة الجنسية أو العنف الجسدي أو الحوادث.

تاريخياً تعود تقنية علاج هذه الحالات إلى بيير جانيه الذي وصف ثلاث مراحل لمعالجة اضطراب الصدمة النفسية:

١- الثبات ٢- معالجة الذاكرة وعملها
٣- إعادة التأهيل.

إنَّ المعالجة الحديثة لاضطراب الشدة ما بعد الصدمة قد احتفظت بالخطوط العامة لهذه المراحل العلاجية ولكن الاختلاف في التأكيد على كل مرحلة منها.

إنَّ إحدى أهم تطبيقات هذه التقنية العلاجية هو أنها تركز على سوء المعاملة عامة، إلا أنَّ العلاج النفسي المعاصر يركز على مايسمى كشف الذاكرة وتكاملها (هذه الذاكرة التي تعرضت للصدمة)، وقد وصفت الآن ضمن إطار علاجي أوسع بحيث أن ثبات الأعراض وتحسين القدرة على التعامل والتكيف coping ونمو الذات تخدم باعتبارها متطلبات ضرورية وهامة من أجل معالجة الذاكرة وعملها. والفرق الأساسي للعلاج ليس في كشف الذاكرة المصدومة بل نمو الذات ونمو العلاقات.

انبعاث الاضطرابات التفككية:

لقد شهدت الفترة التاريخية نفسها اهتماماً بالاضطرابات التفككية وخاصة دراسة اضطراب الشخصية المتعددة multiple personality disorder. وبرز نتيجة ذلك ما يسمى اضطراب الهوية الزائفة pseudo-identity disorder واعتبر اضطراب الشخصية المتعددة على أنه اضطراب الهوية الزائفة. وتفسير ذلك هو الاهتمام الواسع بالتنويم المغناطيسي والإيحاء، ولأن التنويم إحدى الطرق البارزة في عملية التداعي والارتباط، مما دفع إلى مزيد من الاهتمام بالظاهرة التنويمية وبفقدان الذاكرة، والتفكك، وخاصة من قبل المحلل النفسي الشهير أريكسون (١٩٧٠م) وقد قيل «إنَّ طريقة أريكسون هي المجال الأسرع تطوراً في العلاج النفسي في العالم الغربي».

يصرح المرضى بالاضطرابات التفككية بالكثير من القصص والأحداث السادية في سوء المعاملة، وقد أشار جان كودرين عام ١٩٩٤م إلى مشكلة الصدق في قصص سوء المعاملة الجنسية السادية. وهناك العديد من المراكز المتخصصة في معالجة المرضى بهذه الاضطرابات نشأت منذ عام ١٩٨٠م. وقد أشار بعضهم إلى أن الذاكرة الزائفة التي تعرضت للصدمة قد أصبحت موضوعاً ثقافياً اجتماعياً لدى المجتمع الأمريكي الحديث منذ الثمانينيات.

إنَّ الجدال الحالي حول الذاكرة لايمكن النظر إليه إلا من خلال خلفية الحركات الاجتماعية الواسعة في المجتمع والتي نشأ منها هذا الجدل. إنَّ نشوء حركات المرأة ونظريات الأنوثة في الثقافة، قد لعبت دوراً رئيسياً في إعلاء صوت الناجين من سوء المعاملة الجنسية ومن الاغتصاب في المجتمع.

وقد ركزت النظريات الاجتماعية حول الأنوثة على بنية المجتمع بحد ذاته. وقد نشأ نتيجة ذلك تساؤل هام مفاده: مانوع المجتمع الذي يتيح لأكبر نسبة من الفتيات والأطفال الإناث ليكن ضحايا سوء المعاملة الجنسية والبدنية؟

وهناك العديد من التحديات التي واجهت بنية المجتمع النووي الأمريكي.

لقد أكد بعضهم أنَّ الجدل الخاص بالذاكرة المزيفة هو محصلة ومظهر للتحدي الذي تواجهه الأسرة الأمريكية متوسطة المستوى الاجتماعي الاقتصادي.

من جهة ثانية فقد تطور عمل المتخصصين في تقنيات علاج الذاكرة لأهداف اقتصادية وصناعية، وخاصة بعد أن ركز الاتجاه الاقتصادي على ضرورة

تطبيق التقنيات العلاجية للأفراد الذين تعرضوا لصدمات نفسية خلال حياتهم.

نشوء متلازمة الذاكرة المزيفة أو الكاذبة.

كما نشأت جماعة سميت باسم «ضحايا قوانين إساءة معاملة الأطفال» Victims of Child Abuse Laws ، فقد نشأت متلازمة الذاكرة الكاذبة والمزيفة False Memory Syndrome وقد عالج عدد من العلماء أطفالاً تعرضوا لسوء المعاملة الجنسية، وذلك في الجلسة الثانية من المعالجة، وقد تمَّ شفاء ذاكرة العديد من الأطفال الذين تعرضوا للصدمة. وقد تمَّ التوصل إلى النتائج التالية التي صدرت عن المؤسسة المتخصصة بمتلازمة الذاكرة المزيفة:

يمكن للناس أن يملكوا ذاكرة مزيفة.

- تحت بعض الظروف الخاصة يمكن للأفراد أن يأتوا بأشخاص آخرين يتيح لهم ذلك تذكر أشياء لم تحدث إطلاقاً.

- لا تعمل الذاكرة كشريط تسجيل، فالأشخاص يخزنون أحداثاً ويعيدونها ثانية على أنَّها نسخة حقيقة وطبق الأصل عن الأحداث السابقة.

- إنَّ مايتم استعادته في الذاكرة يرتبط جزئياً بالحالة الانفعالية للفرد وباهتمامه وميوله. فما يتذكره الناس يعتمد على الأشياء التي يفكرون بها حالياً وبالانفعالات التي يعيشونها.

- يمكن للشخص أو للمتخصص أن يملك توقعات ثابتة وراسخة، ويجاهد من أجل إثباتها وتأكيد صحتها.

- إنَّ طريقة طرح السؤال يمكن أن تؤثر بما يتذكره الفرد ويقول بأنه يتذكره.

- إنَّ أي شخص وحتى المعالج النفسي، يمكنه أن يفترض، ويفرض أفكاراً على المريض، من دون علم أو معرفة منه.

- التنويم المغناطيسي، وإميثيل الصوديوم، وتفسير الأحلام، وكتب المساعدة الذاتية، جميعها لايمكنها أن تزيد من دقة ما يتم استرجاعه وتذكره.

- الوضوح، والتفصيلات والانفعالات، جميعها لا يمكنها أن تعتبر مؤشراً على صدق ودقة ما يتم تذكره.

- إنَّ أكثر الناس لا يتذكرون أي شيء حدث لهم قبل عمر معين أو سن محدد قبل سنتين تقريباً. وأن أيَّ تذكر لأحداث تعود إلى ما قبل ذلك التاريخ (لأكثر من سنتين) سيتم تركيبها وستعمل بالاستناد إلى الأحداث الأخيرة التي مرَّ بها الفرد. من هنا يعتبر تذكر أحداث سابقة ومن الطفولة، موضع جدل ونقاش

- يعزى مصطلح الكبت والكف إلى

نظرية تتعلق بالإيقاف الفعال للذاكرة وكفها خلال المعالجة النفسية. وقد شدد فرويد على أن الكثير من الاندفاعات والرغبات يتم كبتها ومنعها من الظهور وبالتالي عدم تذكرها. وقد أكد على أن هذه الحالة تمثل مقاومة للعمل العلاجي. ولكن ليس بإمكاننا القول بأن كل ذاكرة تعرضت لصدمة سينطبق عليها هذا الكف والمنع.

الجدل حول الذاكرة الكاذبة:

يتركز الجدل حول الذاكرة في النقاط التالية: هل الذاكرة معصومة عن الخطأ؟ وهل يمكن للعلاج أن يحسن من ذاكرة الأفراد الذين أسيئت معاملتهم؟ ثم، هل العلاج يساعد أو يؤذي المرضى الذين تعرضوا لصدمة سوء المعاملة؟.

هل الذاكرة عرضة للخطأ؟.

إنَّ الجدل المتعلق بدقة الذاكرة بحاجة إلى مزيد من الفهم في سياق النظرية العامة للذاكرة. إنَّ المدافعين عن نظرية الأثر trace theory في الذاكرة يعتبرون أن الذاكرة البشرية تمثل نسخة مطابقة قليلاً أو كثيراً للحدث. ووفقاً لذلك تعتبر الذاكرة بمثابة شريط فيديو أو كاميرا سينمائية، وأنه يمكن العودة إليها.

بدءاً من العمل الأولي والمشهور لبارتيلت حول تذكر السرد القصصي المركب (١٩٣٢م) والذي ظهر ثانية في نظرية معالجة المعلومات المعاصرة حول الذاكرة، فقد سيطرت النظرية البنائية منذ عام ١٩٧٠م. ويؤكد أصحاب النظرية البنائية على أنه في كل وقت يوجد شيء ما يتم تذكره، وهذا الشيء يعاد تركيبه وبناؤه. وبينما يمثل التذكر الناجح كسباً في الذاكرة، فإنَّ بعض التفصيلات ستكون مختلفة تماماً في كل مناسبة.

من جهة ثانية، فقد اعتمد عدد من علماء النفس على نظرية الأثر Trace Theory في الذاكرة، كما في كتاب عنوانه «الذاكرة المتحررة أو غير المقيدة» Unchained Memory الذي يتضمن الدفاع عن جوهر نظرية الأثر في الذاكرة المصدومة أو التي تعرضت لصدمة، ومع ذلك فإنَّ هنا اتفاق على أنَّ تذكر التفصيلات المتعلقة بالأحداث يتشوه ويتأثر بعمل آليات الدفاع النفسية، كما أن واحداً من كل ثلاثة من المعالجين النفسيين الذين درسهم في قائمة مسح، يعتقدون بأنَّ الذاكرة تخضع للوظائف العقلية التي تشبه الكمبيوتر، وأنَّها تخزن الأحداث بدقة كما تحدث فعلاً في الواقع. وقد انتقد (كيليستروم) المعالجين النفسيين الذين يعالجون الأفراد الذين تعرضوا للصدمات النفسية والذين يعتقدون بأن الذاكرة الرضية (التي تعرضت للصدمة)

يتم إثارتها وبعثها عن طريق مثيرات خارجية، بحيث أن مفهوم الإثارة يتضمن نظرية الأثر. وقد قال «إنَّ الذاكرة لا تحرض أو تثار إطلاقاً، ولكن يعاد بناؤها وتركيبها»، (Kihlstrom، ١٩٩٣).

يوافق عدد كبير من العلماء على نظرية إعادة البناء الجزئي للذاكرة، ووفقاً لهذه النظرية فإنَّ الخبرات والتجارب الشخصية الهامة يتم استرجاعها بدقة أمَّا التفصيلات الهامشية فليست كذلك، ويتفق عدد كبير من المعالجين على هذه لنظرية (Bass and Davis، ١٩٩٤).

إنَّ الجدل بين أصحاب نظريتي الأثر، وإعادة البناء قد أدى إلى موقفين متعارضين. ثم إنَّ أي رأي منهما هو الأوّل ومن الثاني.

هل «الذاكرة الكاذبة» أم «الذاكرة التي عولجت وشفيت».

لقد سيطر تقويم دقيق للبحوث العلمية والدراسات الإكلينيكية المتعلقة بهذا السؤال. وقد حدا ذلك بالعلماء إلىَّ القول إن هاتين النظريتين وهذين النوعين من الذاكرة ليستا متعارضتين، ولكنهما بدلاً من ذلك نوعان مختلفان للذاكرة.

إنَّ الكثير من الأدلة التي تدعم النظرية البنائية في الذاكرة قد أتت من الدراسات التي أجريت على معالجة الذاكرة السوية وخاصة تلك التي أجريت على طلبة الجامعات. وبذلك فإنَّ هذه النتائج لايمكن تعميمها على المرضى الذين يعانون من اضطرابات الشدة النفسية بعد الصدمة.

كما أنَّ جوهر نموذج معالجة المعلومات للصدمة الذي وضعه العالم هورويتس، هو أنَّ الصدمة بالتعريف، اضطراب وتشويه للمعالجة السوية للمعلومات، وبذلك فإنَّ الذاكرة التي تعرضت للصدمة قد جمدت مع الوقت. وتدعم الدراسات البيولوجية – العصبية وجهة نظر هورويتس بأنَّ الذاكرة الرضية يتم معالجتها بشكل مختلف عن معالجة الذاكرة السوية (Bremner، ١٩٩٥).

إنَّ الجدل المتعلق بمدى دقة أو عدم دقة الذاكرة، يمكن إيجازه في قضيتين أساسيتين:

١- خطأ الذاكرة the fallibility of memory

٢- قابلية الذاكرة للإيحاء the suggestibility of memory .

وبذلك يمكن أن نقول إنَّ الذاكرة البشرية عرضة لما يسمى أخطاء الإهمال والفقدان (وهو خطأ الذاكرة fallibility) وأنَّها عرضة لأخطاء العمل والتفويض (القابلية للإيحاء).

هناك عدد من الأدلة التي تدعم قابلية الذاكرة للخطأ والإهمال، وخاصة تلك

الأدلــة القادمة من دراسة العلاقة بين عمل الذاكرة والإثارة الانفعالية. وفيها يتم تعريض الشخص لمواقف إثارة انفعالية ولمواقف عدم إثارة، ثم يتم قياس وتقويم ذاكرته. وقد تبين وجود فروق هامة بين ذاكرة الذين تعرضوا لمواقــف الإثارة وبين الذين لم يتعرضوا لهذه المواقــف. وبالاستنــاد إلى النظرية البنائية فقد أظهــرت النتائج أنَّ نقصــان أو زيادة عمل الذاكرة ضمن ظروف الإثارة الانفعالية مرتبــط بالقدرة على الضبــط أو التحكم. وعلــى الرغم مــن الاتفاق علــى أنَّ الإثارة الانفعالية تؤثر في عمل الذاكرة، سواء زيادة أو نقصــان في التفصيــلات الأصلية، فقد تمَّ الاستشهــاد بهذه المعطيــات عند دراسة شهادة شهود العيان في القضاء، وأنَّ الذاكرة ضمن ظروف الإثارة الانفعالية أو الصدمة النفسية عرضة للخطأ.

وبكلمــة أخرى فإنَّ العلمــاء المختصين بدراســة الذاكرة يؤكدون علــى أنَّ مواقف الإثارة الانفعالية والصدمات النفسية تجعل الفــرد عرضة للخطــأ والإغفال كأن يتذكر القليــل من المعلومات عن الحــادث. وشدد بعضهــم الآخــر على أنَّ هــذه المواقف قد تجعل الشخص يتذكر الكثير من التفصيلات الخاطئــة (خطأ القابليــة للإيحاء). ويذكر لينســي وريد أننا نحن الأسوياء في الحالات الطبيعية كثيراً ما نرتكب أخطاء في الذاكرة الذاتيــة (الســيرة الذاتية) حتــى من دون تعرضنا لمواقف انفعالية. وقد رجع لوفوتس إلى فقــدان الذاكــرة الطفوليــة ليبــين أنَّ الراشديــن الذين عولجــت ذاكرتهم بسبب أحداث معينــة، يعودون ثانيــة إلى سنوات مبكــرة لمعرفــة الأحــداث التــي تعرضت للنسيان.

إنَّ جوهــر هــذا الجــدل بــين العلماء المتخصصــين بدراســة الذاكــرة هــو أنَّ المعالجــين النفسيــين الذيــن يعالجــون اضطرابــات الذاكرة والأفراد الذين أسيئت معاملتهــم، هو أنَّ المعلومــات عن الأحداث الماضيــة موضع تســاؤل، وخاصة ما يتعلق بالذاكــرة الذاتية أو السيرة الذاتية المعرضة للخطأ والتحريف.

ولكن يقع على عاتق هؤلاء المتخصصين التأكد من الحقيقــة التاريخية لما يتذكرونه مــن أحداث خلال المعالجة. من جهة أخرى فقد وجــد لوفيتســ أنَّه لا توجــد علاقة بين الاعتقاد بالذاكرة وبــين دقتها أو عدم دقتهــا، فالمفحوصــون لا يملكون اعتقادات قوية حول الذاكرة غــير الدقيقة فقط، بل يرفضون أيضاً، تقبل فكرة أنَّ الذاكرة كانت خاطئــة حين قدمت لهــم تغذية راجعة عن عمل ذاكرتهم.

من جهة أخرى فــإنَّ المدافعين عن دقة الذاكرة التي تعرضــت للصدمة يؤكدون أنَّ

معظم النتائج التي تمَّ التوصل إليها كانت مستمدة من دراسات أجريت على طلبة الكليات والذين شاهدوا أفلاماً وأشرطة، وأنَّ هذه النتائج لايمكن تعميمها على المرضى المصابين باضطراب الشدة النفسية ما بعد الصدمة. بل إنَّ بعض هذه الدراسات توصل إلى نتائج معارضة تماماً حين تبين أنَّ هناك زيادة في عمل الذاكرة خلال المواقف الانفعالية وخاصة الحدث الضاغط.

وبالمقابل لايمكن الافتراض من خلال المعطيات المتاحة أنَّ الذاكرة عرضة للخطأ، وربما يكون الأمر كذلك (Brown، ١٩٩٥). ويؤكد هؤلاء أنَّ ذاكرة الأفراد الذين تعرضوا إلى سوء المعاملة، تكون ثابتة مع الوقت وأنَّه يتم استعادتها بدقة حتى لو تعرضت بعض التفصيلات للتشويه، فالذاكرة العادية عرضة للخطأ. وأنَّ معظم الدراسات التي أجريت على الذاكرة كانت مقيدة بإجراء قياس عمل الذاكرة بالنسبة للتفاصيل الصغيرة وليس بالنسبة للأحداث المهمة.

إنَّ عدم الاتفاق يتركز على ثلاث نقاط:

١- الجدل الذي لم يحل «unresolved debate» حول المعدل الأساسي للنسيان أو فقدان الذاكرة الناتج عن صدمة نفسية. ففي بعض الدراسات التي أجريت على الأطفال الذين تعرضوا إلى سوء المعاملة الجنسية تبين أنَّ معدل فقدان الذاكرة الجزئي أو الكلي لدى هؤلاء الأطفال قد بلغ بحدوده الدنيا ٤،٥٪ وحدوده العليا ٨٢٪ في الدراسات المختلفة. وبغض النظر عن صعوبة الحصول على درجات دقيقة عن فقدان الذاكرة الناتج عن الصدمات النفسية في الدراسات المختلفة، إلا أنَّ كل دراسة قد أكدت على فقدان ذاكرة لدى المرضى الذين تعرضوا لها.

٢- النقطة الثانية، تتعلق بعدم الاتفاق على تعريف فقدان الذاكرة، وخاصة أنَّ التقارير التي تتعلق بهذا الموضوع تمتد عموماً على طول خط متصل من فقدان الذاكرة الكلي إلى فقدان الذاكرة الجزئي، والذي يأخذ عدة أشكال: الأوّل، استرجاع ذاكرة بعض الذين تعرضوا إلى سوء المعاملة، ثم استرجاع ذاكرة الآخرين في وقت لاحق.

والشكل الثاني: الذاكرة التي تتجزأ حول أحداث معينة ونوعية.

والشكل الثالث: إعادة جمع معطيات ذاكرة من دون أي تأثير انفعالي أو من دون أية علاقة مع أعراض واضطرابات نفسية، حتى الوصول إلى عدم وجود فقدان للذاكرة. ويستخدم المدافعون عن الذاكرة المزيفة والكاذبة مصطلح الكف والكبت بدلاً من مصطلح فقدان الذاكرة الناتج عن صدمة.

٣- هناك عدم اتفاق حول آليات فقدان الذاكرة، والتي تمتد هي أيضاً، على طول

خط متصل، من الكف والكبت، إلى التفكك dissociation، إلى النكران denial، إلى التجزئة والانقسام splitting ثم النسيان العادي. إنَّ المدافعين عن الذاكرة الكاذبة، يرجعون الجدل إلى ما يسمى الكبت الخطير أو الكبت الشديد. ويذكروننا بأنَّ الفشل في تذكر الصدمة إنَّما يرجع إلى هذا الكبت والكف وليس إلى عوامل بيئية أو عوامل خاصة بالنمو، وأحياناً أخرى تكون ببساطة، مجرد نسيان عادي للأحداث، أو تجنب مدفوع.

وتعرف فرضية الكبت، هذا المصطلح بأنَّه «فقدان تام إرادي أو انتقائي لتذكر خبرات تتعلق بصدمة نفسية أو أحداث ضاغطة مع عدم الشعور أو المعرفة بأن الذاكرة المتعلقة بهذه الأحداث مفقودة» إنَّ المعارضين لهذا الاتجاه ينظرون إلى الكبت الشديد بشكل مختلف تماماً عن نظرة مؤيدي فقدان الذاكرة الناتج عن الصدمة.

يوضح عدد من العلماء أنَّ آليات الدفاع الأولية، التي يعتبر الكبت والكف أحد أنواعها، تعمل كسبب لفقدان الذاكرة الخاص بالصدمة. ويشير (تير) إلى أنَّ الكبت، والنكران، والكظم أو الكف، والتفكك، والإبدال أو الإزاحة، والانقسام، والنسيان البسيط، تساهم جميعها في فقدان الذاكرة الخاص بالصدمة (Terr، ١٩٩٤). وقد شرح (سيجل) كيف أنَّ آليات الانقسام والتفكك تساهم في فقدان الذاكرة المتعلق بالصدمة.

بينما يعتقد بعض المؤيدين للذاكرة الكاذبة، «أنَّ الجدل الجوهري يعود إلى صدق مفهوم الكبت»، فإنَّ المدافعين عن دقة وصحة الصدمة أو الرضة يشددون على أنَّ هذا الوضع الاختزالي يبسط تنوع العوامل المساهمة في فقدان الذاكرة المتعلقة بالصدمة.

هل الذاكرة قابلة للإيحاء ؟

يتعلق الجدل الآخر الخاص بصحة الذاكرة ودقتها، حول قابلية الذاكرة للإيحاء suggestibility of memory. إنَّ المدافعين عن الذاكرة الكاذبة، يقولون إنَّ بعض المرضى قابلون للإيحاء، وأنَّ الاختصاصيين الذين يعالجون المرضى من الذين تعرضوا إلى سوء المعاملة، بحاجة إلى أن يكونوا أكثر وعياً وتنبها لآثار الإيحاء العملية في العلاقة العلاجية. وقد يوحي المعالج أو الباحث بأحداث وأشياء لم تحدث إطلاقاً في الحياة الواقعية للشخص.

ويرى الخبيران سيسي ولوفتس حول قابلية ذاكرة الأطفال والراشدين للإيحاء، إنَّ «الذاكرة من دون أحداث، ليس نادراً» وخاصة إذا كانت المعلومات الموحى بها

والكاذبة قد كررت وأعيدت لمرات. إنَّ جوهر الجدل الذي يستند إليه المدافعون عن الذاكرة المزيفة هو أنَّ المعالجين النفسيين قد يدخلوا أو يغرسوا implant معلومات وذكريات كاذبة في مرضاهم، وأنَّ هؤلاء الأخيرين يعتقدون بصحتها وأنَّها حدثت لهم في الماضي. ويشدد (لوفتس وكيتشمان) أن هذه الذكريات الكاذبة تأتي من مصدرين: العلاقة العلاجية، والمواد التربوية مثل الكتب، والمحاضرات، وأخبار الإعلام، على الرغم من أنَّ بعضهم يقول بأنَّ الدور الإيحائي الذي تلعبه كتب المساعدة الذاتية، يفوق غيرها من المصادر.

تقدم النتائج التي تمَّ الحصول عليها من عدد من البحوث المتعلقة بقابلية الذاكرة للإيحاء، الكثير من الأدلة على أنَّ العمل العلاجي يغرس في ذاكرة الأفراد الذين تعرضوا لسوء المعاملة أحداثاً ومواداً تأتي من ثلاثة مصادر:

المصدر الأول، هناك كمية كبيرة من الدلائل على قابلية تعرض المعلومات المتعلقة بالأحداث السابقة- للإيحاء. ويشدد لوفتس على أنَّ الأطفال والراشدين قد أظهروا ذلك في الكثير من الدراسات. وقد حاول مع عدد من العلماء الآخرين تعميم هذه النتيجة على المعالجة النفسية وخاصة معالجة الذاكرة، مشددين على أنَّ هؤلاء المعالجين الذين يسألون المرضى غير متأكدين أو لا يعلمون أنَّهم يغرسون أفكاراً في ذهن مرضاهم عن أمور لم تتحقق أبدا. والخطر من وراء هذه الإيحائية كبير جدّاً وخاصة بالنسبة للمرضى أو الأفراد الذين تعرضوا لسوء المعاملة خلال حياتهم السابقة، (Loftus، ١٩٩٤).

المصدر الثاني لقابلية تعرض الذاكرة للإيحاء يأتي من التنويم المغناطيسي. فالمفحوصون الذين يخضعون لطريقة المعالجة بالتنويم المغناطيسي يوافقون ويتقبلون الأفكار التي يتم اقتراحها وعرضها عليهم أثناء الجلسات التنويمية، ويقتنعون فيما بعد بحدوث مثل هذه الإيحاءات الكاذبة أو المصطنعة على أنَّها حقيقة واقعة. وتسمى هذه الظاهرة: إنتاج الذاكرة الكاذبة تنويمياً hypnotic pseudo memory production. ويجادل المؤيدون للذاكرة الكاذبة بأن استعمال التنويم المغنطيسي مع الأفراد الذين تعرضوا إلى سوء المعاملة، يغرس في أذهانهم ذكريات وأفكاراً كاذبة.

المصدر الثالث لقابلية تعرض الذاكرة للإيحاء يأتي من الدراسات التي أجريت حول طريقة الاستجواب، وكذلك الإقناع القسري والذي يعرف بأنه غسيل المخ أو إعادة تشكيل الفكر والعقل. ويؤكد المدافعون عن الذاكرة الكاذبة بأن طرائق

الاستجواب التي يجريها البوليس وغيرهم تستخدم تقنيات وآليات إكراهية وقسرية، تمتد من برامج إعادة تشكيل الفكر إلى التحكم بالعقل لدى الجماعات الدينية والسياسية والعلاجية. ومن هذه المعطيات يؤكد أصحاب الذاكرة الكاذبة أنَّ معالجي الذاكرة يستعملون عدداً من التقنيات التي تجمع بين التنويم المغناطيسي وتقنيات التأثير الاجتماعي لإقناع المرضى أو المفحوصين بتقبل معتقدات وأفكار أو ذكريات لم تحدث إطلاقاً (Olshe and Watters، ١٩٩).

بغض النظر عن هذه المصادر لقابلية تعرض الذاكرة للإيحاء، فإنَّ المدافعين عن الذاكرة الكاذبة يؤكدون أنَّ المعالجين النفسيين يغرسون في أذهان مرضاهم وذكرياتهم معلومات وأفكاراً كاذبة. إلا أنَّ المؤيدين لصحة الذاكرة ودقتها على العكس من ذلك، فإنَّهم يشددون على أنَّه قد يتم غرس أفكار وذكريات معينة وغير صحيحة في ذهن المفحوصين، ولكن هذه الحالة ليست عامة ولا يجوز تعميمها على العلاج النفسي، وخاصة أنَّه حتى الآن لا توجد دراسات حول تأثير الإيحاء في العلاج كما يقول براون (Brown، ١٩٩٥).

الأمر الثاني: بينما يؤكد المدافعون عن الذاكرة الكاذبة، إمكانية غرس أفكار وذكريات غير حقيقية، (تكوين أحداث كاملة(، كما يقول لوفتس Loftus، تخيل سيناريوهات مركبة بالكامل كما يقول سبانوس Spanos ، أو ذكريات كاذبة بكاملها، كما يقول Ofshe and Watters، فإنَّ المدافعين عن صحة الذاكرة ودقتها وصحة تعرض أصحابها للصدمة، يقولون بأنَّ معظم المعطيات والنتائج، على الأقل المتعلقة بخطأ المعلومات، تقود إلى إيحاءات معينة ولكن فقط بالنسبة للتفصيلات الهامشية وليس بالنسبة للمعلومات أو الأفعال المركزية أو الحقائق المركبة، وفوق ذلك فإنَّ تصميم البحوث المطبقة حول تعرض الذاكرة للإيحاء قد وجدت أنَّ هذه الآثار ليست قابلة للتعميم على جلسات العلاج والإيحاء العلاجي.

من جهة أخرى، فإنَّ المدافعين عن صحة الذاكرة ودقة الرضة أو الصدمة التي تعرض لها المصابون باضطراب الشدة ما بعد الصدمة، يؤكدون أن العبارات المتعلقة بـ «ابتداع الذاكرة memory creation» أو «غرس الذاكرة في الذهن» تحدث تشويهاً أو سوء تمثيل البحث على قابلية المعلومات للإيحاء. وقد بينت معطيات عدّة أن النظرة القائلة بأنَّ تمثل الذاكرة الأصلي يتبدل جذرياً بالإيحاءات التالية للحدث، هي نفسها نادرة الحدوث وضعيفة، مع أنَّ هذه التغيرات قد تحدث أيضاً مع الجماعات

الفرعية والصغيرة من المرضى تحت ظروف معينة. إنَّ النقطة الأساسية التي يركز عليها المدافعون عن الذاكرة الكاذبة هي أنَّ الموقف العلاجي يبتدع أفكاراً وذكريات أحياناً، وربما لاتكون كاذبة بحد ذاتها. إلا أنَّ هذا القول غير ناضج ومبالغ به بالاستناد للمعطيات المتاحة. ومن الأفضل أن تكون الأسئلة مصاغة بشكل آخر أكثر فائدة، كمايلي:

نموذج الذاكرة الكاذبة أو المزيفة (المصطنعة):

هناك اتفاق عام حول الطريقة التي يمكن من خلالها للمعالج النفسي أن يوجد ويبتدع ذكريات كاذبة في الأفراد الذين أسيئت معاملتهم. وهناك نموذج ثابت في الآداب المتعلقة بالذاكرة، حول الآليات التي يمكن من خلالها للمريض أن يعتقد بالذكريات التي لم تحدث أبداً. ويتضمن النموذج سداسي الأجزاء حول الذاكرة الكاذبة العناصر التالية:

إيحاءات عن سوء المعاملة Suggestion of abuse

معتقدات المعالج Therapist's beliefs

التحيز المؤكد Confirmatory recovery

شفاء الذاكرة memory recovery

تقنيات نوعية في معالجة الذاكرة Specific memory recovery techniques

طرائق العلاج بالإيحاء Suggestive therapy procedures

سوف نتحدث عن كل عنصر من هذه العناصر باختصار:

إيحاءات عن سوء المعاملة:

كما تبين، فإنَّ عملية الإيحاء تبدأ أثناء جلسات التقويم التشخيصي والتقدير الأوّلي، حيث يقوم المعالج بالإيحاء للمفحوص عن سوء المعاملة، سواء بشكل صريح من خلال تفسير بعض الأعراض أو العلامات، أو ضمنياً من خلال تشخيص الحالة على أنَّها اضطراب الشدة النفسية بعد الصدمة.

إنَّ الكثيرين من المدافعين عن الذاكرة الكاذبة، حذرون في قولهم إنَّ مثل هؤلاء المعالجين يقدمون إيحاءات عن سوء المعاملة من دون قصد. وبينما يمكن للمعالج أن «يوحي بأفكار من دون قصد منه، ومن دون إرادته» وقد يوحي بذلك «من دون أن يكون على دراية ووعي بذلك»، يبقى المريض في كل الحالات، قد اقتيد بطريق خاطئ. وقد قال (يابكو): «يقدم المعالج إيحاءات هدفها خير المفحوص، على شكل معتقدات ثابتة

بأنــه سوف يساعــده، مما يدفعــه ليعتقد بأنَّ ســوء المعاملة قد حصلت وأن قدم سوء المعاملة هــو التفسير الصحيــح الذي يبرر الأعراض التي يعاني منها».

حين يتواصل المعالج مع مريض لم يتعرض مسبقاً لسوء المعاملة، ويعامله على أنَّه كذلك فعــلاً، فإنَّ هذا يمثل أثراً مبدئياً بحيث أنه «يوجــه انتباه المريض لتبنــي ذلك adopt abuse باعتبــاره إطــاراً مرجعيــاً لتفسير المعلومــات» كما يقول فيكتــور (Vector، ١٩٩٤). ويؤكد (فرانكل) أنَّ مسألة الذاكرة الكاذبة هي نتيجة «للبحث المقصود والهادف عن قدم وتاريخ مثل هذه الصدمة». إنَّ مثل هــذه الفكرة تصبح بمثابة، الحدث الواضح الــذي يفسر الأعراضــ المرضية والخبرات الانفعالية المنظمة لدى المريض.

معتقدات المعالج:

يعتــبر المرضى مؤهلين وعلى استعداد لتبني فكرة ســوء المعاملة، باعتبارها إطاراً مرجعياً للمعالج الذي يملك محددات واضحة حــول الاضطرابات النفسيــة، أو مجموعة من المعتقــدات الخاطئة عن ســوء المعاملة والصدمــة. ويقول بعضهم إنَّ استعمال مثل هذه الإيحاءات شائع، وخاصة لدى المعالجين الذيــن تعرضوا لسوء المعاملــة في حياتهم. وبالنسبة لهؤلاء المعالجين يعتبر سوء المعاملة سببــاً للكثير من مشــكلات الراشدين، وأن دليل حدوثها يظهر من خلال الكبت الكامل لكثير من الذكريات.

يطبق الكثير مــن المدافعين عن الذاكرة الكاذبة «معتقــدات المعالج» على أنَّها تلعب الــدور المركــزي في عملية الإيحــاء خاصة حــين يملــك المعالج بعضــ ما يشــير إلى حــدوث ذلك فعلاً. ويوضــح العالم (يابكو)، أنَّــه حين يملــك المعالــج معتقــدات غير متذبذبــة unwavering فإنَّه بطريقة أو بأخــرى سينقلها إلى المريض. ويؤكد (أوشي ووترز)، «أن معتقدات المعالج هي التي توجه المعالجة».

كيــف يمكن لمعتقدات المعالج الثابتة عن سوء المعاملة أن تساهم في إيجاد ذاكرة كاذبة ومزيفة؟ يكون ذلك عن طريق إقناع المريض بقبول رأي المعالج على أنَّه حقيقة واقعة.

ويشدد الكثير من مؤيدي الذاكرة الكاذبة أنَّ معتقدات المعالج تلاقي القبول من خلال تغيير الاتجاهــات والإقناع خاصة وأنَّ هذه الأفــكار صــادرة عــن شخصــ ذي مكانة وموثوق به، ومركز سلطــة في الوقت نفسه والذي يعمل لخير المريض.

شفاء الذاكرة:

العنصــر المركــزي الرابــع في نمــوذج الذاكــرة الكاذبة هو «شفــاء الذاكرة» الذي

يقــود إلى ذكريات كاذبة عــن سوء المعاملة. ولشفــاء الذاكرة تعريفــات عامة وخاصة. فالتعريف العام يقدمــه (سيسي ولوفيتس) حين يرجعون إلى «عمــل الذاكرة» باعتباره الطريق المنطقي لحــدوث الذاكرة الكاذبة. أمَّا (فرانكل) فيرجع إلى التقنيات العلاجية ليبين أن شفاء الذاكرة هو «تشجيع ثابت من أجل استرجاع الأحداث السابقة». أمَّا لوفيتس فيتحدث عن «الضغط الداخلي والخارجي من أجل التذكر» لتشجيع وتحريض مخزون واحتياطــي الذاكرة. ويشدد هذا العالم على أنَّ تقنيــات شفاء الذاكــرة تضع العلاج في موضع يركز على إعادة بناء الذاكرة.

التقنيــات النوعيــة في شفــاء الذاكــرة وعلاجها:

يمكــن وضع الكثير مــن تقنيات العلاج النوعيــة للذاكــرة ضمــن نمــوذج الذاكرة الكاذبــة. ويشــدد أصحــاب هــذا الاتجاه وخاصــة (أوشــي ووتــرز، ١٩٩٤م) في انتقادهم لهذه التقنيات على أنَّها «تستعمل بشكل مكثــف التنــويم المغناطيسي، وعمل الأحلام وتفسيرهــا، والتخيل الموجه، والتي تشجــع الظن والتخمــين والتأمل» كما أنهم يصفــون العملية التي يساعــد من خلالها المعالــج مرضــاه علــى تخيل منظــر سوء المعاملــة. والنتيجــة التي ستكــون من وراء ذلك هي «تشويه مؤكد وفعال لقدرة المريض على التمييــز بين ذاكرة الأحــداث وذاكرة التخيلات» ويؤكــدون أنَّ الاستعمال المكثف لبعض التقنيات مثل التنــويم المغناطيسي، وتفسير الأحلام، والتخيل الموجه، والذاكرة الجسميــة body memory تعمــل على إيجاد تأثير إيحائي قوي.

تقنيات العلاج بالإيحاء:

العنصــر السادســ والأخــير في نموذج الذاكرة الكاذبة هو تقنيات العلاج بالإيحاء. يصف (يابكو) من خــلال ممارسته للتنويم المغناطيســي كيــف أن افتراضــات المعالج المسبقة تؤدي وظيفة الإيحاءات غير المباشرة. وأحيانــاً يكون المعالج بعض الإيحاءات التي تتيح للمريضــ أن يسد نقصاً fill in the blanks في موضــوع ما. كما يبين بعضهم كيف أن إعادة تكوين الأفكار تحدث إيحاءات صريحة عن سوء المعاملة. وبالتالي فإنَّ علاج الذاكرة يشبه غسيل المخ، من خلال الإقناع القــوي بمــا يتضمنه ذلك مــن ضغط بين شخصي تبادلي أو إشاعة من طراز قديم.

ويشــدد (أوشي) على أن اجتماع التنويم المغناطيســي مع تقنيات أخــرى ذات تأثير اجتماعــي، مثل تقنيــات الاستجواب، تقود إلى إنتــاج ذاكــرة كاذبة، خاصــة إذا كانت الإيحاءات من النوع الذي يعاد تأكيد قوته.

ويصرح المرضى بأنَّهم «قد تمثلوا فكرة سوء المعاملة، وإعادة توضيح وفهم حياتهم السابقة وفق هذه الفكرة» ويعيشون الآن على أنَّهم أصحاب تجارب سابقة في سوء المعاملة.

على العكس من ذلك، يؤكد المدافعون عن صحة الذاكرة ودقتها، أنَّه لا توجد دراسات علمية عن التأثير الإيحائي للعلاج النفسي (Brown، ١٩٩٥)، وأنَّ الحجة الكاملة التي يعتمدون عليها تستند إلى أدلة غير مباشرة، وبالتالي فهي تأملية فقط.

هل يسبب المعالجون أذىً وضرراً؟

الحجة الأخرى التي يعتمدها المدافعون عن الذاكرة الكاذبة، هي أنَّ المعالجين النفسيين الذين يوحون بسوء المعاملة التي لم تحدث أبداً، يمكنهم أن يتسببوا بضرر وأذى ولكن من دون سوء نية. وقد شدد البعض على أنَّ الألم الانفعالي في علاج الذاكرة هو بحد ذاته مؤذ. ويقول Dawes (١٩٩٤م) إنَّ الآثار الناتجة عن التأكيدات التي لامبرر لها أو المزعومة unwarranted assertions حول سوء المعاملة الجنسية في الطفولة، يمكنها أن تضعف ثقة الناس باستقلاليتهم وذاتيتهم، كما أنَّها تعزز لديهم مشاعر عدم الكفاءة. ثم عن نزعة التحويل المضاد للاعتقاد بذكريات سوء المعاملة على أنَّها حقيقة ماضية، يبعد الانتباه عن العمل من خلال التحول. ويشجع المعالجون مرضاهم على التعبير عن ذكرياتهم الوهمية حول سوء المعاملة من قبل أفراد الأسرة من أجل مواجهة مرتكبيها داخل أو خارج المحكمة (Yabko ، ١٩٩٤). ويقول Dawes (١٩٩٤م): «حيث يكون هناك تعلم للوم، أو لكره شخص ما يكون هناك علاجاً».

يعتقد بعض المدافعين عن صحة الذاكرة والصدمة، أنَّ المواجهة مع المرتكب المزعوم يعتبر شرطاً ضرورياً للعلاج. وإنَّه في الكثير من الحالات يتم تشجيع المواجهة أو القطع والإيقاف المفاجئ الذي يحدث أذىً وضرراً أكثر مما يحدث أثراً إيجابياً، لأنَّ المرضى في مثل هذه الحالة يكونون قد عاشوا الصدمة مرة ثانية. ويعتبر الكشف والإفصاح disclosure غير مفيد كمحاولة من أجل توضيح الذكريات، وكثيراً ما يمثل الكشف غير الناضج مقاومة للعمل العلاجي. لذلك كثيراً ما يتحفظ المعالجون النفسيون حول المواجهة أو الإيقاف المفاجئ.

التمييز بين التقارير الصادقة وغير الصادقة:

إنَّ من الصعب تقويم حالة سوء المعاملة بالاستناد إلى ذكريات سوء المعاملة التي تمَّ علاجها. وينتقد مؤيدو الذاكرة الكاذبة،

المعالجين النفسين الذين يستندون إلى مجرد أقوال مرضاهم عن الحدث، ليعتبروا ذلك على أنَّه حقيقة واقعة. ويؤكدون بأنَّ الشك يجب أن ينتابنا حين يبني المعالج النفسي معتقداته على المعايير التالية:

١- حقيقة أن الذاكرة قد تحسنت من خلال الظروف الخارجية وأنَّه لا تتضمن استرجاعاً مباشراً وواعياً.

٢- الانفعالية في تفصيلات الذاكرة، والثقة بها، ووضوحها.

٣- حقيقة أنَّ الذاكرة قد تمَّ إحياؤها واسترجاعها عن طريق تقنيات المعالجة النفسية

كيف يمكننا أن نقرر ما إذا كانت الذاكرة التي شفيت وصرحت بهذه التعبيرات، على أنَّها صحيحة أو كاذبة. ويشدد هؤلاء على أنه من الخطأ الافتراض بأنَّ «هناك بعض المعايير لقياس الحقيقة وكشفها، ضمن الكثير من القضايا المزعومة التي يكون مبالغاً بها أو مشوهة». وقد أجرى سيسي (١٩٩٤م) دراسة بين فيها أنَّه حتى الخبراء في العلاج النفسي والقانون، غير قادرين على التمييز بين تصريحات الذاكرة الكاذبة وتصريحات الذاكرة الحقيقية. ولذلك يشدد أصحاب الذاكرة الكاذبة على أنَّ الذكريات التي تمت معالجتها يجب أن تؤخذ بجدية حتى يكون هناك تعاون مستقل وغير تابع.

عموماً، إن حل صدق الذاكرة، ليس العمل المركزي أو الضروري في العلاج. ويرى المعالجون وعلماء النفس أنَّ دورهم في مساعدة المرضى على الإحساس والشعور بالأعراض التي تضايقهم وتقلقهم، وتكوين «حقيقة قصصية» ربما لاتكون متناسبة ومتجانسة مع الحقيقة التاريخية. إنَّ مساعدة المرضى في تكوين الوعي بذكريات سوء المعاملة، لها فائدة إكلينيكية، حتى لو لم يكن التصريح حقيقة كاملة. وتحدث المشكلة الحقيقية عندما يأخذ المريض فعلاً مشروعاً أو سوء معاملة مكشوفة لدى العامة، وبذلك تقوى القضية المتعلقة بالصدق.

الخلاصة: ما هو الشيء المشترك بين التقارير والمواقف التي صرحت بها الجمعيات والروابط العلمية المتخصصة؟

أولاً - ترفض جميعها موقف الذاكرة الكاذبة أو المزيفة، التي تبين أنَّ الذاكرة المكبوتة غير موجودة.

ثانياً - يوافق الجميع على أنَّ موقف الذاكرة الكاذبة القائل بأن المعالجين النفسيين قد يؤثرون بشكل جوهري في ذكريات مرضاهم، وأنَّه يجب عليهم أن يكونوا حذرين ومقاومين لمثل ذلك، خاصة حين التعامل مع الأطفال الذين تعرضوا لصدمة سوء المعاملة الجنسية.

ثالثاً - يشدد الجميع على أنَّ على المعالجين النفسيين ومنذ البداية، أن يدعموا الحاجات العقلية لمرضاهم بغض النظر عن صحة ما يقولونه حول سوء المعاملة.

رابعاً- يبين الجميع أنَّ التصريحات والعبارات السياسية التي يطلقها كلا الفريقين تتجاوز ما تقوله لنا الآداب والبحوث العلمية، وأنَّها لاتمثل هذه البحوث والآداب أصلاً.

خامساً- يؤكد الجميع على ضرورة مواصلة الدراسة في هذه القضايا الهامة والحساسة.

المراجع

١- زياد القطب وأحمد الكفراوي (١٩٩٩م) الانفعال والذاكرة وارتباطهما بالدماغ. مجلة العلوم، المجلد١٥٩ العددان: ٢، ٣. الكويت.

٢- محمد عبد الله (٢٠٠٣م) سيكولوجية الذاكرة. مجلة المعرفة. العدد٢٩٠، الكويت.

٣- محمد قاسم عبد الله (٢٠١٢م) مدخل إلى الصحة النفسية. دار الفكر، عمان.

٤- مصطفى بصل (١٩٨٦م) علم النفس الفيزيولوجي. منشورات جامعة دمشق.

٥- كيرلاند مايكل وريتشارد لوبوف (٢٠٠١م) كيف تقوي ذاكرتك. دار الفاروق للنشر: مصر.

6- Alpert,J.(1987). Trauma, dissociation and clinical study as responsible beginning, Consciousness and cognition, 4, 124129-.

Armstrong,L.(1994). Rocking the cradle of sexual politics.MA; Addiction-Wesly.

Brown,D. (Sources of suggestion and theier applicability to psychopathology. In Alpert,J.: Sexual abuse recalled (61100-).

مواقع أثرية في منطقة اللجاة في جنوب سورية

د. خليل المقداد ❁

في منتصف السبعينيات من القرن الماضي قمت بأول زيارة عمل لبعض المواقع الأثرية في قلب منطقة اللجاة برفقة بعثة أثرية تتبع إلى كلٍ من المعهد القومي للبحوث العلمية الفرنسي وجامعة السوربون الأولى في باريس والمعهد الفرنسي لآثار الشرق الأوسط حيث

❁ باحث في الآثار.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

كنت باحثاً علمياً فيه. وكان برنامج البعثة يندرج ضمن دراسة المواقع الأثرية في جنوب سورية ومن ثم التنقيب والترميم والدراسة العلمية لهذه المواقع بالتعاون مع المديرية العامة للآثار والمتاحف السورية.

وفي مطلع القرن الحالي تطور عمل البعثة ليزداد عدد أعضائها وتتشعب مجموعاتها وتتعدد مواقع العمل لتشمل منطقة حوران كاملة بمعنى جنوب سورية التي تتبع إلى محافظات درعا والسويداء ومن ثم القسم الجنوبي من محافظة ريف دمشق ومحافظة القنيطرة. ثم أضيف إلى عمل البعثة دراسة السكان وتطور حوران (سورية الجنوبية) من العصر النحاسي إلى مطلع العصر الإسلامي.

وقد باشرت البعثة الأثرية عملها تحت إدارة البروفيسور جان ماري دانتزر، وكان العمل يتمركز في البداية على التنقيب بشكل جوهري في مدينة بصرى الأثرية وكذلك الحفريات الأثرية في موقع سيع الأثري بالقرب من مدينة قنوات إلى الشمال الشرقي من مدينة السويداء بحوالى ١٥كم. ثم تمخض عن هذا البرنامج تشكيل مجموعة مهمتها متابعة العمل في خربة الأمباشي- والنمارا في القسم الشرقي من منطقة جبل حوران والتي تعرف باسم منطقة الصفا والكراع والتي تعود إلى عصريّ البرونز القديم والوسيط.[١]

وفي ربيع عام ١٩٨٩م عندما كنت رئيساً لدائرة آثار درعا وعلى أثر الزيارات المتكررة للمواقع الأثرية في منطقة اللجاة وخاصةً موقع سحر الذي كان يلعب دوراً مركزياً هاماً كمقر ديني وسياسي وإداري لذلك قررنا العمل في الموقع ودراسة المسرح والمعبد الأثري وكذلك دراسة المواقع المجاورة. وعلى إثر ذلك أيضاً وبموجب المقتضيات الضرورية قررنا نقل ما تبقى من المنحوتات والقطع الأثرية التي كانت في موقع المعبد والأبنية المجاورة له إلى مقر المتحف الوطني في مدينة درعا لتتم دراستها وتوثيقها ومن ثم عرضها في المتحف.

منطقة اللجاة[٢]: تعتبر منطقة اللجاة جزءاً من جنوب سورية المكون من سهل دمشق المنبسط ومناطق الجولان وحوران بقسميها السهل والجبل والصفا والكراع، وتتميز المنطقة بتكوينها الجيولوجي بأنَّها ذات طبائع متغايرة وغير متجانسة وتشكل تاريخياً قلب بلاد الشام. وتختلف هذه المنطقة عن المناطق الغربية والجنوبية والشمالية من جنوب سورية كونها تمتلك أراضي غنية بالأمطار وتسمح في زراعات صيفية موسمية من قمح وحبوب وخضراوات. كما أنَّ الظروف الطبيعية المختلفة كلياً وبكثرة

جعلت من هذه المنطقة إقليماً ذا طبائع مميزة وواضحة، كما أنَّ المنطقة كانت دائماً مختلفة عمَّا يجاورها، ولذلك نجد أن هذا التنوع البيئي كان له تأثير أكيد على طبيعة الاستقرار والاستيطان البشري واستغلال واستثمار الأراضي، وكان هذا الاستقرار والاستيطان دائماً متميزاً بالأصالة والتطور لدى الفئات البدوية والزراعية.[٣]

وتأخذ منطقة اللجاة شكل المثلث ذي الأضلاع المتعرجة حسب موقعها الجغرافي وتكوينها الجيولوجي. بحيث يأخذ طول الوتر أو الامتداد الطولي من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب حوالى ٧٠كم، وامتداد القاعدة من الشرق إلى الغرب حوالى ٤٥كم. وقد حرم التشكيل الجيولوجي المنطقة من تواجد السكن القديم بالمقارنة مع ما يحيط بها من مناطق، لذلك جاء إعمارها من قبل العنصر البشري في وقتٍ متأخر يعود وحسب الدراسات الأثرية الحديثة إلى عصور البرونز والنحاس والحديد وغيرها.

وفي العهود الكلاسيكية تزايد النشاط البشري في المنطقة وتشعب كثيراً؛ وكانت بعض هذه النشاطات تشكل عائقاً أمام النهضة العمرانية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي كانت تتمتع بها المناطق المجاورة بما فيها نشاطات السلطات الإدارية المحلية أو على مستوى الممالك والإمارات والإمبراطوريات. لذلك دفعت هذه الأمور تلك الجهات إلى اتخاذ العديد من الإجراءات من أجل درء الخطر القادم من المنطقة من جهة وكذلك لبناء مجتمع مكون من العديد من القرى والمدن يكون صلة الوصل بين السكان داخل منطقة اللجاة والمناطق المحيطة بها. وقد تمحورت هذه النشاطات ضمن ثلاثة منطلقات أساسية على الشكل التالي:

١- إعمار المنطقة من الداخل: لقد نتج عن ذلك بناء العديد من المواقع التي وجدت في مناطق تتوافر فيها سبل الحياة من المكان الآمن والقدرة على بناء المساكن وتوفر المياه وإنتاج بعض المزروعات في المناطق الصغيرة والصغيرة جدّاً، إلا أنَّها كانت تسد الحاجة في حال الضرورة، وكذلك تساعد على حياة السكان الذين يشكلون مجتمعاً رعوياً وشبه زراعي. يضاف إلى ذلك استغلال الكهوف والمغاور الطبيعية المتواجدة وبكثرة في مواقع متفرقة وبأحجام وأبعاد متباينة على أنموذج مغارة عريقة التي تعتبر الأكبر من بينها حتى الآن.

وقد سكنت العديد من المواقع داخل اللجاة وعلى حوافها وأطرافها من كل الجهات، إلا أننا نلاحظ أن المواقع كانت تتكاثر في منطقة على حساب منطقة

أخرى، ومـن هذه المواقـع التي وجدت في داخل منطقـة اللجاة وفي الوسـط تقريباً: داما- وديـر داما- كوم أبـو سلمى- منارة الشريف. وعلـى حافتها الجنوبية الشرقية: ديـر الأسمر- كـوم العزابـات- أم العلاق - كـوم الرمان- كوم السـوان الغربي- كوم الرقة- بـورد وبرد سو- جعـران- اللبوة- خربة الصوفان- كوم التـين- كوم الصوان الشرقي.

ومن الطـرف الغربي والشمالي الغربي: - تل محجة- محجـة- قيراطة - مسيكة - الزبير والزباير- عاسم- حامر - زبية - صور اللجاة- أيب الجنوبية وأيب الشمالية- كريم الجنوبي وكريم الشمالي وبينهما تل عزيزة- كوم سمـاح. ومن الحافة الشمالية: المسمية - الطف - شعارة الغربية وشعارة الشرقية- خربة التـين- سحر اللجـاة وسحر خالكو ومدفن سحر- همـان- حوش حماد- قلعة سما -خـراب كوسيرات - كوم مرتجلا[٤]- تل براك- المخنج.

أمَّا على الحافـة الشرقية فنجد القليل من المواقع وهي: خربـة المرصرص- خربة كسيفة- رجم العيس- متون- سويمر إضافة إلى بعضـ المواقـع التي لم يتـم التأكد من تسمياتها والموزعة علـى امتداد وادي اللوا المحـاذي لمنطقة اللجاة من الجهة الشرقية.

أمَّـا من الجهـة الجنوبيـة فيحاذيها وادي أبو الذهب حيـث أقيمت على مساره بعض المواقـع مثل: نجـران- مبنى الـبرج- كفر اللحف.

٢- المسالـك والطرقـات وطـرق تراجان الحربي (فيا تريانا):

نظراً لصعوبـة الولوج إلى داخل منطقة اللجـاة بسبب تكوينها وتركيبها الجيولوجي لذلك كانت وعبر التاريخ ملجأً لمن يستطيع أن يتحمل الظروف القاسية ويقبل بخشونة العيشـ والتأثير السلبي علـى سكان المدن المجـاورة أو السلطـات المحليـة والمركزية، لذلـك كان ينصّب جهد تلك السلطات على تأمـين وسائـل المواصلات التي تـؤدي إلى داخل هذه المنطقـة، إلا أنَّها كانت تصطدم بالكثير من العقبات والمعوقات.

وفي هذه المناسبة نود التذكير أنَّ السكان الذين كانوا يتواجدون في العديد من المواقع التـي ذكرت في هذا البحـث كانوا يتنقلون على الأقـدام في قطع المسافات خاصةً وأنَّ معظمهم كان يعتمد على رعي قطعان الغنم والماعز حصراً مع خلو المنطقة من رعي البقر أو الإبل أو غيرهـا من الحيوانات الأخرى. ومـع ذلك فقـد عمل سـكان الداخل على تأمين بعض المسالك عن طريق تعزيل بعض الصخـور في المنخفضـات ومسيلات المياه

مما سهل عليهم ركوب بعض الدواب مثل الحمير أو نقل حاجياتهم على ظهورها.[٥]

ومنذ النصف الثاني من الألف الأوَّل قبل الميلاد وعلى أثر تزايد وجود الأنباط في المنطقة وزحفهم نحو منطقة دمشق وتشكيل المملكة النبطية وانتقال عاصمتها من مدينة البتراء إلى مدينة بصرى اهتم الحكَّام الجدد بالمنطقة كونها تشكل قلب المحاور التجارية التي كانت تسلكها قوافلهم، لذلك أخذوا في تأمين أكبر قدر ممكن من المسالك للولوج إلى داخل المنطقة وتقليص المسافات بين أطرافها المتباعدة.[٦]

وقد اعتمد هؤلاء على خبرة السكان القدامى في هذه المنهجية بحيث كانت تؤخذ المنخفضات والمسيلات الطبيعية كممرات آمنه بحيث يتم التقاط الصخور والعوريات وكتل الحجارة الصغيرة لردم المنخفضات والهُوى البسيطة ومن ثم الوصول إلى تسويات منتظمة. وكانت الغايات متعددة من ذلك وعلى رأسها الوصول إلى أماكن تواجد المياه الجوفية في العديد من الآبار الداخلية أو الأحواض التجميعية التي تحتفظ بمياه الأمطار لعدد لا بأس فيه من أيام السنة.

وبالطبع فهذه المظاهر الموسمية تكون قليلة الديمومة في بعض المواسم لذلك كانت تتم تهيئتها بوساطة العديد من المسالك التي كانت تتخذ كمعابر للمياه بوساطة سلاسل حجرية أو قنوات صغيرة لجر المياه نحو المنخفضات التي تأخذ أشكال البرك المتواجدة في معظم مناطق جنوب سورية، وكما هو الحال في البرك التي مازالت موجودة في مدينة بصرى وغيرها.

وبالطبع فلم تكن هذه المنهجية جديدة على الأنباط الذين تعايشوا مع هذا الواقع في جنوب منطقة الأردن وخاصة في مناطق وادي موسى ووادي عربة وكذلك منطقة النقب في فلسطين وغيرها. والجدير بالذكر أن هذه الابتكارات وجدت حتى في منطقة البادية والمناطق الصحراوية والتي مازالت نماذجها معروفة حتى الآن في منطقة جاوا[٧] شمال الأردن والهبارية وخربة الأنباشي شرق جبل حوران أوالتي عرفت بمناطق تواجد القبائل العربية التي تعتمد على الرعي مثل الصفائيين والإيدوميين.

ولم يقتصر الأمر على هذه المنهجية خاصة بعد أن تزايد إعمار المنطقة وتكاثر عدد السكان القاطنين أو المتجولين في العديد من المواقع لذلك فقد اقتضت الضرورة حفر الآبار في العديد من المواقع المجاورة للغطاء الصخري الفسيح أو تحت البلاط البازلتي الذي يسمح بحجز المياه على شكل برك كمستنقعات صغيرة في المنخفضات الطبيعية الموجودة في الفقاعات البازلتية. وهذه البرك أو المستنقعات تُملأ

بوساطة ارتفاع السطح الحقلي المائي الجوفي المغذى بوساطة الحوض المنسكب، وكذلك بوساطة جريان مياه الأمطار والتي تكون غزيرة دائماً في فصل الربيع. كما نجد أيضاً أنَّ المياه تسير وتتجمع في منخفضات عميقة من البازلت فوق منخفضات تتجاوز مساحتها الهكتار. وهذه الحافظات تكون سريعة الزوال في نهاية فصل الصيف أو فصل الخريف، والسبب في ذلك أنها تبدأ في التعرض إلى التبخر الكبير منذ شهر أيار.

وقد أثبتت الدراسات الميدانية أن هذا النظام الطبيعي للحقول المائية الجوفية تحت البازلت يتمركز بشكل جوهري في القسم الشمالي الغربي من منطقة اللجاة. وإنَّه لمن المؤكد وجود بروز تحت البازلت في هذا المكان يسمح في حفظ وحجز منفذ من مسيلات صغيرة قادمة من التلال الواقعة إلى الشمال الغربي من السهل الشمالي. وتوجد أيضاً بحيرتان موسميتان ظاهرتان في هذا السهل، واحدة منها في الجنوب من قرية أم القصور، والثانية في مصرف وادي اللوى بين بويضان ومسيل المياه المغلق من أجل استغلال واستثمار المياه لإرواء الأراضي الزراعية الموسمية وخاصة الحبوب وعلى رأسها الشعير في هذه المنطقة.

وهذه الوسائل المائية كانت تسمح للسكان بالاستقرار خلال فترات محددة من السنة حول المستنقعات والمنخفضات أو خلال كامل السنة بالقرب من. الآبار أو مواقع انبثاق ينابيع المياه وهذه الآبار ساعدت في تثبيت السكان لدرجة بلوغ الاستقرار الدائم والهام كما يؤكد ذلك حجم التجمعات السكنية. وكبرهان أكيد على ذلك، المساحة الكبيرة التي بلغت حوالى ٦٠هكتاراً من الأراضي التي استثمرت من قبل سكان قرية الشرائع في عصر البرونز القديم الأول. كما وجدت مواقع سكنية استثمرت مناطق بلغت أراضي كل واحدة منها حوالى ٣٠ هكتاراً، ومناطق أخرى صغيرة بلغت أراضيها حوالى ٤ هكتار مثل تل مساعد المحصن.

وكان الإنجاز الأكبر الذي شهدته منطقة اللجاة هو مد الخط الحربي الذي اخترقها من وسطها والذي عرف باسم طريق الإمبراطور تراجان (فيا تريانا) أو خط الرصيف. وبالطبع فمن المتوقع أن هذا الخط كان له قدماً قبل وصول الرومان إلى المنطقة على حساب المملكة النبطية في ربيع عام ١٠٦ب.م. في زمن الإمبراطور تراجان. وكان يتميز عصره بالنهضة العمرانية على مستوى مدينة روما العاصمة وعلى مستوى الإمبراطورية التي أخذت في زمنه أقصى امتداد لها في قارات العالم الثلاث.

ومن ضمن منهجية تطوير الإمبراطورية

كان ربط المناطق المحيطة بحوض البحر الأبيض المتوسط بشبكة من الطرقات السرية والمحصنة إضافة إلى ربط منطقة سورية بالجزيرة العربية والبحر الأحمر، ولذلك فقد تمَّ تنفيذ الطريق السريع الذي أخذ بدايته من مدينة دمشق مخترقاً اللجاة بدءاً من مدينة المسمية شمالاً ومبنى البرج جنوباً مروراً بمدينة السويداء ثم عرى- المجيمر- أجمرين- بصرى- إلى عمان وانتهاءً في مدينة العقبة على البحر الأحمر والذي يعرف في الأردن حالياً باسم الطريق الملكي.[٨]

والشيء المذهل في الأمر والذي تبين بعد دراسة مسار هذا الطريق بوساطة الصور الجوية والأقمار الصناعية أنه أخذ استقامة دقيقة في مساره داخل منطقة اللجاة من الشمال إلى الجنوب، وهذا يؤكد على المستوى العالي في المعرفة لدى سكان المنطقة واستخدامهم الطرق العلمية في تنفيذ المشاريع الكبرى. والدليل على ذلك اعتماد الإمبراطور على المهندس الدمشقي أبولودور الذي نفذ معظم مشاريع الإمبراطورية.

وكان يتطلب شق الطريق العديد من الإجراءات مثل توفير الحراسة وأبراج المراقبة والبريد وتوفير المياه وغيرها من الضرورات الملحة، وبالطبع فكان من المهام الضرورية لهذا الطريق نقل القوات الضاربة وخاصةً فرق الفروسية التي كانت تعتمد على نقل العربات الحربية ومنها قاذفات المنجنيق. وكذلك نقل البريد السريع وإقامة الكتائب العسكرية التي تؤمن المواقع في المنطقة وتوفير الأمن والحماية ومنها على سبيل المثال الكتيبة التي كانت تقيم في منطقة المسمية والتي ما زال بناؤها قائماً حتى الآن.[٩]

ومن المعروف أن تأمين البريد ووصوله بالسرعة القصوى إلى كافة مناطق ومدن الإمبراطورية كان من المسائل الهامة لدى كبار المسؤولين، لذلك كانت تتخذ جميع التدابير التي تساعد على ذلك، ومن المرتكزات الهامة لهذا الغرض تربية الخيول الأصيلة والسريعة التي كانت تستعمل لهذا الغرض؛ فلو أخذنا على سبيل المثال نقل طرد بريدي من مدينة دمشق إلى مدينة بصرى ضمن مسافة خط نظر تبلغ مئة كم لوجدنا أن الحمولة تصل ضمن مدة لا تتجاوز الساعتين تقريباً، ولهذا السبب كانت تشاد الشاخصات الكتابية التي تحدد المسافة على طول الطرقات، وكانت معظمها تكتب فوق أعمدة أو ألواح حجرية بارزة بلغة مزدوجة.

والسبب في ذلك أن سرعة الفرس أو الحصان السريع تبلغ كحد أدنى ٥٠كم

في الساعة لذلك كانت تقام على مسار الطرقات السريعة مراكز لتبديل الخيول بحيث يكون الحصان أو الفرس وحامل البريد متأهباً وفي الجاهزية القصوى عند وصول القادم وعند التبديل وعند الإقلاع. ومن هنا فقد بنيت العديد من المراكز المحصنة بالأبراج المنيعة والحماية المكثفة داخل منطقة اللجاة وخاصة على مسار هذا الخط الإستراتيجي، ومن هذه المراكز التي مازالت قائمة حتى الآن منارة الشريف التي تتوسط منطقة اللجاة بدقة تقريباً.

٣- بعض المدن والمواقع الداخلية والمحيطة بمنطقة اللجاة:

ومن ضمن منهجية تطوير وإعمار المنطقة من الداخل والخارج فقد اقتضى الأمر توفير شبكة طرقات بين المواقع التي أصبحت مأهولة من الداخل وبناء أو تعزيز القرى المحيطة حتى أصبح قسم منها متطوراً لدرجة الوصول إلى المدينة مثل مدن: إزرع- بصرى الحرير- محجة- خبب- شقرا- المسمية- شهبا- أم الزيتون- لاهثة- براق إلخ. أمَّا بالنسبة إلى المواقع التي تقع في الداخل فقد تمت تهيئة طرقات بالمنهجية نفسها التي ذكرت عند الحديث عن الطريق الإمبراطوري الذي يخترق اللجاة والذي عرف باسم (فيا تريانا).

وقد تمَّ مؤخراً تعبيد هذه الطرقات حيث أصبحت سالكة وتسير عليها السيارات العامة منذ عشرات السنين، وقسم منها غير معبد. ومن هذه الطرقات الطريق القادم من موقع خبب باتجاه الجنوب الشرقي من اللجاة مروراً بموقع عريقة ووصولاً إلى نجران ومجدل ثم السجن وأخيراً إلى مدينة السويداء. ويتفرع عن هذا الطريق تفرعات عدّة جميعها تأخذ اتجاه الجنوب ومنها الطريق المتفرع بين موقع المطلة وينتهي في قيراطة، ثم المتفرع من موقع مجدل مروراً في المسيكة وينتهي في بصرى الحرير، ثم المتفرع الثالث ويبدأ من موقع الدامة مروراً في جرين ثم حران ثم الدويرة ثم طعارة ليرتبط أخيراً بالطريق الواصل بين مدينة بصرى الحرير والدور، والطريق الرابع ينطلق من موقع عريقة مروراً في نجران، وهذا الطريق الذي تكلمنا عنه قبل قليل له تفرع آخر يتجه شمالاً من عريقة إلى موقع صميد مروراً بموقع خرسا ثم مجادل وينتهي في موقع أم الزيتون، ويتفرع منه عند موقع خرسا طريق يقود إلى موقع رقم ثم دير داما ويتقاطع مع الطريق الإمبراطوري في هذه المنطقة ثمَّ يتابع المسار حتى موقع الدامة.

وأخيراً وفي أقصى المنطقة الشمالية من اللجاة يوجد تفرعان ينطلقان من مدينة المسمية أحدهما يأخذ اتجاه شمال شرق

وصولاً إلى موقع بـراق والآخر يأخذ اتجاه جنوب شـرق وصولاً إلى موقـع الطف. أمَّا بالنسبة إلى الحافـة الشمالية الغربية فقد تمَّ اختراقها بوساطـة طريق يربط كلّاً من موقـع خبـب والمسمية مـروراً في الشرائع ويتفرع عنه طريق يقود إلى موقع كريم. أمَّا الحافة الشرقية لمنطقة اللجاة فقد تمَّ تنفيذ طريـق سهل وخالٍ من المعوقـات الطبيعية والـذي أصبح لاحقاً طريقـاً معتمداً يربط بين مدينتيّ دمشق والسويداء.

دراسة بعض المواقع الأثرية في منطقة اللجاة:

تـل بـراك: ويقـع في الجهـة الشمالية الشرقية من المنطقة ويحاذي تقريباً الطريق الواقـع بـين مدينتـي دمشـق والسويداء. وهو عبارة عن تل يعـود إلى عصر الحديد المتأخـر. ويتمركز على هضبة طبيعية. وفي قمته يوجد بـرج روماني بني لاحقاً. ويعتبر هـذا الموقع من المراكـز الهامة التي سكنها الإنسان في فترات ما قبل التاريخ، ثم استمر التطور في الموقع إلى عصر البرونز الوسيط. ويعتبر التل صلة الوصل بين حافة المسكوبات والحمم البركانيـة والسهل الزراعي. ولهذا مـا زالت موجودة في الحقـول الزراعية في هذا القطاع دلائل تشير إلى وجود سد مائي طويل يحاذيـه بركة صناعيّـة. كما يحيط بالتـل العديد مـن المساكـن المنتشرة فوق مساحة تقـدر بأكثر من ٥٠ هكتـاراً ومنها قرية مسـورة داخل أسـوار رباعية الشكل ومبنية بحجارة منتظمـة ومحكمة النحت. وبالطبع فهذه الكثافـة السكانية تؤكد على وجود الميـاه الدائمة والينابيـع التي كانت متوافرة في المنطقة.

وقليـلاً إلى الغـرب من الموقـع توجد المنطقة التي تحيط بكوم ماسج والذي يعتبر من المواقع الهامة الأولى للاستيطان البشري والتـي تعود إلى فترة ما قبـل التاريخ؛ وهو أيضاً عبـارة عن تل محصن يعود إلى عصر البرونـز الوسيط، مع احتمال وجود تأسيس يعود إلى عصـر البرونز القديم الرابع. وقد توضع التـل مباشرة على حافـة مسكوبات الحمـم في اللجـاة ويمتـد في تواصله مع القطاع الزراعي الشمالي.

الشرائـع: ويحتاج هذا الموقع إلى العديد مـن الدراسـات المستفيضة لمـا قدمه من غنىً كبـير في المعطيات الأثريـة، وأهم ما يجب ذكـره في هذا الخصوص التحويطات والتسويرات الكبيرة مـن الحجارة التي من المرجح أنَّها تعود إلى العصر الحجري الأخير (النيوليتيك) إضافة إلى وجود بقايا من قرية تعـود إلى عصر البرونز القديم الأول مكونة من بيوت ذات صدور مزدوجة للمنازل وقد توضعت فوق سطح يتسع لحوالى٦٠ هكتاراً

مغلق بوساطة جدار على شكل سور يقع بين القطاعات والمنخفضات من أجل المياه وتحصين السهل الزراعي المحيط بالموقع إضافة إلى العديد من المساكن التي مازالت قائمة بما فيها الأبواب والنوافذ الحجرية. كما يظهر مخطط الأبنية أو هياكل الأبنية وبناء المداميك الحجرية فوق بعضها البعض بشكلٍ منتظم في بناء المساكن التي تكون قد أخذت الأشكال الهندسية من مساكن ذات هياكل بنائية مستطيلة أو ذات زوايا ومن الداخل تكون مستديرة في بعض الأحيان وحسب الغرض المنشود من البناء.

وإلى الشمال، من هذا الموقع توجد بعض التلال، ومنها تلان محصنان ومرتفعان ويعودان إلى عصر البرونز القديم الرابع وعصر البرونز الوسيط مازالا في حالة جيدة، ويحيط بكامل هذه المواقع مقبرتان واحدة من الشرق وأخرى من الغرب حيث يوجد العديد من القبور والتي مازالت واضحة مثل المقابر الدائرية ونصف الدائرية وربع الدائرية وهذه النماذج من القبور هي النماذج التي كانت أكثر تداولاً.

كوم التين والمنطقة المحيطة به: وإلى الجهة الجنوبية الشرقية من المواقع السابقة توجد قرية ذات حجم كبير تعرف باسم كوم التين وتعود معظم أبنيتها الحالية إلى العهود الهلّينستية ومن ثم الرومانية والبيزنطية، وهي على شكل مزارع متناثرة ومساكن ذات حجرات وصالات بنيت أسفل الأرض. وقد اعتمد سكانها منذ القدم على الزراعة وخاصةً زراعة الحدائق التي تمت تهيئتها على سفوح المنحدرات، وفي الأعلى تبنى أبراج حماية وحراسة، ومنها برج ذو مركز مسور مع معبد وجدران خارجية طويلة على شكل سور يحيط بالقرية أيضاً.

وبالطبع فهذا التنظيم والكثافة السكانية والمجموع المتكامل من المباني السكنية يؤكد على أهمية المجموعة المتكاملة للموقع. ومن جهة أخرى فإنَّ الاستثمار والسكن بقي مستمراً بشكل متواصل. وبهذه المناسبة نشير هنا على سبيل المثال إلى وجود تل صغير يعود إلى عصر البرونز الوسيط في خراب القصيرات بالقرب من هذه المواقع ويوجد حالياً على امتداد الطريق القادم من الشرائع إلى هذه القرية.

كما لابد من الإشارة إلى أن الكثير من المواقع والمساكن التي تتواجد في هذا القطاع والذي يعرف باسم قطاع شعارة والتي تعود إلى الفترة الرومانية والوسيطة قامت على حساب مبانٍ تعود إلى فترات تاريخية أقدم.

وعدما نتجه نحو الجهة الجنوبية الغربية من منطقة الشرائع وبعد تجاوز كوم السما بمسافة نجد أنفسنا في منطقة تتوسط

الجهة الغربية من منطقة اللجاة. وتعتبر هذه المنطقة الأغزر والأكثر تواجداً للمواقع السكنية بعد منطقة الشرائع. والشيء الملفت للنظر أننا نجد التجمعات السكنية في هذا القطاع متقاربة جدّاً وخاصةً في قرى كريم الشمالي وكريم الجنوبي وآيب بحيث لا يبتعد الموقع عن الآخر أكثر من ١كم.

وتتميز معظم أبنية تل العزيزية الذي يتوسط العديد من المواقع هنا ومنها كريم الشمالي وكريم الجنوبي بأنها تعود إلى الفترة الرومانية مع العلم أنَّ هذا التل يعود إلى العصر البرونزي الوسيط بسبب تواجد الكثير من اللقى الأثرية المتنوعة والتي تعود إلى ذلك العصر وخاصةً اللقى الفخارية والتحصينات الجدارية. أمَّا باقي التجمعات فهي عبارة عن تجمعات صغيرة ومتفرقة تعود في تاريخها إلى عهود وعصور متفرقة.

كما تتميز المنطقة الواقعة بين كل من موقع كريم الشمالي وكريم الجنوبي بوجود سلسلة من الأبراج التحصينية. وفي هذا الصدد نذكر أن هذه الأبراج تكون متعددة الأغراض والوظائف، وقد أكدت الدراسة الهندسية والأثرية إلى أنَّ البرج كان يقوم مقام المسكن أو القبر بمعنى الضريح أو كبرج عسكري للمراقبة والدفاع. ونلاحظ أيضاً أن هذا البرج عندما تكون مهمته جنائزية يكون محاطاً بالعديد من القبور التي تبنى على نهج القبور التي بنيت بالحجارة المنتظمة يعلوها بناء مخروطي الشكل[١٠]. وقد تمَّ العثور بين هذه القبور على مقبرة تعود إلى العصر البرونزي القديم.

كما وجد بالقرب من موقع كريم الجنوبي بناء محصن بني لأغراض عسكرية في الفترة الهلّينستية ثم تمَّ تدعيمه وتقويته في الفترة الرومانية خاصة بعد أن أصبح موقعاً سكنياً تطور تدريجياً منذ عصر البرونز القديم الأول حتى العهد الروماني ومن ثم مازالت بعض المباني مسكونة حتى هذا التاريخ. وقد تميزت المساكن هنا بأنها تأخذ شكل الأبنية المستطيلة ذات الحجم الكبير مع فسحات منزلية تتجمع حولها المساكن بشكل مترابط لتكون بناءً يتميز بالتحصين القوي بحيث تكون الحجرات مغلقة من الخارج وتفتح نحو الداخل. كما نلاحظ في هذا القطاع في بعض الأحيان وجود منازل ذات زوايا دائرية تعود في تاريخها إلى فترات زمنية غير محددة ويزداد تواجد هذه المنازل عند أحواض المياه، كما تتميز بوجود أسوار دائرية كبيرة تحيط بها معاقل لأغراض عدّة، وهذا ما يؤكد على التواصل الزمني في سكن هذه المواقع.

وليس بعيداً عن هذه المواقع جنوباً نجد تجمعات سكنية شكلت قرى عرفت

باسم آيب الشمالي الذي تحيط به العديد من المواقع التي تعود في تاريخها إلى العهد الهلّينستي حيث تمَّ تشكيل قرية كبيرة ذات أبنية تحصينية على شكل مبانٍ سكنية ومنازل مغلقة كما هو الحال في قرى كريم المجاورة لها. وينطبق هذا الأمر على قرية آيب الجنوبية وخربة الولي. وجميع هذه المواقع بنيت على أرضية تعود إلى عصر البرونز القديم الأول والتي تتميز مساكنها بالصدر المزدوج ذي الأبعاد المتسعة والجدران المستقيمة والزوايا القائمة، إلا أنه وللأسف فقد تعرضت الكثير من هذه المباني إلى الهدم ونقل حجارتها لتوظيفها في أبنية حديثة أو لتوظيفها في رصف أرضية الطرقات الحديثة التي تمَّ تنفيذها في المناطق القريبة من هذه المواقع.[11]

أمَّا بخصوص موقع خبب والمواقع المحيطة به فإنها تعود كما هو الحال في إعمارها إلى عصور البرونز وخاصةً المواقع السكنية التي بنيت فوق مرتفعات بسيطة تشرف على كوم الرمان الذي يشكل تلاً ذا حجم كبير ومحصناً يعود إلى عصر البرونز الوسيط حيث مازالت تشاهد رمبة المدخل حتى الآن واضحة، ونظراً لأهمية الموقع الإستراتيجية فقد تمَّ بناء تحصينات واستحكامات دفاعية قوية ومصفحة بكتل حجرية كبيرة تمت تقويتها وصيانتها منذ العهد النبطي واستمر ذلك حتى الفترة الرومانية، وقد أخذت بعض هذه التحصينات الشكل المستدير، وقد تمَّ التقاط العديد من اللقى الأثرية في هذه المواقع مثل البلطات الصوانية المستديرة والمفلطحة وأدوات حجرية تعود إلى العصر الحديدي مثل الشفرات وأدوات كانت تستعمل لأغراض عسكرية، كما تمَّ التقاط العديد من اللقى التي تعود إلى العصر الحجري المتأخر إضافة إلى العديد من الكسر الفخارية التي تعود للعهود الكلاسيكية.

سحر: يتميز موقع سحر بأنه الأغنى في الأبنية الأثرية التي مازالت بقاياها الأصلية موجودة حتى الآن، كما أنَّها تتميز بمنظرها الخلاب فوق كتل الصخور النافرة، ولذلك يجد الزائر لهذا الموقع المتعة وهو يسير فوق هذه الفقاعات الصخرية والعديد من القطاعات التي تقع داخل الأغطية البازلتية ضمن منطقة اللجاة لمدة لا تقل عن ساعتين سيراً على الأقدام بعد أن يترك موقع الطف بمسافة ٢كم تقريباً ثم ينحرف باتجاه الشرق مباشرةً، والسبب في ذلك عدم توافر أي مسلك يقود إلى الموقع.

ولو أخذنا موقع سحر كخط نظر نجده يدخل بمسافة لا تقل عن ٨كم داخل القطاع البازلتي. وكما ذكرنا سابقاً فقد تمَّ ارتياد الموقع من قبل العديد من

العلماء والمختصين في الآثار، كما تمت له دراسة مبدئية متواضعة من خلال بعثة بتلر للمنطقة حيث شرح بشكل لابأس فيه الحالة التي كان عليها الموقع والآثار الموجودة، ومن أهمها المسرح والمعبد اللذان يعودان إلى العهد النبطي حيث يعاصر معبد سحر معبد الإله بعل شامين (إله الشمس) في موقع سيع بالقرب من مدينة قنوات إلى الشمال الشرقي من مدينة بصرى العاصمة النبطية في تلك الفترة بمسافة حوالى ٣٠كم.[١٢]

أمَّا بخصوص المسرح فهو في الحقيقة عبارة عن جزء من المعبد وظيفة والتصاقاً ومنهجاً عمرانياً، وهو بذلك يعبر عن تلك المنهجية التي كانت موجودة في منطقة الجزيرة السورية أو بلاد ما بين النهرين في تلك الفترة والتي ما زلنا نشاهدها في مدينة دورا أوروبس على الفرات بالقرب من مدينة دير الزور، وكذلك الأمر في معبد بعل شامين في حوران، وهذا يعني أنَّ المعبد كانت له وظيفة شعائرية دينية وليست مسرحية.

كما تمَّ الكشف في الموقع عن العديد من الأبنية الأثرية التي تعود إلى الفترات الكلاسيكية مثل المنازل السكنية والهياكل المعمارية الأكثر قدماً ومنها مكان يسمى مدفن السحر، وهو عبارة عن حلقات كبيرة من الحجر تعود إلى عصر الحديد. كما وجدت تحويطات حجرية كانت تستعمل من قبل السكان الرعاة لإيوائهم مع قطعان الغنم، وقد وجد في منطقة اللجاة العديد من التحويطات التي تشابهها وخاصةً تلك الموجودة في مواقع كريم والمنطقة الواقعة بين الشرائع ورجم ناجية..إلخ.

كما تمَّ الكشف في منطقة سحر عن قرية تعود إلى عصر البرونز القديم الأوَّل مكونة من حوالى ١٥ منزلاً من ذات الصدور المزدوجة والمشابهة لتلك المساكن التي تكلمنا عنها في المواقع السابقة وهذه المساكن منتشرة في محيط هضبة تمَّ اكتشافها في المنطقة ظهرت جميعها وهي تحيط ببئر مهيأ يفسر وجود سكن استقر قليلاً في هذا الموقع القاسي والصعب والمعزول. كما تمَّ العثور أيضاً على بعض القبور التي تصنف بمنهج قبور- الأبراج. ومن أجل الحفاظ على هذا التراث فقد قمنا بنقل العديد من القطع الأثرية إلى متحف درعا منذ عام ١٩٩٠م وقد تمت دراستها وصيانتها وعرضها في المتحف.

كوم مرتجلا: سمي الموقع بهذا الاسم نسبةً إلى أسماء الأميرات السوريات مرثا وجوليا نسبةً إلى الأميرة السورية جوليا دومنا، ولذلك تمَّ إدغام الاسمين تحت اسم مرتجلا. وتقع هذه القرية على مسافة قصيرة قليلاً إلى الشمال من موقع مدفن

سحر حيث تمَّ الكشف عن نتوء محصن على حافة سهل داخلي مهيأ للزراعة. ويتميز هذا الموقع بغناه بالعديد من المساكن التي تعود إلى عصور البرونز الوسيط وعصر الحديد. وقد تمَّ بناء السور الشرقي للموقع على شكل معقل يحيط بهياكل سكنية كبرى تشابه تلك الموجودة في الشرائع. وعلى حافة هذا الموقع يوجد موقع ثانٍ على حافة اللجاة وهو موقع المخنج. وهذا الموقع عبارة عن نقطة محصنة مع سور وهياكل بناء داخلية مستطيلة، وقد تمَّ التأكد من خلال الملتقطات الأثرية أن هذه المواقع بنيت بشكل متزامن وتعود في معظمها إلى عصر البرونز الوسيط.

المدوره: ويجب الإشارة أخيراً وريثما تتم دراسة بعض المواقع الأخرى إلى أنه وإلى الجنوب من الموقع الأخير يوجد توضع هام آخر وهو قرية المدوره التي توضعت فوق رمبة صغيرة كمدخل مع تحويطات كبيرة مغلقة وجدران مزدوجة الحيطان، ومنازل نصف مدفونة. ومن دون شك فهي بذلك تشكل قرية تعود إلى عصر وسيط ولكنها ربما تكون قد توضعت فوق موقع أقدم. ويحيط بهذه المساكن العديدة من البقايا المتناثرة من الأبنية الأثرية مثل القبور والكتل الحجرية المنحوتة والتي تعود من دون شك إلى أبنية منتظمة والتي تؤكد على أهمية المساكن والسكان في هذا القطاع والذين ينتمون إلى المجتمع الزراعي والرعوي.

استنتاج مؤقت:

أصبح من المؤكد على ضوء الدراسات الأثرية المتوافرة حتى الآن أن منطقة اللجاة والتي تشكل قلب منطقة جنوب سورية عبارة عن كتلة صخرية متباينة ومتغايرة عن بقية المناطق المجاورة، وهذه المنطقة لم تكن كما وصفها الرحالة والمستشرقون في القرون السابقة على أنها منطقة تواجد للعصاة وقطاع الطرق وإنَّما كانت عبارة عن منطقة ذات تواجد سكاني لا يختلف عن سكان المواقع المجاورة، فقد واكبتهم بالإعمار والحضارة والنهضة العمرانية والتنظيمية بشكل يتناسب مع الظروف الجغرافية التي وجدوا فيها.

وهذا المسار التاريخي والحضاري لم يقتصر على عصر أو مرحلة تاريخية محددة وإنَّما واكب مسار التاريخ والحضارات المجاورة، فنجد على سبيل المثال تواجداً سكانياً واستثماراً للمنطقة يعود للعصر الحجري المتأخر وهو مستمر حتى الآن، وقد تمَّ توثيق ذلك بالدلائل والوثائق الأثرية. أمَّا بخصوص الفترات التي تعود إلى العصر النحاسي فما زالت الدراسات مستمرة لتوثيق هذه المرحلة بشكل جيد خاصة في ضوء وجود بعض الدلائل التي توجد في مكان ولاتوجد في مكانٍ آخر، ونعني بذلك المواقع التي تقع في الجهة الغربية من

منطقة اللجاة وخاصة تلك المجاورة لسهل دمشق وسهل الجولان.

كما أصبح من المؤكد أن المكتشفات الأثرية وغير الأثرية باتت لافتة للنظر وغير متوقعة نوعاً ما على هذا المقياس المدروس والذي يؤكد الكثافة الكبيرة للسكان والاستغلال المكثف والمتسع لهذه المساحات في هذه الفترات مع الافتراض الأكيد للإمكانية النادرة التي كانت تستخدم في تجربة الاستثمار الجيد للأراضي الزراعية ذات الامتداد الواسع جدّاً والذي يمكن أن يكفي هذه التجمعات السكنية وبمساحة تبلغ حوالى ٦٠هكتاراً على سبيل المثال في الشرائع وحوالى ٢٠ هكتاراً في كريم الجنوبي وغيرها الكثير الكثير.

أمَّا بالنسبة إلى الفترات الزمنية التي تعود إلى عصريّ البرونز القديم والوسيط فقد تمَّ التأكد من إصرار السكان في المحافظة على المواقع مع التطوير المتقدم لنماذج التحصين واستثمار وتخزين المياه، وإنَّ اكتشاف قرى هامة تحيط بكوم ماسيج على سبيل المثال إنما يدل أيضاً على عمل هام في فهم المنشآت السكنية في هذه الفترات والأخذ بعين الاعتبار البعد الهام في إعمار المنطقة بالمساكن والمنشآت السكنية للمجموعة البشرية التي يتشكل منها المجتمع داخل منطقة اللجاة والتي وصلت إلى مرحلة لم يصبح أو يستوجب الأمر أن تكون محددة على سطح أو أرضية مغلقة بالأسوار.

ولهذا فقد شعر السكان أنه أصبح من المستوجب عليهم أيضاً الاندماج في القطاعات والمناطق المجاورة وعدم الانغلاق والخروج في نشاطهم العمراني إلى خارج الأسوار، وهذا الأمر أصبح يتماشى مع العديد من المناطق والمواقع التي يتشابه فيها الاستقراء نوعاً ما مع هذه المنطقة سواءً كان الأمر في سورية أو خارجها، إلا أنه لمن المؤسف أن الكثير من هذه الدلائل قد اندثرت أو تهدمت أو نقلت أو جرفت أثناء عمليات التطوير الزراعي واستصلاح الأراضي الحديث أو الممارسات الزراعية المتبدلة خلال القرون الماضية.

وعلى ضوء هذه المستجدات التي ذكرت أعلاه يصبح من الصعوبة بمكان تحديد هوية بعض المواقع أو القرى التي تكون قد تشكلت عن طريق المساكن المتناثرة هنا وهناك أو المساكن والتحويطات شبه المتناثرة فوق أرضيات متناثرة وحسب مقتضيات المواقع، وهذا الأمر هو الذي تعرضت له العديد من التجمعات السكنية وخاصةً تلك التي تعود إلى عصر البرونز القديم الأول أو التي تسبق ذلك. وفي هذا الصدد فلا بد من التذكير بالنتائج الهامة التي تمَّ الكشف عنها في العديد من التجمعات السكنية والتي تعود

إلى عصر الحديد وهي الفترة التي توسع السكن فيها كما توسعت المناطق، ولذلك فهذا الأمر يؤكد أن هذا الاستثمار والسكن المنتشر وبمساحاتٍ كبيرة يدل على التفاعل والتزامن الملحوظ مع المناطق الريفية في جنوب سورية.

وهذا الأمر يرتكز بشكلٍ مبدئي على النتائج الأولية للاستكشاف الأثري في القطاع الشمالي من منطقة اللجاة والذي يظهر الاحتمالية الكبرى للمنطقة كقطاع جغرافي جيد حافظ على بقايا جيدة من المواقع التي تعود إلى العديد من العصور الزمنية ويؤكد على غنى المعطيات المقدمة وحقيقة جودتها التي مازالت محافظة عليها ومرجعيتها إلى العديد من المواقع المختلفة والتي تؤكد أن منطقة اللجاة ذات أهمية في الاحتمالية المنظورة في فهم وإدراك مسار التاريخ وبشكل أكثر شمولية للمنطقة في سورية الجنوبية.

وبالطبع فهذا ما أكدته النتائج الأولية للاستكشافات المبدئية في القطاعات التي تمَّ تحريها في المواقع المذكورة من المنطقة والتي دلت على غنى المخزون الأثري والتاريخي للمنطقة وعلى احتمالية الوجود الأكيد لهذه الظواهر في كامل المنطقة التي لم يتم ارتيادها وخاصةً فيما يتعلق بالتجمعات السكنية في فترات ما قبل وقبيل الفترات الكلاسيكية، وقد وضع هذا الأمر موضع الاهتمام من قبل السلطات الأثرية السورية والدولية.

الهوامش

١- أودعت جميع التقارير العلمية لدى المديرية العامة للآثار والمتاحف في دمشق ونشر قسم منها في الحوليات الأثرية العربية السورية.

٢- يرجع بعض العارفين تسمية اللجاة إلى مصدر اللجوء إليها؛ بمعنى الهرب من الخطر المداهم سواء أكان الفار فرداً أو جماعة، كما تسمى أيضاً النجاة للغرض نفسه.

3- Abel. F.M. Geographie de la Palestine. Paris , 1967.

٤- تعود هذه التسمية إلى مقولة تداولها سكان المنطقة القدامى إلى اسمي الأميرتين السوريتين مرثا وجوليا، ولذلك تمَّ إدغام هذين الاسمين تحت كلمة مرتجلا.

5- Dunand. M. La voie romaine du Ladja. MAIBL. Paris. 1930.

٦- خليل المقداد- بصرى عاصمة الأنباط- دار عكرمة للنشر والطباعة- دمشق- ٢٠٠٣م.

7- Helms. M. W. Jawa. Lost of black desert. ITHACA. New- Yorrk. 1981.

٨- خليل المقداد- حوران عبر التاريخ- دار حوران للنشر والطباعة- دمشق- ١٩٩٦م.

٩- خليل المقداد- الفرق العسكرية الرومانية وتواجدها في بلاد الشام- مجلة المعرفة السورية.
١٠- خليل المقداد- الأبنية الجنائزية (القبور- الأضرحة- المدافن).
11- Dentzer. J. M. Development et culture de la Syrie du sud. Hauran I.
12- Butler. h. G.PAES.2A. Syrria. The Princeton university archeological expedition to Syria in 19041905- and 1909. leyden. 1919.

المصادر والمراجع

- الحوليات الأثرية العربية السورية. منشورات وزارة الثقافة- المديرية العامة للآثار والمتاحف- دمشق.
- الأطلس السياحي السوري- منشورات وزارة السياحة- دمشق- ١٩٨٩م.
- خليل المقداد- حوران عبر التاريخ- دار حوران للنشر والطباعة- دمشق- ١٩٩٦م.
- خليل المقداد- بصرى عاصمة الأنباط- دار عكرمة للنشر والطباعة- دمشق- ٢٠٠٣م.
- خليل المقداد- الفرق العسكرية الرومانية وتواجدها في بلاد الشام- مجلة المعرفة السورية.
- فيليب حتي- تاريخ سورية ولبنان وفلسطين- بيروت- ١٩٥٨م.
- Abel. F.M. Geographie de la Palestine. Paris ,1967.
- Abel. F.M. Histoire de la Palestine. Paris ,1952.
- Butler. h. G.PAES.2A. Syrria. The Princeton university archeological expedition to Syria in 19041905- and 1909. leyden. 1919.
- Dentzer. J. M. Development et culture de la Syrie du sud. Hauran I.
- Dubertret. L. et Dunand. M. Les gisement ossiferen de Khirbet el umbachi et Hebariye (SAFA) et les installation correspondent. AAS. tom IV- V 1954. pp 59- 76.
- Dunand. M. La voie romaine du Ladja. MAIBL. Paris. 1930.
- Helms. M. W. Jawa. Lost of black desert. ITHACA. New- Yorrk. 1981..

تاريخ العولمة

د. جهاد ملحم*

ليست مهمة سهلة البحث في ظاهرة معقدة كالعولمة وتحديد فيما إذا كانت جديدة أمّ قديمة، كونها تقع خارج نطاق حقل الدراسات الأكاديمية الراسخة حالياً. ولأنَّ العولمة الحالية نتاج رأسمالي بامتياز عممته سطوة التكنولوجيا الرهيبة، تصبح وجهة نظر المفكرين الغربيين حول الموضوع أساسية وحاسمة. وقد استندت في هذا البحث

* أستاذ العلوم في جامعة تشرين- سورية.

على رؤية مانفريد ستيجر[1] Manfred B. Steger من خلال مؤلفاته التي تلقى اهتماماً عالمياً متزايداً، خصوصاً كتابه الموجز الذي يحمل عنوان «العولمة».

عندما نسأل شخصاً عادياً في أحد شوارع لندن، نيويورك، بانكوك، القاهرة، دمشق، أو ريو دي جانيرو عن ماهية العولمة، فمن المرجح أن يتضمن جوابه تلميحات إلى منظومات اقتصادية وسياسية متشابكة تغذيها تقنيات حديثة مثل الحاسبات الشخصية، الإنترنت، الهاتف الجوّال، أجهزة الفاكس، الكاميرات الرقمية، الأقمار الاصطناعية، الطائرات النفاثة، وناقلات البترول العملاقة. لكن هذا الجواب هو جزء واحد من الحقيقة فقط، إذ إنّ التكنولوجيا ليست العامل الوحيد الفاعل في الميدان. ومع ذلك، سيكون من الجنون إنكار أنَّ هذه الاختراعات الجديدة لا تلعب الدور الحاسم في صناعة التحولات الاجتماعية العالمية ومضاعفتها وتوسيعها وتكثيفها.

فالإنترنت، على وجه الخصوص، أخذ على عاتقه وظيفة حيوية في تسهيل العولمة من خلال خلق صفحة تواصل عالمية بين ملايين الأفراد والمنظمات والأحزاب. مع أنّ هذه التقنيات في معظمها حديثة لا يتجاوز عمرها ثلاثة عقود، فإنَّها أحدثت شعوراً عاماً لدى أولئك المراقبين بأن العولمة بمفهومها المعاصر هي ظاهرة حديثة حقاً.

ولكن، في الوقت نفسه، يؤكد التعريف العام للعولمة على الطبيعة الحركية للظاهرة. فتعزيز العلاقات على نطاق واسع والتزايد العام في إدراك أنَّ الروابط العالمية التي تتعمق هي جميعها عمليات تدريجية وذات جذور تاريخية.

فعلى سبيل المثال، فإنّ المهندسين الذين طوروا الحاسب المحمول والطائرة النفاثة وقفوا على أكتاف مخترعين سابقين صمموا المحرك البخاري، التلغراف الفونوغراف، محالج القطن، التلفون، الطابعة، محرك الاحتراق الداخلي، والتطبيقات الكهربائية. وهذه المخترعات بدورها، تعود بوجودها إلى اختراعات تقنية أبكر مثل التلسكوب، الإبرة المغناطيسية، النواعير، طواحين الهواء، البارود، المبرقة وسفن عابرة للمحيطات.

لكي نسلّم بالسجل التاريخي كاملاً، يجب العودة حتى إلى ما هو أبعد من إنجازات اجتماعية وتكنولوجية هامة جدّاً مثل إنتاج الورق، تطور الكتابة، اختراع العجلة، تدجين الحيوانات المتوحشة والبراري، ظهور اللغات، وأخيراً، الهجرة البطيئة لأجدادنا الأفارقة عند نشوء الجنس البشري إلى كافة القارات.

هل العولمة ظاهرة جديدة؟

يعتمد جواب ما إذا كانت العولمة تشكل ظاهرة جديدة على مدى رغبتنا في توسيع السلسلة السببية التي أنتجت تلك التقنيات الحديثة والترتيبات الاجتماعية التي يقرنها معظم الناس بهذه الكلمة النمطية الطَّنّانة. ويرد القسم الأوّل من الباحثين عن قصد البعد التاريخي للعولمة إلى العقود الأربعة التي تلت الثورة الصناعية بهدف الإمساك بالمميزات المعاصرة لها. في حين يرغب القسم الثاني في توسيع نطاقها الزمني ليشمل التطورات الجذرية التي حصلت في القرن التاسع عشر.

أمَّا القسم الثالث فيجادل بأنَّ العولمة تعبّر فعلياً عن استمرارية وانتشار العمليات المعقدة التي بدأت مع صدور الحداثة والنظام الرأسمالي العالمي قبل حوالي خمسة قرون. ولا تزال قلة قليلة من الباحثين ترفض إرجاع العولمة إلى فترات زمنية بعينها تُقاس بالعقود أو بالقرون، إذ تقترح، بدلاً من ذلك، أنها مسار عملية قد نمت وترعرعت منذ آلاف السنين.

من دون شك، تحتوي كل واحدة من وجهات النظر المتنافسة على تبصر عميق مهم. يقدّم مؤيدو المقاربة الأولى دليلاً انطباعياً حول وجهة نظرهم يفيد بأن التوسّع المثير والتسارع في التغيرات العالمية منذ أوائل عام ١٩٧٠م يشكّل قفزة نوعية في تاريخ العولمة. في حين يؤكد مؤيدو وجهة النظر الثانية على صحة العلاقة الوثيقة بين الأشكال المعاصرة وانفجار التكنولوجيا المعروفة بالثورة الصناعية. أمَّا ممثلو وجهة النظر الثالثة فيشيرون بدقة إلى دلالة انضغاط الزمان والمكان الذي حصل في القرن السادس عشر.

وأخيراً، يعرض مؤيدو وجهة النظر الرابعة بدلاً من ذلك حجة حصيفة عندما يصرون على أن أي تفسير شامل للعولمة بحق يسقط سريعاً بشكل يثير الشفقة من دون لحظ الحراك المستمر والتطور في تاريخ البشر على كوكب الأرض.

ومع أنَّ الجدول الزمني القصير الذي سنعرضه بالضرورة هو جزئي وعمومي، إلا أنَّه يعطي انطباعاً جيداً أن العولمة قديمة قدم الإنسان نفسه.

هذا الجدول التاريخي المختصر يعين خمس فترات تاريخية مميزة منفصلة عن بعضها البعض بتسارع مهم حصل في مسار التغيرات الاجتماعية إضافة إلى تزايد مداها الجغرافي.

ضمن هذا السياق، يجب أن نضع في أذهاننا أنَّ أي جدول زمني ليس من الضروري أن يتضمن كشفاً خطياً للتاريخ، ولا أن يعزز وجهة النظر الأوروبية المركزية

له. فتاريخ العولمة بما فيه من مدهشات غير متوقعة، انعطافات عنيفة، فواصل مفاجئة، وانقلابات مثيرة، يجب أن يشمل جميع التجمعات السكانية الرئيسية وثقافاتها على كوكبنا الأرضي.

على هذا النحو، يجب علينا أن نمسك عن فرض الأفكار الحتمية وغير القابلة للعكس حول ظاهرة العولمة. وفي كل الأحوال، من المهم ملاحظة أنّ حدوث التطورات التكنولوجية المثيرة والقفزات الاجتماعية في التاريخ أدى إلى تكثيف هذه العمليات وانتشارها عالمياً إلى سويات جديدة.

إنَّ مقاربة الجدول الزمني المختصر عن العولمة مع هذه الملاحظات الماثلة في الأذهان، تمكننا من تقويم كل مرحلة ومدى استمرارية الظاهرة نفسها.

الفترة الواقعة ما بين ١٠٠٠٠ إلى ٣٥٠٠ سنة قبل الميلاد

دعنا نبدأ بمخطط تاريخي مختصر عن العولمة حوالي ١٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد حين وصلت مجموعات صغيرة من الصيادين والمهاجرين إلى مرتفعات أمريكا الجنوبية. فقد أشّرت هذه الحادثة إلى نهاية سلسلة طويلة من استيطان كامل القارات الخمس بدأت من سلفنا الأفريقي الشبيه بالإنسان (إنسان نياندرتال) قبل أكثر من مليون سنة مضت. مع أن بعض الزمر الرئيسية من الجزر في المحيطين الأطلسي والباسيفيكي لم تُستوطن حتى أزمان حديثة، إلا أنّ التشتت العالمي لأجناسنا البشرية كان قد حصل فعلاً.

العبور الناجح لبدو أمريكا الجنوبية استقر على مآثر مهاجرين أسلافهم السيبيريين الذين عبروا Bering Strait إلى أمريكا الشمالية قبلهم بألف عام.

في هذا الطور المبكر من العولمة، كانت الاتصالات بين آلاف الصيادين والزمر السكانية خلال العالم محدودة جغرافياً وكانت عرضية أيضاً في معظم الأحيان. تغيّر هذا النمط المتلاشي من التفاعل الاجتماعي بشكل دراماتيكي قبل حوالي ١٠٠٠٠ سنة مضت عندما أخذ الجنس البشري الخطوة الحاسمة في تأمين طعامه بنفسه.

ونتيجة لعدة عوامل، بما فيها تكاثر طبيعي للنباتات وحيوانات ملائمة للتدجين إضافة للفروق القارية في المساحة وحجم المناطق المأهولة، لم يكن هناك سوى مناطق محدودة فقط من الأراضي الأوراسية الهائلة أو قريبة منها، ملائمة لنمو الزراعة.

توزعت هذه المساحات بين الهلال الخصيب، شمال وسط الصين، الشمالي الغربي من الهند أفريقيا الجنوبية، وغويانا الجديدة.

مع الزمن، فإن الفائض الغذائي الذي أمّنه هؤلاء المزارعون الأوائل والرعاة قاد إلى تزايد في عدد السكان، نشوء قرى مستقرة، وبناء بلدات محصنة، الأمر المرتبط بسيادة النمط الزراعي للإنتاج في هذه المرحلة من تطور المجتمع البشري.

تحولت عصابات البدو الرحّالة إلى قبائل مستقرة، وتجمعات رئيسية، وفي الأخير، إلى ولايات قوية قائمة على إنتاج محاصيل زراعية. فالطبيعة اللامركزية والمتماثلة للصيادين والتجمعات السكانية استُبدلت بِبُنى اجتماعية بطريركية طبقية إلى أعلى حد يقودها رؤساء ورجال دين (كهنة) تمّ إعفاؤهم من الأعمال اليدوية الشاقة.

علاوة على ذلك، لأوّل مرة في التاريخ الإنساني، تصبح هذه المجتمعات الزراعية قادرة على إعالة صنفين اجتماعيين لا يساهم أعضاؤهما في الإنتاج الزراعي. تتألف الطبقة الأوّلى من اختصاصيين في الأعمال الحرفية متفرغين لها تماماً يوجهون كامل طاقاتهم المبدعة باتجاه اختراع تقنيات حديثة، مثل أدوات فعّالة مصنوعة من الحديد وحلي جميلة مصنوعة من معادن نفيسة، قنوات ري معقدة، مصنوعات الفخار والسلال المعقدة، وأبنية تذكارية ضخمة.

أمّا الطبقة الثانية فتتألف من موظفين إداريين، وجنود سيلعبون فيما بعد دوراً رئيسياً في احتكار وسائل القوة لصالح الحكام، في الحساب الدقيق للفائض الغذائي الضروري لنمو الدولة المركزية واستمرارها، في إحراز المزيد من الأراضي، في ترسيخ طرق التجارة الرئيسية، وفي الاستكشاف المنهجي للأراضي البعيدة.

وعلى كل حال، كانت العولمة محدودة جدّاً معظم أوقات ما قبل التاريخ. أمَّا أشكال التقنية القادرة على التغلب على المعوقات الاجتماعية والجغرافية الموجودة فكانت غائبة إلى أبعد الحدود؛ إذ إنّ تأثيراتها المتبادلة على مناطق متباعدة لم تصبح ملموسة بعد.

وفي نهاية هذا العصر فقط أخذت الأشكال التي تُدار مركزياً في مجال الزراعة، الدين، الدواوين، الحرب، تتشكل ببطء كمحركات رئيسية لأنماط مكثفة من المتبدلات الاجتماعية التي تتضمن زيادة عدد المجتمعات في مناطق متعددة من العالم.

ما قبل الفترة الحديثة (من ٣٥٠٠ قبل الميلاد إلى ١٥٠٠ بعد الميلاد)

تزامن اختراع الكتابة في بلاد ما بين النهرين، مصر، ووسط الصين في الفترة ما بين ٣٥٠٠ و٢٠٠٠ قبل الميلاد تقريباً

مع اختراع العجلة في جنوب غربي آسيا. مشيرة إلى انتهاء فترة ما قبل التاريخ، ارتقت هذه الاختراعات المتميزة إلى واحدة من تلك الدوافع التقنية والمجتمعية التي نقلت العولمة إلى سوية جديدة.

يعود الفضل في نجاح التوجه شرق-غرب المحور القاري الرئيسي الأوروبي الآسيوي إلى الخاصة الجغرافية التي سهلت الانتشار السريع للنبات والحيوان الملائم لإنتاج الغذاء على خط العرض نفسه، مما سمح لهذه التقنيات الجديدة أن تنتقل إلى أجزاء بعيدة من القارة خلال عدة قرون فقط. وسوف تتضح أهمية هذه الاختراعات في تقوية صيرورة العولمة.

من بين أشياء أخرى، عزّزت العجلة ابتكارات بنيوية تحتية مثل عربات تجرها خيول وطرقات دائمة تسمح بعمليات نقل الناس والإنتاج الزراعي والأمتعة بطريقة أسرع وأكثر فاعلية.

إضافة لانتشار هذه الاختراعات والأفكار، فقد سهّلت الكتابة إلى حد كبير تناسق الأنشطة الاجتماعية المعقدة وشجعت على تشكل تجمعات كبيرة. من بين هذه الوحدات الحضارية ذوات المساحة الضخمة التي نشأت في تلك الفترة، فإن حضارة الأنديز (Andes) في أمريكا الجنوبية هي الوحيدة التي تدبرت مسألة تحولها إلى إمبراطورية الإنكاش (Incas) الجبارة من دون منافع أيّ من العجلة أو الكتابة.

وهكذا كانت فترة ما قبل العصر الحديث فترة الإمبراطوريات. مع نجاح بعض الولايات في ترسيخ السيطرة على ولايات أخرى، فإنَّ تجمعات محلية كبيرة ناشئة شكّلت أساس الممالك المصرية، الإمبراطورية الفارسية، الإمبراطورية المقدونية، الإمبراطوريتين الأمريكيتين للأزتيك والإنكاش، الإمبراطورية الرومانية، الخلافة الإسلامية، الإمبراطورية الرومانية المقدسة، إمبراطورية غانا الأفريقية، مالي، وسونغاي، والإمبراطورية العثمانية.

جميع هذه الإمبراطوريات عزّزت توسيع ومضاعفة النقل إلى مسافات طويلة وتبادل الثقافة، التقنية، البضائع، والأمراض. الأكثر ثباتاً والأكثر تطوراً تقنياً من بين هذه التكتلات المختلطة كانت من دون شك الإمبراطورية الصينية. نظرة متفحصة لتاريخ هذه الحضارة يظهر بعضاً من هذه المظاهر الحركية للعولمة.

بعد قرون من الحروب بين العديد من الولايات المستقلة، استطاع جيش إمبراطورية الكن (Qin)، في عام ٢٢١ قبل الميلاد، أن يوحّد بشكل نهائي أجزاء كبيرة من شمال شرق الصين.

وفي حوالى العام ١٧٠٠ الذي أعقب تلك

الفترة، فإن سلالات حاكمة متعاقبة معروفة مثل الهان (Han)، التانغ (Tang)، اليوان (Yuan)، والمينغ (Ming) حكمت إمبراطورية دعمتها سلطة إدارية امتد تأثيرها إلى مسافات بعيدة مثل جنوب شرق آسيا الاستوائية، البحر المتوسط، الهند، وأفريقيا الشرقية. وقد حفّزت الإنجازات الفنية الباهرة والفلسفية اللامعة مكتشفين جدداً في حقول أخرى من المعرفة كعلم الفلك، الرياضيات، والكيمياء.

واشتملت القائمة الطويلة من الاختراعات التي حصلت في الصين خلال فترة ما قبل العصر الحديث على المحراث ذي الشفرة المصلوبة، أدوات هندسية مائية، البارود، استخراج الغاز الطبيعي، البوصلة، ساعات ميكانيكية، ورق، طباعة، قماش حرير مطرز وافر، وتقنيات أعمال معدنية معقدة. بناء أنظمة ري ضخمة تتألف من مئات القنوات الصغيرة عزّزت الإنتاجية الزراعية المحلية.

في حين كانت تؤمّن في الوقت نفسه أفضل أنظمة النقل النهري في العالم. عزّز تصنيف القوانين وتثبيت الأوزان، وأدوات القياس، وعملية سك العملة من توسيع التجارة والمهن، وسمح تزايد حجم العربات التي تجرها الأحصنة وطرق المواصلات لتجار أول إمبراطورية صينية إنجاز سلسلة من التصميمات السياسية الحاسمة التي أوقفت الإبحار (الملاحة عبر البحار) وشرّعت رسمياً الانسحاب من تطوير تقنيات إضافية. وعلى هذا النحو، أوقف الصينيون الثورة الصناعية لإمبراطوريتهم وهي في مراحلها الأولى، وهو تطور سمح لدويلات أوروبية أصغر بالصعود كمحركات تاريخية أولية تقف خلف تكثيف العولمة.

باتجاه نهاية فترة ما قبل العصر الحديث، كانت شبكة التجارة العالمية القائمة في حينه مؤلفة من دوائر تجارية عديدة متداخلة ربطت بين المناطق الأشد كثافة سكانية في أوراسيا وشمال شرق أفريقيا. على الرغم من أنّ القارتين الأسترالية والأمريكية كانتا لا تزالان مفصولتين في حينه عن هذا النسيج المتسع في الاقتصاد، السياسة، والثقافة، فقد نجحت أيضاً إمبراطوريتا الأزتيك والإنكاش في تطوير شبكة تجارة رئيسية في محيطهما الجغرافي.

إنَّ وجود هذه الشبكات المتشعبة التي تتبادل الاقتصاد والثقافة حفّزت كتلاً بشرية على الهجرة، والتي، بالمقابل، أدت إلى تزايد إضافي في عدد السكان ونمو سريع في مراكز المدن.

ومن خلال المعارك الثقافية الحاصلة، تحولت الديانات ذات الأهمية المحلية إلى ديانات عالمية كتلك التي نعرفها اليوم كاليهودية، المسيحية، الإسلام، الهندوسية،

والبوذية. لكن مع تزايد الكثافة السكانية وانتشار كثيف للتواصل الاجتماعي على مسافات أضخم سهّل أيضاً انتشار أمراض سارية جديدة مثل الطاعون الدبلي.

إن وباء الطاعون الضخم الذي ضرب العالم في منتصف القرن الرابع عشر، على سبيل المثال، قتل ثلث سكان كل من الصين، الشرق الأوسط، وأوروبة. وفي كل الأحوال، هذه النتائج غير المرغوبة لانتشار عمليات العولمة لم تصل إلى مظهرها الأكثر رعباً إلى أن حصل الصدام الحاسم للقرن السادس عشر بين العالمين القديم والجديد، حين ارتكب الغزاة الأوروبيون جرائم خطيرة أدت إلى قتل حوالي ١٨ مليون نسمة من سكان أمريكا الأصليين.

أوائل العصر الحديث (١٥٠٠-١٧٥٠م)

أصبح مُصطلح الحداثة مرافقاً لمشروع التنوير الأوروبي في القرن الثامن عشر في تطوير علم موضوعي، في إنجاز شكل عالمي للأخلاق والقوانين، ووضع أنماط منطقية من التفكير والتنظيم الاجتماعي متحررة من اللاعقلانية التي كانت سائدة في كل من الأساطير، العقائد، والنظم السياسية المستبدة.

تشير عبارة «العصر الحديث»، في حينه، إلى الفترة الواقعة ما بين عصر التنوير وعصر النهضة. خلال هذين القرنين، فإنَّ أوروبة ونظمها الاجتماعية قامت بدور المحفز للعولمة. مع مساهمة ضئيلة في ميدان التقنية وإنجازات حضارية أخرى حصلت قبل ١٠٠٠ عام من ميلاد المسيح، فإنَّ أوروبيي شمال شرق جبال الألب استفادوا كثيراً من انتشار الابتكارات التكنولوجية الحاصلة في الأجواء الثقافية الإسلامية والصينية.

وعلى الرغم من التأثير السياسي المتضائل للصين والضعف الاقتصادي الملحوظ للهلال الخصيب بعد ٥٠٠ عام، لم تنجح القوة الأوروبية في الدخول إلى أعماق أفريقيا وآسيا. بدلاً من ذلك، حوّل الأوروبيون رغباتهم في التوسع باتجاه الغرب، يبحثون عن طريق بحري جديد مُربح إلى الهند. ساعدهم في مساعيهم مثل هذه الاختراعات كالطباعة الآلية، طواحين الهواء والماء البالغة التعقيد، أنظمة بريدية شاملة، تقنيات تجارية بحرية مُحسّنة، وأدوات ملاحية مُطَوَّرة.

أضف إلى ذلك كله التأثير الهائل لحركة الإصلاح الديني البروتستانتية[٢] وفكرة الليبرالية السياسية التي أدت إلى حكومة مقيّدة دستورياً، وأصبحنا متأكدين من هوية القوى الأساسية التي تقف خلف القفزة

النوعية التي عززت بشكل كبير التدفق البشري والثقافي والاقتصادي بين أوروبة وأفريقيا والأمريكيتين.

كان لنشوء المراكز المدنية الأوروبية إضافة إلى مؤسسات تجارية متنوعة تابعة لها عامل إضافيّ قاد إلى تقوية النزعات باتجاه العولمة خلال أوائل العصر الحديث. مجسدين القيم الفردية الجديدة مع تراكم مادي غير محدود، الأمر الذي مكّن المقاولين الاقتصاديين الأوروبيين من وضع الأساس لما سيطلق عليه الباحثون فيما بعد النظام الرأسمالي العالمي.

على كل حال، هذه الرأسماليات الناشئة لم يكن لها أنّ تنجز التوسع العالمي لمشروعها التجاري من دون دعم أساسي من حكوماتها التابعة لها. فالملكيات الأسبانية، والبرتغالية، والهولندية، والفرنسية، والإنكليزية جميعها وضعت في الحسبان الموارد والثروة في العالم الجديد المكتشف ومن ثم بناء سوق تجاري عابر للحدود يقدم فوائد لها أكثر مع شركاء التجارة الخارجيين.

ومع أوائل ١٦٠٠م، تمَّ تأسيس شركات وطنية ذات رأسمال مشترك مثل شركتي الهند الشرقية البريطانية والألمانية لأهداف واضحة هي تأمين نقل تجاري مربح عبر البحار. مع نمو هذه الشركات المبتكرة في الحجم والمنزلة، اكتسبت مقدرة تنظيم معظم الصفقات الاقتصادية عبر القارات، في عملية إنجاز مؤسسات اجتماعية وعادات ثقافية مكّنت أخيراً الحكومات الرأسمالية من وضع هذه المناطق تحت حكم سياسي مباشر.

وأمَّا التطورات المرتبطة بالموضوع، مثل تجارة الرقيق عبر الأطلسي وفرض انتقال سكاني ضمن الأمريكيتين، نتج عنها معاناة وموت الملايين من غير الأوروبيين بينما جاءت المنافع الضخمة لصالح المهاجرين البيض وأوطانهم الأصلية.

وما لا شك فيه، إنَّ الحروب الدينية في أوروبة كان لها نصيب في استيطان أراضي بلاد القوقاز وتهجير سكانها.

علاوة على ذلك، ونتيجة لهذه النزاعات المسلحة الطويلة، فإنَّ التحالفات العسكرية والترتيبات السياسية عانت تعديلات مستمرة. وفي النهاية على خطا معاهدة سلام ويستفاليا(٣) (The Peace Of Westphalia)، نشأت عام ١٦٤٨م ولايات وطنية مستقلة وذات سيادة كإطار حديث للحياة الاجتماعية. مع اقتراب فترة الحداثة المبكرة من نهايتها، أخذت علاقات التبادل بين الولايات المحلية تتضاعف وتزداد كثافة.

الفترة الحديثة (١٧٥٠-١٩٧٠)

مع نهاية القرن الثامن عشر، بدأت أستراليا وجزر الباسفيك بالاندماج التدريجي بالشبكة الأوروبية المسيطرة على السياسة والاقتصاد والتبادل الثقافي. مواجهين بشكل متزايد بقصص عن «المختلف» وصور لا عد لها عن «الآخرين»، أخذ الأوروبيون وأسلافهم في قارات أخرى على عاتقهم دور الحراس العالميين على القوانين والأخلاق كما يرونها.

على الرغم من ادعاءاتهم المستمرة في الريادية الحضارية، بقي هؤلاء المستعمرون، وما يثير الغرابة غير مدركين لممارستهم العنصرية والشروط المرعبة لعدم المساواة التي وجدت سواء ضمن مجتمعاتهم الخاصة بهم أو بينهم وبين الآخرين. وقد كسب المشروع الرأسمالي الغربي موقعاً قوياً نتيجة تمويله بجدول مستمر من المواد ومصادر الثروة الموجودة بشكل طبيعي في تلك البلدان.

بعدئذ بدأ المقاولون ونظراؤهم من الأكاديميين، مع جسارة في مقاومة سيطرة الحكومات القوية، بنشر فلسفة الحرية الفردية وتبرير المصلحة الشخصية بنسبهما إلى العقل والمنطق وتمجيد فضائل نظام الرأسمال العالمي المفترض أنَّه قائم على أعمال مرتبطة بالعناية الإلهية للتجارة الحرة ويدها الخفية.

نورد فيما يلي مقطعاً من «البيان الشيوعي» الشهير الذي يشير إلى تغير نوعي في العلاقات الاجتماعية التي دفعت العولمة إلى سوية جديدة في فترة الحداثة، والذي صاغه الراديكالي الألماني كارل ماركس مع رفيقه الإنكليزي فريدريك إنجلز عام ١٨٤٧م:

«إنَّ اكتشاف أمريكا مهّد الطريق لصناعة جبارة خلقت بدورها سوقاً اقتصادية عالمية حقاً. لقد وسّعت الأخيرة بشكل معتبر التجارة، الملاحة، والاتصالات البرية. وهذه التطورات، بالمقابل، سببت اتساعاً إضافياً في الصناعة.

لقد سار نموّ كل من الصناعة، التجارة، الملاحة، وطرق السكة الحديدية جنباً إلى جنب مع نمو البورجوازية والرأسمالية التي دفعت إلى الوراء الطبقات الاجتماعية للعصر الوسيط.. متمددة على كامل الأرض تحدوها رغبة عارمة لسوق اقتصادية لا حدود لها لتصريف منتجاتها، لم يكن لدى البرجوازية خيار سوى الاستيطان في كل مكان؛ تعهد في كل مكان؛ إقامة علاقات في كل مكان..

ومع التحسن السريع في آلات الإنتاج، راحت البرجوازية تستخدم أنماطاً مريحة

باستمرار للمواصلات لجرّ كل الأمم إلى الحضارة – حتى البربرية منها.. بإيجاز كلي، إنها تخلق عالماً على صورتها».

على أرض الواقع، تزايد حجم التجارة العالمية بشكل مثير ما بين عامي ١٨٥٠ و١٩١٤م. وتحت تأثير أنشطة البنوك متعددة القوميات، تدفقت البضائع ورؤوس الأموال عبر الحدود بشكل حر نسبياً عندما أتاح الجنيه المعتمد على الذهب للعملات الوطنية القائدة مثل الجنيه البريطاني والجلدر الهولندي بالتداول العالمي.

كما أخضعت معظم الدول القومية الأوروبية أجزاء كبيرة من جنوب الكرة الأرضية لحكم استعماري مباشر، حرصاً منها على اكتساب مصدر ثروة خاص بها. وصلت تجارة البضائع إلى نسبة من الدخل الوطني الكلي تعادل ١٢٪ من إنتاج الدول الصناعية عشية الحرب العالمية الأولى، وهي سوية لم تتحقق حتى عام ١٩٧٠م.

سهّلت عملية تسعير المنتجات عالمياً من تجارة المواد المهمة مثل الحبوب، القطن، ومعادن مختلفة. ولمعت أسماء شركات تجارية ظهرت للوجود مثل مشروب الكوكاكولا، مشروبات الكامبل (Campbell) الروحية، ماكينات الخياطة سينجر (Singer)، وطابعات رمينغتون (Remington). ومن أجل تثبيت وإظهار عالمية هذه الشركات، أطلقت وكالات صحافة عالمية أوّل حملات ترويج تجارية عابرة للحدود.

ومع ذلك، فقد لاحظ ماركس وإنجلز أنّ نشوء البرجوازية وتزايد العلاقات المترابطة عالمياً لم يكن ممكناً من دون الثورة العلمية والتكنولوجية التي تفجرت في القرن التاسع عشر.

بلا ريب، فإنَّ المحافظة على هذه المنظومات الصناعية تطلبت مصادر قدرة جديدة مثل الكهرباء والبترول. كما أنَّ الاستخدام غير المنظم لمصادر الطاقة أدى إلى فناء أعداد هائلة من الحيوانات والنباتات إضافة إلى تسمم مناطق بأكملها.

ومن الجانب الآخر، نجحت وسائل النقل الحديثة في القرن العشرين مثل السكك الحديدية، السفن الآلية، وطيران عابر للقارات في قهر آخر العقبات الجغرافية أمام تقوية البنية التحتية الحقيقية للعولمة، ومخفضة في الوقت نفسه من تكاليف عمليات النقل.

اكتملت هذه الابتكارات في وسائل النقل مع التطور الهائل في تكنولوجيا الاتصالات. قدّم التلغراف وامتداده فيما وراء الأطلسي عام ١٨٦٦م مثالاً على تبادل المعلومات بين نصفي الكرة الأرضية.

علاوة على ذلك، مهّد التلغراف الطريق أمام ظهور الهاتف والاتصالات الراديوية

اللاسلكية، وهذا بدوره حفّز على نشوء شركات اتصال جديدة مهمتها صياغة شعارات إعلانية للاحتفال بولادة عالم متحد اتحاداً لا فكاك منه.

أخيراً، عزّز توزيع هذا الكم الهائل من الصحف والمجلات، الأفلام، والقنوات التلفزيونية إلى أبعد مدى من تزايد الإدراك بعالم تتقلص مسافاته بسرعة هائلة.

شهدت الفترة الحديثة أيضاً انفجاراً سكانياً غير مسبوق. ففي حين تزايد عدد السكان بشكل متواضع من ٣٠٠ مليون عند ميلاد المسيح إلى ٧٦٠ مليون في عام ١٧٥٠م، وصل عدد سكان العالم إلى ٣،٧ مليار نسمة عام ١٩٧٠م، وهو يقارب الآن تسع مليارات نسمة.

كثّفت الموجات الوافرة من الهجرات من التبادل الثقافي الموجود وبدّلت في الأنماط الاجتماعية التقليدية. فالبلدان المألوفة في استقبالها للمهاجرين مثل الولايات المتحدة، كندا، وأستراليا استفادت من ميزة هذه الزيادة.

مع أوائل القرن العشرين، دخلت هذه البلدان مرحلة العالمية كقوى يُحسب لها حساب. وفي الوقت نفسه، قدّمت مساهمات مهمة للسيطرة على تدفقات الهجرة الكبيرة تلك، من خلال عملية اختراع أشكال جديدة من السيطرة البيروقراطية وتطوير تقنيات مصممة لتجميع معلومات حول جنسيات المهاجرين ومنع دخول غير المرغوب بهم.

عندما تسارعت عمليات التصنيع وتعزّزت التباينات في الثروة وأصبحت الفوارق فوق الحدود المحتملة، بدأ كثير من الناس في النصف الشمالي من الكرة الأرضية ينظمون صفوفهم سياسياً في حركات عمالية وأحزاب اشتراكية عديدة.

وعلى كل حال، فإنَّ دعواتهم المثالية لتضامن طبقي عالمي ذهبت من دون تجاوب فعّال. وبدلاً من ذلك، كسبت الأيديولوجيات الوطنية خيال ملايين الناس حول العالم.

لا يوجد أدنى شك على تعاظم المنافسة بين الدول مع ظهور القرن العشرين نتيجة للهجرات الكبيرة، التمدن، المنافسة الاستعمارية، والتزايد في تحرير التجارة العالمية. بلغت الفترة التالية من التطرف القومي أوجها في حربين عالميتين مدمرتين، رافقه انكماش اقتصادي طويل، وإجراءات عدائية ضد التنظيمات السياسية المتعصبة.

ومع سقوط دول المحور في عام ١٩٤٥م وتحرر الدول من الاستعمار المباشر، انتعشت تدريجياً عمليات تدفق الأفراد عبر العالم وزاد حجم التبادل الاقتصادي والتجاري بين الأمم بشكل هائل.

كما أنّ ظهور نظام سياسي جديد

راسخ للدول الوطنية تحت وصاية الأمم المتحدة، عزّز الآمال في إمكانية نشوء حكومة ديمقراطية عالمية. لكن، مع حلول عام ١٩٥٠م، سرعان ما تبخرت مثل هذه الآمال العالمية عندما قسمت الحرب الباردة الدول إلى معسكرين متخاصمين لمدة أربعة عقود: المعسكر الرأسمالي الإمبريالي بزعامة أمريكا، والمعسكر الاشتراكي الشمولي بزعامة الاتحاد السوفييتي. ولأوّل مرّة في تاريخ الجنس البشري، كانت أطراف الصراع العالمي قادرة على تدمير الحياة على الأرض فيما لو نشبت حرب بينها.

الفترة الراهنة (من ١٩٧٠م حتى الآن)

أصبح مؤكداً لدى الجميع أنّ الابتكارات المثيرة، توسّع العلاقات المتبادلة على مستوى العالم وتسارعها والتغيرات الحاصلة فيه منذ أوائل عام ١٩٧٠م، تمثّل قفزة نوعية أخرى في تاريخ العولمة. لكن ما الذي يحصل تماماً؟ لماذا ما يحصل يسوّغ خلق كلمة طنانة لم تأسر خيال العامة فحسب، لكنها أحدثت أيضاً مثل هذه الردود العاطفية المليئة بالتناقضات؟ هل العولمة شيء جيد أو سيّئ؟ أو هي الاثنان معاً؟ ليس سهلاً إعطاء الجواب المناسب لهذا السؤال الحاسم في التاريخ البشري الحديث. ومع أنَّ مصطلح العولمة يطبق على الفترة المعاصرة، يجب أن نضع في الذاكرة أنَّ القوة المحركة لهذه العمليات بدأت فعلياً قبل آلاف السنين.

الهوامش

١- يشغل ستيجر وظيفة أستاذ دراسات العولمة ومدير مركز أبحاث العولمة في جامعة RMIT في أستراليا، وهو أيضاً زميل مرتبة عليا في مركز أبحاث العولمة في هونولولو من هاواي، وعضو جمعية خريجي قسم العلوم السياسية التابع لجامعة هاواي في مانوا.

٢- حركة إصلاحية بدأت في الكنيسة الكاثوليكية في القرن السادس عشر، ومن ثم تحولت إلى حركة عقائدية مستقلة. من أبرز مؤسسيها الراهب الألماني مارتن لوثر، الذي كتب الوثيقة الشهيرة التي تحتوي على خمسة وتسعين مبدأ في معارضة التعاليم الكاثوليكية وعلقها على باب كنيسة القلعة.

٣- هي سلسلة من الاتفاقيات وقعت خلال عام ١٦٤٨م في أونسبروك ومونستر في ولاية ويستفاليا. أنهت هذه الاتفاقيات حرب الثلاثين عاماً في الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وحرب الثمانين عاماً بين إسبانيا وجمهورية الدوتش، اعترف بموجبها الأسبان باستقلالية جمهوريات الشعوب الناطقة بالألمانية.

هل الكون منظومة معلوماتية؟

المهندس: فايز فوق العادة ❁

بعد قرن ونيف من طرح مصطلحي المادة والطاقة، برز مؤخراً مصطلح جديد هو مصطلح المعلومات. هل يقف هذا المصطلح يا ترى على قدم المساواة مع المصطلحين السابقين؟

إنَّ المادة هي الأرض التي نسير عليها، هي الهيئات التي تشكلها أيدينا، هي السيارات التي تنقلنا. أمَّا الطاقة فهي ما نستمتع به عندما نتعرض لأشعة الشمس في يوم بارد، إنَّها الآلام التي يستشعرها أحدنا إذا احترق إصبعه بعود ثقاب. تُظهر المادة والطاقة الطبقة السطحية من الكون. أمَّا المعلومات فهي العمق الكوني الشامل والمحير. إن المعلومات جزء من الكون كالمادة والطاقة، وهي تتعلق بشكل من الأشكال بالعلاقة المتبادلة بين المادة والطاقة. إنَّها نشاط داخلي ذاتي، لكنها حقيقية التواجد وفعلية، شأنها شأن المادة والطاقة. إننا لا نستطيع مقارنة منتج مادي كالسيارة بمنتج فكري يُخط على صفحات كتاب.

لقد اقترن بروز مصطلح المعلومات مع اختراع الحاسوب كما ولد مصطلح الطاقة إثر اختراع الآلة البخارية. تمَّ تجريد مفهوم الطاقة بعد اختراع أجهزة الطاقة. إنَّ الطاقة هي منظومة معلوماتية تذهنية. يمثل الحاسوب والآلة البخارية امتداداً

❁ رئيس الجمعية الكونية السورية.

تلقائياً للنشاط الفكري للكتلة الجمعية لبني البشر.

على الرغم من أوجه التشابه بين الطاقة والمعلومات فهناك فارق أساسي. إنَّ أحداً منَّا لا يستطيع تقديم كمية من الطاقة بشكل معزول، لا بل إنَّه يعجز عن تحسس الطاقة مباشرة كما يفعل عندما ينغرس دبوس بإصبعه. كذا هو شأن المعلومات، إنها تبدو بالغة التجريد مالم تُصب في الفعل الواقعي. إذ ذاك تفقد تعريفها كمعلومات لتصبح مجرد تحولات مادية وحسب. لكن الطاقة، وكما أشرنا، تتخلل أحاسيسنا فننعم بطاقة الشمس أو نتألم من لهب عود ثقاب. ألا تحمل المعلومات الميزة نفسها، فهناك معلومات مفرحة وأخرى محزنة.

نستطيع النظر إلى المادة باعتبارها الحامل الأساسي للمعلومات. تنتقل المعلومات بوساطة النبضات الكيميائية وعبر السطوح الميكانيكية وفي ثنايا المجالات الكهرومغناطيسية. نستطيع تجزئة المعلومات إلى رزم فيزيائية ممكنة القياس.

لايوجد موقف محايد من المعلومات، إنَّ الإبداع إضافة معلوماتية إلى الخافية الإنسانية التاريخية، وهو قبلاً معاناة جمالية. كانت المعاناة الجمالية أوّلاً عندما ثَبّت المبدعون القدماء رسوماتهم على جدران الكهوف.

هكذا تلتقي الطاقة والمعلومات، لكنهما تفترقان في سياقٍ آخر. عندما نقطع التيار الكهربائي عن دارة الإضاءة في غرفة لا يبقى أي شاهد يؤكد أنَّ كمية من الطاقة الكهربائية كانت قد زُودت إلى الغرفة. لكن الطاقة المتحدرة من محطة الطاقة تملك بمعنى من المعاني حقيقة فيزيائية ثابتة. أمَّا الفكرة المنظومة فسرعان ما تتلاشى بصمت صاحبها ولايبقى هناك من شاهد فيزيائي يثبت أنَّ الفكرة قد قيلت فعلاً.

إذا انقلبت شجرة في غابة من دون أن يتواجد راصد ينقل أخبارها، فهل تكون قد انقلبت فعلاً!

يتعلق الأمر بتعريف البنية المعلوماتية في نظرية المعرفة. البنية المعلوماتية أنموذج تذهني يختزل الماضي والمستقبل فيما ندعوه الآن. المعلومات وفق ذلك هي لحظة الآن الخلاقة. إنَّ بمقدورنا أن نحفظ المعلومات والطاقة، فالمعلومات يُمكن أن تخزن في وسط مادي، بالمثل تُدّخر الطاقة الكهربائية في البطاريات. تُستنفد الطاقة لدى استخدامها، أمَّا المعلومات فيمكن أن يُستفاد منها من دون توقف.

نتساءل هنا فيما إذا كان لأي من المصطلحات الثلاثة: المادة والطاقة والمعلومات، أولوية على المصطلحين الآخرين. نعيد قراءة قانون نيوتن للفعل ورد

الفعــل: (يؤثر كل جسم مادي في جسم آخر بقوة تساوي وتعاكس تأثير الجسم الآخر في الجسم الأول). يرتكز هذا القانون على مبدأ انخفاض الطاقة، فلو لم تكن صيغة القانون كذلك إذن لرجح فعــل أحد الجسمين على فعل الجسم الآخر ولبذل عملٌ متزايدٌ خارقاً بذلــك مبدأ انخفاض الطاقــة. يُشتق مبدأ انخفاض الطاقة بدوره من ضرورة التناظر الزمنــي للقانــون الفيزيائــي أي صلاحية القانون في الماضي كما في المستقبل.

كان الزمن هو السياق الفعلي للأحداث. أدى اختراع الساعة، وهي منظومة معلوماتية فعلية، إلى تجريد مفهوم الزمن وإسباغ سمتي الاستمــرار والسرمدية عليــه. غدا الشعور بالزمــن أشبه بإيقاع سرمــدي مستمر بعد انتشار التذوق الموسيقي. إنَّ الزمن معلومات لأنَّه موسيقي والموسيقى إيقاع كوني داخلي. يمثل الزمن خصائص الاستمرار والسرمدية والتجانس، بينمــا يعكس القانون الفيزيائي مبدأ النظام وهي كلها معايير معلوماتية.

لابدَّ من أن نشير هنا إلى خلاف أساسي بــين المعالجــة المعلوماتيــة في الحاســوب والمعالجــة المناظرة في الدمــاغ. ففي حين أن الحاســوب يُنجــز الحسابــات وحسب، يقوم الدمــاغ ببناء النمــاذج. وعلى الرغم مــن أنَّ الدمــاغ يُغيّب هــذه النماذج لحين الحاجة إليها، فــإن الحاسوب يحتفظ بكل المعلومــات في سوية واحــدة تجعلها جاهزة عند أية لحظة. لذا تحدد السعة المعلوماتية للحاسوب بالحجم الفيزيائي لمكوناته، بينما لا تتوقف قابليات الدماغ على حجمه.

يعجز الحاسوب عن الاحتفاظ بالمعلومات مالم تمتثل مكوناته لمخطط نظامي صارم. إن أي خلل في هذا المخطط يفضي إلى فقدان كــم كبير من المعلومات. هــذا إلى أنَّ توسيع إمكانات الحاسوب يعني بالضرورة أن يتوافر مخطط نظامي آخر لايقل صرامة.

على العكس، إنَّ توسيع المعلومات والبنى المعرفيــة في سوية الفكــر الإنساني يقضي بوجــوب حدوث خلل في النظام الذي ترتكز عليــه قاعــدة معرفيــة سابقة. قــد يؤدي ذلك إلى تبــدد بعض المعلومات، لكنه شرط رئيسي لابدَّ منه لإحداث طفرة جديدة تؤمن الانتقال إلى سويــة معرفية مغايرة. لايعمل الحاسوب إلاَّ عندما يتحقق مبدأ الجاهزية المعلوماتيــة فلابدَّ من تلقــين الحاسوب كل المعلومات الضرورية لمعالجة قضية معطاة.

على العكــس، لايعمل الدمــاغ إلاَّ عند تغييب المعلومات في الخافيــة أو اللاوعي، إذ يستحيــل تسجيــل كل المعلومــات التي يحوزها إنسان في دماغه. إنَّ الدماغ أصغر بحجمه مــن طبع كامل المحصلة المعلوماتية فيــه. لايستعيد الدماغ إلى ساحة الوعي إلاَّ المعلومة الضرورية عند لحظة معينة.

يفضي تنظيم المادة والطاقة إلى تخليق كميات متزايدة من المعلومات. بدورها تخلق المعلومات مادة وطاقة منظمتين تفتحان آفاقاً جديدة للمعرفة. نجد في الرقاقات الحاسوبية وجزيئات الـDNA أمثلة متميزة. تُفعّل الجزئيات الأخيرة ظاهرة الحياة، فمن دون الحياة تغدو المعلومات والجزئيات أشبه بكتاب مطوي لايجد من يقرأه.

نؤكد على ذلك، إذ لا انفصال بين المعلومات وبين المعنى. المعلومات في هذا الإطار تمثّل عملية خلق متجددة. يجب ألاَّ نخلط عملية الحصول على المعلومات ومعالجتها بالمعلومات بحد ذاتها. هناك معلومات صرفة: مجرد مصطلح كالمادة الصرفة أو الطاقة الصرفة.

إنَّه مصطلح تحليلي مجرد أشبه بالعدد. علينا أن نتذكر أنَّ العدد غير موجود في الطبيعة. إنَّه نحت عقلي مفارق. نخلص مما تقدم إلى نتيجة مفادها أنَّ المعلومات لاتصبح معلومات إلاَّ عندما يتم تمثلها. إنْ كانت الطاقة هي المقدرة على إنجاز عمل فالمعلومات هي المقدرة على تحول مجموعة إلى النظام أيّ قلبها إلى منظومة. أوَليست الكينونة المادية الطاقية بحد ذاتها بنية معلوماتية؟

نُجمل فيما يلي القوانين الأساسية للمعلوماتية:

القانون صفر: تؤول أية منظومة معلوماتية إلى التفكك والاندثار والاختلاط من دون تمييز بالهباءات الكونية.

القانون الأوّل: تخضع المعرفة والفوضى إلى قانون الانحفاظ التالي: الفوضى+المعرفة= ثابت.

القانون الثاني: لاتبلغ أية منظومة معلوماتية حدّ الكمال، إذ تقترن وعلى الدوام بهامش من الفوضى والريبة واللاأدرية بسبب ازدياد الأنتروبي أي الفوضى.

إنَّ الأنتروبي مصطلح رياضي مجرد آخر يعبر عن انعدام النظام. إنَّ هذا القانون هو أهم قانون كوني إلى جانب قانون الجذب الثقالي. يحاول قانون الجذب الثقالي تحقيق النظام المطلق بضم الأجسام الكونية إلى بعضها. على العكس يسعى القانون الثاني إلى تفكيك البنى الكونية، وهي بنى معلوماتية، وبعثرتها. يُعزى دوران أي جسم في الكون حول نفسه إلى تنازع هذين القانونين.

القانون الثالث: لايوجد حدّ فاصل على صعيد الكون بين المنظومات المعلوماتية وبين المنظومات الفيزيائية. لعلَّ المنظومة المعلوماتية هي ذاتها المنظومة الفيزيائية.

نستنتج مما تقدم أن المعلومات هي البنية الداخلية للكون، إنَّها الكون. إنَّ كل قانون فيزيائي هو مصادرة معلوماتية وكل

حركة هي فعل معلوماتي. إنَّ المجموعة غير المنظمة في الكون احتمالها أكبر، أمَّا المعلومات فاحتمالها أقل. إنَّ العمل الخلاق المفيد هو الذي يخفض الأنتروبي ويزيد المعلومات بالتالي. يعني استمرار العمل المفيد الخلاق تفجراً دائماً لمعلومات مستحدثة تبدو وكأنها آتية من معين لا ينضب.

إنَّ الحد الأعلى النظري للمعلومات مستحيل، إنَّه غير موجود. المعلومات هي المحاولة الكونية لتجاوز الفوضى. بذا نستطيع تصور الكون باعتباره العمل المفيد الخلاق. ينبث هذا العمل في كل الثنايا والتفاصيل. مثلاً: تصنف الكلية بشكل مستمر جزئيات الدم طاردة الجزئيات الضارة. إنَّها تحول الطاقة إلى معلومات.

نتخيل حالة المعلومات صفر، أي لانهاية من الأنتروبي، عندما تتكون المنظومة من جسيمات أساسية ليس فيها نظام ظاهر أو باطن. إنَّها حالة صفر للمادة أيضاً. ولو توافرت الطاقة فلن يكون هناك نظام. لذا لا داعي لوجود قوى الطبيعة.

إنَّ مهمة هذه القوى إنجاز النظام عندما تتوافر المعلومات والطاقة. إنَّها الحالة الأولى للكون، باعتبار أن الكون منظومة معلوماتية نصوغها الآن وهنا. لاتُستثنى الحياة، فاستثناء الحياة هو التناقض. لكن دعونا نستثني الحياة خطأً للخطة كي نصف الوضع الأوّل، وهو وضع فيزيائي بحت، بأنَّه نظام كامل. إنَّ الحياة لاترسم حدوداً في عملية بناء النظام، إنَّها تحول طاقة الشمس المبعثرة والمشتتة إلى بروتينات أي إلى نظام ولاشك أنَّها تفعل شيئاً مماثلاً بطاقات النجوم الأخرى.

نواجه في بحثنا حدين: الحد الأوّل هو الكون المنحدر إلى الفوضى، والحد الثاني الحياة الذاكرة. إنَّنا إذ ندمج الحياة بالذاكرة نعترف باستحالة فصل الحياة عن الذاكرة. تسعى الحياة الذاكرة إلى النظام، والحياة الذاكرة أوّلاً، لأنَّ الفوضى كمفهوم هو نظام أبدعته الحياة الذاكرة. إنَّ أهم ما في الكون كمنظومة معلوماتية أنَّه عودي البنية ذلك أن مكوناته تُعرف بذواتها، وهو متماثل ذاتياً، فالهيئة اللولبية للمجرة هي الهيئة اللولبية ذاتها للإعصار ولجزيء الـ DNA وللشعر المصفف على خلفية الرأس وللمسار الصاعد للنبات المتسلق.

نختزل الكون باعتباره تفاعل المعلومات مع المادة والطاقة لتشكيل البنى. إن كانت هناك مادة مع طاقة من دون معلومات لاستحالت الهيئة وانعدام المعنى. يعني وجود المادة مع المعلومات من دون طاقة تبلوراً عند درجة حرارة الصفر المطلق وتجمداً للسيالة الزمنية.

الصفر المطلق هو الحد الأدنى الممكن لدرجات الحرارة في الكون وهو يساوي تقريباً ٢٧٣درجة تحت الصفر المئوي. يتوقف كل حدث عند الصفر المطلق. ماذا لو توافرت المعلومات والطاقة وكان الكون عارياً عن المادة. تنتشر إذ ذاك جسيمات الطاقة في كون مظلم صامت يعدم أي تعريف. إنَّ الزمان والمكان كلاهما مدى معلوماتي كوني. لاغرو فيما نرى من توسع الكون، ذلك أنَّ تنظيم المادة في حجم أكبر يحتاج معلومات أكثر. يتعمق المدى المعلوماتي الكوني مع تمدد الكون أي يتوافر المزيد من الآنات والأمكنة.

لقد شغل مفهوم الطاقة الكامنة أذهان العلماء. عندما يرتفع جسم عن سطح الأرض تزداد طاقته الكامنة الثقالية، وحيثما يقطع الإلكترون مسافة أطول في دارة، تتعاظم طاقته الكامنة الكهربائية. يمكن أن نفسر الطاقة الكامنة على أساس المعلومات، ذلك أنَّ ازدياد التباعد يحدد المكان أكثر كما ويحتاج معلومات أكبر. عندما تتباعد المجرات تزيد طاقاتها الكامنة وتتناقص طاقاتها الحركية. يعكس ذلك حقيقة الجنوح الذي أتينا على ذكره ألا وهو الجنوح إلى زيادة المعلومات. كلما اكتشفنا مجرة ازدادت معلوماتنا.

إن كان الكون منظومة معلوماتية، فهو أشبه بآلة بخارية حيث تلعب قوانين وثوابت الطبيعة دورة بنيوية الآلة. على الرغم من أنَّ الحرارة طاقة فوضوية، إنَّها طاقة من دون معلومات، فإنَّ بنيوية الآلة الممثلة للمعلومات هي التي تصل بالآلة إلى المردودية المطلوبة منها. كذا هو شأن البنيوية الذاكراتية الكونية. إنَّ غياب البنية ضمن بنية يعني وجود معلومات، كمثل ضرورة وجود فراغات بين الكلمات لإضفاء المعنى.

هكذا عندما يترك إلكترون فجوة حينما يغادر ذرة، فإنَّ الفجوة تتجسد في هيئة معلومة. بالتالي إنَّ الفضاء في الذرة والكون هو معلومات. يعني ذلك أنَّ الكون مطوي على كل معلوماته السابقة. من هنا كان الكون الذاكراتي. إنَّنا غارقون في موج متلاطم من المعلومات. حتى إذا تحدثنا عن طاقة جسم فحديثنا معلوماتي الطابع.

إنَّ النظرية الموحدة التي يسعى إليها العلماء لدمج القوى الكونية، يجب بالضرورة أن تكون نظرية عن المعلومات، ماذا لو تصورنا الكون كبنية من وحدات معلوماتية أولية تتحول ضمن اشتراطات خاصة إلى مادة وطاقة. نستطيع إذ ذاك أن نجدد رؤيتنا للتظاهرات الكونية.

لاتتقيد الوحدات المعلوماتية بسرعات محددة. إن تسارعت نحو سرعة الضوء حدث انزياح دوبلر نحو الأحمر، وإن انخفضت سرعاتها مقتربة من سرعة الضوء

فإنَّها تنقــل المعلومات الخاصة بكينونات لا نستطيــع مكاشفتها، ذلك أننــا لاندرك إلاَّ سرعة الضوء والسرعات الأدنى.

هنــا نجد مكاناً لتعريــف المادة العاتمة في الكون. وفق نظرية النسبية العامة تحني المادة المتصــل المكاني الزمــاني، إنَّها تقدم المعلومات لفعــل ذلك ولاشــك. إنَّ حقيقة امتصاصــ أو إطلاق فوتونــات الطاقة قد تكون لها علاقة بتوليد الوحدات المعلوماتية الأوليــة. يوظــف العلماء المــكان والزمان كمرجعين في دراسة الكون.

لانستطيع فهــم الزمان والمكان من دون مرجع أي تنظيم، ووفق فرضيتنا: معلومات. إنَّ المرجــع المنظم أي المعلومات هو الأساس في كل قياس فيزيائي. كيف ننظر إلى الثقب الأسود حيث يختفي المكان ويتوقف الزمن. لعلَّ الثقــب الأسود هو الحالــة المعلوماتية الصفرية لراصد بعيد عن الثقب. إذا أبحرنا أبعد من ذلك، تقودنــا تصوراتنا إلى أكوان مغايرة حيــث المادة سالبــة الكتلة والطاقة سالبة، وبدورها المعلومات سالبة أيضاً.

المراجع

1- Fraser; Gordon (Editor), The New Physics For the Twenty- First Century,2006, Cambridge University Press.

2- Bohm; D and Hiley; B.J., The Undivided Universe,1993, Routledge- London.

3- Dyson; Freeman, Infinite in All Directions, 1988, Harper& Row, U.S.A.

4- George; H.H., Philoso phical Foundations of cybernetics, 1979, Abacus Press, U.K.

تقنيات نظم المعلومات لمواجهة الأزمات والكوارث

❁
وهدان وهدان

نشأت المعلوماتية كعلم في أواخر ستينيات القرن الماضي بعد أن كانت مزيجاً من التطبيقات التي يحتكرها المهندسون في التطبيقات والتي تمحورت حول مراكز الحاسبات التي كانت تتمتع باستقلالية وتقوم بشكل أساسي في تقديم الخدمة للمستثمرين، وقد غلبت على المعلومات قبل أن تنشأ كعلم صفة الإدارة المرادفة للعلوم الأخرى، لكن تعقيدات الحاسبة من جهة وتقيد التطبيقات والتقنيات المعلوماتية المستجدة من جهة أخرى أدى إلى فرض اختصاص المعلوماتية على الدراسات الجامعية وعلى الصناعة أيضاً، وابتدأت تنشأ أقسام الهندسة هندسة الحاسبات في الجامعات، كما ابتدأت شركات البرمجيات وشركات صناعة الحاسبات بالازدهار من خلال ذلك وبشكل كبير يمكن أن نشبه ما حدث للمعلوماتية بما سبق حدوثه للإلكترونيات عند استقلالها عن الهندسة الكهربائية، ولايزال البعض يصنف المعلوماتية كعلم في إطار الهندسة الإلكترونية، كما ويصنفونها كأداة في إطار العلوم الرديفة للعلوم الأخرى.

إنَّ هذا التصنيف أصبح قديما وإنَّ المعلوماتية تطورت واستقلت عن معظم العلوم على الرغم من ارتباطها بالهندسة الإلكترونية وتطور الإلكترونيات. ومن أهم الأحداث التي حدثت في السنوات الأخيرة هي اندماج الأساليب التقليدية في معالجة المعلومات

❁ كاتب وباحث سوري.

مــع الأجهزة والمعــدات الحديثــة والتي أدت إلى تســارع عمليات معالجــة المعلومات بدقة متناهية وسرعــة هائلة تتماشى مــع التزايد المستمر لحجم المعلومات المتداول.

نظم المعلومات

يعرف نظــام المعلومات بكونه عبارة عن مجموعة مــن العناصر ذات صلة فيما بينها تهدف إلى المساهمة في تنظيم أسلوب اتخاذ القرار ورفع مستــوى الكفاءة الفعالة لنظام وطبيعــة الأداء، ويتم ذلــك بتقديم المعلومة وتوافرهــا في صور متعــددة حسب طبيعة الموقف، وبما يتناسب مع اختلاف شخصية ونمط المنظمة والقيادات المسؤولة عن اتخاذ القرار بها.

وقد تطور علم بحوث العمليات كتطبيق لتكنولوجيــا الحاســب الآلي بحيــث أمكن تنفيــذ نمــاذج المحاكاة للوصــول إلى الحل الأمثــل لمواجهة مشكلــة أو أزمة بعينها كما يحددهــا المتخصص طبقــاً للمعايير التي يضعها متخذ القــرار، ونتيجة لهذا التطور في نظــم المعلومــات، فقــد أصبحت تشكل أسس التخطيط المسبق لدعم اتخاذ القرار في مراحل معالجــة الأزمات والكوارث عن طريق استنباط نماذج التنبؤ والمحاكاة التي تساعــد في اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب. وتعتبر المعلومات من الموارد الهامة مثل رأســ المال والأفراد وغيرها من الموارد التنظيمية.

ويميز المــورد المعلوماتي بأنه لا يكتسب قيمتــه من شكله المــادي الملموس ولكن بما يمثله أو يعــبر عنه، ويستخــدم الباحث أو المدير أو متخذ القرار المورد المعرفي في إدارة وتوجيه هذا المورد لتحقيق الهدف المطلوب في الوقت المناسب.

وإدارة الأزمــة شأنهــا شــأن أي نشاط إداري يتطلب القيام به توافر البيانات الخام والمعلومات. وتعتبر الوظيفة الأولى في نظام المعلومــات هي جمع البيانات التي نحتاجها من مختلف المصادر.

البيانات والمعلومات

تعــرف البيانــات بأنها تمثــل مجموعة من الحقائــق أو الأفــكار أو المشاهدات أو الملاحظــات أو القياســات، حيث تكون في صورة أعداد أو كلمــات أو رموز كي تصف فكــرة أو موضوعاً «أو حدثــاً» أو هدفاً أو حقيقة ما.

وتكــون البيانات إما في صــورة عددية أو إحصائيــة أو وصفيــة. والمعلومات هي البيانــات التــي تمَّ إعدادهــا لتصبــح في شكل أكــثر نفعاً «للفرد مستقبــلاً». وتقدم المعلومة إمَّا في شكل جداول أو رسوم بيانية ومنحنيــات أو مؤشرات تجمع أكثر من بيان وتكون غالبا ناتجة عن عمليات حسابية على البيــان الخام، حيث تتحــدد جودة المعلومة بقدرتهــا على تحفيز متخــذ القرار ليتخذ موقفاً معيناً.

مفهوم النظام

تعني كلمة «النظام» باليونانية، الترابط العضوي بين الأجزاء المختلفة، والإنسان نظام يتكون من نظم فرعية عدة، مثل الدورة الدموية والدورة التنفسية والدورة الهضمية.

وعلى هذا فإن النظام هو مجموعة من العناصر أو الأجزاء أو العمليات أو الوظائف المرتبطة فيما بينها تؤدي وتنجز وظيفة متكاملة محققة هدفاً محدداً.

وتعد وظيفة إعداد وتنظيم المعلومات للاستخدام، عنصراً هاماً في الصراع الدائر حالياً لاستغلال الوقت، حيث يذهب جزء غير قليل من الوقت في أعمال التسجيل والبحث والاستيعاب للمعلومات.

ويقدر الوقت الذي ينفقه المديرون سواء في إعداد المعلومات أو توصيلها إلى الآخرين بحوالى ٨٠٪ من الوقت الكلي المنفق على أعمالهم وتوجد هذه المعلومات في العديد من المصادر ذات الصور المختلفة كالتقارير، والخطط والتحليل الخاص بموقف معين وغيرها.

وقد بدأ استخدام الحاسب الآلي في تنظيم وإعداد المعلومات عام ١٩٥٤م في إعداد قوائم الأجور والمرتبات بالولايات المتحدة الأمريكية.

كما أصبح الحاسب الآلي أداة فعالة ووسيلة ضرورية لزيادة كفاءة وفاعلية نظم المعلومات، ويعزى ذلك إلى:

١-سهولة تطبيق التكنولوجيات المتطورة المرتبطة بالتطبيقات المختلفة لنظم المعلومات على الحاسب الآلي، التي يستخدمها محلل ومصمم نظم المعلومات في دعم اتخاذ القرار.

٢ - قدرة الحاسب الآلي على توفير طريقة منظمة ومتماسكة وأسلوب منهجي مرتب يعبر عن مجموعة معينة من المفاهيم المعدة مسبقاً من قبل محلل مصمم النظم.

تصنيف نظم معلومات الحاسب

ويمكن القول إن نظم المعلومات المرتبطة بالحاسب الآلي هي تلك النظم التي تستخدم أجهزة وبرمجيات الحاسب الآلي وقواعد البيانات والإجراءات والأفراد لتجميع وتحويل وإرسال المعلومات في المنشأة أو المؤسسة بغرض حل المشاكل الروتينية أو دعم متخذ القرار بالبدائل اللازمة لمواجهة الأزمات الطارئة وغير المتوقعة. هذا ويمكن تصنيف نظم معلومات الحاسب الآلي إلى:

- **نظم معالجة المعاملات**: ظهرت هذه النظم في منتصف خمسينيات القرن الماضي، حيث ينصبُّ عملها على تجميع وتشغيل البيانات. وتعتمد على الحاسب الآلي في معالجة وتحليل العمليات المالية للمؤسسات بحيث يتم تسجيلها وتبويبها وتلخيصها، أي إنَّه يمكن بطبيعة الحال استخدام هذه النظم لأداء المهام الهيكلية والاعتيادية. ومثل هذه النظم لا تخدم

متخذي القرار حيث تخدم بصفة أساسية المستويات الإدارية الصغيرة.

- **نظم المعلومات الإدارية**: يوفر نظام المعلومات الإداري الأساس اللازم لتكامل المعلومات من حيث إعدادها وتنظيمها واستخدامها وتخزينها، فعادة ما يحتوي نظام المعلومات على العديد من التطبيقات والبرامج الخاصة بالعديد من الأفراد والمتخصصين الذين يعملون في مجالات مختلفة داخل المؤسسة.

وقد ظهرت نظم المعلومات الإدارية في منتصف ستينيات القرن الماضي بهدف توفير المعلومات اللازمة لمستوى الإدارة الوسطى لمساعدتها في إتمام وظائفها من تخطيط ورقابة واتخاذ قرارات تحتاج إلى قدر من الخبرة والتقدير الشخصي.

- **نظم المكاتب الآلية**: هي النظم المساعدة في إتمام الأعمال المكتبية داخل المؤسسة، وتعتبر برامج معالجة الكلمات مثالاً واضحاً على هذا النوع من النظم. وهي ببساطة تساعد على إتمام الأعمال المكتبية بصورة أوضح ولا تستخدم بطبيعة الحال في دعم اتخاذ القرار.

- **نظم دعم اتخاذ القرار**: وهي نظم معلومات تعتمد على الحاسب الآلي بهدف تقديم المساعدة على اتخاذ القرارات المتعلقة بالمهام شبه الهيكلية، عن طريق الدمج بين عناصر قاعدة البيانات والنماذج الكمية (الإحصائية، الرياضية، بحوث العمليات)، إضافة لأخذ وجهة نظر متخذ القرار. ويمكن تصنيف القرارات التي يتم دعمها بوساطة هذا النوع من النظم إلى نوعين هما:

١ - **القرارات البنائية**: وهي تلك القرارات الفورية التي تتخذ استجابة لسياسات مختلفة معدة مسبقا يتم تغذيتها مما يسمى «قاعدة قرارات»، ويمكن القول بأن القرارات البنائية (المبرمجة) هي التي لها إجراءات قرار سابق التجهيز.

٢ - **القرارات غير البنائية**: وهي تلك التي تتخذ للتعامل مع المشاكل غير المحددة والمتشابكة أو غير الهيكلية حيث يمكن تحديد جزء من المعاملات بدقة والجزء الآخر ذو طبيعة احتمالية يكون من الصعب تحديده والتعرف على سلوكه غالباً، ومن ثم لا يمكن إعداده مسبقا وذلك لندرة القرارات أو عدم وضوحها أو لسرعة تغير هذه القرارات. كما أنَّها تأخذ في الغالب وقتاً «كبيراً» من متخذ القرار.

خصائص نظم دعم القرار

١ - تساعد متخذي القرار في تنفيذ المهام شبه الهيكلية.

٢ - تعتمد على التفاعل البشري - الآلي عن طريق تقديم الإمكانيات الاستفسارية للحصول على إجابات لسلسلة من الأسئلة على غرار «ماذا.. لو؟» التي يضعها مصمم النظام لطرح السيناريوهات البديلة أمام متخذ القرار.

٣ - تقدم نظم دعم القرار الدعم لكل المستويات الإدارية وخاصة الإدارة العليا.

٤ - تقدم نظم دعم القرار الدعم في مجال القرارات المستقلة أو القرارات التابعة التي يتطلب القرار الواحد أن يتخذ بأكمله نتيجة التشاور والتفاعل بين مجموعة من الأشخاص.

٥ - تمكِّن نظم المعلومات متخذ القرار من إيجاد حلول للمشاكل محل الدراسة وأيضاً اختيار عدد من الحلول المختلفة مع الاحتفاظ بنشاطه الأساسي وهو التحكم والرقابة على عملية اتخاذ القرار.

٦ - تجمع نظم دعم القرار بين قواعد البيانات والنماذج الرياضية والإحصائية.

٧ - توفر نظم دعم القرار الدعم اللازم في مختلف مراحل اتخاذ القرار، بدءاً بالإدراك وتحديد المشكلة إلى مرحلة الاختيار النهائي لأفضل البدائل.

٨ - يجب أن تكون نظم دعم القرار مرنة بحيث يمكن تعديلها بحيث تتلاءم مع الظروف المحيطة.

مزايا نظم دعم القرار

١ - إمكانية اختبار أكبر عدد من البدائل.

٢ - الاستجابة السريعة للأوضاع غير المتوقعة.

٣ - توفير الوقت والتكلفة.

٤ - إمكانية تجربة أكثر من سياسة مختلفة للحل.

٥ - إمكانية الوصول إلى قرارات موضوعية تأخذ في الاعتبار وجهة نظر متخذ القرار.

٦ - زيادة فاعلية عملية اتخاذ القرار.

٧ - تضييق الهوة بين مستويات أداء متخذي القرار.

مراحل دعم اتخاذ القرار

تمر عملية دعم اتخاذ القرار بثلاث مراحل مختلفة تمَّ توضيحها بنموذج الخبير البريطاني «هربرت سيمون» كأساس لعملية دعم اتخاذ القرار، حيث يمكن استخدام هذا النموذج لوصف القرارات السريعة والقصيرة المدى إضافة إلى القرارات الإستراتيجية طويلة المدى. وينقسم نموذج «سيمون» إلى ثلاث مراحل رئيسية هي: مرحلة الاستخبارات، مرحلة التصميم، ومرحلة الاختيار:

المرحلة الأولى: الاستخبارات، وتبدأ مرحلة الاستخبارات لعملية دعم القرار من خلال مبدأين هما:

- **اكتشاف المشكلة:** ويقصد به التعرف على أي شيء لا يتفق مع الخطة السابق تحديدها أو مع المعايير القياسية الموضوعة. وبالتالي يكون الهدف الذي يسعى من أجله متخذ القرار واضحاً.

- **السعي إلى الفرص المتاحة:** ويعني إيجاد بعض الظروف التي تبدو أنَّها تقدم لمتخذ القرار لتحقيق عائد أفضل.

وبعد اكتشاف المشكلة وصياغتها في المرحلة السابقة فإنَّ المشكلة التي لها حل وحيد لا تعد مشكلة في ذاتها بل هي حقيقة لابدَّ من التسليم بها.

أمَّا إذا كان للمشكلة أكثر من حل فإنَّ وجهات النظر بشأنها تتعدد وتتباين قوة وضعفا. وخلال هذه المرحلة يجب على متخذ القرار أو المساعدين له إعداد ملخص عام عن الحلول البديلة الممكنة، مستعيناً في ذلك بالأساليب العلمية الحديثة، وأدوات التصميم المستخدمة في علوم إدارة وتحليل وتصميم النظم.

والجزء الهام في عملية اتخاذ القرار هو استخراج البدائل: ومهمة استخراج البدائل عمل خلاق وإبداع يمكن تعلمه. والعملية الإبداعية تتطلب وجود معارف دقيقة لمجال المشكلة وحدودها إضافة إلى الدوافع لحل المشكلة.

ويمكن تعزيز الإبداع بوساطة وسائل مثل السيناريوهات، التفكير العقلي، قوائم الاختبار، وقوالب عملية القرار. وتحتوي مرحلة تصميم نظام دعم القرار على عدة خطوات: تبدأ بالتخطيط ثم البحث وتحليل النظام ثمَّ الوصول إلى تصميم وتكوين النظام وأخيراً تنفيذ البرامج ومتابعة التغيرات للخروج بالتعديل المطلوب، نتيجة دروس وحقائق التنفيذ الفعلي.

أمَّا المرحلة الثالثة «الاختبار»، فتعتبر هذه المرحلة هي جوهر عملية اتخاذ القرار حيث يواجه متخذ القرار مجموعة بدائل متعددة، ويجب اختيار أحدها الذي سيطبق ويلتزم به أفراد المنظمة أو المؤسسة.

وقد يبدو ذلك سهلاً ولكن في الواقع توجد صعوبات كثيرة تجعل من مرحلة الاختيار عملية معقدة ومن ذلك: تعدد الأفضليات، عدم التأكد، تعارض المصالح، الرقابة، اتخاذ القرار الجماعي.

نماذج التنبؤ والمحاكاة ونظم دعم القرار

إنَّ جوهر نظم دعم اتخاذ القرار هو التنبؤ والإنذار المبكر وصياغة السيناريوهات المبنية على نماذج المحاكاة، حيث تقوم نظم دعم القرار بعمل المزج بين البيانات المتاحة مع الرؤى الشخصية لمتخذ القرار، ويتم كله داخل بوتقة من النماذج الرياضية للتنبؤ والمحاكاة. وفيمايلي نعرض السمات العامة والتطبيقات المختلفة للنموذجين:

- **نموذج التنبؤ**: وتلعب نماذج التنبؤ دوراً هاماً في إمداد متخذي القرار بالتنبؤات والمعلومات الهامة بوقت كاف قبل وقوع الأزمات الناتجة عن المخاطر، سواء أكانت مخاطر ناتجة عن ظواهر طبيعية أو كانت بفعل الإنسان ولكنها غير متعمدة.

وتلعب الأساليب الكمية (الرياضية والإحصائية) وتكنولوجيا الحاسب الآلي وكذلك تكنولوجيا الاتصالات والاستشعارات

عن بعد دوراً أساسياً في عملية التنبؤ، حيث تتيح هذه التكنولوجيات إمكانية القياس والمراقبة والرصد وبالتالي إمداد فريق دعم القرار بالتحذيرات والتنبؤات بالأزمات الممكن حدوثها.

ومن ثم يمكن تجنب الآثار السلبية أو أخذ الاحتياطات اللازمة للتخفيف من المخاطر. وغالباً ما تستخدم الطرق الإحصائية في تحليل ودراسة قاعدة البيانات التاريخية المتاحة والاستفادة منها في التنبؤ باحتمالات حدوث أزمات مشابهة في المستقبل.

- **نموذج المحاكاة:** ومن ناحية ثانية توجد استخدامات أخرى للنماذج الرياضية من خلال صيانة السيناريوهات اللازمة لعمل مجموعة من البدائل التي يمكن لمتخذ القرار اختيار بديل منها. والمثال على ذلك هو عمل سيناريوهات للسيول المدمرة باستخدام نماذج هيدروليكية ذكية تقوم بمحاكاة شكل السيل والجريان السطحي له، مع إمكانية استخدام عمليات الاستشعار عن بعد التي يمكن أن تعطي معلومات مؤكدة عن أنواع السحب وأماكن تجمعها وتحركها وخصائصها المختلفة. ويمكن من خلال دراسة هذه السيناريوهات بوساطة متخذ القرار، الوقوف على حجم وامتداد المخاطر الناتجة عن مختلف السيناريوهات وتقدير الوقت اللازم لمواجهة الأزمة الناتجة عن مثل هذه المخاطر. وتقوم مثل هذه النماذج على منهجية الحل المرضي، بمعنى أنَّها لا تسعى إلى إيجاد الحل الأمثل.

نظم دعم القرار الجماعي

نظام دعم القرار الجماعي هو نظام تفاعلي مبني على الحاسب الآلي ويقوم بتسهيل إيجاد الحلول للمشاكل المتشابكة غير المهيكلة. وتتميز عملية اتخاذ القرار في هذه الحالة بأنَّ متخذي القرار يعملون معاً كفريق متكامل يجمعهم اجتماع أو مؤتمر ما أو مشكلة بعينها والغرض هو الوصول إلى قرار موحد يجمع بين الخبرات المختلفة. فهناك طرف يعنى بالإجراءات المتعلقة بخسائر الأرواح، وآخر يعنى بالإجراءات الأمنية، وثالث يعنى بالتعويضات المالية والشؤون الاجتماعية، أو الجانب الإعلامي لأزمة ما.

وكل هؤلاء يعملون في إطار الأزمة المنوط بهم مسؤولية اتخاذ القرار اللازم لمواجهتها. ولضمان التنسيق لابدَّ من أن تكون هناك أداة واحدة فقط تقدم الدعم لهم جميعاً وهي في حالتنا هذه نظام دعم القرار الجماعي. ويهدف إلى إيجاد بيئة عمل فعالة لمتخذي القرار المشتركين في إدارة أزمة ما. ويتسم نظام دعم القرار الجماعي بالخصائص التالية:

١ -نظام جماعي وليس فردياً.

٢ - يستخدم تكنولوجيا الاتصالات استخداماً مكثفاً.

٣ - يهدف إلى الحد من السلوكيات السلبية كالاستهتار بالوقت ومحاولة فرض الرأي.

٤ - يهدف إلى دعم السلوكيات الإيجابية كالمشاركة في الرأي وتحفيز التفكير العلمي.

ويتألف نظام دعم القرار الجماعي من مجموعة من المكونات المادية المختلفة، التي من أهمها:

١ - غرف اتخاذ القرار.

٢ - شبكة اتصال لاتخاذ القرار.

٣ - تكنولوجيا عقد المؤتمرات عن بعد.

٤ - اتخاذ القرار عن بعد.

ويعتبر نظام دعم القرار الجماعي امتدادا لنظام دعم اتخاذ القرار التقليدي في اتجاه دعم أكثر فاعلية. ومن ثمَّ فإن النظام الجماعي هو نظام دعم اتخاذ قرار، مضافاً إليه التعديلات الآتية:

- تدعيمه بشبكة مكثفة للاتصالات.

- تدعيمه بوسائل لزيادة الفاعلية. والمشاركة الفكرية من خلال نماذج للاقتراح والترتيب والدرجات، تهدف جميعها للوصول إلى رأي موحد عام.

- تدعيمه بوسائل تأمين مصداقية واعتمادية أكثر من التي يوفرها نظام دعم القرار الفردي.

إدارة الأزمات والكوارث

وفي محاولة من المتخصصين لدعم متخذ القرار بنظم المعلومات والوسائل والإجراءات التي تضعه في أتم الاستعداد للمواجهة الفورية للمواقف الطارئة والأزمات، نشأ علم إدارة الأزمات، ويعد من العلوم الحديثة التي فرضت نفسها على واقع عالمنا المتحضر الذي تزايدت تعقيداته وتناقضت مصالحه مع الانطلاقات الهائلة في المجال التكنولوجي وسبل الاتصالات، والذي أدى بدوره إلى تحطيم الفاصل الزمني بين الفعل ورد الفعل مما وضع متخذ القرار في خيار وحيد وهو أن يكون دائماً مستعداً للمواجهة الفورية للمواقف الطارئة والأزمات واتخاذ القرارات المناسبة المؤقتة والمدعمة بالوسائل التكنولوجية الحديثة.

وهناك العديد من الأزمات التي تواجه المجتمع إمّا بصفة دورية أو بصفة عشوائية. وبالنظر إلى هذه الأزمات نجد أنَّها قد تسببت في الماضي في خسائر وأضرار كثيرة للفرد والمجتمع سواء من الناحية الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية والإدارية.

ولا يخفى على أحد أن تعرض المجتمع للأزمات يهدد بصورة واضحة التنمية سواء في جانبها المادي أو البشري، حيث تسبب الأزمات بمختلف أنواعها خسائر في المنشآت والمرافق العامة والممتلكات والثروات البشرية والطبيعية. وتقلل كل هذه الخسائر من فرص

التقدم في مسار التنمية حيث تؤثر بصورة مباشرة وغير مباشرة على الثروة البشرية للمجتمع وما تمثله من ركيزة أساسية من ركائز الحركة التنموية.

مفهوم الأزمة والكارثة

الأزمة عبارة عن خلل يؤثر تأثيراً مادياً على النظام كله، كما أنَّه يهدد الافتراضات الرئيسية التي يقوم عليها النظام. ويتطلب وجود الأزمة توافر شرطين أساسيين هما:

١ - أن يتعرض النظام كله للتأثير الشديد إلى الحد الذي تختل معه وحدته.

٢ - أن تصبح الافتراضات والمسلمات التي يؤمن بها أعضاء المؤسسة أو المنظمة موضعاً للتحدي لدرجة أن يظهر لهم بطلان هذه الافتراضات. بمعنى أنَّ الأزمة في جوهرها تهديد مباشر وصريح لبقاء كيان المنظمة واستمرارها. وقد تحدث أزمات سياسية واقتصادية واجتماعية على المستوى القومي تعرف كل منها طبقاً لمجالات العمل المخصص.

أمَّا الكارثة فهي الحالة التي حدثت فعلاً وأدت إلى تدمير وخسائر جسيمة في الموارد البشرية والمادية. وأسبابها إمَّا طبيعية أو بشرية. وعادة ما تكون غير مسبوقة بإنذار. وتتطلب اتخاذ إجراءات غير عادية للرجوع إلى حالة الاستقرار. وقد تؤدي الكارثة إلى ما يسمى بالأزمة، والعكس صحيح فقد تؤدي الأزمات إلى كوارث إذا لم يتم اتخاذ القرارات والإجراءات المناسبة لمواجهتها.

مراحل تطور الأزمة

- **نشأة الأزمة**: وهي المرحلة التي تبدأ فيها الأزمة تلوح في الأفق، إذ يداهم متخذ القرار إحساس بالقلق. ويستطيع متخذ القرار في هذه المرحلة، بخبرته ونفاذ بصيرته، أن يفقد الأزمة مرتكزات نموها من خلال تنفيس الأزمة ومحاولة تجميدها.

- **نمو الأزمة**: إذا تطورت الأزمة بعد ميلادها نتيجة عدم قدرة متخذ القرار على القضاء عليها فإنها تنمو بحيث لا يستطيع متخذ القرار أن ينكر وجودها أو تجاهلها. وهنا يجب عليه التدخل الإيجابي من أجل إفقاد الأزمة عوامل تطورها.

- **تفاقم الأزمة**: وتصل الأزمة إلى هذه المرحلة نتيجة عدم دراية متخذ القرار بأبعاد الأزمة محل الاعتبار واستبداده بالرأي وانغلاقه على نفسه، أو عدم التخطيط المسبق لها. ومن ثم تزداد قوى المجتمع المتفاعلة مع الأزمة حيث تغذى الأزمة بقوى تدميرية إضافية. ونادراً ما تصل الأزمات إلى هذه المرحلة فيما عدا الأزمات الناتجة عن كوارث طبيعية مفاجئة وسريعة التطور.

وتتفاقم الأزمة لعدة أسباب، أهمها:

١-سوء التخطيط والإدارة.

٢- عدم دقة الحكم على الأحداث وعدم توفر معلومات كافية عن عواملها وأسبابها.

٣- سوء الأداء وعدم وجود إجراءات أمنية أثناء الأزمة وبعدها.

٤- انزعاج صانع القرار تحت ضغط الأزمة أو عدم الثقة في اختياراته.

٥- عدم تناسق وتكامل أفراد منظومة صنع القرار.

٦- حدوث تغيرات خارجية أو داخلية في المؤثرات على الأزمة.

٧- عدم الاستخدام الأمثل للموارد المعلوماتية والاقتصادية والبشرية المتاحة.

أنواع الأزمات

- **أزمات داخلية**: من أخطر الأزمات التي تواجه دولة ما، تلك الأزمات التي تمس كيانها الداخلي وتهدد أمنها القومي وتؤدي بطريق غير مباشر إلى وجود ما يسمى بإستراتيجية الإسقاط من الداخل.

وتحدث نتيجة سعي الدول الخارجية إلى تحقيق مصالحها عن طريق غير مباشر عبر أدوات الدولة مستغلة طبيعة الظروف القائمة والمحيطة بالشعب. وينقسم هذا النوع من الأزمات بدوره إلى نوعين هما:

أزمات ذات طابع عدائي، مثل أعمال العنف أو الإرهاب أو التخريب.

وأزمات ذات طابع غير عدائي مثل الكوارث الطبيعية التي تصيب البلد كالفيضانات والأعاصير والزلازل.

- **أزمات خارجية**: وهي الأزمات الناتجة عن سعي دولة ما إلى إحداث تغيير حاد ومفاجئ في الوضع الدولي الراهن، مما يشكل تهديداً للأمن القومي لدولة أخرى يمكن أن ينتج عنه ردود أفعال قد تؤدي إلى حدوث صراع مسلح.

- **أزمات الصراع المسلح والإرهاب الدولي**: وتنشأ أثناء الحرب نتيجة التغيرات السريعة أو الحادة في موقف أحد الجانبين. ومن أمثله ذلك: دخول أو خروج طرف جديد في الصراع المسلح، أو استخدام أسلحة جديدة ومتطورة ذات فاعلية عالية ولم تكن تستخدم من قبل.

أما أزمات الإرهاب الدولي، فهي تلك الأزمة الناتجة عن ممارسة الجماعات السياسية والحكومات للتأثير على خصومها لتحقيق أهداف سياسية كبديل للحرب التقليدية، إذ إنَّها أكثر حركة وأكثر قوة. ويشكل أثر الإرهاب أزمة فعلية حيث تتمكن المجموعات الإرهابية من المساومة على القيم السياسية والمادية للمجتمعات والتأثير على مصالحها القومية.

أما أنواع الأزمات من حيث المصدر فهي:

- **أزمات طبيعية**: وهي تلك الأزمات الناتجة عن كوارث طبيعية وهي أكثر الأزمات شيوعاً وأكثرها خطراً على الإنسان لكونها خارجة عن إرادته. وتتسم بالفجائية والعمق والشدة إضافة إلى كونها ذات زمن حدوث عشوائي.

- **أزمات صناعية**: مثل حوادث التسرب الإشعاعي أو الكيماوي وتتسم بتأثيراتها

المادية والمعنوية القوية وصعوبة السيطرة عليها واتساع مجالها.

التخطيط لإدارة الأزمات

هي تلك العملية المنظمة والمستمرة التي تهدف إلى تحقيق أقصى كفاءة ممكنة في توجيه الإمكانيات والموارد المتاحة، للتعامل الفعال مع الأزمات المحتملة ومواجهتها في جميع مراحلها، مع الاستعداد لمواجهة المواقف الطارئة غير المخططة التي قد تصاحب الأزمة، والتخفيف من آثارها ثم توجيهها لتحقيق المصالح القومية. فالتخطيط هو العامل الأساسي لنجاح عملية إدارة الأزمات حيث يساهم التخطيط الجيد في منع حدوث أزمة وتلافي عنصر المفاجآت المصاحب لها.

ويتيح التخطيط لفريق العمل بإدارة الأزمات القدرة على إجراء رد فعل منظم وفعال لمواجهة وإدارة الأزمة بكفاءة عالية. ويجب أن يعتمد التخطيط على:

١-خلفية تاريخية عن الأزمة وبيانات تاريخية عن أزمات مماثلة.

٢ - أهداف المصالح المشتركة في الأزمة ومدى شرعيتها وتأثيرها على المصلحة العامة.

٣ - إمكانية وقدرات الأطراف ومدى فاعليتها لتحقيق الهدف.

٤ - السمات الشخصية والاتجاهات لقادة وقيادات الأطراف.

وتعتمد إدارة الأزمات على شقين رئيسيين هما:

-حصر العداءات المحتملة والعوامل التي تساعد على نشوبها والحصر التاريخي للأزمات والعوامل المسببة لها والدروس المستفادة منها.

- تعظيم القدرات لمجابهة الأزمات.

وترتبط الإدارة الجيدة للأزمات بقدرة المجتمع على إدارة الأزمة أو إيجاد وسيلة لتفاعله الإيجابي معها. ويختلف أسلوب وأدوات إدارة الأزمة طبقا لطبيعة المرحلة التي تمر بها الأزمة.

مراحل الأزمة

وتمر معظم الأزمات بخمس مراحل هي: مرحلة اكتشاف مؤشرات الإنذار المبكر، ومرحلة الاستعداد والوقاية، ومرحلة احتواء الأضرار والحد منها، ومرحلة استعادة النشاط، ومرحلة التعلم:

-**المرحلة الأولى**، اكتشاف مؤشرات الإنذار المبكر:

١ -إنشاء أساليب اكتشاف إشارات الإنذار للأزمات المحتملة.

٢ - إنشاء مركز تلقي ومتابعة إشارات الإنذار المبكر.

٣ - تكوين فريق داخلي لاختبار الإجراءات المتبعة.

٤ - تحفيز المبادرة الشعبية من جانب الجماهير لمكتشفي إشارات الإنذار.

٥ – وصف الوظائف الرسمية المستخدمة في هذا النظام.

٦ – وضع هيكل للتقارير التي سيستخدمها مركز إدارة الأزمات.

-**المرحلة الثانية**، الاستعداد والوقاية:

١-فحص الأزمات.

٢ – فحص اعتيادي دوري وصيانة المعدات المستخدمة في المواجهة.

٣ – وضع إرشادات فنية رسمية وإجراءات استخدام أدوات إدارة الأزمات من حيث تحليل المخاطر وتحديد درجات شدتها ومداها بطريقة هيكلية.

-**المرحلة الثالثة، احتواء الأضرار:**

١-الحصول على المعلومة اللازمة.

٢ – تحديث القدرات البشرية على احتواء الأزمة.

٣- اختبار الإجراءات المتبعة من خلال التنفيذ الدقيق لها.

٤ – تقييم وتقدير القائمين على احتواء الأزمة.

-**المرحلة الرابعة، استعادة النشاط:**

١- تحديد المستوى الأدنى من المهام، الخدمات، المنتجات المطلوبة لمزاولة الأعمال كما كانت عليها قبل الأزمة.

٢ – تحديد الأطراف المعنية بمرحلة استعادة نشاط المنظمة أو المؤسسة.

٣ – تحديد وسائل استعادة الثقة بالنفس.

٤ – تحديد أهم الأعمال المطلوبة لاستعادة النشاط.

٥ – تدبير الموارد اللازمة لاستعادة النشاط بدرجة الثقة المطلوبة.

-**المرحلة الخامسة، التعلم:**

١-مراجعة الأزمات السابقة ومقارنتها بالأزمة الأخيرة.

٢ – تصنيف الإجراءات والأعمال التي تمَّ تنفيذها طبقاً لجودتها.

٣ – مراجعة وتحديث أسلوب إدارة الأزمات من واقع الأزمة الأخيرة.

٤ – اتباع أسلوب الوصف الذهني مع فريق مراجعة الأزمات بغرض تحديد وعرض الدروس المستفادة بصورة رسمية.

نظم المعلومات ومواجهة الأزمات

وقد لوحظ أن هناك صعوبة في تناول وإدارة الأزمات بالطرق التقليدية، وكان من الضروري الاستفادة من الطفرة الهائلة في تكنولوجيا المعلومات في استنباط طرق بديلة متطورة لإدارة الأزمات.

والجدير بالذكر أنَّه قد انتشرت تكنولوجيا نظم المعلومات الجغرافية انتشاراً واسعاً وسريعاً على المستوى العالمي، خاصة في الدول المتقدمة خلال السنوات القليلة الماضية، كإحدى الوسائل الهامة المستخدمة في دعم اتخاذ القرار في المجالات المختلفة. فعلى سبيل المثال يمكن الاستفادة من جميع

هــذه الجهــود والإمكانيات في بنــاء نظام معلومــات متكامــل للإنذار المبكــر والتنبؤ بمخاطــر السيول، حيث تعتــبر السيول وما يترتــب عنها مــن أخطار من أهــم مشاكل البيئة الطبيعية في البلدان العربية.

وقــد ازداد وضوح مشكلــة السيول إثر المحاولات الجادة للتنمية والتوسع العمراني الذي واكب الطفرة الأخيرة في عملية التقدم، إضافة إلى أن عملية جريان السيول بشكلها الحــالي تمثل فقداً لكميات مــن الماء تعتبر هذه المناطــق في أشد الحاجة إلى كل نقطة منهــا. ويهدف هذا النظــام إلى توفير سبل دعم اتخاذ القــرار لإدارة الأزمة المطروحة وفي مراحــل تطورها المختلفــة باستخدام تكنولوجيا نظم المعلومات الجغرافية وذلك من خلال:

١-تحديــد كميــات الأمطــار الممكــن هطولها من واقع البيانات المناخية للمحطات الأرضية.

٢- استنبــاط نمــاذج استنتــاج شبكــة الجريــان السطحــي مع تحديــد الممرات الطبيعية للسيول والأحواض الهيدرولوجية للوديان من واقع الارتفاعات الأرضية.

٣ - دراسة الامتداد الجغرافي للمخاطر والتهديدات المسببة لغرق أو جفاف الأراضي أو تلــف الممتلــكات والمرافــق والمنشــآت الحيوية.

٤ - إمكانية التنبــؤ المستقبلي بالسيول من واقع البيانات المناخية.

٥ - تحديد بدائل المواجهة.

٦ - إيجاد آلية للإنــذار المبكر والتنبيه المرئي والمسموع.

وأخيراً نقول بأن المعلومات ستظل الدعم الأساسي لصانعي ومتخذي القرار. إنَّ تطور تكنولوجيا صناعة المعلومات والطفرة الكبيرة في أساليــب نقلهــا وتداولهــا والإمكانيات الهائلــة للحاسبات الآلية بمختلف أشكالها، وظهور التطبيقات الجديدة ونظم المعلومات ودعم اتخاذ القرار.. كل ذلك سيساعد كثيراً في الوصــول إلى القــرار الأفضل في الوقت المناســب للتعامل مــع الأزمــات والكوارث والحوادث الطارئة.

الحياة في عالم كمومي

❁
موسى ديب الخوري

لماذا معرفتي محدودة؟ ولماذا حجمي محدود؟ ما هو السبب الذي كان لدى الطبيعة لكي تجعلني بهذا الحجم، ولتختار هذا الرقم دون سواه، ضمن اللانهاية من الحجوم والأرقام التي ليس ثمة سبب فيها يجعلها تختار هذا من دون ذاك؟

باسكال، «أفكار»

ثمة تعارض يسكن اليوم عالم الفيزياء الحديثة ويثقل على تطورها كما وعلى تعليمها وفهمها. ذلك أن ما نسميه فيزياء الحياة اليومية، أي على المستوى الجهاري، هو في العمق أكثر تعقيداً بكثير من العالم الصغائري ومن العالم ما فوق الجهاري. فالذرة والنجم النيوتروني وحتى الكون نفسه هي كينونات أكثر بساطة ربما من قطرة ماء أو كسرة زجاج أو كأس من الرمل.

كذلك، فليس من السهل أبداً إدراج مفاهيم الفيزياء من أجل تفسير الظاهرات الأكثر عادية بالنسبة لنا بشكل تام ومقنع. مع ذلك، وكما سوف نرى، فإنَّ أفكاراً أساسية في الفيزياء، تتعلق بالطبيعة العميقة للأشياء، يمكن أن يتم التعبير عنها بطريقة بسيطة بحيث توضح لنا جوانب أساسية من العالم على مستوانا.

لنأخذ على سبيل المثال السؤال التالي:

❁ كاتب وباحث ونائب رئيس الجمعية الكونية السورية.

«ما الذي يحدد حجم الكائن الإنساني؟ أو بشكل أعم حجم الكائنات على كوكبنا (أو على كوكب آخر)؟» وعلى عكس ما يمكن أن نعتقد، فإنَّ البيولوجيا التي هي بالتعريف علم فهم الطبيعة ووظيفة المتعضيات الحية، لا تلعب أي دور أساسي في تقديم الإجابة. بل إن أفكاراً فيزيائية عامة جدّاً ستكون كافية لتحديد مستوى حجم الكائنات أو تحديدا القياس الأعظمي للكائنات الحية على الأرض.

ومن دون الدخول في تفاصيل دراسات كثيرة إنَّما بسيطة نسبياً وغير معقدة[1]، يمكن استخلاص حجم الكائنات فعلا من قياسات فيزيائية، قياسات تناسب المتوسط الهندسي بين الأطوال الذرية والكوكبية. بعبارة أخرى، يقع الإنسان في حجمه بما يتناسب مع حجم الذرات المكون منها وحجم الكوكب الذي يعيش عليه.

إنَّ هذا الحجم يقع بين لانهايتين، حيث يكون تطوره جامعاً لعالمين لامتناهيين في صورة عالم جهاري. ترى، هل عالمنا المألوف يظل حقيقياً وموضوعياً وسط هذا الاتصال العميق مع عوالم الكبير والصغير؟ وماذا لو كانت قوانين العالم الجهاري لا ترتكز، وكذلك حجمنا، على ظاهرات بيولوجية أو فيزيائية كلاسيكية بل تتأسس في الجوهر على مبادئ عوالم غريبة وغير مألوفة أقل ما توصف به بأنها كمومية؟

قد يكون من الغريب جدّاً أن نستطيع الحصول على نتائج تخص حجم الكائن الحي من دون اللجوء إلى الفيزياء الكمومية التي تحكم الظاهرات الذرية التي ترتكز عليها بنانا. وفي الحقيقة فإنَّ الجواب ببساطة هو أنَّ الأفكار الكمومية ماثلة وليست غائبة في الدراسات التي اعتمد عليها العلماء، لكنها مبطنة في قلب الحجج نفسها. لأنَّه عند الحديث عن المستوى الذري فإنَّ النظرية الكمومية هي التي تحدد مستوى هذا العالم حجما وطاقة. بل وهذه النظرية هي التي تلعب الدور الأعمق فيما يتعلق بالقوى الأساسية التي تحكم جمع الذرات.[2]

ولكن ألا توجد حدود بين العالمين الكمومي والذري؟

في كتب الفيزياء، تصف النظرية الكمومية الجسيمات والذرات والجزيئات، وباختصار العالم الصغائري، لكنها تترك المجال للفيزياء الكلاسيكية عند الحديث عن سقوط تفاحة أو عن الأشخاص والكواكب. فلابد بالتالي أنَّه توجد في موضع ما بين الجزيئات والتفاحة مثلا حدود تنتهي عندها الغرابة الكمومية وتبدأ السمة المألوفة للسلوك الذي تصفه الفيزياء الكلاسيكية.

إنَّ الفكرة السائدة بأنَّ الفيزياء الكمومية قاصرة أو محدودة بالعالم الذري وما تحت الذري هي فكرة شائعة بين عموم الناس. لكن هذا التقسيم للعالم الفيزيائي ليس سوى خرافة. فقلة من الفيزيائيين ينسبون اليوم للفيزياء الكلاسيكية الأهمية نفسها التي للفيزياء الكمومية.

وفي نظرهم فإنَّ الفيزياء الكلاسيكية ليست سوى مقاربة ضرورية في عالم هو عالم كمومي على المستويات كافة.

إنَّ تمييز الظاهرات الكمومية على مستوانا الجهاري لا يكمن في الحجم أو الكبر الذاتي للمنظومات، إنَّما في الطريقة التي تتفاعل بها هذه المنظومات فيما بينها.

لقد ضاعف الفيزيائيون منذ نحو عشر سنوات التجارب التي تظهر فيها الآثار الكمومية على المستوى الجهاري، بحيث بات من الواضح أنَّ هذه الظاهرات ترافقنا في حياتنا اليومية الجهارية أكثر بكثير مما كنا نظن. بل وتكشف أبحاث حديثة أنَّ هذه الظاهرات يمكن أن تلعب دوراً هاماً وأساسياً على مستوى خلايانا. لا بل إنَّ المختصين أنفسهم في مجال الفيزياء الكمومية بدأوا يعيدون النظر فيما تقوله الفيزياء الكمومية حول الطبيعة.

إنَّ السلوكات الكمومية تتجاوز كل ما نعتبره حساً سليماً: وهي تجبرنا على إعادة النظر برؤيتنا للكون وعلى تبني وجهة نظر أو رؤية جديدة غير مألوفة للطبيعة من حولنا، على أكثر من مستوى.

قطة ميتة. حية

تدرس الجسيمات في الكتب المدرسية كحالات كمومية عندما تكون معزولة ومفردة، أمَّا عندما تكون كثيرة العدد فإنَّها تصبح حالة كلاسيكية من الفيزياء الإحصائية.

إنَّ هذه النظرة خاطئة كما يشير الفيزيائيون الكموميون، وتعود بوادر هذه الرؤية إلى إحدى أشهر التجارب العقلية في عالم الفيزياء، أي تجربة قطة شرودنغر.

ففي عام ١٩٣٥م، تخيل النمساوي إرفينشرودنغر تجربة عقلية تبين الارتباط الجوهري بين العالمين الدقيق والجهاري بحيث لا يمكن فصلهما بحاجز أو حد واضحين.

وضمن سيناريو التجربة يتم الإغلاق على قطة في حجرة تحتوي على زجاجة من غاز مميت وعلى عداد للإشعاع وعلى ذرة مشعة. فإذا كشف العداد عن وجود إشعاع في الغرفة فإنَّه يطلق آلية ميكانيكية تكسر زجاجة السم وتقتل القطة في الحال.

إنَّ العداد هو جهاز جهاري لا يستطيع أن يقيس سوى إحدى حالتين محتملتين

للـــذرة: «متحللة» أو «غـــير متحللة». ولكن، في العـــالم الكمومي، يمكن للـــذرة أن توجد في حالـــة تجمع بين الحالتين معـــاً، التحلل وعدم التحلل. وهذا ما يسمى في الميكانيك الكمومي بالحالة التراكبية.

وهكـــذا، إذا كانت الذرة المشعة موجودة في هذه الحالـــة التراكبية، فإنّ وجود الآلية التي تكسر زجاجـــة السم تفترض أنَّ القطة موجـــودة في حالة تجمع بين إمكانية الحياة وإمكانية الموت، تماماً كما هي حالة تراكب ذرة تجمـــع بين التحلل واللاتحلل. لكن على الرغـــم من حذاقة جهاز أو تجربة شرودنغر العقلية، فإنها تبقى تجربة نظرية غير قابلة للتطبيق. لكنهـــا تثبت على الأقل من حيث المبـــدأ أنَّ الغرابـــة الكموميـــة على مستوى المنظومـــات الدقيقة تتصـــل مع المنظومات الجهاريـــة. مع ذلك يُطرح الســـؤال البريء التالي، الســـؤال الجوهري بالأحرى: لماذا لا يـــرى الناس سوى قططاً ميتة أو حية فقط، ولا يرون قططاً ميتة وحية في آن معاً؟

إذا كان يبـــدو أن الفيزيـــاء الكلاسيكية تصف العالم بشكل جيد فذلك أن التفاعلات المعقـــدة لجسم ما مـــع محيطه تـــؤدي إلى الاختفاء السريـــع للفرادات الكمومية ضمن هذه التفاعـــلات. فالمعلومة المتعلقة بصحة قطـــة مثلا، تعـــود سريعـــا إلى وسطها على شـــكل فوتونـــات وتبادل في الحـــرارة. فكل ظاهـــرة كمومية يمكـــن أن تتضمن حالات متراكبـــة للمنظومـــة التي تشهـــد التفاعل (ميتـــة أو حيـــة)، لكن هـــذه الحالات تميل للاختفـــاء. إنَّ الهـــروب الدائـــم للمعلومة باتجاه الوســـط المحيط هو الآلية الأساسية التـــي تُدمَّر بها الحالات الكمومية التراكبية أو تنهار، وهي صيرورة تدعى «فك الترابط décoherence».

والمنظومـــات الكبيرة أكـــثر عرضة لفك الترابـــط مـــن المنظومات الصغـــيرة، وذلك ببساطة لأنَّهـــا تترك لمعلومات أكثر بكثير أن تفلت منها. ولهذا يميـــل الفيزيائيون لربط النظريـــة الكمومية بالعـــالم الصغائري. مع ذلك، وفي حالات كثيرة، فإنَّ خسارة المعلومة من قبـــل منظومة كبيرة يمكن أن يتم كبحها أو إيقافهـــا، مما يثبـــت عندها كلية حضور الظاهـــرات الكموميـــة علـــى المستويـــات الصغائرية والجهارية معاً.

إنَّ الظاهـــرة الكموميـــة بامتياز هي ما نسميه التشابك intrication، الذي يحول مجموعة مـــن الجسيمات المعزولة إلى كل لا ينقســـم. وقد تمَّ إدراج هذه التسمية في عام ١٩٣٥م من قبـــل شرودنغر في المقالة نفسها التي ناقش فيها تجربة القطة.

إنَّ خصائص منظومات من الجسيمات في الفيزياء الكلاسيكية يمكن أن تعود دائما إلى خصائـــص فردية للعناصر التي تؤلفها.

ولكن ليس هذا هو الحال في منظومة كمومية تشابكية. وهكذا يكون لمنظومة مؤلفة من جسيمين متشابكين سلوك مدهش: فحتى لو كان الجسيمان بعيدين كثيراً عن بعضهما بعضاً فإنهما يستمران في السلوك كما لو كانا قسمين من كينونة واحدة غير قابلة للانقسام. وهذا ما قاد آينشتاين للحديث عن «الأثر الشبحي عن بعد».

السبينات المتشابكة

يتحدث الفيزيائيون عادة عن تشابك زوج من الجسيمات الأولية، مثل إلكترونين أو فوتونين. إن إحدى خصائص الإلكترونات هي ما يعرف بعزمها الحركي (أو الزاوي) الذاتي (بمعنى الجوهري والباطن في الجسيم)، وهو ما اصطلح على تسميته اللف الذاتي أو «سبين».

ولقياس سبين إلكترون يجب بداية اختيار اتجاه، ثم تحديد اتجاه السبين بالنسبة للمحور المختار. لنفترض أن لدينا إلكترونين يسلكان وفق ما تتوقعه الفيزياء الكلاسيكية. ولنجعل أحد الإلكترونين يدور في اتجاه عقارب الساعة حول محور أفقي، والإلكترون الآخر يدور في الاتجاه المعاكس حول المحور نفسه. وبهذه الطريقة يكون السبين الكلي، أي مجموع اللفين الذاتيين للإلكترونين، يساوي الصفر. وبما أنَّ محوري دوران الإلكترونين يظلان ثابتين في الفضاء فإنَّ نتيجة القياس سوف تتعلق بالزاوية بين اتجاه القياس ومحور دوران الإلكترونين. فإذا قسنا اللفين الذاتيين وفق محور أفقي سوف نرى أنهما يدوران في اتجاهين متعاكسين. بالمقابل، فإن قياساً في الاتجاه العمودي لن يكشف عن دوران في كل من حالتي الإلكترونين.

أمَّا بالنسبة للإلكترونات الحقيقية، أي الكمومية، فإنَّ الأمور مختلفة تماما. إذ من الممكن أولا تحضير منظومة من إلكترونين في حالة يكون فيها مجموع السبين معدوماً، حتى من دون أن نكون قد خصصنا الحالة الفردية لكل من الجسيمين. وعندما نقيس سبين أحد الإلكترونين نجد لا على التعيين إمَّا أنَّ الإلكترون يدور في اتجاه عقارب الساعة أو بعكس اتجاه عقارب الساعة. فكما لو كان الإلكترون يقرر بنفسه بأي اتجاه يدور.

مع ذلك، أياً كان اتجاه القياس المختار فإننا نلحظ أنَّ اللفين الذاتيين المقاسين يكونان دائما متعاكسين. فكل شيء يجري كما لو كان قياس لأحد اللفين يجبر اللف الذاتي الآخر على اتخاذ القيمة المعاكسة له. فكيف يقوم اللفان الذاتيان بتبادل المعلومات أو بالتشاور فيما بينهما للحفاظ على هذه النتيجة؟ لا يزال ذلك أمراً غامضاً.

بالمقابل، فإن قياس سبين أحد الجسيمين في الاتجاه الأفقي لا يمنع من الحصول أيضاً على نتيجة في الاتجاه العمودي، الأمر الذي يوحي بأنه ليس للجسيمات محاور دوران محددة. وبكلمة واحدة، فإنَّ نتائج القياسات على الإلكترونين يتم ضبطها بطريقة لا تفسرها الفيزياء الكلاسيكية.

كانت معظم الإثباتات التجريبية على ظاهرة التشابك تشتمل بضعة جسيمات قليلة لا أكثر. أمّا المنظومة المؤلفة من عدة جسيمات أو من جسيمات كثيرة فمن الصعب عزلها عن محيطها أو بيئتها. فلمركباتها أو مكوناتها احتمالية أعلى بكثير على التشابك مع جسيمات غير مضبوطة من المحيط، الأمر الذي يدمر ارتباطاتها المتبادلة الأصلية.

بعبارة أخرى، ووفق المصطلحات التي تصف فك الارتباط، فإنَّ الكثير من المعلومات تفلت من المنظومة في البيئة المحيطة، الأمر الذي يعطي للمنظومة سلوكاً كلاسيكياً غير كمومي. نفهم بالتالي أنَّ الصعوبة الرئيسية بالنسبة لجميع الذين يحاولون استثمار التشابك، كما على سبيل المثال في محاولة بناء حاسوب كمومي، هي صعوبة الحفاظ على التشابك.

في عام ٢٠٠٣م، أثبتت تجربة أن منظومات أكبر في الحجم يمكن أن تظل متشابكة عندما نستطيع الحد أو إحباط هرب المعلومة. فقد وضع غابرييل آيبلي G. Aeppli، من جامعة كوليج في لندن قطعة من فلوريد الليثيوم في حقل مغنطيسي. واستنتج أن السبينات تنتظم بسرعة أعلى مما هو متوقع.

ووفقاً للباحثين فإنَّ التفسير الممكن الوحيد هو أنَّ حالة تشابك جهارية قد تشكلت ابتداء من حالات فردية من السبينات لنحو ٢٠١٠ ذرة تشكل قطعة الملح...

أنجز فريق آيبلي تجاربه في درجات حرارة منخفضة جدّاً لا تتجاوز بضعة ميلي كالفن فقط، وذلك من أجل تجنب آثار فك الارتباط للتهيج الحراري. ومنذ ذلك الحين برهن ألكسندر مارتينز دو سوزا Alexandre Martins de Souza ورفاقه، من المركز البرازيلي للبحوث الفيزيائية في ريو دي جانيرو، بالعمل على مواد مثل كربوكسيلات النحاس، على إمكانية الحصول على تشابكات جهارية في درجة الغليان بل وأعلى منها.

ففي المنظومات التي درسوها كان التفاعل بين السبينات قوياً جدّاً بحيث يحبط التهيج الحراري.

وفي حالات أخرى كان من الممكن الحصول على تشابك جهاري بوساطة قوة خارجية تعدم آثار التهيج الحراري. وهكذا فقد خلق

الفيزيائيون التشابك في قلب منظومات أكبر فأكبر وأعلى حرارة دائماً، بدءاً من الإيونات المأسورة في فخ حقول كهرومغنطيسية وحتى الذرات فائقة البرودة.

إنّ هـذه المنظومات كافة تشبه منظومة قطـة شرودنغر. لنأخـذ ذرة أو أيونـاً. إنَّ إلكتروناتهـا يمكن أن توجـد قرب النواة أو بعيداً عنهـا، أو الحالتين معـا. فمثل هذا الإلكترون يتصرف بالتالي كما الذرة المشعة الموجـودة في قفص قطـة شرودنغر، والتي تكـون في آن واحد في حالة تحلل وفي حالة عدم تحلل.

تستطيع الذرة، بشكل مستقل عما يفعله الإلكترون، أن تتحرك على سبيل المثال نحو اليسـار أو نحو اليمين. وتلعب هذه الحركة دور القطـة الميتـة أو الحية. وقـد توصل الفيزيائيون باستقطاب الذرة بوساطة الليزر مزاوجة حـالات موضع الإلكـترون وحركة الـذرة. فعلـى سبيل المثال، يمكـن التدخل بحيث إذا كان الإلكترون قريباً من النواة، فإنَّ الـذرة تنتقل إلى اليسار، وإذا كان الإلكترون أبعد عن النواة، فإنَّ الذرة تنتقل إلى اليمين. وهكذا فإنَّ حالـة الإلكترون تكون متشابكة مع حالة حركة الذرة، بالطريقة نفسها التي يكـون فيها التحلل الإشعاعـي متشابكا مع حالة القطـة. وبالتالي يمكن أن يكون لدينا حالة تشابك مع تراكبات، حيث يتم استبدال القـط الميت والحي في آن واحد بذرة تنتقل في آن واحد نحو اليمين ونحو اليسار.

تنقل تجـارب أخرى على مستويات أكبر هذه الفكرة الأساسية، بحيث أنَّ عدداً هائلاً من الذرات توجد في حالة تشابك، وهو أمر مستحيل في الفيزيـاء الكلاسيكية. والحال أنَّـه إذا كان بالإمكان إعطـاء حالة تشابك لمواد صلبـة حتى عندما تكون كبيرة وحارة، فلن يعود ثمة ما يمنعنـا من التساؤل حول إمكانية وجـود تشابك أيضـاً في الكائنات الحية.

أحـد الأمثلـة علـى هـذه المتعضيـة الكموميـة نجده لـدى نوع مـن العصافير يسمى أبو الحناء Erithacusrubecula، وهو عصفور صغـير مدهش، يهاجر في كل سنة بـين إسكندينافيا وأفريقيا الاستوائية. ويبدو أن هذا الطـير الصغير المميز ببقعة حمراء يقطع مسافة نحـو ١٣٠٠٠ كلم من دون صعوبـات تذكر، ومـن دون أن يضيع. فكيف يفعل ذلك؟

هل يملك طير أبو الحناء نوعاً من بوصلة داخليـة؟ في السبعينيات من القرن الماضي، أسر الزوجان وولفغانغ Wolfgang وروزويثا إيلتشكـو Roswitha Wiltschko، مـن جامعـة فرانكفـورت في ألمانيا، طيور أبـي الحناء كانت قد هاجـرت إلى أفريقيا ووضعوها في أقفاص ضمن حقل مغنطيسي

صنعي. واستنتج الزوجان أنَّ هذه الطيور لا تلحظ انقلابات اتجاه الحقل المغنطيسي -حيث لم تكن الطيور تميز بين الشمال والجنوب- بل كانوا حساسين لميلان الحقل المغنطيسي الأرضي، أي للزاوية التي تشكلها خطوط الحقل مع سطح الأرض.

وفي الواقع تبين أنَّ هذا هو كل ما تحتاجه هذه الطيور لكي تعرف كيف تتوجه وتعود إلى موطنها. ولكن ما كان مثيراً في التجربة أن طيور أبي الحناء التي تم عصب عيونها لم تعد تتبع الحقل المغنطيسي. هذا يعني أنَّه إذا كان لدى طيور أبي الحناء بوصلة داخلية ما فلا بد أن تكون داخل عيونها أو لها صلة بعيونها.

في عام ٢٠٠٠م اقترح فيزيائي مهتم بالطيور المهاجرة، هو ثورستنريتز Thorsten Ritz، تفسيراً لذلك فكانت المرة الأولى التي يتم فيها الإشارة إلى التشابك الكمومي. ووفق هذه الفكرة المستلهمة من أعمال لكلاوس شولتن Klaus Schulten، فإنَّ الشبكية في عين طير تتضمن جزيئاً يمثل فيه إلكترونان زوجاً متشابكاً من اللف الذاتي يكون مجموعه معدوماً.

في النموذج النظري لريتز، عندما يمتص جزيء فوتوناً ضوئياً مرئياً، فإنَّ الإلكترونات تتلقى ما يكفي من الطاقة لكي تنفصل وتصبح بالتالي حساسة للحقل المغنطيسي الأرضي. فإذا كان الحقل المغنطيسي مائلاً، فإنَّه يؤثر بطريقة مختلفة على الإلكترونين، خالقاً على هذا النحو خللاً أو عدم توازن يغير من رد الفعل الكيميائي الناجم عن الجزيء.

إنَّ آليات كيميائية تترجم هذا الاختلاف على شكل دفقة عصبية، يحولها دماغ الطير إلى صورة للحقل المغنطيسي الأرضي. وهكذا فإنَّ الطير مزود بجهاز توجّه جهاري، إنَّما لا ينتج عن الفيزياء الكلاسيكية ولا يعبر عنها.

على الرغم من أنه لا يوجد سوى براهين فردية على وجود هذه الآلية، قام كل من كريستوفر روجرز Christopher Rogers وكيمينوريمايدا Kiminori Maeda، من جامعة أكسفورد، بدراسة جزيئات مشابهة للتي درسها ريتز، وبينا أن التشابك بين إلكتروناتها تجعلها حساسة للحقول المغنطيسية. ووفق حسابات فلاتكوفدرال VlatkoVedral وفريقه من جامعة أكسفورد، فإنَّ الآثار الكمومية تدوم في عين الطير مدة ١٠٠ميكروثانية تقريبا.

وفي هذا الإطار فإنَّ هذه المدة تعتبر فترة طويلة، فالرقم القياسي الأطول المسجل في بقاء منظومة صنعية من السبينات الإلكترونية المتشابكة لا يتجاوز مدة ٥٠ميكروثانية...

ويقــول العلماء إنَّهم يجهلون حتى الآن كيف تستطيع منظومة طبيعية الحفاظ على هذه الآثــار الكمومية طوال هذه المــدة، بل لعل الإجابة على هذا السؤال بالذات تقدم حلّاً للعلماء في كيفية حماية الحواسيب الكمومية من آثار فك الارتباط.

من جهة أخــرى، لا يجهل البيولوجيون أنَّ قوانين كمومية توجد بالضرورة في أساس كيميــاء الكائن الحي، فالحموضــ النووية والبروتينات والأنزيمات وكل مكونات الحياة يمكن أن تمثل بوساطــة كريات تربط بينها روابــط على شــكل عصي صغــيرة ربما أو وصلات.

إنَّ الصــيرورات البيولوجية التي تحرك مجمــل هــذه الكينونــات هي عبــارة عن تفاعلات وتحــولات في تجمعــات الذرات الأساسية المكونة لهذه الجزيئات. فكل خلية من خلايانا تستمــد جوهر وجودها بالتالي من استقرارية المــادة الأساسية المكونة لها. وهو أمر لا يمكن تفسيره إلا في إطار الفيزياء الكموميــة، التي تحــدد ما هــي الروابط الكيميائية وما هي كثافتها المطلوبة من أجل استمرار هذه الكينونات.

غــير أنَّ البيولوجيين ينظرون حتى الآن نظرة آلية لهذه التركيبات المحكومة بقوانين نظرية الكم الغريبة، ويعملون مثل المهندسين علــى تطبيــق التراكيب الأساسيــة في فهم التحــولات والتفاعــلات، مــن دون اعتماد قوانــين فيزياء الكم في بناء جسر أو ناطحة سحاب.

وفي الحقيقة كان الجميع يظن حتى وقت قريب أنَّه بإمــكان المهندس كما البيولوجي تخطــي هــذه القوانين الغريبــة التي تظل محصورة وفاعلة علــى مستوى الجسيمات الدقيقة!

ألم يكن إرفينشرودنغر هو نفسه من ساهم في فصل العالم الجهاري عن العالم الكمومي، وأكد أنَّ النظرية الكمومية لا تتعلق بالكائن الحــي في كتابــه «ما هــي الحيــاة»؟ وأنَّ الجزيئات يجب أن تظل هي المستوى الأدنى لوصف العالم البيولوجي.

غــير أنَّ ذلك كلــه يتغير اليــوم كما لو بلمسة ساحــر. ما يطرح لغــزاً جديداً: إذ كيــف نفسر انبثاق وظهــور آثار كمومية في قلب الكائنــات والمتعضيات الحية؟ في حين أن هــذه القوانين الغريبــة التي تحكم عالم اللامتناهــي في الصغر لا تنطبق على العالم الجهاري، باستثناء طبعاً تلك القطة الشهيرة الحية والميتــة في آن واحد وهي في علبتها! لكن الأمــر لا يتوقف عنــد ظاهرة الطيور المهاجرة، فقد تتالت الاكتشافات حول أصالة الظاهرة الكمومية في قلب العالم الحي.

التركيب الضوئي، وظاهرات حيوية أخرى،كمومياً

إنَّ التركيب الضوئي، وهو الآلية المعقدة التي تحول النباتات بوساطتها الطاقة الشمسية إلى طاقة كيميائية، هو صيرورة بيولوجية أخرى تقدم كمثال يمكن أن يكون التشابك لاعباً أساسياً فيها. ففي الخلايا النباتية، يطلق الضوء في النبتة إلكترونات، حيث تأخذ هذه الإلكترونات كلها طريقها نحو مركز للتفاعل تطرح فيه طاقتها وتطلق التفاعلات الكيميائية الضرورية لخلايا النباتات. ونعرف أنَّ الفيزياء الكلاسيكية لا تفسر الفعالية شبه الكاملة لهذه الآلية.

أجريت تجارب كثيرة مؤخراً من قبل فرق علمية عدة، بينها فريق غراهام فلمينغ Graham Fleming وموهانساموفار Mohan Samovar، من جامعة كاليفورنيا في بيركلي، أو فريق غريغوري سكولز Gregory Scholes، من جامع تورنتو، تدعم فكرة أنَّ المردود المرتفع للتركيب الضوئي لا يمكن تفسيره إلا بوساطة خصائص كمومية.

مثال آخر على فعالية الفيزياء الكمومية في عالم البيولوجيا يتبدى لنا في دراسة الأنزيمات. فما هو السر الذي تعتمده الإنزيمات لكي تستطيع إدارة مليارات التبادلات الكيميائية الضرورية لحياة المتعضية؟

فمن غير الإنزيمات ستكون كيمياء الحياة عطالية ببساطة. لأنَّ المتعضيات الحية هي معامل حقيقية للتفاعلات الكيميائية تتحول فيها مليارات مليارات الجزيئات باستمرار في تبادلات بين الذرات أو المجموعات الكيميائية. ولا غنى عن الإنزيمات في هذا الغليان في قلب المتعضية الحية. فعلى الرغم من أنَّها لا تتغير خلال الصيرورات الكيميائية لكن أثرها يسمح للأجسام المتفاعلة بتجاوز حدود طاقية تفصل بين الحالات البدئية والنهائية، مع تسريع هذا التفاعل بشكل كبير. يشبه ذلك إلى حد بعيد عندما نمسك بمقود دراجة طفل ونشدها معه مما يعطيه دفعاً لا بأس به يتجاوز معه تلة أو صعوداً أو حاجزاً ما. غير أنَّ جزءاً من نجاح الإنزيمات في هذا العمل يعود إلى أثر كمومي يسمح لجسيم بأن يقوم بلعبة تخطي الحواجز، وهو ما يعرف بالأثر النفقي.

وينتج الأثر النفقي عن الطبيعة الموجية لجسيم كمومي. ففي حين يكون من المستحيل على جسيم نقطي أن يقفز فوق حاجز عالٍ جدّاً بالنسبة له، فإنَّ قرينه أو أناه الكمومية، بما هو يتحرك مثل موجة تمتد في المكان، له احتمالية غير معدومة

بأن يوجـد وراء هذا الحاجز الذي لا يمكن اجتيازه.

فالكرة الكمومية إن جاز التعبير لا تجتاز الحاجز فعلياً، بل تكون بحظوظ واحتمالات لا يمكن إهمالهـا وراء الحاجـز ببساطة. وهذا الأثر بات معروفـاً تماماً في الفيزياء الكمومية بحيث أنَّ العلماء اخترعوا مجهراً يعمل وفق الأثر النفقي، ويسمح برؤية سطح بدرجة أقل من حجم ذرات السطح.

مع ذلك لم يكن يخطر في بال أحد أن الأثر النفقي يمكن أن يلعـب دوراً في التفاعلات الكيميائية في قلب الخلايا الحية. لكن هذا ما بدأ يطرح فعلياً منذ عام ١٩٨٩م بعد ما حققته جوديث كلينمان Judith Klinman من جامعة بيركلي في الولايات المتحدة. فقد درسـت هذه الكيميائية وظيفة إنزيم يسمى alcool déshydrogénase (ADH)، نجده على سبيـل المثال في الكبد، ووظيفته هـو تفكيك جزيئات الكحول بإجبارها على التخلي عن أيون مـن الهيدروجين، أي عن بروتون، وهو جسيـم موجب الشحنة يشكل نواة الذرة.

وبينت قياسات تتعلق بالحرارة وعوامل أخـرى أنَّ هذا البروتون مـرّ بالأثر النفقي خلال هذا التحول. وأدت هذه الفرضية إلى تفسير فعالية الإنزيمات في تسريع التفاعلات بـين الجزيئات. فلـو اقـترب جزيئان من الإنـزيم المناسب، فإنَّه يسهل التبادل بينهما كمـا لو بفعـل سحر، بفضل الأثـر النفقي حيث يترك أحدهما بروتونـاً للإنزيم فإذا به ينتقـل مباشرة نحو الجزيء الثاني. وتتم العملية خلال وقت قياسي جدّاً!

كان إثبات هذا الانتقال على يد جوديث كلينمـان غير متوقع أبـداً. فالبروتون ثقيل نسبياً وفعالية الأثـر النفقي تتناسب عكساً مع كتلة الجسيم المعني. وإن كنا نعرف هذا الأثـر بالنسبة للإلكـترون بحيث ينتقل بين موضعين طاقيين، لكنه لم يكن معروفاً بالنسبة للبروتون الذي يزيد ٢٠٠٠ مرة في كتلته عن الإلكترون. لكن منذ هذا الاكتشاف حصلت اكتشافات أخرى على يد فرق بحث أخرى. تقول جوديث كلينمـان: «أعتقد أن التطور قد انتخب بروتينـات إنزيمية بحيث يسهل تموضعها النشـط، حيث تجري التفاعلات الكيميائيـة، الأثـر النفقـي للبروتونات»، وتضيف:

«أصبـح لدينـا نتائج حديثـة تميل إلى تأكيد ديمومـة أو طول مـدة الأثر النفقي بالنسبة لنقل ذرات أثقل، مثل ذرات الكربون والأكسجين». غير أنَّ إحدى الصعوبات التي تواجه حسم المسألة هي أنَّ كل هذه التجارب لا تسمح برصد مباشـر للأثر النفقي. وقد اقتُرحت طرائق عدة لمحاولة رؤية هذا الأثر بشكل مباشر.

يقــول داميــان لاج Damien Laage مــن قســم الكيميــاء في إيكــول نورمــال l'Ecole normale في باريــس: «يجاهد الأخصائيــون اليوم في سبيــل تحديد دور الأثر النفقي الدقيق في عملية التحفيز التي يقوم بها الإنزيم. ومن غير المحتمل أن يكون هذا الأثــر هو المسؤول ١٠٠ ٪ عن التحفيز الإنزيمي نفسه، لكن لا شك بأنه يساهم فيه وأنه عامل أساسي فيه».

وحاسة الشم، كمومياً!

تشــير الأبحاث الحديثــة إلى أن حاسة الشم ترتكز على هــذا الأثر النفقي أيضاً. فمع أن مستقبلات الشم كانت معروفة منذ التسعينيــات، لكن أحــداً لم يكن يفهم حتى اللحظة وظيفتهــا وكيفية عملهــا. غير أنَّ دراسات عديدة بدأت تشــير مؤخراً إلى أن التفسير يأتي من جانب العالم الكمومي! ومن دون الدخــول في التفاصيــل، يشير مارشال ستونهــام Marshall Stonham ورفاقه الذي بدأ الاهتمام بالموضوع في عام ٢٠٠٧م إلى أنَّ المسألــة تبدو مؤسســة علمياً بشكل جيــد على الرغم مــن وجود نقــاط كثيرة تحتاج إلى إيضاح، وهو ما يحاول القيام به، محاولاً وضع نمــوذج كامل يتضمن الجزيء الحامل للرائحة والمستقبلات.

ومن المهم الإشارة إلى أعمال Markus Arndt مــن جامعة الفيزياء في فيينا الذي يحاول وضع أسس نظرية للتفسير الكمومي للحاسة الشمية. وقد تمكّن مؤخراً فريق من الباحثين اليونان من القيام بتجربة هامة في هذا المجال، حيث بينــوا أنَّ ذبابة تستجيب بشكل مختلف لرائحــة جزيء بحسب ماإذا كانــت ذرات هيدروجــين قــد استبدلــت بــذرات ديتريوم الأثقل، وبالتالي كان التواتر الاهتزازي في المستقبلات العصبية مختلفا. إنَّه مؤشر إضافي للاعتقاد أن لدينا في نهايات أنفنا مجاهر حقيقية ذات أثر نفقي.

البيولوجيا الكمومية

في العــالم الكمومي يسلك جسيم الطرق كافــة في آن واحــد، حيث يكــون كل طريق متأثــراً باحتماليــة معينــة. إنَّ الحقــول الكهرمغنطيسيــة الموجودة في قلب الخلايا النباتية يمكن أن تستجــر الإبطال المتبادل لبعضــ هذه المســارات وتدعيــم مسارات أخــرى، ممــا يقلص من حظــوظ أن يقوم الإلكترون بانعطاف أو تغيــير لمساره بشكل غير اقتصــادي، ويزيد مــن الحظوظ بأن يكون موجهاً مباشرة باتجاه مركز التفاعل.

إنَّ تشابك حالات التموضع (أي الطرقات التي يسلكها الإلكترون أو المسارات) الممكنة لا يدوم سوى جزء من الثانية ويؤدي إلى تدخل جزيئات لا تحتوي علــى أكثر من ١٠٠٠٠٠

ذرة. ترى هل توجد أمثلة أخرى على تشابك أوسع وأكثر ديمومة في الطبيعة؟ نحن نجهل ذلك، لكن السؤال بات مطروحاً وهو مثير جدّاً بحيث يحرّض انبثاق علم جديد كل الجدة باتت له بعض مراكز الأبحاث في الجامعات الكبرى: البيولوجيا الكمومية.

لم يكن ثمة معنى بالنسبة لشرودنغر أن تكون القطة حية وميتة في آن واحد. فكل نظرية تقوم بمثل هذه النبوءة لا يمكن أن تكون سوى نظرية ناقصة أو تحمل عيباً ما. وقد تقاسمت أجيال من الفيزيائيين هذه الحالة المزعجة، معتقدين أنَّ النظرية الكمومية لا تطبق على المستوى الجهاري. وفي الثمانينيات من القرن الماضي اقترح روجر بنروزRoger Penrose على سبيل المثال، من جامعة أكسفورد، أن تكون الجاذبية هي المسؤولة عن حالة انتقالية من الفيزياء الكمومية إلى الفيزياء الكلاسيكية فيما يتعلق بأجسام أكبر من ٢٠ ميكروغرام. أمَّا جيانكارلو غيراردي Giancarlo Ghirardi وتوماسو ويبر Tomaso Weber من جامعة تريستا، مع ألبرتو ريميني Alberto Rimini من جامعة بافيا، فكان رأيهم أن الجسيمات كثيرة العدد تعتمد مباشرة وآنياً سلوكاً كلاسيكياً.

على أية حال لم يستطع العلماء في الحالتين تقديم تفسير واضح لحدود ما بين العالمين الكمومي والجهاري. وتأتي الاكتشافات الحديثة لتؤكد أن فضاء العالم الكمومي لا ينحصر فقط في إطار الجسيمات الدقيقة.

حدود قابلة للإزالة

فكما رأينا، تشير تجارب كثيرة بالأحرى إلى أن الحدود بين العالم الكلاسيكي الجهاري والعالم الكمومي الصغائري لم تعد حدوداً جوهرية، وهناك ما يكفي من الوقائع التجريبية الحاذقة لإزالة هذه الحدود كلياً. إنَّ عدداً قليلاً جدّاً من الفيزيائيين يرى اليوم أنَّ الفيزياء الكلاسيكية تفرض نفسها بالفعل على مستويات معينة أياً كانت. بل على العكس تماماً، فإنَّ الشعور العام لدى غالبية الفيزيائيين هو أنَّه لو جاءت نظرية أكثر فعالية لتحل محل النظرية الكمومية فإنَّها ستبين أن العالم أكثر تعارضاً مع ما هو بديهي في تصورنا أو فهمنا الكلاسيكي من كل مارأيناه حتى الآن حول العالم الجهاري.

وبالتالي، فإنَّ حقيقة أن النظرية الكمومية تطبق على المستويات كافة بما فيها الجهارية أمر يجبرنا على مواجهة التساؤلات التي يطرحها تفسير هذه النظرية نفسها. فنحن لم نعد نستطيع حصرها في مجرد تفاصيل لا تعني سوى التجارب على مستوى الجسيمات الأولية. وعلى سبيل

المثال، فـإنَّ المكان والزمـان هما مفهومان جوهريـان في الفيزيـاء، لكنهمـا لا يلعبان في الفيزيـاء الكموميـة سـوى دور ثانوي. فالتشابك هو الظاهرة الكمومية الأساسية. وهي تربط بين منظومات بلا مراجع مكانية أو زمانية. فإذا كان هناك فعلا حدود يجب رسمها بـين العالمين الكمومي والكلاسيكي، فيمكن الاعتماد على الإطار الزماني المكاني الكلاسيكـي لكي نزود النظريـة الكمومية بإطار مماثـل. ومن دون هـذا التحديد - وخاصة لأنَّ العـالم الكلاسيكي غير موجود أصلاً- فإننا لا نعود بحاجة إلى هذا الإطار. بل يكون علينـا بالأحرى البحث عن تفسير للمكان والزمان كظاهرتين تنبثقان بطريقة أو بأخرى من فيزياء أكثر جوهرية خالية من الإطار الزمكاني.

ربمـا تساعدنا هذه الفكـرة لاحقاً في التوفيـق والجمع بـين الفيزيـاء الكمومية والنظريـة النسبية العامـة لآينشتاين، التي تصـف الثقالـة وفق مصطلحـات هندسة الزمـكان. وتفترض النسبيـة العامـة أنَّ للأجسـام مواضع محددة تمامـاً ولا تكون أبـداً في أكثر من موضع في آن واحد، الأمر الذي يتعارض مع الفيزياء الكمومية. ويرى فيزيائيـون كثـيرون اليـوم ومنهـم ستيفن هوكنغمن جامعة كامبردج أنَّ نظرية النسبية يجب أن تخلـي الساحة لنظرية أعمق منها لا يكـون ثمة مكان فيها للمـكان والزمان. فالزمـكان الكلاسيكـي سينشـأ في هـذه النظرية الجديدة عن تشابكات كمومية عبر صيرورة فك الترابط.

إنَّ التطبيقـات التـي يمكـن أن تنشـأ عن واقـع أنَّ أجساماً جهاريـة تسلك وفق القفزات الكمومية هي تطبيقات تصل حد الهلوسـة في مفهمونـا الكلاسيكي، بحيث تضع الفيزيائيين أنفسهـم في حالة معقدة من التشويش والدهشة...

نحو علم جديد أم نظرية جديدة؟

التركيـب الضوئي، النشـاط الإنزيمي، بنى الحموضـ الريبية النووية، آليات الشم وحس الاتجاه لدى الطيور المهاجرة، بل وأسس تطور الحياة وبقائها... لعلَّ على البيولوجيا أن تواجه اليوم ثـورة في المفاهيم الكمومية في عقـر دارهـا. ولا بد بالتـالي من طرح السؤال حول نتائج مثل هذا «التشابك». هل نرى في ذلك علامة، بعد سيادة طويلة لعلوم البيوكيمياء، علـى تغيير جذري في المفاهيم والأفـكار يمكن أن يقود مجمـل البيولوجيا إلى عـالم الميكانيك الكمومي؟ أم أنَّ الأمر لا يتعلـق سوى ببعض مظاهـر الكائن الحي، الهامة بالتأكيد، إنَّما المحلية وفق المصطلح الفلكي؟

الأمـر المؤكد هـو أنَّ مجموعات بحثية

وفرقاً من العلماء في مخابر الأبحاث والجامعات قد انطلقوا منذ بضع سنوات في أبحاث المغامرة التي باتت تعرف بالـ«حيوية الكمومية» (bioquantique). يقول ماركوس أرندت: «لا يمكننا حتى الآن الحديث عن علم جديد أو مجتمع علمي جديد، لكن الواقع بات يفرض نفسه، إذ إنَّ العديد من العلماء المعروفين ينضمون يوماً بعد يوم لدراسة الظاهرات الكمومية في الصيرورة البيولوجية». ويدل على ذلك تضاعف المؤتمرات الدولية العلمية خلال السنوات الأخيرة حول هذا الموضوع.

ويقول أليكس شين Alex Chin من معهد الفيزياء النظرية في جامعة أولم بألمانيا: «بدأ انتشار هذا الموضوع في عام ٢٠٠٧م مع نشر بحث غراهام فلمنغ Graham Fleming حول رصد ظاهرات كمومية مرتبطة بالتركيب الضوئي لدى النباتات». وكان لنشر هذا الموضوع أثره المباشر على الصناعة حيث استفاد منه مباشرة صانعو ألواح الطاقة الشمسية! وتؤكد إليزابيث ريبر Elisabeth Rieper من مركز التكنولوجيا الكمومية في سنغافورة: «لقد نجم عن انتشار البحوث الحيوية- الكمومية مقاربة متعددة الاختصاصات ذات غنى كبير نتوقع له أن ينتج اكتشافات وأفكاراً جديدة».

والحقيقة أن الأبحاث الجديدة تعيد طرح أفكار قديمة، لأنَّ اللقاء بين العالمين البيولوجي والكمومي كان مطروحاً خلال القرن العشرين. وكانت هناك محاولات جادة لسبر بعض المفاهيم التي يمكن إيرادها تحت مسميات «الطاقة الحيوية» أو التخاطر أو حتى الوعي. لكن هذه المقاربات المبكرة تركت خوفاً لدى العلماء في تلك الآونة من المزج بين المناحي السرانية والعلم.

كان أربعة فيزيائيين معروفين قد حاولوا المزاوجة في القرن الماضي بين البيولوجيا والفيزياء الكمومية. وأولهم كان نيلز بور. وكان طرحه أشبه باستعادة غريبة في ثلاثينيات القرن العشرين لأفكار كانت معروفة في القرن التاسع عشر حول «الطاقة الحيوية» كان العلماء ينسبونها آنذاك للمادة الحية مقابل المادة العطالية، فكان نيلز بور يقارن العلاقة بين الجسم والروح مع ثنوية الجسيم- الموجة المميزة للعالم اللامتناهي في الصغر.

ثم جاء النظري السويسري يورغفروليش JurgFrohlich الذي اقترح في عام ١٩٦٨م أنَّ نمط اهتزازات الأغشية في الخلايا يمكن أن يكون مرتبطاً بظاهرات كمومية مشابهة لطرح آينشتاين- بور حول الحالة الحدية للمادة حيث تصبح الجسيمات كافة غير قابلة للتمييز فيما بينها.

بعد نحو عشرين سنة، أكد الحائز على

جائزة نوبل للفيزياء بريان دافيد جوزفسون Brian David Josephson أنه على غرار الجسيمات المتشابكة، يمكن لمتعضيتين منفصلتين مكانياً أن يكون بينهما اتصالات «داخلية» متبادلة، ومن هنا كان اعتقاده بالتخاطر. وفي السنة التالية اقترح الرياضي والفيزيائي الشهير روجر بنروز Roger Penrose أنَّ اللاتحديدية الكمومية يمكن أن تفسر انبثاق الوعي الإنساني والمسار الحر، مع تلمسه في الوقت نفسه لوجود تكاثفات مادية مماثلة في قلب العصبونات تشبه تلك التي ذكرها فروليش.

ويعلق على هذا التاريخ الفيزيائي نيكولاس جيزان Nicolas Gisin بالقول إن شهرة هؤلاء العلماء لم تمنح لآرائهم هذه مصداقية كافية بحيث لم تعتبر من العلم. حتى استطاع فريق أسترالي في عام ٢٠٠٩م البرهان أن تكاثفاً للمادة وفق فروليش إذا وجد لا يمكن أن يتشكل سوى في درجة حرارة تتراوح بين ١٠٠٠٠٠ و١٠ مليون درجة.

وفيما يتعلق بالتخاطر، فلم تنجح أي تجربة علمية حتى الآن في إثبات وجوده. أمَّا بالنسبة للقوة الحيوية، فقد تجاوزتها البيوكيمياء بكثير. بل إن الظهور الحديث للفيزياء الكمومية في معادلات الحياة يذكرنا بأن المادة الحية كما المادة العطالية تتألفان من الجوهر نفسه.

أمَّا اليوم فقد تغيرت المفاهيم، وأصبحت علوم الحياة أكثر نضجاً لتقبل الميكانيك الكمومي في مبادئ الحياة نفسها. يقول ألكسيسغرينبوم AlexeiGrinbaum من مخبر الأبحاث حول علوم المادة في Saclay: «يتأتى الاختلاف الكبير اليوم من أن الأبحاث حول الروابط بين الكائن الحي والميكانيك الكمومي يقودها التطور الأداتي، الذي يسمح برصد الجزيئات وما دون الجزيئات». فلم تعد هذه الأفكار ترتكز على الحدس أو التوقع. بل يؤكد ألكسيس شين قائلاً:

«لقد بات لدينا اليوم نماذج نظرية تسمح بالقيام بتنبؤات كمومية قابلة للاختبار والرصد». وباختصار، يمكن القول إن البيولوجيا الكمومية أصبحت منهجاً علمياً بكل ماتعنيه الكلمة من معنى.

علينا من جهة أخرى أن ندرك مدى اتساع هذه الظاهرة. ففي حين تزداد التجارب التي تكشف عن رسوخ الميكانيك الكمومي في البيولوجيا، فإن هذه الأخيرة مدعوة للاستجابة على المدى الطويل ربما للأفكار والمبادئ الكمومية، أم أن ذلك كله لا يمس سوى بعض الظاهرات الاستثنائية في علوم الحياة؟

يرى بول ديفيس Paul Davies من جامعة أريزونا «أنه لا يزال من المبكر أن نعرف إذا كانت الحياة تستثمر فعلاً بعض

القوانين الكمومية هنا وهناك، أم على العكس إذا كانت الفيزياء الكمومية تلعب دوراً مركزياً في الكائن الحي». مع ذلك يتفق الفيزيائيون عموماً على ضرورة المضي قدماً في هذه التجارب.

أمَّا نيكولاس جيزان الأخصائي بالميكانيك الكمومي فيتساءل: «إذا توصلنا مثلاً إلى التأكيد بشكل نهائي أن التركيب الضوئي يستخدم خصائص كمومية،، فذلك سوف يكون هاماً جدّاً في مسيرة العلم. وسيكون من المدهش أن تظل مثل هذه المشاهدة أمراً معزولاً وسط التقدم العلمي وتفسيره. ولهذا قد يكون من المهم تصور إدخال مناهج الميكانيك الكمومي على طلاب دراسات البيولوجيا المتقدمة التي لا تزال حتى الآن علما جهاريا كلاسيكيا. وبعبارة أخرى، إنَّها دعوة لفتح النموذج paradigme العلمي للبيولوجيا على مناحٍ وأنماط جديدة».

يبقى إذاً إقناع الأخصائيين بالكائن الحي بضرورة وفائدة هذا التطور العلمي. لأنه إذا جمعت البيولوجيا الكمومية حتى الآن الكيميائيين والبيوفيزيائيين والفيزيائيين الكموميين، فلابد من الاعتراف أنَّ البيولوجيين هم الغائبون الكبار عن هذه الساحة وعن هذا المجتمع العلمي الوليد. والسبب ليس فقط تأهيلهم الذي يبعدهم عن العالم الكمومي. يرى ميشيل مورانج Michel Morange مدير مركز كافاي لتاريخ وفلسفة العلوم في المدرسة العليا في باريس أسباباً أعمق لهذا الابتعاد:

«إنني أعترض على فكرة أن يكون الميكانيك الكمومي هو مفتاح كل ما لا نفهمه في البيولوجيا. ويمثل هذا الموقف نوعا من التقليصية... ومن المهم الإشارة إلى أن إرفينشرودنغر كان في الثلاثينيات من القرن الماضي أحد أئمة الميكانيك الكمومي وكان يعارض هذا الميل للجمع بين العلمين».

مع ذلك يضيف هذا البيولوجي:

«لا شك أن الميكانيك الكمومي يستطيع أن يساعد في فهم بعض جوانب الظاهرات البيولوجية. ولهذا فإنَّ هذه الأبحاث هامة جدّاً». أمَّا دافيد هولكمان من قسم البيولوجيا في المدرسة العليا في باريس، والأخصائي في النمذجات الرياضية في البيولوجيا، فهو أكثر تحفظاً:

«إنَّ البيولوجيا هي عبارة عن وحش خرافي، والميكانيك الكمومي فيها ليس أكثر من إبرة صغيرة يمكن استخدامه لتفسير بعض الجوانب الخاصة منها». لكن هذه التحفظات البيولوجية لا تمنع أن تأكيدات تجريبية هامة تحققت خلال السنوات الأخيرة. وأصبح يوجد للمرة الأولى براهين موثوقة تجعلنا نعتقد بأن الميكانيك الغريب

الــذي أسســه هايزنبرغوشرودنغــر يساهم مباشرة في وظائف الكائن الحي.

أمَّا من حيث الجوهر، فلا بد من القول إنه ليس ثمة ما هو غريب في فكرة أن تستطيع الحياة إيجــاد المزايا في تحريض صيرورات كمومية. تقــول إليزابيث ريبر: «بينت نتائج كثيرة خلال السنوات العشرين الأخيرة فيما يتعلــق بالمعلومات الكمومية أنه من الأفضل في مواضع كثيرة التعامل مع حالات كمومية بالأحرى من حــالات كلاسيكية. وبالنتيجة سيكون من المدهش ألا يستفيد منها الكائن الحي الذي قضى مليارات السنين في تطوير وتحسين صيروراته وتفاعلاته». وتوضح ذلك جوديث كلينمان من بركلي قائلة:

«أعتقد ببساطة أن الكائن الحي يستخدم الخصائص الفيزيائية الممكنة كافة من أجل تحسين وظيفة ما». ولِمَ لا تكون هذه الخصائص مــن الميكانيك الكمومــي... وكيف يمكن أن يكون قد فات التطــور وسعته المدهشة هذه الإمكانية الهائلة ولم يستفد منها؟

مع ذلك هناك تحديات كثيرة. والمشكلة أنَّ الفيزيائيين أنفسهم لم ينجحوا حتى الآن في ضبــط هذه الهندســة الكمومية تماماً. ومع أنَّهم تعلموا كيف يخلقون حالات مادية في حــالات مختلفــة، لكنهم يعــون بالمقابل هشاشتهم خاصة مع تغير الظروف المناسبة التي يضعونها لنجاح تجاربهم.

فعندما ترتفــع درجات الحرارة مثلا أو تصبح التفاعلات مــع الوسط المحيط أكثر فأكثر كثافــة، يصبح مــن الصعب التحكم بنتائج التجربــة الكمومية. والحياة لا تتفق جيداً مــع درجة حرارة قريبــة من الصفر المطلق. في حــين أن المنظومات البيولوجية نادراً ما تكون معزولة عن محيطها، بل على العكس تماماً.

هذا إضافة إلى أنَّ الأخصائيين لا يعرفون بعد كيف يمكن لصيرورات كمومية أن تستمر لأكثر من عدة نانوثانية وعلى مسافات أكثر مــن بضعة نانومــتر في الكائن الحي. كيف يمكن لظاهرات محدودة نظرياً على مستوى الجسيمات أن تظهر على مستوى الجزيئات، بل وعلى المستوى الجهاري؟ كلنا يعرف أننا لا نستطيــع الذهاب إلى العمــل بالمشي في كل الطرقــات المؤدية إليــه في آن واحد من أجــل الوصول في الوقــت المناسب، في حين أنَّ هذه الميــزة في تراكب الحالات لا تطرح أي إشكال على مستــوى الجسيمات. فبأية طريقة عجائبية نجحت الطبيعة في تطوير هندسة كمومية بهذه الفعالية؟

تظــل هــذه الأسئلة مفتوحــة. وتوحي دراسات حديثة أنَّ آليات تفاعل مع المحيط يمكن في بعض التصورات الدقيقة أن تحفظ حالــة كمومية من الانهيــار. إنَّ المنظومات

البيولوجيـــة تكون غالبا ضمن شروط بعيدة عـــن التـــوازن الترموديناميكـــي، لأنَّ ذلك يسمح لها بتبادل المادة والطاقة مع المحيط. ويمكن لهـــذه الشروط أن تسمـــح أيضا أن تبرد حجوماً دقيقة في قلب المتعضية، حيث يمكن لصيرورات بيولوجية كمومية أن تنشأ بسهولة. وهو ما يمكن أن يعطي للفيزيائيين طرقا جديدة لاستثمار العجائب الكمومية. بل ويفتـــح ذلك الباب للدهشة بشكل خاص أمام حـــذق الطبيعة القـــادرة على استثمار مصـــادر العالم كافة، حتـــى في أدق حالاتها وأكثرها غرابة!

الهوامش

1- Théorie quantique et échelles macroscopiques, Adapté du Bulletin de l'Union des Physiciens JMLL,août 2009.

2- Jean-Marc Lévy-Leblond & Françoise Balibar, Quantique (Rudiments), Masson, 1997 ; chapitre 1,«Le domaine quantique».

المراجع

- Disproof of Bell's Theorem; Clifford Algebra Valued Local Variables
- Par Joy Christian (Perimeter and Oxford) http://www.arxiv.org/abs/quant-ph/0703179/
- Decoding Reality: The Universe as Quantum Information. VlatkoVedral. Oxford UniversityPress, 2010.
- Entangled Quantum State of Magnetic Dipoles. S. Ghosh et al. in Nature, Vol. 4254, pages 4851-; September 4, 2003. Preprint available at arxiv.org/abs/cond-mat/0402456.
- Entanglement in Many-Body Systems. Luigi Amico, Rosario Fazio, Andreas Osterloh and VlatkoVedral in Reviews of Modem Physics, Vol. 80, No. 2, Pages 517576-; May 6, 2008.
- Le monde quantique; Les Dossiers de la Recherche, N° 29, Novembre 2007
- Michaël Brooks, Reality Check, NewScientist 23 juin 2007 p. 30.
- «L'étoffe de la réalité Cassini», David Deutsch; 2003. Traductionfrançaise de The Fabric of Reality, 1997.
- «Observing the progressive decoherence of the meter in a quantum measurement», M. Brune, E. Hagley, J. Dreyer, X. Maître, A. Maali, C. Wunderlich, J.M. Raimond et S. Haroche,Phys. Rev. (1996).

يوم التبدل في منهجية التفكير العلمي

❁
إبراهيم سلوم

يُعدّ اليوم العاشر من أيلول ٢٠٠٨م يوماً مشهوداً على صعيد البحث العلمي. ففي ذلك اليوم صفّق ٩٠٠٠ عالم فيزيائي يمثلون ٣٣ دولة من مختلف أنحاء العالم ويعملون في المركز الأوروبي للأبحاث النووية (سيرن) الذي يتخذ من مدينة جنيف مقراً له ابتهاجاً لنجاح أوّل تجربة علمية لفهْم كيفية نشوء الكون. وقد تمت هذه التجربة من خلال إطلاق حزمة من ملايين البروتونات ضمن جهاز دائري

❁ مترجم وباحث سوري.

مخصص لتصادم البروتونات ببعضها بعضاً يدعى (هيدرون) الموضوع على عمق ١٠٠م تحت الأرض وبطول ٢٧كم على جانبي الحدود السويسرية الفرنسية وذلك في أكبر محاولة من نوعها لمحاكاة الظروف التي ارتبطت «بالانفجار الكبير» (Big Bang) الذي يقول العلماء، وعلى رأسهم العالم الفرنسي سيمون لابلاس (١٧٤٩-١٨٢٧م)، بأنه هو الذي قاد منذ قرابة ١٤ مليار سنة إلى نشوء الكون. وخلال هذه التجربة تمكنت البروتونات من قطع المسافة الممتدة على طول الجهاز الصادم للبروتونات (هيدرون)، ووصلت إلى النقطة النهائية المحددة لها بسرعة توازي سرعة الضوء، أي بحدود ٣٠٠ ألف كم/ثا. وهكذا أتيحت الفرصة أمام العلماء كي يتفرجوا على قلب الانفجارات الكبيرة الناجمة عن تصادم البروتونات على شاشة أحد أجهزة الكمبيوتر ومن ثم تسجيل البيانات المتأتية من هذه التجربة على أمل معرفة كيف كانت المادة عند بداية الكون.

في الواقع، لقد مرّ تاريخ طويل على البشرية وهي تبحث عن أسرار المجموعة الشمسية ومعرفة كيف تكونت الحياة. ولقد قال يوماً رئيس الوزراء الفرنسي الأسبق فرانسوا فييون في العام ٢٠٠٨م: «إنَّ كبار الفلاسفة وكبار المتصوفين وكبار الشعراء لم يتوقفوا أبداً عن التأمل في أسرار المادة، وسرّ خلق العالم الذي نعيش فيه، وهما مسألتان متشابكتان لم يتوقف البشر عن الافتتان بهما».

وتتابعت العلوم وتعددت النظريات بتعدد الحضارات في هذا الاتجاه. وعلى الرغم من الدرجة التي بلغها التقدم العلمي لا يزال موضوع نشأة الكون في حيّز النظريات التي لم تصل بعد إلى مرحلة اليقين، ومؤخراً بدأ العلماء يعكفون على دراسة نظرية العالم الفرنسي «سيمون لابلاس» (١٧٤٩-١٨٢٧م) التي سطّرها في كتابه الشهير «النظام الكوني» ويتفحصون مضامينها. والجدير بالذكر إنَّ هذا الكتاب كان قد نال اهتمام الإمبراطور نابليون بونابرت، ما دفعه إلى أن يدعو المؤلف إلى مكتبه للتباحث معه بشأن هذه النظرية في نشوء الكون، التي تنص على أنَّ المنظومة الشمسية تولدت منذ قرابة ١٤ مليار سنة من كرة دائرية سديمية ملتهبة، ثم انفجرت بشكل هائل إلى ذرات من الأجسام الملتهبة التي تكونت منها الأرض وسائر الكواكب. وخلال اللقاء قدّم لابلاس كتابه هذا إلى الإمبراطور كهدية له. وفيه يرى أنَّ الكون كان في البدء كرة سديمية شديدة الكثافة، ملتهبة وحارة جدّاً. ثم دارت هذه الكرة الحارة عبثاً في الفضاء عصوراً لا تُعد ولا تُحصى حتى انفجرت بشكل كبير إلى ذرات من الأجسام الملتهبة التي

نسميها نجوماً، ثـم بدأت تتقولب فخرجت منهـا الكواكب وبردت. ومـا الشمس سوى نجم من تلك النجوم المشعة. بعض من هذه النجوم حدث فيها عامـل التجمد فتكونت منها الأرض وسائـر الكواكب السيارة. وفي فـترةٍ زمنية لاحقة امتـدت الأصقاع البرية على كوكـب الأرض، وتجمعـت البحار في مقراتهـا، وتغضّن وجـه الأرضـ فأصبح جبـالاً شامخـة ومهاوي عميقـةً. ومن كتل الغيوم السوداء هطلت أمطار غزيرة فغمرت قشـرة الأرض المائعة حيـث انطلقت نطفة الحيـاة في عروقها دافعةً جارفـةً بالحياة بفضل القوة الديناميكية التي ترسلها أشعة الشمس. وهذه النطفة بدأت بمخلوق واحد هو الخليـة الواحدة التـي تسبح في البرك والمستنقعات مثـل الأميبيا، لا يعرف الموت كما نعرفـه. وكان الموت لا يدركه إلا بوقوع حادثـة خارجية: يجـفّ المستنقع أو يلتهمه مخلـوق أكبر منـه أو تنزل عليـه صاعقة. لقـد كان مسلحاً ضد المـوت، وكان ينمو لا ليشيخ ويهرم بل إلى طفولة جديدة، فينقسم عندمـا يبلغ غاية نمـوه، ويصبح مخلوقين. وكثيراً ما كانت تتكيـس هذه الخلية بحيث لا يؤثـر فيها الحـرّ ولا الصقيع. وهذا ما نصادفـه اليـوم في أكياسـ الأميبيا ضمن مخابـر التحاليل الطبيـة. (ولقد عُثر على مثل هذه الخلية في أواخر القرن الفائت في القطـب الشمالي التي تعود إلى أكثر من ١٢ ألف سنة، وتمكن العلماء من زرعها ومن ثم إعادتهـا إلى الحياة). ثم أخذت هذه الخلية تتطـور وتنقسم على ذاتهـا، وبدأ ما يسمى بالكائـن المتعدد الخلايا، وكانت منها خلايا مختصة بالبراز، وأخرى مختصة بالهضم. ثم حدثت نقطة التحول بظهور أعضاء تناسلية أي حاملـة لبذور الحيـاة، وحدث بالضبط التكاثر.

ومنـذ ذلـك الحين بـدأ المـوت يغتال الكائنات الحية الراقية ويصيبها بالشيخوخة والذبول، كما يحدث في مملكة النحل حيث تموت الذكور بعد تلقيح الملكات.

إذن، فالحياة بدأت بخلية واحدة، وهذا الكائن الحـي له توجهاته التلقائية للحفاظ على بقائه، فهو يسبح ضد التيار، وفي النبات يصعد فـوق الجاذبية، وفي الطيور يطير في الهواء، وفي الأسماك يغوص في الماء، أي إنه يتلون ليتلاءم مع الوسط. ومن هذه الكائنات الحية تسلسـل الإنسان والحيـوان معاً في فـترة لاحقة. مع التأكيد على أن الحيوانات المختلفة الشكل تنحدر كلها من أصل واحد: فتطـورت الأرجل والزعانـف عندها حين نزلت إلى البحر فأصبحت أسماكاً، والأذرع إلى أجنحة حين حاولت غزو الجو.

ولقـد وُجـد في الثعبان أرجـل ضامرة مختفية في هيكله العظمـي، بدليل أنَّه جاء

من سلالة تمشي على أربع أرجل. مع التنويه إلى أنَّ عدد أصابع اليد في القرد وفي الإنسان وفي الفئران هي خمسة، وأنَّ فترة الحمل عند القرود /٩/ أشهر، وفي الحيتان أيضاً، وأنَّ الرضاعة لجمعيهم تدوم سنتين.

وفي الإنسان وُجدت فقرات الذيل كما في القرود لكنها التحمت بعدما فقدت وظيفتها، مثلها مثل الزائدة الدودية التي لها فائدة جمة عند الأرنب الذي يأكل الحشائش لأنها تقوم بعملية هضم البرسيم وتحوّله إلى سكر أي تحول اليخضور إلى الغلوكوز.

وعندما أقلع الإنسان عن أكل الحشائش وأصبح آكل لحوم بامتياز ضمرت الزائدة الدودية لديه وأصبحت بقية منقرضة. أمَّا كيف نشأت هذه الخلية؟ فهناك احتمال أن تكون المذنبات هي التي شكلت الماء على الأرض، فتكونت الحياة البحرية، وأنَّ الأجسام الغازية الصادرة عنها هي التي نشرت الجزيئات العضوية في الأرض. ومع الزمن الطويل تحولت هذه الجزيئات إلى أوّل كائن عضوي هو الخلية الحية، ما يدل على أن المذنبات هي التي نقلت بذور الحياة إلى الأرض.

وفي عصرنا الحاضر يعتقد عالم الفلك الأمريكي المعاصر «كارل ساغان» (١٩٣٤م) بصحة هذا الاحتمال ويقول: «إننا خُلقنا جميعاً من بقايا النجوم، ذلك أنَّ النجم يتألف أصلاً من غازات متكاثفة، حيث يمثل غاز الهيدروجين القسم الأعظم والأكبر منها، وهو الذي يمكن أن يتحوّل إلى مركَّبات كيميائية أكثر تعقيداً وتطوراً إذا ما وُضع في شروطٍ مناسبة من حرارة وضغط، وبالتالي إلى مرحلة الأشكال الحياتية المختلفة التي نراها في عالمنا الأرضي، والتي تتألف أساساً من الخلية الحية. وهذه الخلية تتوزع مع بقية الخلايا الأخرى مسؤوليات العمل: فمنها ما يهتم بجمع الغذاء، ومنها ما يقوم بتمثيله، ومنها ما يطرحه خارج الجسم».

وبعد دراسة عميقة لنظرية لابلاس تبين لهؤلاء العلماء أنَّ هذه النظرية المسماة (الانفجار الكبير) هي أقرب النظريات رجاحةً بالمقارنة مع النظريات الأخرى لتكوّن النظام الشمسي. فقد اعتبرها الفيلسوف الإنكليزي برتراند راسل (١٨٢٧-١٩٧٠م) من أصحّ النظريات العلمية التي تحدثت عن نشوء الكون لا بل أكثرها مطابقة للحسابات الرياضية والدراسات الفيزيائية والأقرب افتراضياً إلى ما حدث بالفعل منذ ١٤ مليار سنة. وكان قد سبقه إلى ذلك العالم البلجيكي والكاهن جورج لوميتر (١٨٩٤-١٩٦٦م) الذي قام بصياغة أفكاره العلمية استناداً إلى نظرية لابلاس والأخذ بكل تفاصيلها الدقيقة.

وهكذا لما أصبحت نظرية «الانفجار

الكبير» موضع قبول مـن قبل معظم علماء عصرنا فقد حاول هـؤلاء الوصول بها إلى مرحلـة اليقـين العلمي. وكانـت البدايات الأولى حـين التقى ٩٠٠٠ عـالم من مختلف أصقاع العالم في مدينة جنيف السويسرية في أواخـر أعوام الثمانينيات من القرن الفائت وقـرروا إنشاء ما يُسمـى «بالمركز الأوروبي للأبحـاث النووية» (سـيرن) وذلك من أجل مواصلـة أبحاثهـم العلميـة وإنجاز تجربة تحاكـي «الانفجار الكبير» الذي تحدث عنه لابلاس.

وقد أجمع هؤلاء على فكرة أن مثل هذه التجربة العملاقة تتطلب إجراء تصادم بين البروتونـات، ممـا قد يساعـد على تقديم المفاتيـح لفَهْـم ما حصل خـلال الانفجار الكبـير. ومنذ ذلـك الحين تولـدت لديهم فكـرة إنشاء جهاز يتم في طوقه تصادم بين البروتونـات. إلا أن هذه الفكـرة لم تتجسد إلا في مطلـع العـام ١٩٩٦م حـين رصدوا ميزانيـة مالية قدرت أولاً بـ١،٣ مليار دولار أمريكي. ولكـنْ بعد أن قطع المشروع شوطاً واسعاً ازدادت التكاليف حتى وصلت إلى ١٠ مليـارات دولار في عـام ٢٠٠٨م، وهو العام الـذي شهـد ولادة أضخم جهـاز تصادمي للبروتونات الذي يشهده الإنسان.

والجهاز المذكور هو عبارة عن آلة جبارة لم يسبـق للإنسـان أن بنى مثلهـا بحيث أن استهلاكهـا من الكهرباء مساوٍ لكل مقاطعة جنيـف. أمَّا طوق الألياف المعدنية الموجودة فيه والأكثر دقةً من شعرة الرأس فهي تشكل طولاً أطول من المسافة بين الشمس والأرض بـ١٠ مرات.

وبعد مرور ١٣ عامـاً انتهى العمل بهذا الجهـاز العمـلاق الـذي تمَّ وضعـه تحت الأرض على عمـق ١٠٠م بطول يبلغ ٢٧كم على جانبي الحدود السويسرية –الفرنسية. تبلـغ درجة الحرارة فيه ٢٧١،٣ درجة تحت الصفر أي أكبر بقليل من درجة الحرارة في الكون الخارجي الذي تبلـغ درجة الحرارة فيه ٢٧٠،٤° تحت الصفر. لكنْ أثناء عملية تصـادم البروتونـات وانفجارهـا في داخل الجهـاز ستصبح درجة الحـرارة أكبر بمئة ألف مرة منها في مركز الشمس. كما سيجبر مجـال مغناطيسـي في الجهاز وهـو أقوى بمئة ألف مرة من المجال المغناطيسي لأرض البروتونات علـى أن تنتظم هذه الأخيرة في مدارها وتبقى ثابتة فيه. ومن أجل ذلك تمَّ وضـع مغناطيسيات ضخمة جـدّاً وشديدة الجاذبيـة يبلغ عددها ١٦٠٠ مغناطيس من أجل منع البروتونات مـن الابتعاد عن خط الانحراف الدائـري أثناء عملية الاصطدام ببعضها بعضاً.

وبعد أن اكتمل بناء هذا المشروع العملاق حانـت ساعة الصفـر. وكان ذلك في اليوم

العاشر من أيلول ٢٠٠٨م. ففي ذلك اليوم شغّل العلماء جهاز تصادم البروتونات حوالي الساعة السابعة والنصف صباحاً بتوقيت غرينتش، وضخوا أوَّل حزمة من البروتونات في طوقه البالغ طوله ٢٧كم. وبعد انتظار دام حوالي خمس ثوان فقط حصلوا على المعطيات التالية، أولاً: كَشَفَ ضوء على شاشة أحد أجهزة الكومبيوتر أن الحزمة دخلت فعلاً في الجزء الأوّل من الطوق. ثانياً: التمعت نقطتان على الشاشة نفسها للدلالة على أن البروتونات تمكنت من قطع المسافة الكاملة الممتدة على طول الجهاز ووصلت إلى نقطة النهاية المحددة، وذلك حين حلّقت ملايين البروتونات في فضاء هذا الطوق الدائري فحققت بذلك الهدف الرئيس للعلماء.

وعلى الفور امتلأت أرض قاعات مبنى المركز الأوروبي للأبحاث النووية بالسدادات الفلينية لقناني الشمبانيا ابتهاجاً بهذه المناسبة الثمينة التي يجب شرب نخبها بكل نشوة. لقد كانت لحظة عظيمة. حيث كانت غرفة المراقبة مزدحمة بالعلماء الذين أخذوا بالتصفيق، وأكثرهم من الولايات المتحدة الأمريكية ودول الاتحاد الأوروبي ومن الهند، واليابان، وروسيا، وتركيا، والسعودية، ولكن تحت إدارة أوروبية يشرف عليها العالم الفرنسي روبير إيمار. ومباشرةً سجلت أجهزة الكومبيوتر تفاصيل هذه التجربة، وقام ٩٠٠٠ عالم بتحليل كافة المعطيات التي شاهدوها والمعلومات التي دونوها من أجل وضع نظرية لابلاس (الانفجار الكبير) موضع التطبيق.

وضمن هذا السياق يقول مدير المركز العالم الفرنسي روبير إيمار: «لقد صفّق الجميع حتى في الولايات المتحدة الأمريكية عندما قام مئات العلماء بالرقص في شيكاغو وهم في البيجاما في مخبر الجزيئات بمدينة شيكاغو الأمريكية، وذلك بعد أن شاهدوا على شاشة الحواسب الإلكترونية «الانفجار الكبير» الذي حصل في يوم ٢٠٠٨/٩/١٠م تحت بحيرة «ليمان» على الحدود السويسرية -الفرنسية، والذي كان ناجماً عن ضخّ أعلى حزمة من البروتونات في طوق أكبر جهاز صادم للبروتونات في العالم ومن ثم تسريعها في اتجاه واحد. وبهذا يكون قد تحقق الهدف الأوَّل من هذه التجربة الرائدة. أما الهدف الثاني فسيكون في ضخ حزمة ثانية من البروتونات في الاتجاه المعاكس بحيث يتم التصادم فيما بينهما بطاقة قدرها ٤٥٠ غيغا إلكترون فولت، وبسرعةٍ تقارب سرعة الضوء، وهذا ما سيحصل في يوم ٢٠٠٨/١٠/٢١م، أي بعد مرور أكثر من شهر على التجربة الأولى. وهذه التجربة التي ستحصل عمّا قريب وهي جدّ ضرورية لأنَّها

ستساعدنا على اكتشاف جزيئات إضافية ناجمة عن عملية تصادم البروتونات، والتي لم ترصدها بعد البشرية مثل: جزيئة «هيغز»، وجزيئة «الثقوب السوداء». ومن المعلوم أنَّ جزيئة هيغز (نسبةً إلى عالم الفيزياء البريطاني بيتر هيغز) هي الحلقة المفقودة في نموذج الجزيئات التي تتألف منها المادة، والتي فُقدت أثناء الانفجار الكبير الذي حصل منذ ١٤ مليار سنة. وتنبع أهمية هذه الجزيئة من كونها المسؤولة عن منح الكثافة أو الكتلة للمادة، ومن دونها سيصبح الكون فوضى وبلا أي نظام حيث تتطاير جميع أجزائه بسرعة مقاربة لسرعة الضوء.

ومن دون هذه الكتلة لم يكن يتسنى للنجوم والكواكب في الكون التشكل على الإطلاق، كما ولا يمكن مطلقاً أن تبدأ الحياة على الأرض. وعلى هذا النحو لا يكتمل تصور العلماء عن بناء المادة من دون اكتشاف هذه الجزيئة المفقودة، ونحن نأمل في مركز (سيرن) أن تفتح لنا هذه التجربة التي ستحدث في ٢١/١٠/٢٠٠٨م احتمال العثور على هذه الجزيئة، وهو احتمال كبير نسبياً بعد أن يتم التصادم الجبهوي بين البروتونات في جهاز التصادم (هادرون).

كما ستفسح لنا هذه التجربة المرجوة اكتشاف جزيئة أخرى هي «الثقوب السوداء» التي تمتلك قوة جاذبية هائلة بحيث تبلع كل ما حولها من مادة وكل ما يقترب منها في هذا الكون، حتى الضوء نفسه لا يستطيع الإفلات من جاذبيتها. وهناك من العلماء ما أطلق على هذه الثقوب السوداء تسمية «المقبرة الكونية» لكل نجم أو كوكب فَقَد وظيفته من حيث الدوران حول محوره أو حول الكواكب الأخرى فَهَرِم وشاخ ودُفن في هذه الثقوب السوداء التي يوجد أحدها في مجرتنا ونطلق عليه اسم «درب التبانة» الذي تشكل على أثر وقوع الانفجار الكوني الكبير.

كما تفتح لنا هذه التجربة باباً لمعرفة «المادة السوداء» الغامضة التي يعتقد أنَّها تملأ أرجاء الكون وكأنها غمامة لا تُرى لكنها تلف الكون، وتشكل ٧٥٪ من كتلته، في حين أن المادة المرئية من الكون لا تمثل إلا نسبة ٤٪. كما ستسمح لنا هذه التجربة بمعرفة التقلبات المناخية التي تشهدها كرتنا الأرضية من أعاصير وعواصف وزلازل ليصار إلى تفادي أخطارها. وأخيراً معرفة ما يحصل من تسخين حراري بدأ يتجلى الآن في ذوبان قمم من الجبال الجليدية في قطبي الكرة الأرضية، وهي ظاهرة بدأت تثير القلق لدى العلماء نظراً لما لها من تداعيات مناخية خطرة جدّاً على عالمنا الأرضي».

وضمن هذا السياق تقول تارا شيرز

أستاذة الفيزياء الجزيئية في جامعة ليفربول: «سوف نتمكن من إمعان النظر في المادة أكثر من قبل وذلك بعد إجراء تجربة ٢٠٠٨/١٠/٢١م، وسوف ندرس على ضوئها مكونات الكون التي تتألف بحسب معرفتنا من المادة العادية المتمثلة بالمجرات والغازات والنجوم والكواكب التي تشكل نسبة ٤٪ من مجموع الكون.

أمَّا بالنسبة لباقي أجزاء الكون فتتشكل من المادة السوداء بنسبة ٢٣٪ والطاقة السوداء بنسبة ٧٣٪، ونأمل أن يقدم لنا جهاز صادم البروتونات في ذلك اليوم المفاتيح لفهم طبيعة هذه المادة السوداء الغامضة جدّاً.

إنَّ الطبيعة قد تفاجئنا وعلينا أن نكون مستعدين لكشف النقاب عن أي شيء تطرحه أمامنا».

وبدوره، أشار العالم الفيزيائي الأمريكي «ديفيد جروس» الحاصل على جائزة نوبل في الفيزياء عام ٢٠٠٤م: إلى «أن جزيئة هيغز لن تكون بالتأكيد الاكتشاف الأول الممكن معرفة كنهها فوراً. وتتوقع فرق الباحثين أن تستغرق معرفة حقيقة هذه الجزيئة نحو خمس سنوات».

طبعاً؛ لم تكن التجربة القادمة لتخلو من منغصات ومخاوف من أنَّها قد تؤدي إلى وقوع حادثة كارثية غير مقصودة. وإذا نجحت التجربة الأولى يوم ١٠ أيلول في إطلاق حزم البروتونات داخل الجهاز المسرع في اتجاه واحد، إلا أن أعصاب العلماء سوف لن تكون في حالة استرخاء في يوم ٢١ تشرين الأول حين سيحصل التصادم بين حزمة تسير داخل الجهاز، وبين أخرى تسير بالاتجاه المعاكس، وبسرعةٍ هائلة تقدر بسرعة الضوء (٣٠٠ألف كم/ثا). إذ إنه عند التصادم بين حزم هذه البروتونات ستندفع حرارة هائلة تفوق آلاف المرات قوة الشمس وحرارتها، وستصبح أنابيب الجهاز أكثر النقاط سخونةً في المجرة الكونية التي نتواجد الآن فيها.

ولعلَّ هذه الحرارة الخيالية هي التي تثير الذعر عند العلماء الذين يخشون من أن تنفلت تلك التجربة من السيطرة فتجّر ويلاتٍ لا تستطيع البشرية تحمّل نتائجها، إذ قد تحمل نهاية الكرة الأرضية وتبددها غباراً تحيطها موجات عظيمة من الطاقة فتصبح أشبه بثقب أسود.

وفي موازاة ذلك، هناك من العلماء الذين يعملون خارج مركز «سيرن» من يرى أن التصادم بين البروتونات عند طاقة كهذه قد يحدث ثقوباً سوداء مصغرة، ولربما تسقط هذه الثقوب السوداء إلى مركز الكرة الأرضية وتأخذ بامتصاص المادة ومن ثم ابتلاع الكرة الأرضية. في حين اعتقد البعض الآخر أنه ربما قد يظهر ما يشبه الأنفاق

الخُلدية التي تسمح بحركة معاكسة لسير الزمن، وبالتالي إلى فقدان الأرض لمدارها الذي تدور فيه لتصبح بعدها هائمةً على وجهها في هذا الكون الفسيح، مما سيساهم في جرّها إلى الثقوب السوداء التي تبعد عنها ٢٠ ألف سنة ضوئية ودَفْنها هناك.

واستناداً إلى هذه المخاوف قامت محكمة حقوق الإنسان في مدينة ستراسبورغ الحدودية الفرنسية، ومركز المجلس الأوروبي، والبرلمان الأوروبي بتلقي الشكاوى من مجموعة العلماء والأشخاص الذين طالبوا بفرض الحظر على تشغيل جهاز تصادم البروتونات الكبير «هادرون»، وعلى رأسهم «اوتو رويسلير» العالم الألماني المتخصص بنظرية الهيولى، الذي يؤكد على أن التجارب المخطط لها ولا سيما تجربة ٢٠٠٨/١٠/٢١م قد تؤدي إلى نشوء ثقوب سوداء تؤدي إلى نهاية الأرض ودفنها في المقبرة الكونية.

بيد أنَّ علماء الفيزياء الذين أجروا التجربة الأولى رفضوا هذه المخاوف مثل عالم الفيزياء البرتغالي نيقولا دي خروت الذي قال: «إنَّ الجهاز التصادمي الجسيمي آمن، وإنَّ أي إشارة إلى أنَّه قد يمثل خطراً على الكرة الأرضية هي محض خيال، وأنا أستبعد فكرة أن الدخول إلى العالم المجهول وصنع ثقوب سوداء ضئيلة الحجم قد يهدد بتدمير كوكب الأرض».

كما ويستبعد كبير الباحثين الروس في معهد البحث العلمي للفيزياء النووية بموسكو الدكتور أليكسندر أكينفينوف في حديث أجراه مع قناة «روسيا اليوم» حدوث مثل هذا الخوف بقوله: أمَّا فيما يتعلق بمخاوف بعض العلماء من أن هذه التجربة قد تمثل خطراً على الكرة الأرضية، فهذا مَحْض خيال لأنَّ هؤلاء يرتكزون في مخاوفهم على أنَّ الكثافة العالية للطاقة والحرارة العالية التي تنتج عن تصادم البروتونات قد تؤدي إلى تشكل ثقوب سوداء وهي من فيزياء الكون.

ولكنْ وبحسب الطريقة المتبعة فإنَّه لا توجد إمكانية لحدوث مثل هذه الأخطاء لأنَّ الثقب المجهري الأسود سيختفي تلقائياً، وأنَّه من غير الممكن أن ينمو المجال المغناطيسي في الثقب حتى يستطيع ابتلاع كوكب كامل بالشكل والمضمون».

ويقاسمه الرأي نفسه العالم الروسي «فيكتور سافرين» نائب مدير معهد البحث العلمي للفيزياء النووية بموسكو ومنسق مشروع «تصادم الذرات الكبير(هادرون)» عن الجانب الروسي في مركز (سيرن): «إنَّ الثقوب السوداء التي يُزعم أنَّها قد تظهر أثناء تشغيل هذا الجهاز ما هي إلا تجريد حسابي لا يمتّ بأية صلة إلى الثقوب السوداء الناجمة عن انهيار الشموس الكبرى.

إنَّ مثل هذه التصورات الهوجائية مرتبط بعدم فَهْم هذه الظواهر. وتنطلق من هنا تساؤلات عديدة، وقد يصعب على الرأي العام التفريق بين العالم الأكبر (الماكروي) والعالم الأصغر (الميكروي) حيث المسافات والأوقات أقل بمليارات المرات منها في العالم الأكبر.

وبطبيعة الحال تختلف قوانين وجود أجسام ما في العالم الأصغر اختلافاً بيّناً. ولذا فإن هذه الظواهر لا تؤثر أي تأثير على العالم الأكبر، وليس لها من حيث المبدأ أية صلة إلا صلة الحلول الحسابية بالثقوب السوداء والمجرة والكون.

إنَّ المعادلات نفسها تطبّق في كلتا الحالتين، ومع ذلك فإن طاقة تصادم البروتونات التي ستحدث في الجهاز ضئيلة بتقديراتنا خلافاً للأرقام المهوّلة. وحتى وجود تلك الثقوب السوداء لم يؤدِ على أية حال إلى ضرر بليغ أو أية كارثة، وذلك لوجود أجهزة مغناطيسية تحافظ على سير البروتونات وتوجهها. كما تُستخدم الكوابل عالية التوصيل المبردة حتى الصفر المطلق بوساطة الهليوم السائل.

وفي حال تسخن الهليوم بسبب ما تفقد قدرته على التوصيل العالي، ويقوم التيار بشدة هائلة بتسخين تلك الموصلات حتى بلوغ درجة الحرارة الخارقة فإنَّ الأمر قد يتسبب بطبيعة الحال في وقوع كارثة ما، ولكنْ هذا سوف لن يحدث خلال التجربة النهائية، وذلك لوقوع هذا الجهاز وطاقمه على عمق ١٠٠ متر والسيطرة الدائمة عليه باستخدام الأجهزة التقنية الخاصة. ولهذا السبب لن تحدث أية عواقب خطيرة على الناس.

ولو وقعت كارثة ما أو انفجار، لا سمح الله، فلن يتضرر أحد على نطاق شامل بل سيقتصر الخطر على الجهاز نفسه فقط».

ولقد شاءت الصدفة أنَّه في يوم ٢٠٠٨/٩/١٩م وبينما أراد العلماء إجراء اختبار نهائي لجهاز تصادم البروتونات قبيل التجربة الضخمة التي كان من المقرر لها أن تجري يوم ٢١ تشرين الأول للتأكد من سلامته وجهوزيته، حدث خلل في الأجهزة المغناطيسية الخاصة بتبريد الجهاز حين تسرب غاز الهيليوم الناتج عن توصيلات خاطئة بين اثنين من المغناطيسيات الهائلة للجهاز إلى داخل النفق، مما تسبب بارتفاع درجة الحرارة نحو١٠٠° في هذه الأجهزة التي تحتاج إلى إبقائها في١٠٩° فوق الصفر، وهي الدرجة المطلوبة من أجل السماح لها بتحريك حزم الجزيئات حول الدائرة الكهربائية.

كما تسبب بجعل الأجهزة المغناطيسية تصاب كلها بالخلل، مما أدى إلى توقف

الجهاز عن عمله، وبالتالي إلى استبعاد تنفيذ تجربة ٢١ تشرين الأول ٢٠٠٨م. وقد استدعى القائمون على المشروع استدعاء عناصر مكافحة الحرائق بعدما تسرّب طنّ من غاز الهيلوم إلى النفق الذي يحتضن مقر «المركز الأوروبي للأبحاث النووية من أجل إخماد الحريق ثم الترتيب على إيقاف تجربة ٢١ تشرين الأول إلى حين إصلاح الخطأ الفني بشكل تام الذي قد يتطلب فترة لا تقل عن نصف عام.

ولدى سؤال مدير المركز روبير إيمار عمَّا حصل، وهل كان متوقعاً حدوثه أجاب: «إنَّ حدوث هذا الخطأ جاء بمثابة الصدمة النفسية لنا. وعلى الرغم من ذلك، فإنَّ نجاح التشغيل الأوّل للتجربة يُعتبر شهادة حسن سلوك على سنوات قضيناها في التحضير الدقيق، وعلى مهارة الأطقم التي قامت ببناء وتشغيل نظام دواسة الوقود بداخل المختبر.

ليس لدي أدنى شك في أننا سنتغلب على تلك العقبة بالمقدار نفسه من الصرامة والتطبيق. وإنَّ مثل هذه المشكلات المتعلقة بجسيمات دواسات الوقود هي مشكلات رائجة الحدوث خلال مرحلة تثبيتها.

لي ثقة قوية بقدرة علمائنا على إعادة عمل الأجهزة المغناطيسية، فهؤلاء قادرون على صنع المعجزات، وقد يتمكنون من إعادة تشغيله في غضون بضعة أسابيع قليلة».

ومن المثير للدهشة أنَّ الخلل الفني الذي طرأ على الجهاز يوم ٢٠٠٨/٩/١٩م تزامن في اليوم نفسه مع اصطدام كوكبين مشابهين لكوكب الأرض بشكل مباشر في الفضاء الخارجي تمَّ كشفه من خلال أجهزة التلسكوب الجبارة، الأمر الذي دفع ببعض المترددين من العلماء في «المركز الدولي للأبحاث النووية»، إلى أن يعبروا عن تشاؤمهم حيال نجاح تجربة ٢٠٠٨/١٠/٢١م. أولاً: لظهور مثل تلك الظاهرة الكونية والتي قد تنذر بشر مستطير. وثانياً نتيجة لما لاقوه من انتقادات ومن شكاوى تقدم بها السكان المقيمون بالقرب من مكان الانفجار للتعبير عن خوفهم من نتائجه المدمرة على حياتهم وممتلكاتهم. حتى إن قسماً منهم غادر مقر سكنه على الحدود الفرنسية -السويسرية ليبحث عن مكان آخر للإقامة يكون أكثر أماناً، بينما تقدم البعض الآخر بإحالة هذا الموضوع إلى القضاء لتدارك أي عطل أو ضرر قد يلحق بهم خلال إجرائها.

وبالفعل، بحلول ربيع عام ٢٠٠٩م أي بعد مضي حوالى ستة أشهر تم إصلاح العطل الفني بفضل إصرار العلماء على إنجاز التجربة مهما كثرت الانتقادات وعلت الأصوات ضدها، وذلك حين وضع العلماء أنابيب تبريد عملاقة تحتوي على ١٢٠طناً

من غاز الهيليوم الساخن التي تسير بمحاذاة جهاز تصادم البروتونات، يدفعها جهاز يعمل بضغط عالٍ تصل قوته إلى ١٣ ألف أمبير، مما يجعل التبريد يصل إلى ٢٦١° تحت الصفر، وهذا ما يضمن سير التجربة بأمان كبير. وفي ٣٠ آذار ٢٠٠٩م تمت تجربة تصادم البروتونات وكان نجاحها مذهلاً.

وهذا ما دفع لاحقاً بمدير المركز روبير إيمار إلى أن يعبر عن انطباعاته بقوله: «كما كنت أعتقد فإنَّ علماءنا أظهروا قدرتهم على صنع المعجزات من خلال إصلاح العطل الفني الذي حصل.

أعود فأقول إنَّ جهاز تصادم البروتونات «LHC» سوف يغيّر من نظرتنا إلى العالم، ومهما كانت الاكتشافات التي سنخرج بها فالخلاصة تكمن في أنَّ هذه التجربة ستزيد من إدراكنا نحن البشر بشكل كبير ومن فهمنا لأصول الكون ونشأته.

ومن الملاحظ أنه ظهر لدينا جزيئة بعد عملية تصادم البروتونات أطلق عليها اسم «أوبيرا» (Opera)، وهي أسرع من الضوء الذي تبلغ سرعته ٣٠٠ألف كم/ ثانية. فضلاً عن أنَّها تنطلق بسرعة تفوق سرعة الصوت أيضاً.

بعضٌ منا يعتقد بأن الكون نشأ في عملية انفجار كبير فلربما ينتهي أيضاً بانفجار كبير في آخر الأزمة كأن يصطدم نيزك سائر على غير هدى في الفضاء ويرتطم بكوكب الأرض ويقضي على الحياة فيها مثلما حصل قبل ٦٥مليون سنة، حين سقط نيزك وقضى على الديناصورات وعلى ٧٠٪ من أشكال الحياة التي كانت تعيش على كوكب الأرض.

ولهذا السبب فلا عجب إن شاهدنا الإنسان الحالي يستعد الآن للسفر إلى كوكب المريخ وغيره بعد أن أقام منذ منتصف عام ٢٠٠٨م أوَّل محطة دائمة في الفضاء تخلصاً من هذا الهاجس الذي يسيطر على عقله وفكره في أنَّ الحياة ستنتهي يوماً ما على سطح الأرض، ومهما يكن الحال تبقى هذه التجربة أفضل وسيلة لفهم عناصر الكون ونشأته.

واللافت للنظر أنه منذ أن تمَّ الإعلان عن نجاح التجربة الثانية بادر العالم البريطاني الشهير ستيفن هوكينغ (١٩٤٢م) أبرز علماء الفيزياء النظرية على مستوى العالم إلى إصدار كتاب بعنوان: «المشروع العظيم» في العام ٢٠١٠م، وفيه يتحدث عن قيمة نظرية الانفجار الإنجاز الكبير المسؤول عن نشأة الكون الذي وصفه بالتلاقي الفيزيائي الهائل الذي مهد منذ قرابة ١٤ مليار سنة لنشوء الكون، وعن العلاقة بين الثقوب السوداء.

وهنـــاك باحثة سعودية تدعـــى «ابتسام باخريس» تشارك في هذه التجربة الضخمة، وتحمل شهادة بكالوريوســـ في الفيزياء من جامعة جدة، وماجستير من الولايات المتحدة، وتتابع دراســـة الدكتـــوراه في جنيف. وهي أوّل باحثة سعودية تنضم «للمركز الأوروبي للأبحـــاث النووية»، بحيث يقوم دورها على تمثيل المعلومات بعد حدوث الانفجار.

وها هـــي تعلن عن قناعتهـــا بالانفجار الكبير بقولها: «لقـــد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ((**أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ**)). وهذا معنـــاه، أن الماء والأرض كانـــا شيئاً واحداً، ولهذا السبب لا مانع من أن نسخّر العلم في فهْم ما حولنا، ونرجع للقرآن الكريم لنزداد علماً على علم»، بحسب رأيها.

المشروع يتحول إلى أغنية:

ومن نافلة القـــول إنَّ هذا المشروع لاقى ترحيباً موسيقياً على الإنترنت لدى مجموعة مـــن الشبان الذين يعملـــون في المختبر حين سجلوا أغنية مصـــورة كَتبتْ كلماتها العالمة الأمريكية «كيت ماكالباين» البالغة من العمر ٢٧سنـــة، والتـــي تعمل متدربـــة في المنظمة الأوروبية للأبحاث النووية.

وأثـــار شريط الفيديـــو المرافق للأغنية ومدته نحو خمس دقائق اهتماماً كبيراً على موقع «يوتيوب» وبعض المواقع الأخرى على نحوٍ لم تكن تتوقعه المؤلفـــة التي قالت: «إنَّ هدف الأغنية يصبّ في خدمة العلم، وأعتقد أنَّهـــا قد تجد لها قبولاً في المناهج المدرسية التي تدرّس مادتي الفيزياء والكيمياء.

مع التنويـــه إلى أن أكثر لقطات الشريط المسجل لهذه الأغنية قد صوّرت في الكهوف الواسعـــة تحـــت الأرضـــ التابعـــة للمركز الأوروبـــي للأبحـــاث النوويـــة (سيرن) عند الحدود الفرنسية – السويسرية. ولقد جاء في كلمات الأغنية ما يلي:

«**نفق تحت الأرض بطول سبعة وعشرين كيلومتراً.**

مصمم بهدف إطلاق البروتونات.

دائـــرةٌ تمـــر عـــبر الأراضـــي السويسريـــة والفرنسية.

ثلاثـــة وثلاثـــون دولـــة تشـــارك في هـــذه المبادرة العلمية.

الأشيـــاء التـــي تكتشفهـــا ستضربك على رأسك.

نحـــن نفكـــر في الأبعـــاد لأننـــا نعيش في ثلاثة أبعاد فقط.

ولربما تكون هنـــاك أبعاد أخرى، فسوف نرى ذلك مستقبلاً».

المراجع

١- قناة (فرنسا ٢٤) الفضائية: «العلماء في مهمة تاريخية لكشف أسرار الكون»، تاريخ ٢٠٠٨/٩/١٥م.

٢- وكالة الصحافة الفرنسية (AFP)، نشرة صادرة بتاريخ ٢٠٠٨/٩/١١م.

٣- صحيفة «النهار»، و«السفير»، و«الحياة» اللندنية، تاريخ ٢٠٠٨/٩/١١م.

٤- مجلة «لونوفيل أوبسرفاتور» الفرنسية، تاريخ ١٨-٢٠٠٨/٩/٢٤م.

٥- موقع «العربية نت» على الإنترنت.

٦- صحيفة «النهار»، تاريخ ١٢كانون الثاني ٢٠٠٩م.

٧- صحيفة «لوموند»، تاريخ ٢٠٠٩/٣/٣١م.

٨- صحيفة «لوموند»، تاريخ ٢٠١١/٩/٢٦م.

الكون كما يراه العلماء اليوم

ترجمة: محمد الدنيا ❁

من السُدُم إلى المجرات، مروراً بالحشود، ليس الكون سوى نجوم؛ بل إن هذه هي التي ولـدت، من أتونها النووي، القسمَ الأكبر من المادة الموجـودة في الكون. هاهو استعراض مفصل لأجرام السماء التي تعمر الكون.

النجوم

النجوم كرات غازية حارة جداً ومضيئة، تستمـد طاقتها مـن التفاعـل الاندماجي الحراري النـووي. تقع نـواة النجوم تحت حـرارة وضغـط هائلين، يكفيـان لإطلاق الاندمـاج النـووي لـذرات الهيدروجـين، العنصر الرئيسي في الغـاز النجمي. يطلق هـذا الاندماج طاقةً عملاقة، تسخِّن النجمَ حتى سطحه. الضـوء الشديد، الذي يجعل النجم مرئياً، منبعثٌ من سطحه المسخَّن بعدة آلاف من الدرجات. يمكن أن تعيش النجوم مزدوجـةً أو في مجموعـات مـن ثلاثة إلى خمسة مكوِّنات، مترابطة بقوة التجاذب.

النجوم العملاقة:

مدة حياتها: ١ إلى ١٠٠ مليون سنة.

قطرها: ٥ إلى ١٠٠ مليون كم.

حـرارة سطحهـا: ١٠٠٠٠ إلى ٢٠٠٠٠ درجة.

تحرق النجـوم العملاقـة، ذات الكتلة الضخمـة جـدّاً، والمضيئة جـدّاً، وقودَها النووي بمعـدل هائل. يتيح لهـا «مِرْجَلُها»

❁ كاتب ومترجم سوري.

النووي الحارق تركيب العناصر الثقيلة، مثل السيليسيوم، والحديد، والذهب، إلخ، وهو ما لا تستطيعه نجومٌ أصغر مثل «الشمس». يسمى أضخمُها كتلةً النجوم العملاقة الفائقة supergéantes.

النجوم القزمة الحمراء:

مدة حياتها: ١٠ إلى ١٠٠ مليار سنة.

قطرها: ١ مليون كم.

حرارة سطحها: ١٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ درجة.

النجوم القزمة الحمراء naines rouges، ونظراً لطول حياتها الاستثنائي، هي الأكثر عدداً بكثير في الكون. إلا أنَّها تبقى متخفّية جدّاً مع ألقها الأدنى شدة من ألق الشمس بـ١٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠ مرة.

النجوم القزمة البنية:

مدة حياتها: عشرات مليارات السنوات.

قطرها: ١٠٠٠٠٠ كم.

حرارة سطحها: ١٠٠٠ إلى ٢٠٠٠ درجة.

ليست النجوم القزمة البنية naines brunes نجوماً بالفعل لأنَّها أصغر كتلة من أن تطلق عمليات اندماج حراري نووي، غير أنَّها أكبر كتلة من الكواكب العملاقة.

النجوم الشمسية:

مدة حياتها: ١٠ مليارات سنة.

قطرها: من ١ إلى ٢ مليون كم.

حرارة سطحها: ٤٠٠٠ إلى ٦٠٠٠ درجة.

«الشمس» نجم عادي، مع حجم، وكتلة، وسطوع من المعدل الوسطي: تتقاسم هذه الصفات جميعُ النجوم «الشمسية» étoiles solaires.

النجوم النيوترونية:

مدة حياتها: أكثر من ١٠٠ مليار سنة.

قطرها: ٢٠ كم.

حرارة سطحها: ١٠٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠٠ درجة.

النجوم النيوترونية à étoiles neutrons هي بقايا نجوم كتلية. ينهار قلبُ النجوم القديمة العملاقة ذو الكتلة الضخمة جدّاً، والمجردُ من التفاعلات النووية، على نفسه ما بعد مروره بمرحلة النجم القزم الأبيض. ويستمر هذا الانهيار حتى المستوى الذري: تنصهر الإلكترونات والبروتونات في صهارة نيوترونات. تسمى أيضاً بُلْسارات pulsars، وتتميز بحقل مغنطيسي قوي.

الكواكب:

الكواكب هي منتَج ثانوي لعملية تشكُّل النجوم: عندما تتشكل هذه الأخيرة، من خلال تكثُّف سحابةٍ غازية، تترك حولها غازاً وغباراً يتكثفان بدورهما ويشكلان كواكب.

هنالك، وفقاً للمعارف الراهنة، نمطان رئيسيان من الكواكب: الكواكب الأرضية planètes telluriques، الأرض، والزهرة، والمريخ، وعطارد وهي صخرية أساساً، والكواكب العملاقة géantes، المشتري وزحل،ونبتون وأورانوس، وهي غازية أساساً.

الثقوب السوداء:

مدة حياتها: عشرات مليارات السنوات.

قطرها الحقيقي: غير معروف.

قطرها الظاهري: من ٣ كيلومتر إلى مليارات الكيلومترات.

حرارة سطحها: ١٠٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠٠ درجة.

المرحلة الأخيرة للمادة، بل أيضاً سقف المعرفة، هنا حدودهما النهائية. الثقب الأسود trou noir هو انهيار القلب المنطفئ لنجم عملاق فائق: لا يمكن لأي شيء أن يوقفه، ولا يعرف أحد أين أو متى يتوقف....

النجوم الكواركية:

مدة حياتها: أكثر من ١٠٠ مليار سنة.

قطرها: ١٠ كم.

حرارة سطحها: ١٠٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠٠ درجة.

لم يتم رصد النجوم الكواركية étoiles à quarks مطلقاً، وربما كانت غير موجودة. ووفقاً للمنظّرين، هي عبارة عن نجوم نيوترونية كتلية، ربما كانت مستمرة في الانهيار على نفسها إلى أن تصبح مكوناتُها الأساسية «غيرَ معينة الحدود» لتشكل نوعاً من عصيدة كواركية (الكواركات quarks هي من المكونات الأساسية للمادة)..

النجوم العملاقة الحمراء:

مدة حياتها: ١ إلى ١٠٠ مليون سنة.

قطرها: ١٠٠ مليون إلى ١ مليار كيلومتر.

حرارة سطحها: ٢٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ درجة.

(النجوم) العملاقة الحمراء géantes rouges، مثل «مِنكب الجوزاء» Bételgeuse، هي نجوم في نهاية حياتها. بعد أن استنفدت وقودها الرئيسي، الهيدروجين، تبدأ باستنفاد احتياطيها من الهليوم. يحتدم الاندماج النووي والحالة كذلك، وتتضخم فجأةً. في غضون ما يقرب

من خمسة مليارات سنة، ستصبح شمسنا عملاقاً أحمر.

النجوم القزمة البيضاء:

مدة حياتها: أكثر من ١٠٠ مليار سنة.

قطرها: ١٠٠٠٠ إلى ٢٠٠٠٠ كم.

حرارة سطحها: ١٠٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠٠ درجة.

(النجوم) القزمة البيضاء naines blanches هي رماد نجوم متوسطة الكتلة، مثل الشمس. تنهار على نفسها في نهاية دورتها النووية، بعد استنفاد وقودها. وإذْ كانت صغيرة، فإنها تبترد وتنطفئ بالتدريج.

السُدُم

نجد هذه السحب الغازية، التي تعوم في الفضاء، عند ولادة و...موت النجوم. تشكل السُدُم nébuleuses المنتشرة سحباً ضخمة من الهيدروجين والهليوم بشكل أساسي، يمكنها أن تنهار على نفسها وأن تتكثف في نجوم. وحالما يستخدَم الغاز كوقود نووي في النوى النجمية، فإنه يقذَف جزئياً في الفضاء، في الوقت الذي تصبح النجوم، في نهاية حياتها، عملاقةً حمراء، أو بعد أن تنفجر فجأة. يمكن أن يتكثف هذا الغاز المدوَّر والمخصّب عندئذ على شكل سُدُم تولِّد فيما بعد جيلاً جديداً من النجوم.

السدُم الكوكبية:

مدة حياتها: بضعة آلاف من السنوات.

حجمها: من ١ إلى ١٠ سنوات ضوئية.

السدم الكوكبية nébuleuses planétaires هي أغلفة غازية طردتها النجوم العملاقة الحمراء القديمة في المرحلة الأخيرة من تطورها. وتتمدد هذه السدم، المسخَّنة والمضاءة بنجمها، تدريجياً في الفضاء.

السدم المنتشرة:

مدة حياتها: بضعة ملايين من السنوات.

حجمها: ١٠ إلى ١٠٠ سنة ضوئية.

يمكن للسدم المنتشرة diffuses أن تحوي ما يعادل مئات من الكتل الشمسية الغازية. مع ذلك، تكاد تكون بلا كثافة، لأن حجمها (عدة آلاف من السنوات الضوئية) ضخم. لا تشتمل وسطياً إلا على بضع مئات من الذرات في السنتمتر المكعب.

كريات بوك:

مدة حياتها: بضعة ملايين من السنوات.

حجمها: ١ إلى ١٠ سنوات ضوئية.

كريات بوك globules de Bok، هذه العُقيدات الغازية والغبارية الواقعة بين النجوم الصغيرة، هي مناطق أشد كثافة

في السدم، في طور انهيار تثاقلي. ليست شفافة للضوء وغالباً ما تأوي نجوماً في طور التشكل.

حشود النجوم

لا تولد النجوم منعزلة في الفضاء بين النجوم، بل في مجموعات صغيرة أو كبيرة، تسمى حشوداً amas. تأتي ولادة هذه النجوم من تفاعل متسلسل: تنفخ النجوم المولودة حديثاً شرنقتَها (غلافَها) الغازية وتسبب، على نحو أقرب فأقرب، انهيارَ سديم بكامله. في النهاية، تتولد عشرات، أو مئات، إن لم يكن آلاف النجوم على نحو متزامن تقريباً في قلب الحشود.

الحشود الكروية:

مدة حياتها: أكثر من ١٠ مليارات سنة.

حجمها: ١٥ إلى ٥٠٠ سنة ضوئية.

هذه الحشود الكروية globulaires هي أكبر وأضخم كتلة بكثير من الحشود المفتوحة: يمكن أن تضم من ١٠٠٠٠ إلى ١ مليون نجم.... وعلى عكسها، لا تتشتت، إذ يجعل حقل جاذبيتها النجومَ قريبة بعضها من البعض الآخر. إنها قديمة للغاية، ويعود بعضها إلى جيل النجوم الأول.

الحشود المفتوحة:

مدة حياتها: من ١٠ إلى ١٠٠ مليون سنة.

بُعدها: ١٠ إلى ١٠٠ سنة ضوئية.

الحشود المفتوحة ouverts هي مجموعات نجمية تسكنها نجومٌ فتيّة جدّاً تقع على مسافة ١ سنة ضوئية كل منها عن الآخر.

المجرات

إذا كانت النجوم هي ذرات الكون، فإنَّ المجرات هي خلاياه. إنَّها تجمعات عملاقة من النجوم، التي يمكن أن يصل عددها إلى ١٠٠٠٠ مليار نجم، مع كميات من الغاز بهذه الضخامة أو تلك، التي تحولها إلى نجوم تدريجياً. ظهرت المجرات سريعاً بعد الانفجار الأعظم، منذ أكثر من ١٣ مليار سنة، انطلاقاً من فرط كثافات خفيفة من الغاز البدئي. منذئذ، تتطور وفقاً لتآثراتها مع المجرات الأخرى المجاورة لها.

المجرات الحلزونية:

مدة حياتها: عدة مليارات من السنوات.

حجمها: ٢٠٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠٠٠ سنة ضوئية.

تمثل المجرات الحلزونية galaxies spirales نحو ٧٠٪ من المجموع الكلي للمجرات. وتشبه أقراصاً ضخمة، متضخمة في وسطها، كالمجرة NGC ٤٥٦٥ في كوكبة «شَعْر بيرينيس» Chevelure de

Bérénice. تدور في قرص المجرة سدُم وحشود النجوم الفتية، ببطء. مجرتنا «الدرب اللبنية» Voie Lactée هي من النوع الحلزوني.

المجرات الإهليلجية

مدة حياتها: أكثر من ١٠ مليارات سنة.

حجمها: ٥٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠٠٠ سنة ضوئية.

المجرات الإهليلجية elliptiques، القزمة، هي أصغر المجرات المعروفة؛ أمَّا العملاقة منها فهي الأضخم كتلة. والإهليلجية مجرات قديمة جدّاً، حيث كان الغاز قد تحول بالكامل. شكلها كروي أو متطاول، وتمثل نحو ٢٥٪ من المجرات.

المجرات غير المنتظمة:

مدة حياتها: من بضعة ملايين إلى عدة مليارات من السنوات.

حجمها: ٥٠٠٠ إلى ٢٠٠٠٠ سنة ضوئية.

لا ينطوي ٥٪ من المجرات على تناظرات أو بنى خاصة: إنَّها غير منتظمة irrégulières، إنَّها مجرات صغيرة مشوهة بفعل التآثرات التجاذبية مع جاراتها، أو متشكلة حديثاً، من نُتَفٍ انبعثت من مجرات حلزونية بعد التعرض لاصطدام.

الكوازارات:

مدة حياتها: من بضعة ملايين إلى عدة مليارات من السنوات.

حجمها: بضعة آلاف من السنوات الضوئية.

الكوازارات quasars هي نوى مجرات مفرطةُ السطوع. هذه الأجرام نادرة، ولا تلاحَظ إلا على مسافة بعيدة جدّاً. سطوعها الفائق، الأقوى من إشعاع ألف مليار شمس، ناجم عن المادة، غازاتٍ أو نجوم، تسقط في الثقب الأسود العملاق المختبئ في وسطها.

جماعات المجرات:

حجمها: ١ إلى ١٠ مليون سنة ضوئية.

جماعات (المجرات) groupes هي اقترانات ضعيفة الكثافة وقليلة العدد بين مجرات. تنتمي «الدرب اللبنية» إلى «الجماعة» المحلية التي يبلغ عدد فِرادها نحو ثلاثين فرداً، بينها مجرتان حلزونيتان: «الدرب اللبنية» و«المرأة المسَلْسَلة» Andromède.

حشود المجرات

ليست المجرات معزولة ولا موزعة على نحو وحيد الشكل في الفضاء، بل هي مترابطة بروابط التجاذب القوية مع رفاق طريقها الكوني. تشكلت جماعات، وحشودٌ وحشود عملاقة لمجرات على هذا النحو منذ

الانفجار الأعظم. تعـد بالعشرات، والمئات بل وبالآلاف، تـدور ببطء حول مركز ثقالة gravité تشْغله بشـكل عام مجرة عملاقة تمتصـ بالتدريج المجرات المارة على مقربة منها.

الحشود العملاقة:

حجمهـا: ١٠ إلى ١٠٠ مليـون سنـة ضوئية.

تعـد الحشود بمئات المجرات، إن لم يكن بالآلاف بالنسبة للحشود العملاقة. تشكلت هذه الأخيرة مع بدء تاريخ الكون، منذ اثني عشر إلى ثلاثة عشر مليار سنة.

إذن، بالمليـارات، بـآلاف المليـارات، بمليارات المليارات...منذ نشوئه، في ومضة الانفجار الأعظم bing bang، منذ ١٣،٧ مليـار سنة: الكـون هو آلـة ضخمة لصنع نجـوم.... وهكذا، وأنت تقرأ هذه السطور، مـع كل ثانية تمر في ساعتـك، يولد عشرة آلاف نجـم في مـكان ما من الكـون، بينما تنطفئ آلاف أخرى منها.

دور النجوم في التطور الكوني أساسي: إذا كانت المجرات، التي هي «تكتلات» حقيقية في الغاز المتجانس الذي كان عليه الكون في بداياته، قـد جمعت، وكثَّفت المادةَ الأصلية، فـإن النجـوم هي التـي بنت هـذه المادة، وحولتها، وأخصبتها. ظهرت النجوم الأولى بعد الانفجار الأعظم ببضع عشرات أو مئات من ملايين السنين، ضمـن شروط ما تزال مجهولة حتى اليوم، في قلب المجرات الأولى التي كانت في طور تشكلها. يمكننا أن نؤكد، على أكثر تقدير، أن الكتل الغازية العملاقة، التي كانتها المجرات الوليدة في ذلك الزمن، انهـارت على نفسها، بتأثـير قوة التجاذب، وتفتتت في سحـب صغيرة. ثم تقلصت هذه الأخيرة حتى شكلت الكرات الغازية الكثيفة والحارة التي هي النجوم....

مـع النجوم، جاء الضـوء، وخرج الكون مـن «عصر الظلمـات». لماذا تلمـع؟ لفهم ذلـك، علينـا أن نغوص في قلـب إحداها، «الشمس»، مثلاً. في قلـب النجم، الضغط والحرارة عاليان إلى درجة أن المادة تنسحق حرفياً. في هذه الشـروط القصوى، ينتهي الأمر بالذرات، المتصادمة بعضها مع البعض الآخـر بشكل متواصل، بالاندمـاج تلقائياً. وهكذا، ينتج اندمـاجُ أربع نوى هيدروجين ذرية ذرةَ هليوم. يترافق هذا الاندماج الذري بإطلاق هائل للطاقة.

تحوِّل النجـوم بالتدريج المادةَ الأساسية التي تكونت خـلال الانفجار الأعظم. يعود الفضـل لهـا في كل العناصـر الكيميائيـة الموجودة في الطبيعة، باستثناء الهيدروجين والهليوم الأصليين. أوجدت في أتونها النووي الذهـبَ، بالتأكيد، بـل أيضـاً الرصاص،

والأكسجين، والكربون، والآزوت، والحديد، هذه الـذرات المركبة التـي يسميها علماء الفلك «عناصر ثقيلة».

تأتـي العناصـر الثقيلـة مـن النجوم الأضخم كتلة في الكـون، تلك التي تخصبه علـى النحو الأفضل والأسـرع. تتميز هذه النجوم العملاقة، الأضخم كتلة من الشمس بـ١٠ إلى ١٠٠ مـرة، بحياة قصـيرة جدّاً، بضعـة ملايين مـن السنوات علـى الأكثر. تُوجد خـلال حياتها العابرة كمية كبيرة من العناصـر الثقيلة، التـي لا تستطيع النجوم الصغـيرة كالشمس صنعها، لعـدم تمتعها بحرارة وضغـط كافيين. ثم، تنفجر النجوم العملاقـة، التي تتجاوز حـرارة قلبها ١٠٠ مليـون درجـة، بشكل فجائـي، وتقذف في الفضاء كميةً عملاقة من الغاز المخصب.... يعـود هذا الغاز ليتكثـف في مكان آخر من الفضاء، مختلطاً بمادة نجـوم أخرى ميتة، وتبدأ الدورة من جديد: تظهر نجوم جديدة ومواكبها الكوكبية.

تولد النجوم في قلـب سحب غازية بين نجمية عملاقة، السُدُم. تحوي هذه السحب الكونيـة الضخمة، التي تمتد على مسافات تقـدر بعشرات السنـوات الضوئية، كميات ضخمة مـن الهيدروجين والهليـوم، كافية لأن تولّد في الوقت نفسه مئاتٍ من النجوم. السـدُم دينميـة، تتنسّل تحت تأثـير الهبّة القويـة للنجوم العملاقـة الفائقة، وتتكثف بتأثير التجاذب. ويصبح الغاز، المضغوط، في قلبها، أشد كثافـة، ويبدأ التجاذب بالعمل، ببطْء.

شرنقة (غلاف) غازية

في بعضـ الأماكـن، تتشـكل عُقَيْدات nodules غازيـة وغبـار. تنهـار هـذه العقيدات، التي يصل مقاسها إلى عدة أيام ضوئية، والشبيهة بالبيْض، على نفسها بتأثير ثقلها الخاص بها. تتشكل مُضَغُ نجوم، كراتٌ غازيـة تصبح عند انكماشها بفعل التجاذب متناميةَ الكثافـة والسخونة. وتنهار المضغة النجمية هي أيضاً حتى يبلغ الغاز في قلبها حرارةً تصل إلى عدة ملايين من الدرجات. في هذه المرحلة، تنطلق التفاعلات الحرارية النوويـة، مطلقـةً طاقةً هائلـة، على شكل أشعة غاما، وسينية، وفوق بنفسجية، وتحت حمراء، وضوء بالتأكيد. ويولد النجم..

تمكِّن الطاقةُ العجيبة التي ينتجها النجم من أن يتخلصـ من شرنقتـه، حيث يخْلي إشعاعُـه القوي الغازَ المحيط به ويقذفه في الفضاء. وتستمر الدورة.

ذلك أن خصوبـة السدم مُعْدِية: عندما تنفث النجـومُ الفتيّـةُ حولها الغـازَ الذي ولَّدَها، فإنها تزرع الفضاءَ وتسرّع في تكوين نجـوم جديدة.... أن يولـد نجمٌ بمفرده في

الفضـــاء، فهذا الأمر ليس لـــه وجود: تُولَد الأجســـام السماوية على شـــكل مجموعات تضـــم عشـــرات أو مئات منهـــا، مشكّلةً في الفضاء، حالمـــا تطرد غلافَهـــا الغازي كله حولهـــا، حشوداً وقتية، من شأنها أن تتشتت تدريجيـــاً. لاشيء يشبـــه حياة نجم أكثر من حياة نجـــم آخر: تمضي كلُّهـــا وجودَها في صنع عناصر ثقيلة من خلال عناصر خفيفة، منتجةً كمية عملاقة من الطاقة طوال عملية الاندماج النووي هذه.

ولكن، إذا كانت ولاداتها وأساليب حياتها متماثلـــة دائماً، فليست هـــذه الأجرام كلها متشابهة. يأخذ علماء الفلك دائماً، بالاتفاق، نجمَنا الشمس، مرجعاً نجمياً. الشمس نجم نموذجـــي عمليـــاً.. نجمنا وسطـــي في كل موضع، حرارةً، وقطـــراً، وكتلةً. نجم عادي إجمالاً. إلا أن السماء تعمرها نجوم مختلفة كثيراً.

الأصغر بينها أقلُّ كتلةً من الشمس بـ١٥ مرة: هذه النجـــوم القزمة الحمراء، فضلاً عن ذلك، أقل سطوعاً منها بـ١٠٠٠٠٠ مرة، غير أنَّ استهلاكها المقتصد في الطاقة يوفر لها طول حياة قدره ١٠٠ مليار سنة! كما أن بعضـــ الأجرام، الأصغر كتلة أيضاً، لا تعود جديرة باسم نجم، لأنها تكشف عن عجزها في بلوغ حـــرارة اشتعال الاندمـــاج النووي: تسمى «النجوم القزمة البنية».

في الجانب الآخر مـــن الطيف، النجوم العملاقة الفائقة هي أكبر كتلة من الشمس بـ١٠٠ مرة، وأكبر حجمـــاً منها بـ١٠٠٠ مرة وأكـــثر سطوعاً بـ١٠٠٠٠٠ مـــرة. نادرة هي مثيلات هذه الوحوش الكونية! يحصى منها واحـــد مقابل ١ مليون نجم قزم أحمر. مدة حياتها قصيرة للغاية: بين ١ إلى ١٠ ملايين سنة فقط، أي أقل من الشمس بـ١٠٠٠ مرة. مع ذلك، هي الأجرام الأهم في الكون: تنتج النجوم العملاقـــة الفائقة، بمعـــدل هائل، العناصـــرَ الأعقـــد في قلبها النـــووي، الذي تصـــل حرارته إلى ١ مليار درجة. ثم، فجأة، تنفجر، وتعطي الكونَ المادةَ التي أنتجتها.

إنَّ كتلة النجوم هي التي تحدد مصيرها. يمكـــن للأصغر كتلة بينها أن تحرق وقودَها النـــووي خلال نحو ١٠٠ مليـــار سنة. نهاية النجوم ذات الكتل المماثلة لكتلة الشمس هي أكـــثر صخبـــاً: بعد نحو ١٠ مليـــارات سنة، مـــن الخدمات الملائمـــة والدقيقة، تضعف محطتها النوويـــة، بنتيجة نقصـــ الوقود.. وعندما ينتهي الهيدروجين، يستبدل مفاعلُ النجم هـــذا الوقودَ بالهليـــوم. ولكن هناك مشكلـــة: انصهار الهليـــوم أقل فعالية، ومن هنـــا على النجم أن يزيـــد ضغطَه وحرارته المركزيّن. وليتمكن من ذلك، ينكمش النجم علـــى نفسه حتـــى يصل إلى عتبـــة اشتعال الهليوم. والحالة هذه، يتخرب توازن النجم:

إذا كان قلبه يتركّز، فإنَّ غلافه ينبسط. عندما ستصير «الشمس» «عملاقاً أحمر»، يغدو تعرُّفُها متعذراً.

من عملاق أحمر إلى قزم أبيض

النجوم العملاقة الحمراء نادرة في السماء، لأنَّ هذه المرحلة من الحياة النجمية قصيرة جدّاً: بضع مئات من ملايين السنوات فقط. مرحلة قصيرة وشَوَاشية: لا تستعيد النجوم التي بلغت مرحلة العملاق الأحمر مطلقاً التوازنَ الذي كانت تتميز به حينما كانت تستهلك هيدروجينها على نحو مقتصِد. تبدأ النبضان ببطْء، مبتردةً ومتسخنةً بالتناوب، بينما يتلاشى جوها الخارجي بالتدريج، مع كل ترجُّحٍ oscillation زائد للنجم. عندما يكون قسم كبير من غازها قد انقذف في الفضاء خلال حالات التنفس هذه المتنامية القوة والعمق، تتلاشى أيضاً النجوم العملاقة الحمراء هي أيضاً، منطفئة بالتدريج. لا تترك في الفضاء سوى قلبها المعرَّى، مثل جمرةٍ صغيرة حارقة اسمها قزم أبيض يحجبها قريباً مخملُ الليل الأسود.

وفي حين يبلغ طول حياة نجم مثل الشمس ١٠ مليارات سنة، يكون وجودُ النجوم العملاقة الفائقة – أكبر كتلة من شمسنا بـ١٠، ٥٠، ١٠٠ مرة – وهّاجاً وعابراً. تستهلك هذه النجوم، في أقل من دقيقة، الطاقةَ التي تنتجها الشمسُ في سنة! حرارة وضغط الغاز في قلبها هائل إلى درجة أنَّ التفاعلات النووية تحدث في العديد من طبقاتها المتعاقبة، المتنامية السخونة كلما ازددنا اقتراباً من أتونها المركزي. في طبقة الغاز الأولى، التي ترتفع فيها الحرارة إلى أكثر من ١٠ ملايين درجة، يحترق الهيدروجين الذي يولِّد الهليوم. وفي أسفلها، الهليوم هو الذي يتحول، فوق ٥٠٠ مليون درجة، إلى أكسجين، وكربون، وآزوت. وفي مكان أقرب إلى القلب، حيث ترتفع الحرارة إلى أكثر من ١ مليار درجة، يتخلق الصوديوم، والمغنيزيوم، والكبريت، والفضة، والنيكل، والسليكون. أخيراً، في قلب النجم نفسه، تبدأ ذرات حديد بالتشكل، من السليكون. وعندما يصل النجم العملاق الفائق الأحمر، في غضون ١ إلى ٣ مليون سنة، إلى مرحلة انصهار السليكون هذه، لا يعود أمامه سوى بضعة أيام يعيشها.

في الواقع، تكون ذرة الحديد نفسها غير ممكنة الصهر لتخليق عنصر جديد! عملياً، عندما يكون قلب النجم غنياً بشكل كاف بالحديد، يتوقف عن إنتاج الطاقة الضرورية كي يوازن قوة التجاذب: ينهار النجم على نفسه، قبل أن ينفجر فجأةً.

إذا كانت مادة الكون مركّزة أساساً في

نجــوم، فهــي بالمقابل موزَّعــة في كيان من حجم أعلى، المجــرة، التي هي تجمُّع نجوم ضخم.... لقد كثفت هذه «الأكوانُ- الجزُر» univers - îles، حســب تعبير الفيلسوف «إمانويل كانت» E. Kant، عند فجر العالم، منذ ١٣،٧ مليــار سنة، الغــازَ الأولي الذي أوجــده الانفجار الأعظــم. تعيد المجرات، التي يحملها التمــددُ expansion الكوني معــه، تدويرَ هذه المــادة إلى مــا لا نهاية، فتكيِّفُ كلٌّ منها، حسب إيقاعها، هيدروجينَ السدُم لتشهد ولادةَ، وتفتُّحَ، وموتَ نجوم في أقراصها.

هنالك فصيلتان أساسيتان من المجرات، الإهليلجية، والحلزونية: تشبه هذه الأخيرةُ، كمجرتنا «الدرب اللبنية»، أقراصاً ضخمةً، قسمُها المركزي أكثرُ ثخانةً.

المجرات الحلزونية ناشطة، ما تزال غنية بالغاز، الذي تحوله إلى نجوم. تولد النجوم في البنية الحلزونية الجميلة، المرتسمة أيضاً في قرصها. ينضغط غاز السُدم بانفجارات نجوم عملاقة فائقة، ويتكثف في نجوم، من بينها ذاك العدد القليل من النجوم العملاقة الفائقة، التــي تنفجر بدورها وتضغط غاز الســدم. وهكذا دواليــك: ينتشــر التشكُّل النجمــي على كامل المجرة الحلزونية، حيث يحركه القرصُ المجرّي الدائر.

أمَّــا المجــرات الإهليلجيــة، فلــم تعد تتطــور عملياً. وبعضها، المسمى الإهليلجية العملاقة، هو الأجــرام الأضخم في الكون: يمكن أن تحــوي هذه التجمعــات النجمية المدوخة، دائريــة كانت أم بيضوية، ١٠٠٠٠ مليــار نجم!. يمتد تأثيرهــا التجاذبي على مسافــة ملايــين السنــوات الضوئيــة؛ في الواقع، محاطةٌ بشكل عام بهالة من المجرات الصغــيرة التــي ستبتلعها، فيــزداد بذلك حجمها وكتلتها. تسكنها نجومٌ قديمة جدّاً، قزمة بيضاء، وقزمة حمراء، غير أنها مجردة من الغاز، بعــد أن كانت قد حولته بالكامل إلى نجــوم. لم تشهد هــذه البراهين المهيبة حول أصل العالم ولاداتٍ جديدة للنجوم منذ مليارات السنوات.

المرأة المسلسلة تنقضّ على الدرب اللبنية

ذلك أنه كي تكون بهذه الكتلة اليوم، كان على هذه المجرات أن تتشكل منذ وقت مبكر جدّاً من تاريخ الكون، عقب الانفجار الأعظم ببضع مئات من ملايين من السنوات فقط. منذئــذ، لم تتوقف عن أن تجذب إليها المادةَ المــارة بقربها: تقع الإهليلجية العملاقة، في معظمهــا، في وسط تجمعــات ضخمة من المجرات تدور بحــذر حولها، على بعد عدة ملايين من السنــوات الضوئية أو تنتظر أن تُجتذَب إلى بئرها التجاذبي.

تتطور المجرات، كالنجوم نفسها. تتقاسمها قوتان متنازعتان: من جهة، التجاذب التثاقلي attraction gravitationnelle، الذي ينزع إلى تقريبها بعضها من البعض الآخر، ومن جهة ثانية، قوة التمدد الكوني التي لا تقاوَم، التي تنزع إلى إبعادها... توازن القوةُ الأولى القوةَ الأخرى، ولكن من دون أن تحد في ذلك من تمدد الكون. المسألة كلها مسألة مقياس: إذا كان التوسع الكوني مذهلاً بمستوى كبير- تبتعد المجرة الواقعة على مسافة ١ مليار سنة ضوئية من الأرض بسرعة ٢٠٠٠٠ كم/ ثا! - فإنها على العكس لا تتأثر على مستوى المجرات. في الواقع، تتآثر المجرات مع جاراتها، منذ بداية تشكلها قبل ١٠ إلى ١٣ مليار سنة بالنسبة لأقدمها. في البداية، تتجمع في حشود يمكن أن يصل عدد مجراتها إلى عدة آلاف- المجرات المعزولة في الكون نادرة.

وفي قلب الحشود، تكون المجرات قريبة بعضها من البعض الآخر، وكثيرة هي الصدامات التي تقع فيما بينها. يمكن أن يستمر الصدام بين اثنتين منها عشرات، ومئات ملايين السنوات، مسبباً انقلاباً تاماً فيهما كليهما. يمكن أن يحدث بينهما اختراق متبادل، ويمكن أن تتشوَّها، إن لم تتقوضا. تتركان في الفضاء حينئذ قِطعَ أقراصٍ، وحشودَ نجوم، تتجمع في مكان أبعد لتشكل مجرةً جديدة. غالباً ما تدور المجرات طويلاً إحداها حول الأخرى، قبل أن تندمجا وتتحولا إلى مجرة عملاقة. وربما هذا ما ينتظر مجرتنا «الدرب اللبنية» لأنَّ جارتها، مجرة «المرأة المُسَلْسَلة» Andromède، تنقضّ على القسم الأعلى مجرتنا بسرعة تفوق ٤٠٠٠٠٠ كم/ سا: الصدام حتمي، وسيقع في غضون ٢ مليار سنة.

نجوم، وسدم، ومجرات...لا يكشف الكون عن هندسة بنائه إلا بالمقياس الأكبر أيضاً: الكون خليوي cellulaire، شبيه قليلاً برغوة الصابون. كل «فقاعة» هي خلية كونية يبلغ قطرها نحو ٣٠٠ مليون سنة ضوئية، بالحجم الفارغ عملياً. جدران هذه الخلايا تتناثر عليها حشودُ مجراتٍ. أخيراً، توجد على خطوط تقاطع الفقاعات أضخم تركُّزات مجرات الكون. وعلى هذا المقياس الكوني، لا يعود التجاذب يستطيع فعل أي شيء في مواجهة طاقة الكون الأكثر خيالية: التمدد، الذي يسحب المجرات إلى فضاء متنامي الخواء، نحو مستقبل يسعى علماء الفلك إلى اكتشافه.

أرقام كونية

بالأرقام الفلكية! صفة الفلكية هذه مناسبة تماماً للأرقام التي تتيح وصف

الكون. ليس هنالك أي علم آخر يتعامل بأعداد مدوخة بهذا القدر؛ لا يوجد أي فرع معرفي آخر يغازل اللامتناهي بهذا الشكل. تكشف هذه الخاصيات الرقمية، المقاسة في أتون النجوم أو في فراغ الفضاء، لعلماء الفلك، عن كون لم يكونوا يتصورونه على هذا القدر من السعة. إنَّه كبير إلى درجة عدم القدرة على تصوره.

بالسنوات، ١٣,٧ مليار هو عمر الكون. أو، على نحو أدق، عمر كون«نا»، الذي ظهر لحظة الانفجار الأعظم.. ولكن، منذ بضع سنوات، يتساءل علماء الكون ما إذا كان الزمان قد ظهر مع الانفجار الأعظم. ربما كان الكون موجوداً قبل ذلك، وقد لا يكون الانفجار الأعظم عندئذ سوى تغير مفاجئ في تاريخ طويل.

وعلى عكس ما يمكن أن نتوقع، ورغم العدد العملاق من الأجرام التي يحتويها – مئات مليارات المجرات التي تضم كل منها مئات مليارات النجوم –، الكون فارغٌ أساساً: يضم الفضاء، وسطياً، ذرة واحدة في المتر المكعب فقط، وهذا ما يمثل كثافة من معدل ٣٠-١٠.

أمَّا نسبة المجهول المئوية في الكون فهي ٩٦! لا تمثل المادةُ التي تشكل الأجرامَ – كواكب، ونجوم، وسدم، ومجرات – سوى ٤٪ من الموازنة الكلية الكتلية والطاقية للكون. تبقى نسبة ٩٦٪ مجهولة. ٢٢٪ مادة مظلمة، و٧٤٪ طاقة معتمة....

بالسنوات الضوئية: ١٠٠ مليار سنة ضوئية هو قطر الكون المرئي، كرة ظاهرة. هذه الكرة محدودة بـ«الأفق الكوسمولوجي» horizon cosmologique، الذي يتوافق والضوء الأول الذي صدر بعد الانفجار الأعظم منذ ١٣،٧ مليار سنة: يستحيل رصد ما وراءه.

الكون خلوي: المجرات في الفضاء موزعة ليس على نحو عشوائي، بل على وجوه وحدود «فقاعاتٍ» bulles كونية حقيقية قطرها نحو ١٠٠ مليون سنة ضوئية.

١٠٠٠٠ مليار مليار هو العدد التقريبي للنجوم الموجودة في الكون المرئي. تولد فيه كل يوم نحو ١٠ مليارات نجم، بينما ينفجر ١ مليون نجم آخر في الوميض الخاطف لمستعرٍ فائق.

ووفقاً للمعطيات الإحصائية، ١٠٠ مليار هو العدد الكلي للمجرات القابلة للرصد في الكون المرئي.... تمَّ عملياً تصوير بضع عشرات الملايين منها فقط، وقد تلزم قرون للتمكن من تسجيلها كلها.

المصدر: Science & Vie

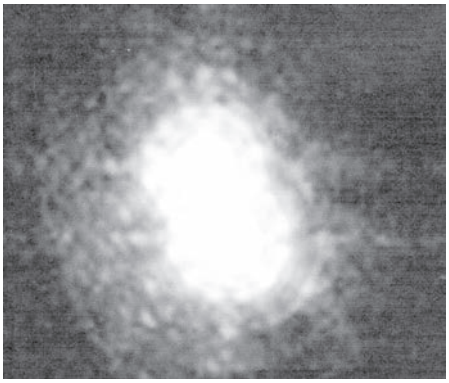

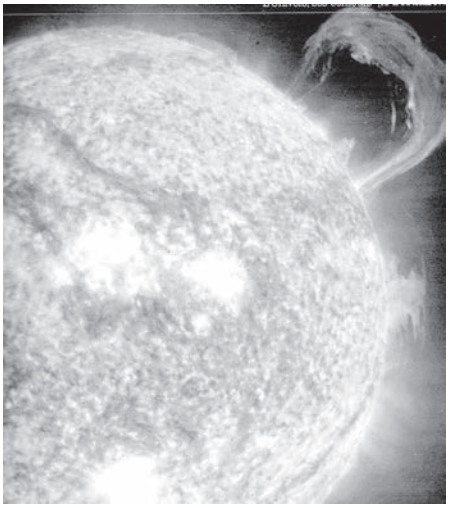

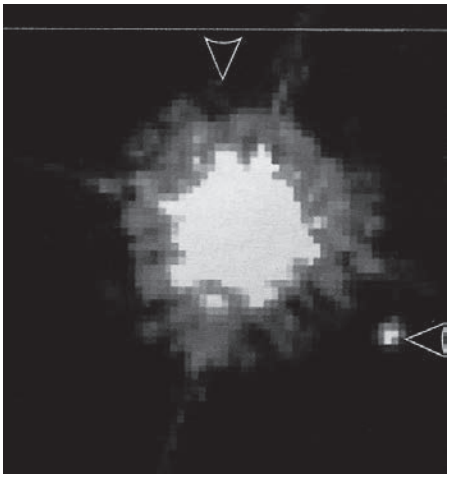

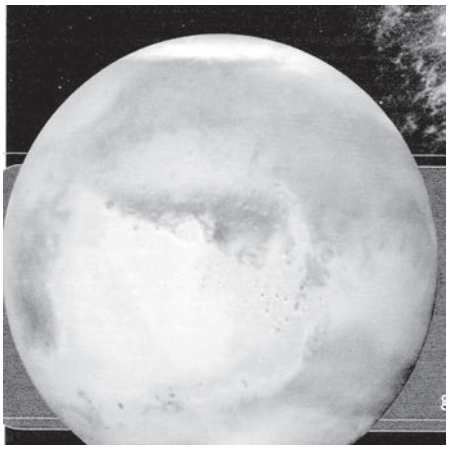

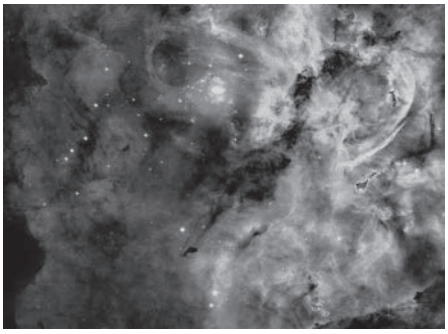

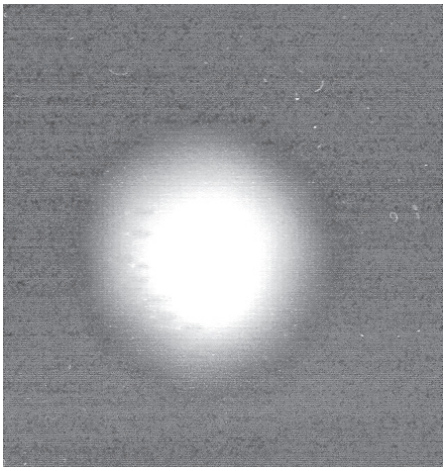

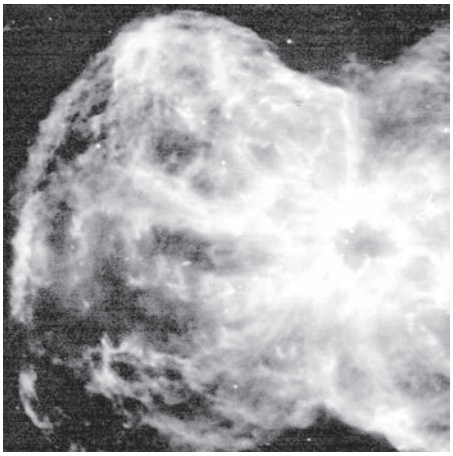

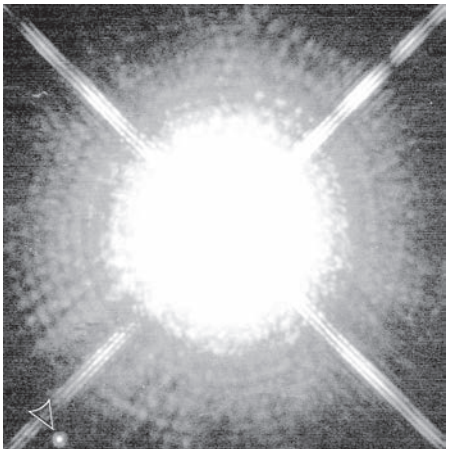

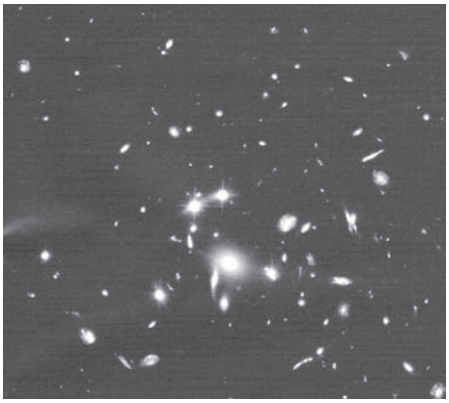

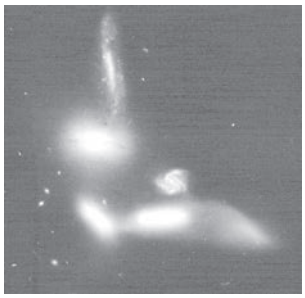

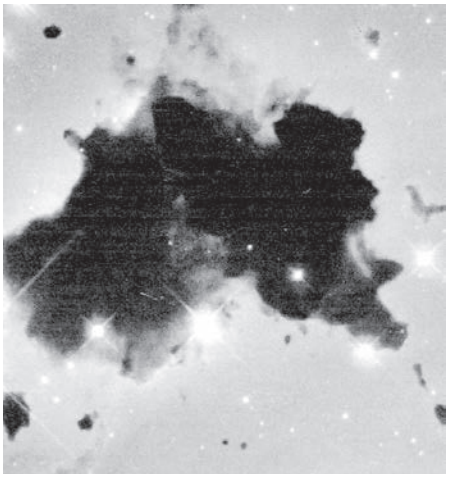

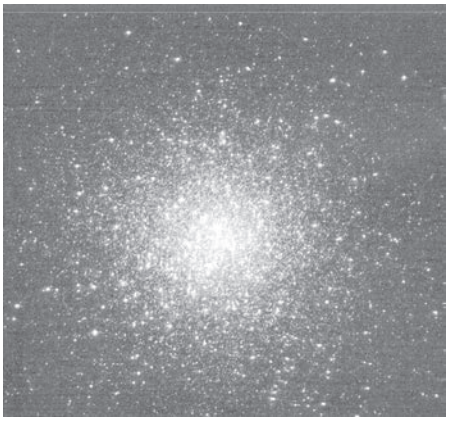

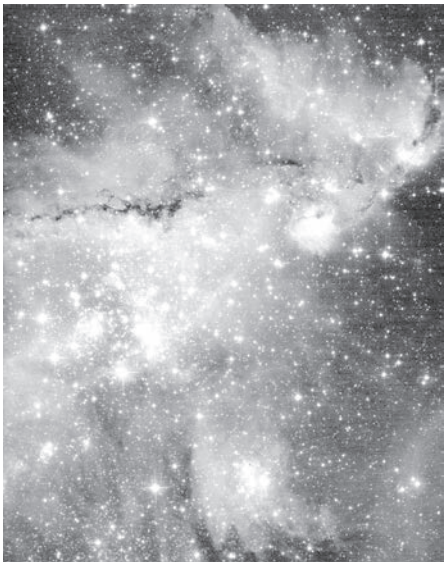

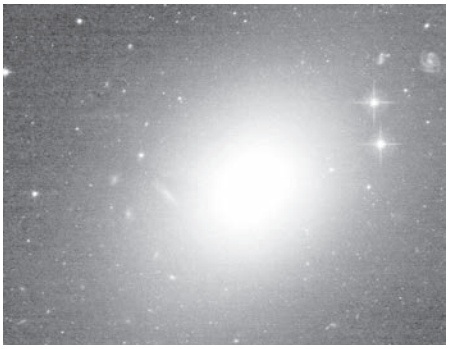

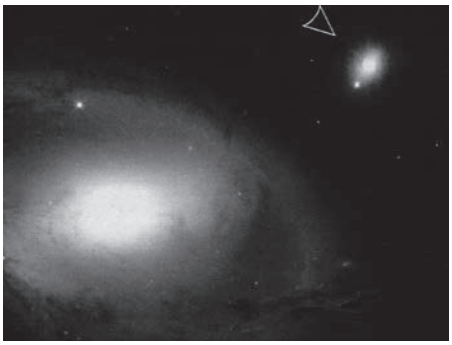

على باب المَغَارة

سليمان العيسى ❁

أيُّهذا الحَجرُ الضَّخْمُ على باب المغارَةْ
أيُّهذا الراكدُ، المنغلقُ، الأعمى، الأصَمّ
مُلجماً كلَّ ارتعاشٍ.. كل فَم
عبثاً نبحثُ عن قطرة ضوءٍ،
عبثاً نحلُمُ،
نَهْوَى،
نعشَقُ
عبثاً نحترقُ
عطشاً للنور..
في ليلِ المغارَةْ
أيهذا الحجرُ المطبقُ..
ينهالُ على باب المغارَةْ
خِرَقاً حَجرَّها الدهرُ..
فشَلَّتْ كل حُلْمِ
أطفأتْ -واسألْ سمانا- كل نجمِ
أيُّهذا الحجرُ الضَّخْمُ.. متى تنزاحُ؟
يبدو مستحيلا
أن ترى أعينُنا قطرةَ ضوء.. مستحيلا
وتهاويلك تلغينا..
متى يصرعُكَ الضوءُ
على باب المغارَةْ؟

❁ شاعر الطفولة والعروبة الكبير.

قريتي وموعد الربيع

محمد حسن حشمة ❁

هلّ الربيع فكل عين هانية
والأرض دغدغت السماء الصافية
نشوى تبث إلى الغدير حنينها
ريانة بالعطر ترقص زاهية

خطر النسيم على السنابل فانحنت
شوقاً وصفق بيدر في الناحية
لعبت بها ريح الشمال وصففت
فإذا بها موجاتها متتالية

❁ أديب وشاعر سوري له أكثر من ديوان منشور.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

ياقريتي نيسان حل ربوعنا
فترقبي آمال حب آتية
والشمس ساطعة على عشاقها
كالبيرق المنشور فوق السارية
والأقحوان موضب وشقائق
سفحت على الوادي دماءً قانية
وشت بها الأرض الضحوك رداءها
بقلائد في روعها متناهية
نشر الجمال على ربانا سحره
عبق الشذى في المنحنى والرابية
وحدائق مخرت ببحر أخضر
هيفاء تمشي كالفتاة الغانية
تبدو بأثواب الفخار وسيمة
وثيابها بالأمس كانت بالية
والبلبل الغريد يفضي سره
وحنينه قرب المياه الجارية
وقرأت في وجه السفوح صبابة
فتفردت بين النجوم الزاهية
من نغمة الينبوع في قيثارتي
نغمات حب في الشفاه الحالية
تأتي إليه صبية بجرارها
والورد يرسم في الخدود العافية
ولع الجمال بعقلها وجمالها
شغفت بها تلك الخصال السامية
وصغيرة في الحب دللها الهوى
تهوى بسن لا يزيد ثمانية
رقص الحياء بوجنتيها فانثنت
كتماوج الأزهار قرب الساقية
يا حلوة العينين أسكرني الهوى
وأكاد أغرق في الشفاه الدافية
فالريف في عينيك رش أريجه
وأنا أقطف من لماك القافية
والنبع في شفتيك يجري ماؤه
وأنا هنا.. نفسي الكئيبة صادية
أأظل أشرب لوعتي وتولهي
والخصب لا يأتي إلى بستانية
والدفلة الخضراء.. تعشق نغمة
ألفت مع الأيام حب الساقية
تتعانق الأطيار.. فرحى حولها
ويؤمها الراعي معاً.. والراعية
ويهيم بالمزمار.. لحناً دافئاً
بين العتابا في مروج ساجية
نجوى يهامسها الربيع.. فتنتشي
طرباً.. وتجري في الغصون العافية
فلاحة سمراء.. تعرق أرضها
تجني الحقول بجدها متباهية
والنهر أغنية السهول.. ترددت
نغماتها.. فوق الجبال العالية
للسهرة العصماء.. في أكواخنا
حب الصفاء.. على القلوب الصافية
والليل يحتضن النجوم، وبدرها
عشقت سماء الريف تلك الناحية

في موعد الأعراس تبقى قريتي..
سكرى بعرس شبابها.. أو لاهية
وجبالها للبحر منها طلة
تشفي النفوس.. المتعبات القاسية
من تحتها نهر الكبير مصفقاً
يجري.. كأنك في الجنان العالية
فإذا دعوك إلى الصلاة لغيره
صلي شموخاً.. لا تصلي جاثية
حاشاك من حب الخنوع.. لغيره
فهو الذي أعفاك ذل الطاغية
يا قرية الشهداء إن دماءهم
نبتت بحمرتها شقائق قانية
يا قريتي وسع الزمان.. محبتي
ما الشوق عندك.. لا أراك مبالية
فاحني على جسدي.. بكل طهارة
فالروح فوقك.. سوف تبقى لاهية
يا ملتقى الأحباب.. يا بلد الهوى
عيشي بقلبي نغمة متنامية
يا قريتي.. والشوق يغمر مهجتي
هل نلتقي بعد التنائي ثانية؟!
والحب يجمعنا.. بظل غصونه
كالطير في الأعشاش فوق الدالية
لأحب من مدن الحضارة كلها..
كوخ.. تدغدغه البراعم حانية
يا قريتي.. أهواك حباً خالداً
يا نغمة سكرى.. بعين غافية

المرآة المائلة

صلاح دهني ❁

كنت مستلقياً على سريري وإلى جانبي كأس شاي يبرد ببطء فوق (الكومودينا) مع مجموعة الأدوية التي كنت أتناولها، تحاملت على نفسي وانتقيت العلاج المناسب لجرعة الصباح، عدت أتـرك رأسي يهبط إلى الخلـف على الوسادة وأغلقـت عيني. لكن بدل أن يأتي النوم كدرفة نافذة تغلق، ذهب ذهني إلى صديقي عزمي.

في المـرآة المائلة، كنت أرى صورتي، بعينين مخضوضتـين، وخدين خشنين لم تطلهما شفرة حلاقة منذ أمد.

يومان انقضيا لم يأت فيهما صديقي عزمي لزيارتي مع علمه التام بأني ما أزال طريح الفراش أعاني بعد وقعتي المؤلمة على ركبتي اليسرى منذ مـدة. أبداً لم يكن عزمي تأخر عن زيارتي بهذا

❁ أديب وقاص ومخرج سينمائي.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

النحو. حتى أثناء الأزمة الوزارية، كان يعودني كل يوم رغم أشغالــه الكثيرة في الجريدة التي كان محــرراً فيها. تذكرت أنــه بدا لي مهموماً في زيارته الأخــيرة. كانت علائم القلق متبدية على وجهه، تخونه في حديثه رغم محاولاته في صوغ أقواله بصيغة المرح التي تعودتها وتعودها أصحابنا في كل ما يبدر عن عزمي.

فيمــا أنا في هذا، وإذا عزمي بالذات يقبل علي والابتسامة تعلو محياه، يأخذ يمناي في كلتا يديه ويهزها وهو لا ينفــك يبتسم من دون أن ينبس بكلمة واحدة، كمن في قلبه أشياء وأشياء لا يفصح عنهــا لسانه. تبادلنا بعض العبارات التــي تعوّد الناس إعادتهــا عند التلاقي، لكن بصيغة الهزار المبطن. وحاول هو معاودة لعبته التي ظنها انطلت عليّ في زيارته الأخيرة.

لكنه حــين رأى، أمام نظراتي ولهجتي، أن لا معــدى عن الوصول إلى موضــوع مايشغله، إن عاجــلاً أم آجلاً؟، قرب كرسيه مني متأهباً لخوض حديث كنت أتوقعه. قلت:

– إنَّها امرأة، أليس كذلك؟

– إنَّهــا امرأة، قــال وهو يهــز رأسه كمن يعترف بذنب.

قلــت: ومنذ متى كانت البنــات تؤثر فيك مثل التأثير الذي أرى، أيها الخليع؟

قال مدافعــاً عن نفسه بلهجــة لم نعتدها منه:

– لكنهــا امرأة، أو بالأحرى فتاة فريدة، لا كباقي الفتيات.

– وكيف تكون الفتيات الفريدات؟

قال: كــفّ ساعة عــن المزاح بــل والهزء، أقسمــت عليك بالله! ما كان في خاطري أصلاً أن أخبرك بشيء لأنك لن تفهم.. سكت لحظة ثم عاود: على كل حال أضعتها، ولن أراها بعد اليوم. وبعد لحظة صمت أخرى عاود: صدقني هذه المــرة. وقعت على فتاة لا كالفتيات، لكني أضعتها، وإلى الأبد. أجل، سأقص عليك قصتي مهمــا يكن منــك، لأنَّها تحرق قلبــي ولساني، ولأنك الأوحد والأقرب.

تفتّحت قابلية عزمــي للكلام وراح يفيض فيــه. فيمــا رأيتنــي أوخــذ وأنصــت بقلبي وجوارحي بعــد ضحك وهــزء. رأيتني أنساق أمام قصة حب حقٍّ، من تلك القصص التي لا يمر بها قلب إنسان إلا مرة واحدة في العمر، أو لا يمر، من تلك التي تأنس لها الروح وتطهرها من كل دنس؟

عمرها عشرون سنة –بدأ عزمي حكايته– كانت تضع وشاحــاً أخضر يلفّ شعرها ويدور حول رقبتها عندمــا رأيتها. من تحت الوشاح، وعلى عرضــ الكتفين كانت خصل من شعرها مموجة بديعة تتناثر. ورغــم أنها تقضي أكثر حياتها في الريف، كما حدثتني فيما بعد، كانت بشرتهــا ناعمة، وعلى قفــا يديها تميز عروقاً خضراء دقيقة، يدان رقيقتان، ساحرتان.

علــى حدقتي عينيها يقــرأ الإنسان ما في قلبهــا، تكــبران وتصغــران كلما تغــير النور، وكلمــا تغير ما في القلب أيضاً، شفتاها كأنهما

مرسومتان بيد فنـــان، إشارة خاصة: الصوت! صـــوت خفيض بتموجـــات لا تصيـــب الأذن فحسب، لكن كطنين العود تصيب تلك الشبكة الدقيقة مـــن الأعصـــاب التي تسكـــن حفرة الصدر.

يومها كان السبـــت، في مثل هذا اليوم من أسبـــوع، كانت تتنـــزه، كما بـــدا لي على ضفة بردى، ثرٍّ متموج في مستوى التكية السليمانية، فهمت أنَّها كانت تفكر في نتيجة فحص خرجت منه للتو، رأسها الفتي كانت تزحمه مئة مسألة ومسألة. توقفتْ في وقت ما تمتّع عينيها بمنظر ثانوية جـــودت الهاشمـــي وبعمارهـــا العربي البديع. خلفها كان الماء ينساب، وتحت قدميها يمتد ظل طويل بلا نهايـــة لِسلسلة من الشجر ممتدة بلا نهاية.

أنـــا كنت أحثّ خطـــاي إلى إدارة جريدتي في ساحة المرجة حامـــلاً مقالتي الأخيرة التي كنـــت انتهيت مـــن تدبيجها قبـــل قليل. لفتت الصبية نظري، كان في سيماء وجهها مزيج من القلق والتأمل. تمهلت ناظراً إليها بتودد، قلت مبتسماً:

- بديعة هذه المدرسة.

- بديعـــة.. ولكن... أجابتنـــي كما لو بلا وعي.

عنـــد ذاك توقفـــت. أدرت معهـــا حديثـــاً قصـــيراً تافهـــاً مثل كل الأحاديـــث التي يمكن أن يتبادلها مجهـــولان. هناك شيء ما جذبني، استوقفنـــي.. أهـــو صوتها عندمـــا فاه بهاتين الكلمتـــين: (بديعة.. ولكن...)؟ لهجة كلامها لم تكن دمشقية.. لم أُبالِ. انطلق لساني ذاكراً قبر صـــلاح الدين الأيوبي قـــرب الجامع الأموي.. مقام السيدة زينب، مسجد الشيخ محيي الدين ابن عربي..

كانت هي قد زارت متحف دمشق، ومتحف حلـــب، ومقـــام خالد بـــن الوليـــد في حمص، أعجبـــت بالآثار الرومانيـــة في تدمر.. أكملت أنا الحديث بدوري عن المتحف المصري وآثاره الفرعونية المدهشة.

هكذا انقضـــت ساعة أو تزيـــد. لا بد أن هناك شيئاً ما جرى، جعلها هي تنسى متاعبها الخاصـــة مع الفحص، وأنـــا أنسى مقالتي إلى الجريدة، كنَّا نواصل السير على طول نهر بردى. ذكـــرت أنَّها طالبة سنة أولى حقوق. ذكرت أنها لم تسافـــر خارج البـــلاد، وأنَّها لا تعرف بيروت وعاليه وبحمدون وصوفر، بل حتى ولا شتورا. أبـــداً لم تدخل مقهـــى، لم تحضر حفلة تمثيلية. أبـــداً لم تقابل كاتباً ولا ممثل سينما ولا مغنية. كانت بعيدة عن أجواء الرقص والسهر والرمبا والسمبا والفالس، وحتـــى التانغو، أمّا الروك، أما الجاز...

اللّه كم بدت بريئة ونقيـــة! ملامح وجهها أنيســـة ومؤنسة تعبّر عـــن مشاعرها أكثر من الكلمات. لم تتكلم بحماســـة إلا عندما طرقت مسألة دراستهـــا، وكفاحها تجاه تصلب الأهل، لمتابعتها، فرصة أكبر يمنحها الأهل للأبناء من دون البنـــات، هي أيضـــاً كادت تضيع. تضيع

بـين قطيع الجاهلات المجهولات لولا عزيمتها وإصرارها.

ابن عم لها كان يكتفي للبنات بالسرتفيكا، هذا القـزم الجاهل كان يموت غيرة كلما رآها متفوقة تنجح من صف إلى صف، ومن مدرسة إلى مدرسة أعلى. أمَّـا الجامعة حيث تختلط البنات بالشباب، فتلك ثالثـة الأثافي. انظروا -كان يوسوسـ في آذان أهلهـا- انظروا كيف أصبح الشبـاب يرمقونها كلما مـرت. وباسم الشرف مـرة، واسم الدين والخلق القويم مرة، كاد اللعين يقضي على مستقبلها.

فيمـا كان عزمـي يحدثني في هـذا كله، شعـرت علـى غير العـادة، أنَّ شيئاً مـا حاراً وصادقاً يحتدم في أعماقه. فما رأيتني إلا وقد أقبلت على حديثه منفتح النفس، مستزيداً.

كنَّا قد بلغنا منتزهات الربوة -تابع عزمي كلامه- واستقرّ بنا المقام على كرسيين متقابلين حول طاولـة صغـيرة يدثرها غطـاء نظيف مزدهي الألوان، وأمام كل منا كأس شاي.

اسمع يا صديقي، أقول لك الحقيقة؟ هذه الفتاة هزت عواطفـي واستفزت شعوري وهي تتحدث عن حال المرأة في بلادنا الفتية، وحالها في بـلاد أخرى: عاملـة في مصنع، موظفة في مكتب، سائقة تكسي، كاتبة، عالمة، وزيرة..

أذكر تمامـاً كيف كانت تتحدث. وجهها لم يكن محمراً حمرة الغيظ الأهوج، يداها لم تكونا تصفعان الهواء وتؤشران. كانت هادئة، ساكنة، رزينة.

قلت لعزمي:

- مهلاً، ويحك.. مجروف وجرفتني معك.. واضـح أنك بت، في غفلة من طيشك وجنونك، متورطـاً إلى الأعماق، كأنـك في حالة غفلة. جرع نصف كأس الشاي، وقلب يده إلى الأعلى بحركة اليائس من حسن تقديري.

- واضـح أنك لـن تفهمني، أنـت طلبت منـي الكلام، وها أنـت تستنكر كلامي وتتنكّر لحالي.. صدقني أن هذه البنت هزت عواطفي بحديثها الناري البارد، الثوري الهادئ حركتني، حرّضتني..

- قف، عندك! قاطعتـه وقد هببت ناسياً رجلي ووجعي- الآن جعلتني أؤمن أنك بحاجة لا لمن يستمـع إليك منفّساً عن مشاعر مراهق مظلوم، محروم، بـل بت بحاجة مؤكدة لطبيب نفساني.

- ليكن، قالهـا هازاً رأسـه بالموافقة. أنا معك.. طبيب نفساني أليس كذلك؟ ليكن! لكن موقفـك لن يغيّر قناعاتي. علمـاً أنني سأكون مهادنـاً معك، متفهماً مـا ينجم عن أوجاع في الرجل قد تؤثر في خلايا الدماغ..

أخذ عزمي يـدي من بعد، وهزها بلطف. ارتسمـت على وجهه إحدى تلـك الابتسامات الحنـون التـي كان يأسرني بهـا ويأسر أقرب الأصدقاء حتى في أشدّ المواقف.

تلك كانت الرهينـة الحلوة التي خلفها في عهدتي قبل أن يغادر.

❁ ❁ ❁

حكاية عزمي مع تلك البنت ظلت تدوّم في رأسي. أُحُبٌّ عابرٌ هو يقضّ حياته ثم ينقضي كقرصة دبور، أم هي قناعة حقيقية سيكون لها ما بعدها؟

أهتف له فلا يرد، أترك له كلمات حادة على المجاوب الآلي في بيته: (أعرف أنك في البيت لكنني لا أفهم سكوتك. حتماً جُننت!).

جاء الطبيب بعد أيام يعودني، طمأنني أن الأمور على ما يرام، لكنه نصح بعدم الحركة الزائدة، وخصوصاً بعدم مغادرة البيت. فما إن غادر هو حتى رأيت عزمي يطل من باب الغرفة. انتصبت في سريري مرحباً. جاء إلى جانبي وأخذ يدي مصافحاً، لكن شيئاً ما في طلّته المنتظرة، بل المرغوبة، لفتت نظري، لم يعجبني.. وراء بسمته الفاترة ما وراءها.

جلس على كرسي مجاور وبدل دفقَ حيويته المعتادة فوجئت من نظرته بما يوحي بالأسى، أو لَمَ لا، بالقهر، حبست من جهتي نفسي عن الكلام مراعياً اللحظة وفي داخلي تحتدم الرغبة في مشاركته فيما يشغله ويحزنه. تلك ليست عاداته. لم يكن أبداً بيننا ما يخفيه الواحد عن الآخر.

قلت محاولاً كسر جمود اللحظة:

- أعرف أن بطاريتك لا تفرغ.. أهي بحاجة إلى شحن؟

- أنا كما تعلم أفيض قدرة بحيث أشحنها وأعيد شحنها وحدي.

- أفصح إذن.. قتلتني! إذا كانت حكايتك مع تلك البنت تسربلك بالهم على هذا النحو، فأنا لها.. سأتعكّز على عصا وأذهب لأخطبها لك، تضاحك عزمي من القلب هذه المرة.

- نعم هي حكايتي مع تلك الفتاة الرائعة التي تسميها حضرتك: البنت.

قلت لك إنها فتاة رائعة، وما تلا لي معها من لقاءات بعد مشوار ضفة بردى ومقهى الربوة، أكد مشاعري. وحكمي عليها لم يكن زعماً غريباً إذ خلف في رأسي عواء. في غفلة مني سقطت في حبها -أرجوك لا تضحك- بت فريسة قلق شوش حياتي.

ستفهم حالي وأنا أروي لك بقية القصة. قالها وما يشبه الدمع يكاد يتفجر من عينيه. حاولت الكلام، لكنه أشار بيده ألا أقاطعه. وأنا امتثلت.

تعلقي بهذه الفتاة -التي أعود فأصفها بالرائعة- جعلني أنتظر بشوق نهاية التزامها بمحاضرات كلية الحقوق لنتصاحب يومياً في مشاوير في الصالحية أو في سوق الحميدية، أو حتى في باب توما، حماسة مراهق، أليس كذلك؟ هي صفة من زمن الطفولة لم أتخلص منها تماماً، كم من حولي راشدين نسوا هذا الشعور الخارق. من بعد، يمكنني القول إنني بت جديراً بأن أكتشفها صفحة بعد صفحة.

ذكرت لي أنها كانت تتبادل الكتب مع صديقة لها معلمة هاوية قراءة. كانت المعلمة تحب القراءات العربية الجديدة، الأقرب إلى عصرنا. كفانا جموداً وثباتاً -كانت تردد- عند

أسلوبيات القرن الرابع والخامس- الكلمات، المفردات، هل هي سوى الحامل لما نعبر عنه. لماذا إذن نعطيها من الأهمية أكثر مما تستحق؟ لماذا نجعل القديم مما حال لونه يستعبدنا؟

ذات مرة توقفت عند كتاب (ألف ليلة وليلة)، كتاب تقول عنه: إنه يعرّف الإنسان بالحياة والمجتمع، العواطف، وجميع الوجوه التي يتخذها المحب.. حدثتني عن قراءتها له من دون خجل كاذب، ولم تخف عني اللذة المتجددة كلما انكبت على الألف ليلة وليلة. مثقفة هي أكثر من حكيم شاب أو عاهر عجوز!

حدثتني عن صديقتها تلك لكنها لم تحدثني عن قلبها هي. هل كان علي أن أفكر إنه لم يختلج أبداً بالحب.. هل في حياتها شاب قبّلها؟

في إحدى الأمسيات، بعيداً عن الأعين، عندما افترقنا.. نعم عندما افترقنا -يا للأسف وللأسى- لئلا نلتقي فيما بعد سوى لحظة غبية، بلهاء، مجرمة.. لحظة مقدرة جعلتها تهرب مني إلى غير رجعة.

لفظ عزمي كلماته الأخيرة وعيناه متعلقتان بالبعيد خلال نافذة الغرفة، بتلك النقطة التي يلتقي فيها خطان متوازيان. التفت إلي:

أنت تنظر إلى الساعة يا صاحبي وفي ذهنك إني حيوان غريب جرت معه قصة ملائكية غريبة لم يكن يستحقها. تتساءل كيف ضاعت مني فتاتي بالسهولة التي لا تتصورها بعد كل الذي كان. لكن بالله عليك انتظر بقية ما أقول، ثم أحكم.

دمشق كانت كالنار المحرقة في ذلك اليوم. الإسفلت في الشوارع كان ليّناً، وحتى اقتراب المسار لم يأتِ بالرطوبة. كانت تحمل رداءها على ساعدها. صدرها العالي كان يبرز تعرجات ملابسها الداخلية. أكبرها أنا بخمس سنوات. عرفت كل عواطف الأهواء، لكن حتى ذلك الحين كنت أجهل الفتنة الساكنة التي تولد فقط من وجود مخلوق أقبلنا عليه ونحن نجهل أننا بدأنا محبته بعد.. حتى فكرة المشي معها جنباً إلى جنب بخطاً متساوية، والذراع البض بجانبي تحرجني ملامسته.. كل هذا أمكنه أن يولّد فيّ سعادة لم يولدها في يوم، أي حب وأي هوى.

كل شيء في ذلك المساء، قبل يومين فحسب، جرى كأنه كان مقدراً، مكتوباً في لوح خالد. معنى واحد للكون، للحياة، للناس، للقدر، هو تفرغنا التام. السلسلة التي بدأت تربطنا الواحد بالآخر، فجأة بدأنا الكلام عن المستقبل، عن الوئام، عن المحبة. لم تكن قد وضعت خدها على خدي. يداها لم ترتبطا بيدي في غير لحظات. قالت لي فقط: كنت متأكدة بأني سألاقيك الآن أو بعد عشر سنوات.

تبادلنا في ذلك المساء تلك القبلة... قبلة وحيدة -الله كم كانت منعشة، حارة، صادقة- تواعدنا. افترقنا. هذا الموعد الحزين الذي لم يتحقق.

غصَّ عزمي عند هذا الحد وقد توهج خداه- لم أعلق أنا بأية كلمة قد تكون في غير محلها في ذلك الموقف. بقيت منصتاً، مفاجأً.

انتبه الآن يا صاحبي لما سأقول، قبيل الساعة الثالثة من ذلك اليوم كنت منتصباً أمام سينما دنيا في انتظار الموعد، أكاد أكون في عالم غير عالمنا. فجأة رأيت ابنة عمتي منتصبة أمامي والناس يتوافدون. كانت بصحبة اثنتين من رفيقاتها. سلام وعتاب لأني لم أحضر لزيارة العمة منذ زمن. وإذ تململت رفيقتاها بين الجمع، ودعتني، سارت خطوة عادة بعدها تُسرّ لي أمراً في إذني، لم أسمعه، وذهبت.

في تلك اللحظة بالذات رأيت فتاتي مقبلة نحوي وفي اللحظة نفسها رأيتها تستدير وتعود مبتعدة. ذهلت وأنا أراها مسرعة كالهاربة، حتماً هي ظنت، وابنة عمتي تسرّ في إذني، أن هناك علاقة أثيمة بيني وبين الآنسة. لم تعرف أنها قريبتي، وأنها كأختي.

حاولت اللحاق بها من فوري. لكن عوائق الدنيا قامت في وجهي بين الناس المتجمعين. فما خلصت حتى كانت اختفت. ركضت هنا وهناك، بلا فائدة. فتشت في المخازن القريبة. دخلت صيدلية، مكتب طيران. لا أحد. همت على وجهي في الشوارع القريبة، ضفة بردى.

في ذلك المساء، وفي اليوم التالي، توقعت منها اتصالاً هاتفياً لم يأتِ. صمت مطبق، خانق.

ضاعت مني فتاتي. لم أرها من بعد أبداً. سوء تفاهم، سوء تفاهم لا أكثر. توقف عزمي عن الكلام وهو يصفق كفاً بكف. وأنا أمامه لا أجد ما أقول وكأني أضعت أنا أيضاً لساني وفكري. وعاود:

أرأيت يا عزيزي، سوء تفاهم بسيط. المرء لا يهدم حباً كبيراً بسبب سوء تفاهم. مضحك هذا، حُبّك، صدقني، كالمأخوذ ظللت أبحث عنها فيما بعد في كلية الحقوق، في الحارات، حيثما توجهت. لم أجدها، وأشعر أن قدري ألا أجدها أبداً.

هل تصدِّق؟ أضحى الأمر يختلط علي، حتى لأظن أحياناً أني لم ألتق أحداً، لم أكلّم أحداً، لم يخفق قلبي بحب. أضغاث أحلام عصفت بذهني ثم توارت.

حب كمثل حريق شب، لهيب انقضى، رماد تذروه الريح.

الـرايـــات

يوسف جاد الحق ❁

حدث هذا قبل آلاف السنين:

حدَّثــه جده عــن أصــل الحكايــة لدور (العَلَــم) في الحــروب بين القبائــل والشعوب منــذ البدايــات الأولى. ربما كانــت الحكاية صحيحــة، وربما لم تكن كذلــك، بيد أنَّه قبلها (على علاتها) لأنَّ جدَّه هو الذي قصَّها عليه، وليسَ لأحد -من باب اللياقة والأدب- أنّ يشك فيمــا يقوله الأجداد، لاسيما من انحدر عنهم من الأحفاد..!

قال زعيم القبيلة لزمرة الشيوخ المتحلقين حولــه، فيمــا هم يعبثــون بلحاهــم الطويلة بأصابعهم المعروقة، بعــد أن روى لهم أسباب الخصومــة مع القبيلة الأخــرى التي أزمع أن يشن عليها حرباً ضروساً لا هوادة فيها.

أيُّها الربع:

عليكم أن تقنعــوا أبناءكم ونساءكم، وحتى مواشيكــم وأبقاركم، أنَّه بات لزامــاً علينا أنّ نقاتل ذلك العدو الرابض عند أطراف مرابعنا، فهو يبغــي الاستئثار باقتناصــ الغزلان التي تقتنصونهــا أنتم في العادة مــن هذه البراري، كمــا أنَّه ينوي إيثار نفســه بماء النهر الجاري هناك، وربمــا يحول دون وصــول مائه إليكم بغية القضــاء عليكم عطاشاً. مــن ثم أمسى واجبــاً علينا، أيها الربــع، أن نهب للذود عن حياضنا وأن نقف في وجهه لنحول دون تحقيق أهدافــه الشريرة المنكرة. هــذا ما أعرفه عن أبي لبنى.. والمخفي أعظم..!

انفضّــ (مجلس الشيوخ) عقــب الاستماع إلى زعيــم القبيلة ساعات وساعــات. مضوا

❁ أديب وباحث وقاص فلسطيني.

يتخرصـــون، ويفكرون، ويتحاورون من دون أن يستقر لهم رأي أو يتبين لهم وجه للحقيقة. ثم ما لبثـوا أن تفرقوا جماعات يتناجون قبل أن يتوجهوا نحو خيامهم، لكي يحملوا إلى نسائهم مضمون مـا سمعوا من زعيـم القبيلة. قلَّبوا الأمـر على وجوهه في فرشهـم، وعلى وسائد نومهم، حتى أقضَّ مضاجعهم، ولم يدع للنوم سبيلاً إلى عيونهم، ولا لأي شيء آخر..!

ربمـا كانوا مقتنعين بـأنَّ ما سمعوه لم يكن صحيحـاً، وأنَّ المسألـة برمتهـا لا تعدو رغبة الزعيم في بسط سلطانه (وليس سلطان القبيلة) على رقعة الأرض المجاورة وضمها إليه، فضلاً عن رغبته في الانتقام من زعيم القبيلة الأخرى الذي رفض أنّ يزوجـه ابنته (لبنى) التي هي أصغـر من ابنتيه (زلفى ونعمى).. وأنَّ ما قاله لم يكن سوى ذريعة ليس إلا.

المسألـة إذن شخصية بحتـة، ولكنه يعمل على أنّ يلبسها طابعاً جماعياً، تحت ستار من الأباطيل والذرائع التـي لا تمت إلى الحقيقة بصلة.

بيد أنَّهم في شتـى الظروف، وعلى الرغم من كل شيء، لا يملكون إلا أن يستجيبوا. أجل لا يسعهـم إلا أن يطيعـوا أمـر زعيمهم شيخ القبيلـة، وإلا كانـت العواقـب وخيمة، فلقد عرفـوه قاسياً لا يرحم، لا تأخذه رحمة فيمن يعصي له أمراً. وهم يعرفون أيضاً نوع العقاب الذي ينتظر العصـاة والمناوئين والمستنكفين، والذي قد يكـون أهونه إلقـاء واحدهم أمام جمع مـن الوحوشـ الكاسـرة لتنهش لحمه، جهاراً نهاراً، وعلى رؤوس الأشهاد، في الباحة الواسعـة التي تتوسط الخيام. من أجل ذلك لم يكـن أمامهم سوى الإذعان لمشيئته التي لا راد لها ولا معقب عليها.

لم ينقضـ زمن طويل حتى تكوَّن من أفراد القبيلة جيش عرمرم. شرع الزعيم، من غير وناء، يشحن جيشـه الفتي بالأفكار المعادية للطرف الآخـر، وبمقولات يخترعها لهم اختراعاً ـ هو نفسـه لم يكن مؤمناً بها ـ عاملاً على توطيدها في نفوسهم، كيما تصبح عقيدة قتالية راسخة لكل منهـم. ولكي تدفعهم إلى مناجزة عدوهم الألـدّ، وليبذلوا دماءهم (رخيصة) من أجلها. ذلك فضلاً عن التدريـب المتواصل استعداداً للمواجهة المرتقبة.. والمعركة (المصيرية) التي ينبغـي أن تكون فاصلة، لكي ينعموا، من بعد، بالغنائـم الوفيرة مـن القطعـان والمراعي.. والسبايا -على وجـه الخصوص- من نسائها الجميلات.

❁ ❁ ❁

فكر الشاب (وضاح)، شأنه شأن الآخرين، بمـا يجري. (وضَّـاح) هـذا كان معروفاً بين أقرانـه بصمته الطويل. لم تكـن سحنته تنبئ عن شـيء البتة، ولولا تحـرك عينيه لحسبه الناظـر إليه تمثالاً منحوتاً مـن صخر أصم. ولقـد اختلفوا حتى على الأوصاف التي يمكن أن تليق به وتنطبـق عليه. ففيما رأى بعضهم أنَّه كائـن عالي الذكاء شديد الفطنة والدهاء،

رأى بعض آخــر أنه لا ينطوي إلا على مخلوق غبي أبلــه. فيما رأى غير هؤلاء وأولئك أنَّه لا يرقــى كثيراً عن مستــوى البهائم، لا يفقه من أمر نفســه شيئاً، وإلاّ لما احتمى بهذا الصمت المطبق المستديم.

والغريــب أنَّه لم يحاول قــط أن يثبت لهم عكس ما يرون في شأنه.

فكر وضاح محدثاً نفسه:

إنَّ زعيمنا هذا يريد لنا أن نموت من أجله هــو، وليس من أجل أي شــيء آخر. وما ذلك إلا لكي ينفس عن حقد يجثم على صدره نحو زعيم القبيلة الأخرى مــن أجل ابنته (لبنى). فهل هــذا سبب وجيــه للمــوت..؟ موتي أنا تحديــداً؟ وهل جــيء بي إلى هــذا العالم قبل ثلاثة عقود من الزمن لكي أنتظر هذا المصير البائــس، لا لشــيء إلا لأنَّ هــذا الرجل يريد ذلك؟ كان عمر أبي ينقص إبان ذلك سنة كلما زاد عمــري سنة.. كذلك كان شــأن أمي التي أنجبتنــي بعد مخاض عســير، أوشكت فيه أن تفقد حياتها، ينقص الزمن من عمرهما كيما يزيــد في عمري. كذلك شــأن رفاقي جميعاً. أنموت في طرفة عين من أجل عاطفة هوجاء، ونزوة حمقاء لهــذا الشيخ الطاعن المأفون..؟ وهل نموت أيضاً بعدما استهلكنا من لحوم هذه الأبقار والأغنــام والغزلان القناطير المقنطرة، ومن الحليب والماء ما يمكــن أن يصنع بحيرة كبــيرة لو أنــه جمع في مكان واحــد، وبعد أن تكونت لنا هذه الأجساد وهذه العقول؟ أنموت بعد هذا كله مــن أجل واحدة من نزوات شيخ قبيلتنا الجليل..!؟

بلغ استياء وضاح هنا مداه، فصاح بصوت مسموع من دون أن يدري:

-ليس عــدلاً أن تسفــك دماؤنا لتشربها هذه الصحراء العطشى إرضاء لشيخ القبيلة.. وإشباعاً لنزوة تملكته!

لا يدري أحد كيف بلغ الزعيم أن (وضاحاً) يفكر على هذا النحــو. ولأن الزعيم يزمع أن يمضــي قدماً إلى غايتــه لا يصده عنها كائن ضئيــل الشأن مثل وضاح ومَنْ هم على شاكلته مــن الأوغاد، خطر لــه أنّ يسكت وضاحاً إلى الأبد. بأن يلقي به في غياهب الجب القريب. ولكنــه خشي تلويث مائه، فهو المصدر الوحيد الذي يمنحهم ماء قراحاً هاهنا.!

فكر الشيــخ في أن يضعه في غرفة مغلقة ذات جــدران سامقة، ونوافــذ ضيقة لا ينفذ منهــا ضوء ولا هــواء، بالــكاد تتسع لجسده. بيــد أنَّه آثر التريث كي لا يثير من حوله ضجة تصرف الناســ عن هدفه المبتغى، الذي يعمل على تسخيرهم من أجلــه. ولكي لا يجعل من وضاح زعيماً ينافسه علــى زعامة القبيلة في قادم الأيــام بوصفه معارضــاً ومناوئاً شديد المراس.

رأى الرجل الحصيــف في نهاية الأمر أن يرجئ موضوع وضّاح هذا إلى حين. أي إلى ما بعد المعركــة المرتقبة. أمّا الآن فما عليه سوى أن يجــد من الأسبــاب وأن يختلق من الذرائع

والمسوِّغات ما يكفل له تحقيق هدفه المنشود. وهــو لن يصل إلى شــيء من ذلك بغير تحفيز أفراد القبيلة على القتــال باستثارة غرائزهم العدوانية الكامنة.

دعــا شيخ القبيلة القوم إلى اجتماع طارئ عام، ليلقي فيهم خطاباً.

هــرع القــوم إلى الساحــة بــين الخيام. انتظروا طويلاً قبل أن يطلَّ عليهم من خيمته الكبــيرة. ساد الصمت. وعمَّ الوجوم والترقب، قبــل أن يشرع الرجل في الحديث إليهم. وبعد أن حمد لهم اجتماعهــم، وأثنى على فطنتهم التي لم يشهد لها مثيلاً بين القبائل، أخذ يشرح لهــم أسباب الحــرب التي يعتــزم القيام بها، مكــرراً زعمه بأنها من أجلهــم هم، ذوداً عن مصالحهم. لم يدع سبباً واحداً من دون أن يعرج عليه لإيغار صدورهم على القبيلة الأخرى، ولا مثلبة من دون أن يلصقها بخصمه. ثم -وهذا كان مثــيراً لدهشتهم- لم يلبــث أن رفع قطعة من القماش ذات ألوان على عصا طويلة، وهو يقــول: (من أجل هذه يجــب أن تقاتلوا.. إنَّها ترمــز إلى أرض قبيلتكم وخيامكم.. إنَّ حماية قطعــة القماش هذه حــين ترفعونها عالياً في ساحة القتال يجب أن تكون غايتكم ومبتغاكم، حتى لو قضى واحدكم نحبه من أجلها)..!

في يــوم المواجهة، نظر وضاح فرأى قطعة القماش ذات لونين اثنين أصفر وأحمر ترفرف فوق الرؤوس. دارت المعركة سجالاً طوال ذلك اليوم على مقربة من خيام القبيلة الأخرى. بيد أنَّ وضاحاً بعد أن قضــى تلك الليلة مسهداً، يقلــب الأمر علــى وجوهه، راعــه أن يرى في اليوم التالي الرجال في الناحية المقابلة يرفعون هم أيضاً فوق سارية أطول من ساريتهم قطعة قماشــ ذات ألوان عديدة غــير واضحة المعالم لبعد المسافة.

احتدمت المعركة، وتساقط الرجال صرعى كجذوع نخل خاوية.

ولما جــنَّ الليل تراءت على مــدى البصر أجساد الرجال الأحيــاء من الجانبين ممددة على الأرضــ بعد عناء يوم شاق، انتظاراً ليوم قتال آخر في الغداة.

❁ ❁ ❁

فكّر وضّاح:

ربما أكون غداً في عداد الموتى.. و(الزعيم) مــا فتئ مصراً علــى ادعائه بأننــا نقاتل من أجل حمايــة قطعة القماش هذه، ذات اللونين الأصفر والأحمر.. وماذا لو أنَّها حملت لونين مختلفين عن هذين..؟ ومــا الفرق بينها وبين أي قطعــة قماشــ أخرى..؟ ومــن أين جاءت القداسة لقطعتــي القماش هاتين..؟ حبذا لو كان هناك سبب أكثر وجاهة. صحيح أن النعاج تســاق إلى الذبح، ولكنها لا تذهب إليه مختارة أو بتحريضــ خطاب،. وإنَّما يقبض عليها من أعناقها لترغم إرغاماً وبالقوة الجسدية. ولكن أحداً لا يسعى إلى إقناعها بأن تذهب طواعية، وبحماسة أيضاً، مــن تلقاء نفسها كي تتناطح مع نعاج أخرى، تحت أي ذريعة، وحتى الموت.

نعاج من بنـــات جنسها ليس بين الواحدة منها والأخرى سبب للتناطح والتذابح. أجل، النعاج لا يقضـــي بعضها على بعضـــ بهذه الطريقة الفظَّة.. لا.. ولا الأبقار والثيران والخيول تفعل ذلك.. يبدو لي أنَّها أرجح عقلاً..! كما أنَّها لا تثير ضجيجاً ولا ترفع قطعاً من القماش، لكي يغرر بعضها بعضاً، من أجل الاندفاع إلى موت ناجز لا لشـــيء إلا لأن واحداً منها أقدر على الثغاء أو الخوار أو الصهيل بصوت عالٍ..!

❁ ❁ ❁

في كل مـــرة كان شيخ القبيلة يلمس تهاوناً أو تراخيـــاً أو فتوراً يعـــتري رجاله يختلق لهم جديداً، أو يذكرهم بشأن قديم منسي (أسماء التاريخ)، لكـــي يرسخ فيهم القناعة من جديد للذهـــاب إلى الموت راضـــين لا كارهين وربما مبتهجـــين أيضاً.! والغريـــب أنَّهم يستجيبون، ويسعون إلى حتفهم حثيثاً. ولم يتوقفوا، ولو مرة واحدة، متسائلـــين كيف نساق إلى الموت سوْقاً كالنعاج، بكلمة تصدر عن شيخ قبيلتنا..؟ وهل أرواحنـــا هـــذه التي بين جوانحنـــا رهن كلمة منـــه لينتزعها من هذه الأجساد؟ هذه الأرواح أتراها ملكه هو أم نحن الذين نملكها..؟

بل إنَّ وضاحاً يراهن على أنَّ هذا كله سوف يتغـــير في طرفة عـــين لو تصالـــح الشيخان.. ولربمـــا ينقلـــب القتال إلى رقصـــ فوق جثث القتلـــى، وفي هذه الحلبة بالـــذات، بمجرد أن تختفي أسباب الخلاف بين زعيمي القبيلتين. عندئذ تكون الأرواح جميعاً، في الجانبين، قد ذهبت ســـدى، وكان مصيرها واحـــداً موحداً علـــى الرغم مـــن أنَّ كلاً منهـــا أزهقت لسبب غير السبـــب الذي قضت مـــن أجله الأخرى، ومن أجل قطعة قماشها المختلفة اللون..! لقد توحد قتلى الجانبين في المصير البائس.

❁ ❁ ❁

تمنى أفـــراد القبيلة، شيوخهـــا وشبيبتها جميعـــاً لو أن شيـــخ القبيلة الأخـــرى يرضى عن تزويـــج ابنته (لبنى) مـــن شيخهم المزواج المتصابـــي.. حقناً للدماء..! أمـــا الذين ماتوا دونما سبب جوهري، فلا شك أن شيخ القبيلة يملك مـــن زلاقة اللسان، ناهيـــك عن القدرة على الإفك والبهتـــان، ما يؤهله لأن يجد لكل ماحدث تبريراً ومسَوّغاً وتفسيراً. سوف يقول للثـــكالى والأيامى.. للمفجوعين واليتامى، بأن ذويهـــم يعيشون هناك حيـــاة أفضل في مكان آخـــر.. فابتهجـــوا أيها الناســـ وافرحوا.. بل إنَّ عليكـــم أنّ تقيموا الأفـــراح وتحيوا الليالي الملاح..!

لســـوف يشـــوه شيخ القبيلـــة حتى مفهوم الشهـــادة نفسها. ذلك أنَّهـــم لم يقضوا نحبهم لهدف سام يسلكهم في عداد الشهداء.

بيـــد أنَّ وضاحاً حينما رأى طلائع مقاتلي القبيلـــة الأخرى يقتربون مـــن مضارب قبيلته اندفـــع كالسهم يخترق صفـــوف مقاتليها وقد جـــرد سيفاً، وانـــبرى للقتـــال ذوداً عن المكان والأهل... والراية...!

ضفاف السرد القصصي

عبد الباقي يوسف ❁

القصة القصيرة هي عمل إبداعي يتمتع باستقلاليته وخصوصيته الأدبية والفنية، هذه الاستقلالية التي تؤهلها لتحمل اسم القصة القصيرة.

للقصة القصيرة تاريخ ممتد إلى آلاف السنين، حيث كانت تروى بشكل شفاهي على ألسنة الناس لتؤخذ منها العبر، وكانت الأمهات تروين القصص على أسماع أطفالهن وهن يهدهدنهم كي يناموا.

لقد اقترنت القصة بفكرة الأدب، وقد سبقت الرواية، بل حتى الشعر في التاريخ الأدبي يفخر باعتماده على فكرة قصصية، والأمر كذلك بالنسبة للمسرح، والسيرة، والمذكرات.

❁ أديب وقاص وناقد سوري

إنَّ كتاب القصة القصيرة يعد من الكتب التي ينتقيها زائر معارض الكتب لأنَّ هذا الكتاب يصلح للقراءة في أي وقت، كما يصلح أن يتداوله معظم سكان البيت، وهو يحتوي على مواضيع متنوعة وغنية تكون على تماس مع إيقاع الحياة الاجتماعية.

جواهر القصص

كل عمل قصصي يحمل في ثناياه أملاً جديداً إلى قارئه، وكل قارئ يأخذ لؤلؤة ثمينة جديدة من لآلئ الفن القصصي.

من هنا فإنَّ القصة لاتقف على قراءة متجمدة بالنسبة لعامة القرّاء، إنها تمنح كل قارئ وفق ما هو عليه من وعي قرائي لثناياها، ووفق سعيه للاستمتاع بنسيجها المعماري.

هي الثيمات التي تدور في عالم لامعنى له، تشكل نسيجاً حول الفراغات اللامتناهية، تفتش عن زوايا الجمال في فضاء مفتوح، تفتش عن بقايا نبضات أخيرة في قلب يرفض ألا ينبض، هي الثيمات ذاتها التي لايعجبها اللامعنى وتسعى بكل طموحها لإيجاد شيء ما في اللاشيء، حتى الكلاب تميل لأن تنبح نباحا مختلفا في أوقات ما، في طقوس ما. أعني نزعة التمرد الأبدية على المألوف الذي يأكلنا كما تأكل النار الحطب، والسر الذي يقف خلفه كل ذاك الأمل المتفجر الذي يقدمه قصاصو العالم على مرّ العصور. ذاك السر الذي يجعل القصاص يرفض النوم ثلاثة أيام احتفاء بعثوره على جملة مضبوطة يمكن أن يبدأ بها قصة قصيرة. من أي بقاع نأتي بتلك الأحمال الهائلة من الأمل المتفجر، وكيف نجعلكم تصغون إلينا، تتركون أعمالكم وأثقالكم ونساءكم وأولادكم ومساكنكم لتنعموا بدفء القصة وأنسامها.. إنَّنا نمنحكم أشياء أثمن مما تركتم، نمنحكم ما ليس لديكم، نقدم لكم تلك الوسائد التي تأخذكم إلى عالم الخلود والنور والبهاء. أشياء وأشياء ضائعة منكم، ضائعة من كوكب الأرض نحاول أن نسترجعها لكم وللأرض.

دوماً تقول القصة القصيرة لقصاصها: لست أنت الذي تريد أن تكون قاصاً، ولكن أنا التي أريد أن أكونك، لست أنت من يريد أن يكتبني ويرويني، ولكن أنا من أكتبك وأرويك وأقدمك.

فكرة القصة تلح على القاص ولايستطيع فكاكاً من الهيمنة القصصية، إنَّها توصله إلى ذروة المعاناة، لن يستطيع أن يغمض عينيه، أن يستقر مالم يكتبها، وأحيانا تبلغ في عنادها إلى التحدي مع القاص فتتحداه أن يستطيع أن يخلد للراحة أو حتى الخروج من البيت قبل أن يكتبها، أو حتى يكون قادراً على إجراء مكالمة هاتفية، فيستسلم لطغيانها وجبروتها، وهو يحاول أن يقنع نفسه بأنه هو الذي يكتب القصة ويتحكم بزمام مفاصلها.

وأمَّا المتعة فتكون بعد إنجازها فيكون

حالــه كحال الــذي أدار البــاب الحديدي الضخــم على نفسه مــن دون أن يدري بأنه نسى المفتاح في الخارج، وكل محاولاته تفشل في إسماع من هو في الخارج ليأتي ويفتح عليه هذا البــاب، ينظر إلى الأعلى حيث النافذة المرتفعة علــى مسافة عشرة أمتار والمحكمة بالبلّــور، إنَّه يفعل أي شيء ليُخرج نفسه من هذه الغرفــة، فيستعين بأصابعــه وأسنانه وقطع النقــود المعدنية في جيبه حتى يحفر حفراً صغيرة، وفي النهاية يفلح بأعجوبة في أن يحفر مواطئ لقدميه في الحائط فيتسلق كالقطة إلى أن يبلغ النافذة المرتفعة الوحيدة ويخرج، عندها فقط يشعر بنشوة وهو يومئ برأسه لينظــر إلى المسافة التي تسلقها لمدة يومين متواصلين، تلك هي النشوة التي يشعر بها الكاتب عندما يفرغ من عمل جديد.

وأقنــع نفسي في كثير مــن الأحيان بأنَّ الكتابــة تحقق لي المسرة حتى لاأعترف أمام نفسي بقوتها علــي وأنني أتنهد تحت ثقلها وقد تمكنت مني كل التمكن. والحقيقة فإنَّ القــراءة تقدم المسرة والمعرفة معا، فأن أقرأ مجموعة قصصية لمدة ثــلاث ساعات هذا أمتــع لي مــن أن أمضي ثــلاث ساعات في أرق ومخاضــ كتابة قصــة جديدة، والواقع فإنَّ رغبتــي الحقيقية تكمن في عدم تمكن القصة مني بهذا القدر الذي لامخرج منه. تكمن رغبتي فيما لوكنت قارئا، قارئا جيدا مثلمــا أنا مستمع جيد للموسيقى، ومشاهد جيد للسينمــا والفن التشكيلــي، ولكن كل محاولاتي تبوء بالفشــل لأن القصة وجدت طريقهــا إلي، وكل هــذه الكتابات الجانبية كهــذه هي في الواقع محاولات للتهرب منها، ولكنهــا بالوقت نفسه كتابــات عنها وفيها، وهكذا فحتى الهروب منها يكون إليها.

قد يســأل البعض: لمــاذا يكتب الكاتب إذن؟! أقول ببساطة: لأنه لايستطيع أن يعيش ثلاثة أيام إن لم يكتب، وكذلك فإنه يشعر بإثم عظيم إذا لم يتمكن مــن تقديم كتابات تعبر عن قوته وتضيف إلى كتاباته السابقة، ولعلي أرى أن الكتّاب الذين انتحروا ماقاموا بذلك إلا بعد أن تأكد لهــم أنهم ماعادوا يقدرون على إبداع كتابات أعظم مما أبدعوا، ولعلي أرى خــير مثال في ذلــك /همنغواي/ الذي عــبّر في /الشيخ والبحر/ عــن مدى تعلقه بالحيــاة حتــى في أسوأ ظروفهــا، بيد أنه لم يتردد من إطلاق النــار على ذاك الخيال الذي أتى بكل تلك الإبداعات العظيمة لأنه عز عليه أن يرى ذاك الخيال الخصيب وقد أصابه الوهن.

القصة القصيرة بين قوة الفكرة وبلاغة اللغة

تعتمد القصة القصيرة بشكل كامل على قوة ودلالة اللغة للتعبير عن وظيفتها، وفكرة القصة القصيرة تستعين بمنارة الكلمة حتى تبلغ القارئ وتترك أثراً لديه.

من هنا كان اللجوء إلى استخدام تقنيات

غنية في كتابة القصة حتى تخرج إلى قارئها بفنية عالية.

والأمر لايختلف كثيراً حتى بالنسبة للقصة الشفاهية، فهي تعتمد على أكثر الكلمات والعبارات تعبيراً عن فكرتها، والكلمات الركيكة سواء في القصة الشفاهية، أو القصة المكتوبة تترك أثرها البالغ على مدى تأثير القصة على القارئ، كما أنَّ هذه الركاكة، أو المباشرة والتقريرية تجعل قارئ القصة ينفر من متابعة القراءة، لأنَّه يشعر بأن ما يقرأه لايمت إلى جنس القصة، فيكون مثله مثل الذي يستمع إلى مقطع نشاز بآلات موسيقية.

تقف الكلمة على أساس متين في تقويم حياة الإنسان، إنَّها أحد أبرز الأركان التي تحرّك إيقاع الحياة، وهي سبيل الإنسان في بنية العلاقات الاجتماعية وتواصله الإنساني مع بعضه البعض.

يعتمد الإنسان على الكلمة في التعبير عن مدركاته، وآرائه، ومواقفه، ووجهات نظره، ويعتمد عليها في تلقي مدركات، وآراء، ومواقف، ووجهات نظر الآخرين.

يمكن للكلمة أن تجعلك صديقاً للآخرين، ويمكنها أن تحيلك خصماً لهم، يمكنها أن تجعلهم أصدقاء لك، ويمكنها أن تحيلهم خصوماً.

كما أنَّها تمتلك سبيل التغيير، فتقلب البغضاء مودة، المودة بغضاء.

تفعل الكلمة فعلها في تحريك وتفعيل المشاعر والنزعات الإنسانية في دفقات مختلفة، تولّد الأفعال وردودها.

يمكن للكلمة أن تشفي مريضاً، ويمكن لها أن تسبب مرضاً لشخص معافى، يمكنها أن تبعث النشوة والانشراح النفسي إلى الإنسان، ويمكنها أن تجعله قلقاً مضطرباً.

تقوم الكلمة بتحديد العلاقات الإنسانية، وتؤسس للمراحل التحولية في حياة الإنسان، فالكلمة تجعل من رجل وامرأة زوجين، وتجعل منهما مطلقين، والإنسان يرتقي في درجات الإيمان بوساطة الكلمة، كما أنه يستعين بالكلمة في الصلاة والصيام، وسائر العبادات، يناجي ربه من خلال الكلمة، يدعوه، يذكره، يسبّح بحمده.

وقد جاء الأنبياء والرسل يحملون كلمة الله إلى الإنسان، واستطاعت الكلمة أن تنير للإنسان دربه.

لقد أكرم الله الإنسان بالكلمة تلقياً وإرسالاً، فالكلمة يمكن لها أن تقدم الحلول لأي خلافات تنشب بين الناس. إنها مسؤولية يجني الإنسان ثمارها إذا أحسن استخدامها، وكذلك يدفع ضريبتها إذا أساء استخدامها.

في القرآن الكريم تنبيه إلى مسؤولية الكلمة، وقد وردت كلمة /قال/ ٤٨٥ مرة، و/قالوا/ ٣١٤ مرة، و/يقولون/ ٨٧ مرة، و/قيل/ ٥٤ مرة.

يقترن الإنسان بما يتفوّه به، فهو لايكون صادقاً إلا مــن خلال القول، ولايكون كذاباً إلاّ من خلال ما صدر عنه من قول.

لذلــك نــرى أن أهل العقــل والحكمة والخبرة يتأنون في قــول الكلمة الفصل لأن مصائر الناس تقف على تلك الكلمة، بل حتى المحاكــم تمهل الزوجين أوقاتاً إضافية حتى يثبتوا في أقوالهم عند حالات الطلاق.

كلمة الحق تخرج من قائلها بقوة، وتبلغ سامعها بقوة.

تخرج بطلاقة، وعذوبة، وجمالية اللغة، وتبلغ بطلاقة، وعذوبة، وجمالية اللغة.

وكلمة الباطل تخرج مــن قائلها بوهن، وتبلغ سامعها بوهن، تخرج بارتباك، وتلعثم، وركاكة اللغة، وتبلغ بارتباك، وتلعثم، وركاكة اللغة.

تمارســ الكلمــة سلطتهــا ونفوذها في حياة الإنسان، ولذلــك يشعر الإنسان بعمق المسؤولية تجاه ما يقول وما يصغي إليه من كلام، إنــه يقدّر قيمة الكلمة، ويتجنب إلقاء الكلام على عواهنه.

إنَّ القاصــ يستخدم عبارات تنسجم مع الفكرة التي يطرحها، وهــذه العبارات ترد بشكل يتوازى مع حدث القصة، إنَّ القصاص هنا يشبــه المحلل النفسي الــذي يستخدم اللغــة في سبيل ما توصل إليــه من تحليل، وعليه أن يقنع الآخرين بمكتشفاته التحليلية من خلال سطوع وبلاغة وسلطة الكلمة هذه المرة.

تصنــع القصــة قارئها بشــكل متدرج حتــى يرتقي في تــذوّق معالمهــا، ويستنشق أريج عطرهــا، وتتفتح حواسه لتلقي عذوبة شعريتها.

المعنــى نبضــ الكلمــة، الكلمــة جسد المعنى.

إننــي لا أصغــي إلى الكلمــات قــدر إصغائــي إلى نبضها، كما أنني لا أصغي إلى الشخص قدر إصغائي إلى محراب قسماته، ثمة كلمات تفرض عليك راحة الإصغاء إلى نبضهــا، وثمة قسمــات ترغمك على راحة التأمل في نورانيتها.

أحيانا أقلب عشرات الصحف والمجلات، ولا أقــع على نبض كلمــة يمكن أن تشدّني، أقلب عشرات القنــوات الفضائية، ومواقع النــت، ولا ينجح مسعــاي، أو ينجح مسعى الكلمات.

أصغي إلى عشرات الأشخاص، فلا تنجح قسماتهم لإقناعي بعمق التأمل، أو لا أنجح في إقناع نفسي براحة الإصغاء.

أحيانــا تستفــزني كلمــات، تستفــزني قسمات، تستفزني مشاهد تمثيلية، تستفزني صحــف، إنَّها تملك مقــدرة هائلة على أن تشوش علي صفاء مخيلتي.

أظن أن ما بات يميز زماننا بجدارة، كل هذا الكم الهائل من الكلمات التي تخلو من

نبضات، كلمات لا قلوب لها. وقد نجح هذا إلى حـدّ مرعب في صناعة متلق استهزائي، بات يستهزئ بكل ما يسمع، ويقرأ، ويرى.

أمـام هذه الهوة الأكثر عمقاً يفقد هذا المتلقي حساسية جدّية التلقي، ليبلغ مرحلة فقدان حساسية جدّية التأثير.

فترى شخصا يتحدث، لكنه لا يتحدث،
يستمع، بيد أنه لا يستمع،
يبدي علامات التأثر، بيد أنه لا يتأثر،
يضحك، غير أنه لا يضحك،
يبكي، إلا أنه لا يبكي،
يجلس، لكنه لا يجلس،

يرقـد في السرير، غير أنه غير راقد في دوامة استباحية لمعنى الكلام ومعنى الأفعال، حتى إنـه يرتدي حالة اللا جدية، فإن وُجه إليه تهديـد، لا يأخذه على محمل جد، وإن نظر إلى قانون يمنعه من القيام بهذا الفعل، لا يأخذه على محمل جد، فتراه يراهن حتى على عقائده وحياته العائلية في مجلس كأنه ينفث لفافة تبغ، فيمكن لك أن تراه في ثلاثة وجوه خلال ثلاثة أيام.

تعيش المجتمعات ذروة يقظتها وتقدمها قدر حالة الجدية لديهـا، فهي تأخذ كل ما تراه، أو تسمعـه، أو تقرأه على محمـل الجد لأنها تعقد آمالا كبرى على الكلمة، والنغمة، والمشهد.

لذلـك تراهـا تقـدم مغامـرات كبرى ومخاطر كبرى من أجل أن تقرأ، وتسمع وترى.

وهذا مـا يمنح للإبـداع وللعمل قيمة كبرى، فلوحة تباع بثمن باهظ، قد لا يتنازل شخص آخر أن يقـف بسيارته ليحملها إلى البيت إذا ما رآها لقى على الطريق، وكتاب جديد يقف الناس في طابور للحصول عليه، وقراءته حرفا حرفا، قد يتراكم عليه الغبار ثلاث سنوات في موقع آخر.

إنَّنـا لسنا أغنياء بمقـدار ما لدينا من بنـوك وأوراق نقدية، إنَّنـا أغنياء بقدر ما لدينا من متاحف، وكتب وموسيقى.

عندمـا تستبيـح المعنى، فـإن المعنى لا يتوانى عن استباحتك، وعندما تمجد المعنى، فإن المعنى لا يتوانى عن تمجيدك.

يروي الكاتب التشيكـي ميلان كونديرا قصـة طريفـة عـن صديقـه جوزيـف سكفورسكـي قائلا: دعـي مهندس براغي للاشـتراك في ندوة علميـة تعقد في لندن، وقـد ذهب وشارك في الجلسات ثم عاد إلى بـراغ، وبعـد ساعات من عودتـه تناول في مكتبه صحيفة (رود برافو) -وهي صحيفة الحزب الرسميـة- وقرأ فيها: قرر مهندس تشيكي كان قـد ندب للمشاركة في ندوة في لنـدن بعد أن أطلق تصريحاً أمام الصحافة الغربيـة شتم فيه وطنه الاشتراكي كي يبقى في الغرب. ليست الهجرة غير المشروعة التي يرافقها مثل هذا التصريـح أمراً تافها. إذ إنها تعني عشرين سنة في السن لم يكن بوسع مهندسنـا أن يصدق عينيـه. وحين دخلت

سكرتيرته مكتبه ذهلت لدى رؤيتها له قائلة: يا إلهـي.. كيف عدت.. غير معقول ألم تقرأ ما كتب عنك؟ رأى المهندس الخوف في عيني سكرتيرتـه. ماذا يسعـه أن يفعل؟ هرع إلى إدارة تحريـر (رود برافو) وهناك عثر على المحـرر المسؤول عن نشر الخبر، وقد اعتذر له هذا الأخير فعـلاً إذ إن المسألة مزعجة حقاً، لكنه هو كمحرر، لادخل له في الموضوع، فقـد تلقى نصـ الخبر مباشرة مـن وزارة الشؤون الداخلية. ذهب المهندس إلى الوزارة إذن، وهنـاك قيل له: نعم، هذا صحيح. إنه ولاشـك خطأ قد وقع لكنهـم في الوزارة لا دخـل لهم في الأمر فقـد تلقوا التقرير عن المهندس من إدارة الاستعلامات في السفارة بلنـدن. طلب المهندس نشـر تكذيب للخبر، فقيل له: التكذيب غير ممكن لكنهم أكدوا له أنه لن يتعرض لشيء وأن بوسعه الاطمئنان. لكن المهندس لم يطمئـن إذ سرعان ما انتبه على العكـس إلى أنه يخضع لرقابة صارمة وإلى أن محادثاتـه الهاتفية قيـد التسجيل وإلى أنـه ملاحق في الشـوارع. لم يعد يسعه النـوم ثم صار نومه حافـلاً بالكوابيس إلى أن جـاء يوم لم يعد يحتمل فيه هذا الضغط فغامـر معرضا نفسه لأشـد المخاطر كيما يـترك البلد بطريقة غير مشروعة لقد صار بذلك مهاجراً فعلاً.

يعلق كونديرا على هـذه الواقعة قائلاً: واجـه المهندس سلطة لهـا طابع متاهة بلا حدود لن يبلغ أبداً نهاية دهاليزها اللانهائية ولن ينجح أبدا على مـن صاغ الحكم، لقد عوقب مهندسنا برقابة بوليسية مكثفة وهذا العقاب يطالب بالجريمة التي لم تقترف بعد، فالمهندسـ الذي اتهم بالهجرة ينتهي إلى أن يهاجـر بالفعل. لقد عثر العقاب أخيراً على الخطيئة.

إن القصـة المتمكنة المتميـزة، هي تلك القصة التي تكون غنية بفكرتها، وأسلوبها، ولغتهـا، وفنيتها، هي القصـة التي لاتبرح قارئها قبل أن تترك لديـه شيئاً من أثرها، ونفحة من طيب ريحها.

الكتابة بحبر ذهب القص

عندما نقول /قصة/ فهـذا يعني بأننا أمام /حكاية/ نتخذ منها عبرة لأن أي قصة في العالم تحمل في جوهرها رسالة، حتى تلك القصص التـي ترويها الجدات لأحفادهن، فإنها تحمل مغزى وعبرة وغاية.

هـذا أمر هام بالنسبة لتقويم أي قصة، بيد أنه لايكفي، إذ لابد من لغة بيانية معبرة، ولابـد من حبكـة، ولابد من فنيـة، ولابد من تقنيـات سردية جمالية حتـى تتجمّل، وتتزيّن بها تلك الفكرة وتتشكل لبنة لبنة في درجات معمارية القصة، ثم تتقدم إلى أفئدة المتلقي بحلتها الجمالية على طبق من ذهب القص.

إنَّ أي قصة جديدة عليها أن تشرق على العالم كعروس جديدة ليلة دخلتها، تمتلك آمالاً وأحلاماً وأمنيات، ومقومات حياتية جديدة حتى تستطيع أن تجد لها منزلاً، وتؤسس لعلاقات اجتماعية وإنسانية رحبة.

إنَّ القصة الجيدة هي تلك القصة التي تُكتب بحبر ذهب القَص.

لقد تداخلت الأجناس الأدبية فيما بينها، وهذا لايشكّل شتاتاً بالنسبة للقصاص الماهر على قدر ما يقدم غنى وعمقاً لأدوات القص التي يمتلكها، ولكن في الوقت عينه يشكّل هذا التداخل شتاتاً بالنسبة للقصاص الذي هو في درجة دنيا من مهارة القص، إذ تتداخل عليه المعطيات، فينتج قصة ركيكة سريعة تحت مسميات شتى مما يجعله يقف في درجات متأخرة بين زملائه القصاصين، ولايحظى نتاجه القصصي بإقبال من القرّاء.

قصتنا القصيرة تقدمت وتطورت، مما فتح أمامها آفاقاً رحبة كي تستفيد من الرواية، ومن المسرح، ومن الشعر، بل حتى من تقنيات السينما، وهذا ما جعلها تزداد قيمة وغنى وجمالاً وفنية، وبالتالي جعلها تزداد رسوخاً في الثبات وهي تؤدي وظيفتها بين أخواتها من الأجناس الأدبية الأخرى.

ما هو هام في هذا التلاقح بين الأجناس الأدبية بالنسبة للقصة القصيرة، هو أنك عندما تقرأ قصة جيدة، تشعر حقيقة بأنك قرأت قصة جيدة، وعندما تقرأ قصة رديئة، ينتابك إحساس ذوقي بأنك قرأت قصة رديئة.

ذلك بأن القصة الجيدة تنجح في إيجاد مكان خاص لها في نفسك بعد أن تكون قد أذاقتك عسيلتها منذ القراءة الأولى.

عندما تحظى بقراءة قصة جيدة، تشعر بأنك قرأت قصة جيدة، استمتعت بجماليتها حتى وأنت تنظر إلى ثوبها وحذائها، وعقد اللؤلؤ الذي يزيّن صدرها، وبريق الأساور في معصميها، وحلق الجواهر في أذنيها، تستنشق عذوبة طيب ريحها،وأنت تخلع عنها ثوب الزفاف لأنها عروس ذوقك الأدبي.

تجوب أنظارك بين السطور سطراً سطراً، بين حدائق الكلمات حديقة حديقة، بين أشجار علامات الترقيم علامة علامة.

إنَّها تستطيع أن تدخلك إلى عالمها الكرنفالي الحافل ولو لمدة لاتتجاوز بضعة دقائق من الزمن.

والأهم من ذلك هو أنك بين حين وحين تحنّ إلى عسيلتها، تحن إلى تلك الأجواء الذوقية الذهبية، فتؤوب إلى رحابة ذاك العالم السحري وأنت تمسك بها ككنز ثمين وكلك توق للولوج إلى تلك الرحاب المباركة،

فتدرك حينها أن ما بين يديك هو شيء يمس الأدب الخالد.

إنَّ أي كاتب في العالم لايستطيع أن ينجح في مهمته قبل أن يتوحد في حالة إنسانية عامة مع الآخرين في أنحاء العالم كافة، فالكاتب يقدم نزعات إنسانية عامة، ويسعى إلى تبرئة الإنسان والصلح العام بينه وبين الطبيعة ببساطة شديدة، إنه يدعو لأن يكتشف الإنسان الطبيعة التي ولد فيها، ويتعرف فيها على ما لايعرف، وأن يسافر إلى أخيه الإنسان المحتاج في أبعد بقعة محملاً بالهدايا.

ولذلك فإننا نتألم لو ماتت قطة نتيجة اعتداء، سواء كانت قطة شقراء أو سمراء أو بيضاء، لأنَّ ذلك يظهر عنف الإنسان بحق هذه القطة التي جاءت لتضفي شكلاً من أشكال التنوع البيولوجي في عالمنا.

استطاع دينو بوتزاتي• أن يترك مجموعة من الأعمال القصصية التي كتبها بشكل شبه مكثف تعبر عن مدى مقدرة القاص في التقاط أفكار بما يتمتع به من قوة ملاحظة.

وقد تركت طفولته أثراً على مجمل نتاجه القصصي. يقول بوتزاتي: /إن ذكريات الطفولة بالنسبة لأي كاتب تمثل بحد ذاتها قاعدة رئيسية/.

في كتابها النقدي /اللعب في الظلام/ وضعت توني موريسون بعض الشروحات حول كيفية الكتابة لديها، وهو كتاب يضيء جوانب هامة من أسلوبها السردي. تروي فيه تفاصيل عملية الكتابة لديها، ومما تقول: لقد كان ذلك، أردت ترجمة التاريخي إلى الشخصي، قضيت وقتاً طويلاً محاولة فهم ماجعل العبودية بتلك البشاعة، وبقراءة بعض الوثائق لاحظت الإشارة إلى شيء لم يوصف أبدا بشكل كاف: اللجام، ذلك الشيء الذي كان يوضع في أفواه العبيد لعقابهم وإخراسهم من دون أن يمنعهم ذلك من العمل.

قضيت وقتاً طويلاً محاولة اكتشاف شكل ذلك الشيء.

كنت أقرأ عبارات متكررة مثل: وضعت اللجام في فم جيني، أو كما يقول إيكويانو: ذهبت إلى المطبخ ورأيت امرأة تقف قرب الفرن وكان في فمها لجام. فقلت: ماذاك؟

فأخبرني أحدهم.

فقلت: لم أر شيئاً أرهب من هذا في حياتي كلها، لكني لم أستطع تخيل ذلك الشيء.

هل كان كلجام الحصان أم ماذا؟

وتضيف موريسون موضحة بأنها تعتمد في بعض المواقع على وثائق ووقائع لدعم مواضيعها: أخيراً وجدت بعض الاسكتشات في كتاب /في هذا البلد/ وقد كان سجلاً

لتعذيب رجل لزوجتــه في أميركا الجنوبية، لكــن بينما كنت أبحث حــدث لي شيء آخر وهــو أنني اكتشفــت أن هذا اللجــام، أداة التعذيــب الشخصيــة هذه، كانــت الوريثة المباشــرة لمحاكــم التفتيشــ.. هناك مقطع يقول فيــه بول د .لسيثي: لم أخبر أحداً عنه، إنــه يحاول أن يخبرها عــن إحساسه بلبس اللجــام، لكنه ينتهــي إلى الحديث عن ديك يحلــف أنه ابتسم له عندما لبسه، لقد شعر بانحطاطه وأنه لايساوي ديكاً يقف في ضوء الشمس.

أشــير أيضــاً بشكل متكــرر إلى الرغبة بالبصاق، بمص الحديــد وهكذا، لكن بدا لي أن وصــف الحالة سيصرف نظر القارئ عمّــا أردتــه. أن يجرب كيفيــة الإحساس بذلك.. ذلك النوع من المعلومات بين سطور التاريــخ، ويبدو وكأن أشياء كهذه تسقط من الصفحات.. إنه هنــاك عند ذلك التقاطع الحاصــل، عندما تصبــح المؤسســة شيئاً شخصياً، عندما يصبــح التاريخ أناساً لهم أسماؤهم.

تســري الفكــرة القصصيــة في جسد الكلمــات حتى تأخــذ امتدادهــا وتشكلها القصصي

هنا تسعى اللغــة القصصية أن تحافظ على خصوصيتهــا القصصية حتى لاتميل شطــر المســرود الروائــي، فتفقــد ميزتها وحميميتهــا القصصية، بل والأكثر من ذلك تخــرج عن كونها قصة، وتلبــث مشتتة بين أجناس مختلفة.

إن القصة المكتملة هي تلك القصة التي تستعــين بكثير من الحذر بمنجــزات ألوان الآداب والفنــون، علــى ألاّ يقتلعها ذلك من بذرتها القصصية.

غيوم الموهبة القصصية

تتشــكل خيوط القصــة القصيرة لتؤرخ إنسانا في موقف، وتــؤرخ موقفاً في إنسان، تــؤرخ المجد وكذلــك تؤرخ العــار، كل هذه الصيحات القصصية المدوية في عالم الإبداع الأدبي هي دمــوع تنهمر من ضمير الإنسان ومن روحه، تحاول أن تُلفت النظر إلى رؤية هــذا الإنسان إلى اللحظــات القصيرة التي تحمــل أحداثاً لايلتفت إليها أحد، أجل فإن وظيفة القصــة القصيرة تكمن في مقدرتها على أن تجعلــك تلتفت لوقائع مرت وفاتك أن تتأملها، وهي بذلك تمنحك هذه الفرصة الذهبيــة مجدداً. القصة هــي لقطة، وهي لفتــة صغيرة في عالم كبــير، إنَّها يوم واحد، أو ساعة واحدة، أو حتى لحظة واحدة بعكس الرواية التي تكون هي السنة كلها بكل أيامها وتقلب فصولها.

كل يــوم تنفتــح أبــواب جديــدة أمام قصاصــي العــالم ليقصوا قصصــاً جديدة

لم يكتبهـا أحـد من قبلهم، يكتبـوا قصصاً تستوعب عقل العالم وجنونه، تستوعب مجده وإخفاقـه، تستوعب ثقله وخفتـه. تتشكل القصة القصير نقطة نقطة.. حرفا حرفا.. فضاء فضاء.

الواقـع أنَّ الموهبـة الإنسانية لوحدها لاتكفي للإبداع، ولكن ثمة تفاصيل لايراها ولايلمسها ولايحياهـا إلا المبدع نفسه، ثمة أسـرار لاتتكشف إلا أمـام روح المبدع ذاته، إنه يمتلئ بالعـالم والحياة والميتافيزيقيا مع كتابة كل قصـة جديدة، ثمة قـوة مجهولة تلقنه حروف هويته المجهولة ككائن مستقل في العـالم، وهكذا فإنَّ الكاتـب يعيش حياة استثنائيـة مغايرة لحياة الناس أجمعين. إنَّ القصة هي هواه الوحيد وعندما يبعد عنها يشعر بأنـه خسر العالم برمتـه لذلك يهرع عائـداً إليها بحرقة وألم وهـوة ينفجر بكاء وندماً علـى تركه لها فيقـدم لها الاعتذار ويطبع على جبينها قبلات ساخنة.

تنير القصة الدروب أمام الروح البشرية، تفسح هامشاً أوسع للرؤية، لرؤية ما لايُرى. الكلمـات القصصية هـي القناديل العالية المعلقة في دروب البشر، إنَّها القناديل الكبرى وهي الرشيد إلى نهارات لاتنتهي من الضوء، والكاتـب الذي يشتغل في الكلمات المضيئة، هـو شخص يضيء ويمتلـئ إشراقاً وحياة، ولذلك يبـدو في الظاهر أكثر ظلامية، أكثر بساطة.

والحقيقة إنَّها ظلامية الشروق، والحقيقة إنها بساطة الامتـلاء. أقول لكم أشياء أكثر حساسية، فإنَّ هـذه الكلمات المضيئة ذاتها التي تتكون منها القصة القصيرة في كثير من الأماكن تحـرق روح الكاتب وتلهب حواسه، وعندها لايجد أي مـادة يمكن لها أن تدنو من هذا الاشتعـال الروحي، ولذلك يقضي الكاتـب احتراقا بنور كلماتـه، أو تتساقط عليه كتبه التي قـام بتأليفها فتقضي عليه كما يقضي مخترع الكهرباء بماس كهربائي.

العلاقة بين القاص والقصة هي علاقة شديـدة الخصوصية والحساسية والعذوبة، حيـث تتحول القصة إلى عـالم كامل يعيشه القاص، ويجول في طرقاته، إنَّه عالم سحري يستمتـع القاص ويأنس بـه، ولذلك يمضي ساعات طويلة في كتابتها حتى يرهقه التعب من دون أن يشعر بالوقت.

والقاصـ بعد ذلك يمكن لـه أن يتخلى عن الكثير من حقوقه في الحياة في سبيل أن يتواصل مع عمله.

يكتب فرانز كافكا إلى حبيبته معبراً عن مـدى تعلقه بالكتابة: /كثـيراً ما فكرت في حياتنا المستقبلية فأشعر برغبة داخلية في أن خير نمط للحياة بالنسبة لي هو أن أعيش في كهف طويل منعزل عن العالم مضاء بمصباح

أكتب وأكتب، ولا شيء غير الكتابة وأن يحمل إليّ طعامي ويوضع في مدخل ممر الكهف بعيداً عن مجلسي الذي أكتب، فأذهب لآكل الطعام على قدر ماتسمح معدتي وحاجتي للطعام وسيكون سيري من مجلسي حتى المائدة هو نزهتي الوحيدة وعندما ألتهم ما يقدم لي، سأعود مسرعا إلى الكتابة هوايتي الوحيدة. إذ لا هوى لي في اللعب، فممارسة ما يهوى الإنسان يا حبيبتي لا تتعبه، وسيكون إنتاجي الأدبي رائعاً، لأنَّ الروعة هي نتيجة الإرهاق المحبب ولا إرهاق مع من نحب. قد تعدين ذلك جنوناً فهل ترضين أن تعيشي في كهف مع هذا المجنون؟!

وعلى هذا النمط من الحياة.. ما رأيك؟.. أليس الهرب من الكهف وساكنه أجدى لك.. أه يا حبيبتي أنا هكذا ولا أستطيع أن أكون غير هذا ولك الخيار من أول الشوط لا من آخره، فأنت زوجتي والأدب عشيقي، والمدى بعيد بين الزوجة والعشيقة لك جسمي النحيل، وللأدب قلبي وفكري/.

حقيقة الأمر أن كافكا كان يكتب ليخفف عن نفسه، ويجد متنفساً في أجواء الكتابة، ثمة عبارة نعثر عليها في هذه الكتابات، وهي عبارة اعترافية يقول فيها: /أود اليوم أن أنزع عن نفسي بالكتابة كل حالة القلق فأنقلها من أعماقي إلى أعماق الورق/. ولنتأمل أي شيء كان بوسع كافكا أن يصنعه لو لم يكتب؟ وأمام جواب واحد يرد على لسانه نثق بأنه كان سينتحر قبل بلوغه سن العشرين وهو يحمل كل هذه الحساسية تجاه مجريات ووقائع الحياة التي يعيشها.

لذلك يحلو له أن يدوّن الجملة التالية بخط واضح: / أنا أكتب على الرغم من كل شيء وبأي ثمن، فالكتابة كفاحي من أجل البقاء/.

حتى هذا الملجأ تستكثره عليه الأسرة وتزعجه فيه فيكتب: /إن أوضاعي لا تحتمل لأنها تتناقض مع رغباتي وميولي الوحيدة، وأعني بذلك الأدب، الأدب هو كياني، ولاأريد، ولاأستطيع أن أكون غير ذلك/. إنه يقوم بتصوير جشع الإنسان تجاه أخيه الإنسان، وفي النهاية مثلما يكون المظلوم ضحية للظالم، فإنَّ الظالم هو ضحية نزعة الظلم لديه، وبالتالي فإنهما يعيشان معا في /مستعمرة العقوبات/ سواء المادية، أو المعنوية.

والأمر مشابه بالنسبة لفيودور دستويفسكي الذي يستعد للتخلي عن أي شيء في سبيل أن يبقى القلم بيديه، ويكتب في أي وقت يشاء. إنَّه لايشعر بالمجد إلا وهو يكتب.

إنَّ دستويفسكي يكون أقوى في وضعه، يكتب بقوة هائلة يقول: نعم إنَّهم منعوني من الكتابة، إنَّني أفضّل أن أُسجن خمسة

عشر عاماً شرط أن أحتفظ بقلمي في يدي.. إنَّني لم أفقد الأمل.

ويختتم خوفه: أنا مسكون بالخوف من أن يُصاب حبي الأوَّل للعمل بالفتور قبل انطلاقه على الورق.

لقد استطاع فيودور دستويفسكي أن يهدي العالم إبداعات أكثر من أغنى رجل من أبناء عصره.

بعد قراءة ما كتبه دستويفسكي ندرك إنَّ كل من يحمل القلم، يحمل في قلبه ألماً يسعى بالقلم أن يعبر عن هذا الألم، ويبقى يكتب إلى أن يموت وفي قلبه الكلمة التي لم يتمكن من قولها والتي تخلصه من ألمه، وأمَّا إذا اهتدى إلى الكلمة المضبوطة المعبرة فإنَّه سيقولها ويبقى قلمه منطفئا إلى أن ينطفئ عقب انطفاء قلمه وفي لحظات الاحتضار الأخيرة سيكتشف بأن تلك الكلمة خانته ولم تكن مضبوطة بالمرة.

كلمة الختام

يتمتع جنس القصة القصيرة في العالم بتاريخ ذهبي حافل يغني المكتبة الأدبية، هذا الجنس الذي قدم أسماء لامعة في كتابة فن القصة.

لقد رسخت القصة القصيرة أسماء مثل: أدغار آلن بو، وأنطون تشيخوف، وغي دي موباسان في الذاكرة الأدبية القصصية في العالم.

كما ترك غالبية الروائيين في العالم آثاراً قصصية جيدة مثل: غابرييل غارسيا ماركيز، وهمنغواي، وفرانز كافكا، وستيفان زفايج، ويوكيو ميشيما، وفيودور دستويفسكي، وإيزابيل الليندي، وفرجينا وولف، وسيمون دي بوفوار، وجورج صاند، وتوني موريسون، وفرنسواز ساغان، وناتالي ساروت، وميلان كونديرا، وكلود سيمون، وهرمان هسه، وكنزا بورو أويه، ووليم فوكنر، وماريو بارغاس يوسا.

إنَّها قوة الكتابة التي تؤرخ الإنسان، تؤرخ مجده وتؤرخ عاره وهي الدليل على هذا المجد وعلى هذا العار وهي محاولة من الإنسان لإطلاق صيحة مدوية خالدة لا تنطفئ في عالم مجهول أتى إليه ويريد أن يتفهمه ويعيه ويترك فيه شيئاً يدل عليه وعلى ما توصل إليه من أفكار عن هذا العالم. وهي كذلك صيحة من ضمير الإنسان في وجه الشر العام، هذا الإنسان الذي يرتعب من المجهول ودوماً يخشى مما هو أكثر منه قوة على الرغم من جهله إمكانات مجهولة وخافية لديه، وثقته بهذه الإمكانات الخارقة في نفسه. حتى الآن لم يجد وسيلة أجدى من الكتابة تلخص وتقدم هلوساته وتصوراته وأفكاره عن العالم وكذلك تسجل نقاط ضعفه

ونقاط قوته ومشاعره وموسيقاه الداخلية، وفي النهايــة فإن الكلمات الخالدة هي التي تنجح في أن تجمع مابــين الهذيان والعقل، لأن الإنســان في كثير من مواقفه يهذي كما أنه في كثير من مواقفه يقدم العقل، الإنسان هو القصة، والقصة هي الإنسان بكل عقده وعقله وجنونه وضعفه وقوته.

الهوامش

• ينتمــي القاص والروائي والمسرحي دينو بوتزاتي إلى سلسلــة الأدباء الكبار الذين يتمتعون بقيمة أدبية وفنية عالية سواء في بلده إيطاليا أو في العالم فيما بعد.

فقد ولد هذا الكاتب الغزير الإنتاج والمكافح بشكل عجيب من أجل أن يحافظ على كرامته من جهة، ومن أجل أن يقدم عملاً ملفتاً من جهة أخرى سنة ١٩٠٦م في منطقة /بللونو/ في إيطاليا.

بعد حصوله على إجازة الحقوق بناء على رغبة والده الذي كان أستاذ القانون الدولي في جامعة بافيا، اكتشف دينو ميله الشديد إلى عالم الكتابة في الصحافة فلم يلبث أن عمل في صحيفة (الكوريري ديللا سيرا).

بعــد ذلك بدأت أعماله تتوالى في الصدور وتشير إلى اسم له شأن هام وقيمة أدبية في المشهد الأدبي الإيطالي، ومــن أبرز هــذه الأعمال: سر الغابة القديمة- غزوة الدببة الشهــيرة لصقلية- الصورة الكبيرة- الغليون- سقوط الباليفرنا- تجربة سحر- الليالي الصعبة.

المراجع

١- المسخ- رواية- فرانز كافكا- ترجمة منير بعلبكي- بيروت.
٢- في مستوطنة العقوبات- فرانز كافكا- ترجمة زكي الأسطة.
٣- فرانــز كافــكا- الآثار الكاملة- المجلد السادس- الرسائل- الجــزء الأوَّل: رسالة إلى الوالد- ترجمها عن الألمانية: إبراهيم وطفي- طرطوس- سورية- الطبعة الأولى ١٩٩٥م.
٤- رومان سلدن- النظرية الأدبية المعاصرة- ترجمة: جابر عصفور- دار الفكر للدراسات والنشر- القاهرة ١٩٩١م.
٥- نظرية التلقي- روبرت هوب- ترجمة عز الدين إسماعيل- ط١- النادي الأدبي في جدة ١٩٩٤م.
٦- ستيفان زفايج- بناة العالم - ترجمة: محمد جديد- منشورات دار المدى- دمشق ٢٠٠٣م.
٧- ماريو بارغاس يوسا- رسائل إلى روائي شاب- ترجمة صالح علماني- دار المدى للطباعة والنشر- دمشق ٢٠٠٥م.
٨- هرمــان هسة- سيرة ذاتية- ترجمة محاسن عبد القــادر- منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت ١٩٩٣م.

العنصريّةُ في الأدبِ الصهيونيّ

❁
محمّد قرانيا

الأدبُ مرآة الشعوب ومصدرُ إلهامِها وعنوانُ حضارتها، فتقدّمُ الأمم إنَّما يُقاس- في جانبٍ منه- بآدابها وفنونها كمّاً ونوعاً، ومن نافلة القول؛ إنَّ الأدب بأجناسه المتنوّعة كان على امتداد العصور، الناطقَ الرسميّ لمفهوم الثقافة عامّةً، والحاملَ الرئيس لهموم الشعوب وتطلّعاتها خاصّةً، وقد استطاع أن يحمل بجدارةٍ مسؤوليّة التأريخ والتحريض وإغناء الذاكرة، كما استطاع- عبّر المبدعين- أن يواكب مراحل الزمن، ويرصد الأحداث،

❁ باحث وناقد سوري له نحو خمسين كتاباً مطبوعاً.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

ويستخدم الذاكرة بامتياز، وأن يرسّخ علاقة الناس بالمكان/ البيت والأرض والوطن.

تُعَدّ قراءة الأدب لأيّ مجتمع، من الوسائل الفعّالة في فهم هذا المجتمع بأنظمته ومشكلاته وأحلامه، وقد حاول الكتّاب الصهاينة، منذ البداية، أن يجعلوا من الأدب العبريّ مرآةً تعكس بناء الدولة، فضلاً عن تصوير ما في المجتمع الإسرائيليّ من بُنياتٍ فكريّةٍ وثقافيّةٍ واجتماعيّةٍ، وغير ذلك، ممّا له أهميّةٌ قصوى في عمليّة تثبيت أركان كيانه.

والأدب الإنسانيّ يتكئ على المخزون التاريخيّ الثريّ، وعلى الاقتناع الذي لا يحتاج إلى تسويغ بحقّ الإنسان في امتلاكه لأرضه ووجوده، وهذا ما لم يتوافر للأدب الصهيونيّ، الذي يحاول المحتلُّ إيجادَه في أدبيّاته، حيث يسعى جاهداً لربط وجوده كمغتصبٍ بأرضٍ لا تخصّه، وتسويغ ذلك بموروثاتٍ مبتدَعةٍ، تقود غالباً إلى الموروث الدينيّ التلفيقيّ، عبْر تسويقِ حقٍّ دينيّ مزعوم، يخدم الفكر العنصريّ، ويتشبّث بمقولتي (أرض الميعاد) و(الهيكل).. وسوى ذلك من الأساطير. كما يعمل على تضخيم حجم الظلم الذي تعرّض له اليهود في أصقاعٍ بعيدةٍ عن أرض فلسطين، من خلال مقولتي (اليهوديّ التائه)، و(محرقة الهلوكست).. والظهور بمظهر المظلوم المضطهّد، أيْ إنه يحاول أن يستدرّ الشفقة عليه والعطفَ والرحمة، للخلاص من حجم الظلم والتشرذم والتيه الذي عاناه. ومن ثم، ليقع في حبائل العرقيّة، وليست مقولات (شعب الله المختار) وعقدة (قيادة الكون)، والترويج إلى (أن الله يسكن في شخص كلّ يهوديّ) سوى تسويقٍ للتوراة المكتوبة بشريّاً، والتلمود، وهو بذلك، يسخِّر أيَّ وسيلةٍ في سبيل غايته، ولعل كتاب «**موسى والتوحيد**» الذي كتبه «**فرويد**» يجسّد جلياً دلالة تلك الصورة المشوّهة..

إنَّ الأدب لم يكن يوماً إلاّ نتاج إحساساتٍ صادقةٍ وكامنةٍ تلحّ على الأديب، عبْر تفاعله مع مجتمعه، أو المجتمع الذي يعيش فيه، فيترجمها كلماتٍ يختلف مذاقها باختلاف المواقف. لكنّ الأمر مع الأدب الصهيونيّ يبدو مختلفاً تماماً، وذلك لأنه ليس أدباً إنسانيّاً، بمعنى؛ عدم انتمائه الطبيعيّ والحرّ لتاريخ الأدب في العالم، لأنه ليس كالأدب الذي تنتجه مجتمعاتٌ قائمةٌ لها مدنيّتها ومسارها الحضاريّ، ولأنه أدبٌ مصنوعٌ، أيْ إنَّه يصنع نفسه، ويضع مِن حولِه شروطاً مسبقة الصنع، تعزله وتحدّده ضمن إطارٍ ضيّقٍ، متعصّبٍ ومتصلّبٍ في عدوانيّته وعنصريّته، لذلك لا يمكن النظر إليه إلاّ بوصفه (ظاهرةً) أو (دعوةً) لها سماتها العرقيّة المعاديّة للتاريخ، وصِفاتُها

الاجتماعيّة المنبثقة عن تزييفِ تجمّع ملفّق يجري حقنُه باستمرارٍ بمجموعاتٍ بشريّةٍ غير متجانسةٍ، وذات انتماءاتٍ متنافرةٍ، مختلفةٍ باختلافِ الأوطان التي قَدِمت منها تلك المجموعات، وهو ليس مُوَحِّداً لها، أو جامعاً لأصولها، أو مُذيباً لاختلافاتها وتناقضاتها، لذلك، يصحّ القول؛ إنه لا يوجد في الكيان الصهيونيّ انتماءٌ حقيقيّ، طبقيّ أو قوميّ أو حضاريّ أو ثقافيّ، بل ثمة محاولاتٌ دائمةٌ، لتلفيق تاريخ مصنوع من وحدة موهومة، واستمراريةٍ مزيّفةٍ، وهذا خلافٌ لجوهر الأدب الحضاريّ الإنسانيّ، الذي تكمن فعاليته في القدرة على الاستمرار ووحدة المسار التاريخيّ في إطار وحدة المجموعة البشريّة التي يعبّر عنها.

إنَّ الأدب الصهيونيّ الحديث أدبُ مجتمعٍ غير متجانس، وهو أدب أقليّاتٍ لا تجمعهم وحدةٌ وجدانيّةٌ متناغمةٌ، وبمعنى أصحّ؛ إنه أدبُ تجمّعٍ متنافرٍ لمستوياتٍ حضاريّةٍ واجتماعيّةٍ متعدّدةٍ تقف وراءه، وتشكّل أرضيّته أفكارٌ (عقائديّةٌ/ أيديولوجيّةٌ) صهيونيّةٌ متعصّبةٌ، إذ يفتقر (الأدب العبريّ)[1] الذي وُجد قبل قيام الكيان وبعده، إلى قاعدةٍ اجتماعيّةٍ، يركن إليها، ويعبّر عن طموحاتها ومشكلاتها، وهذا ما حدا بالأدباء الصهاينة- في معظم الأحيان- إلى الاقتباس، والترجمة من الآداب الأوروبيّة، أو إلى معالجة قضايا تاريخيّةٍ ودينيّةٍ، فضلاً عن استثمار وجود الإنسان العربيّ، الذي جسّد صورة العدوّ، فصبّوا عليه جميع منغّصات المجتمع الناشئ، ثم انشغل الأدب العبريّ بالتوجّهات (العقائديّة) التي تخدم الحركة الصهيونيّة، الأمر الذي يؤثّر، ولاشكّ، في النواحي الفنيّة للعمليّة الإبداعيّة، ويُفقِدها كثيراً من تأثيراتها الوجدانيّة.

لم ينشط (الأدب العبريّ) في فلسطين إلاّ في عشرينيّات القرن الماضي على أيدي كُتّابٍ من اليهود المهاجرين من روسيا، وأيرلندا، والوطن العربيّ، والذي ترافق مع مدّ الفكر التقدّميّ، الداعي إلى تغليب المشاعر الإنسانيّة على التطلّعات العرقيّة والعنصريّة، الذي تأثّر به الأدب الحديث عالميّاً، لكن اللافت للنظر أن الكُتّاب الصهاينة قد تناسَوا تلك الأفكار الإنسانية التي سبق لهم أن اعتنقوها في بلادهم التي قدِموا منها، وتبنَّوا الأكذوبة الصهيونيّة القائلة «**إنَّ فلسطين أرضٌ بلا شعبٍ لشعبٍ بلا أرض**».

لقد انبرى الأدب العبريّ لخدمة أهدافه، بالكذب والتمويه وقلب الحقائق، وقاتل بالكلمات قتالاً لا يوازيه إلاّ قتالُ جنوده بالسلاح العسكريّ، بغية تأكيد (البُعد القوميّ) لليهوديّة، الذي نفى البعدَ الإنسانيّ لصورة العلاقة بالآخر، نفياً مطلقاً..

المصطلحات: تختار الصهيونيّةُ المصطلحاتِ اللغويةَ التي تُسخّرها لترويج الفكر الصهيونيّ، وخدمة مصالحها السياسية، وتوظيفها لتأويل النصوص الدينيّة، التي تخدم أهدافها السياسية والعسكريّة، فاليهوديّ يجيد التلاعب بالألفاظ اللغويّة، ويجيد استخدام المصطلح لخدمة أغراضه ومخطّطاته، وهنا تكمن الخطورة، نظراً لما لسلاح اللغة من أثرٍ فعّالٍ لا يقلّ خطورةً عن الأسلحة المادّيّة الأخرى.

فحينما تقول قضيّة «الشرق الأوسط» ولا تقول (قضيّة المشرق العربيّ) فإنَّهم يتناولونها من منظورٍ غربيّ بحت، لأن مصطلح «الشرق الأوسط» صناعةٌ غربيّةٌ بامتياز، بوصفه شرق الإدّعاءات الدينيّة التي تقول إنَّه لا يمكن فهم تاريخ المنطقة إلاّ من خلال التاريخ «التوارتي»، وهذا يعني، أنهم ليسوا أمام تاريخ المنطقة بما فيها فلسطين وجغرافيّتها، وإنَّما أمام تاريخ «إسرائيل التوارتية» وجغرافيّتها، كما أنَّ كثيراً من المصطلحات المستخدمة في علم التاريخ التوارتيّ توحي بالتحيّز، مثل مصطلحات «**التطهير العرقي**» و«**السبي**» و«**المنفى**» و«**الشتات**» لأنَّها مصطلحاتٌ توحي بملكيّة المكان، أكثر مما توحي بالوجود العارض لهذه الجماعات في المنطقة، ومما يثير الدهشة أن المؤلّفات اليهوديّة التاريخيّة قسّمت فلسطين مناطق جغرافيّةً إداريّةً، بالأسلوب الذي تحدّث عنه (العهد القديم)، على الرغم من أن معظم أسماء الأماكن التي تتحدّث عنها التوراة هي أسماءٌ عربيّة كنعانيّةٌ.

إنَّ مصطلح «**القدس الشرقية**» - على سبيل المثال- يوحي حتماً بوجود قُدْسَين لا قدسٍ واحدةٍ، ومصطلح «**جيش الدفاع الإسرائيليّ**» لايكتفي بالقول «**الجيش الإسرائيليّ**» وإنَّما يؤكّد على كلمة (الدفاع) لما لها من مدلولاتٍ خطيرةٍ على أبعاد الصراع، وكذلك مصطلح «**المذابح النازية**» يفوق عبارة «**أحداث النازيّة**» لأنها عبارةٌ محايدةٌ لا تحمل الدلالات التي يحملها مصطلح المذابح أو الكارثة النازيّة، أمّا مصطلح «**يهود الشتات**» أو «**يهود المنفى**» فإنّه يحمل دلالاتٍ توحي بتشتّت اليهود من مكانٍ كان لهم، ويحقّ لهم العودة إليه. وثمّة مصطلحاتٌ أخرى تخلق لدى الإنسان العاديّ حالةً من البلبلة وسوء الفهم.

إنَّ المشهد الثقافيّ في الكيان الصهيونيّ ذو ألوانٍ متداخلةٍ، يصعب تمييزُ بعضِه من بعضٍ، إلى درجةٍ تختلط فيها المعايير والمفهومات، وهذا يعبّر عن حقيقة التركيبة الغرائبيّة التي يتشكّل منها المجتمع الصهيونيّ على أرض فلسطين المغتصبة، والذي لا تنطبق عليه مقوّمات المجتمع بمصطلح علم الاجتماع، لأنه ليس مجتمعاً طبيعيّاً، وإنَّما

هو تجميعٌ اصطناعيّ اصطفائيّ، تكَوّن من أكثر من ثمانين قوميّةً تتحدّث لغاتٍ متنوّعةً، تتعدّد بتعدّد تلك القوميّات، والقارئُ للخريطة السكّانية في الكيان الصهيوني، لابدّ أن تذهله التشكيلة «الغريبة العجيبة» لهذا المجتمع المتعدّد الجنسيّات والثقافات والطوائف، ولابدّ أن يجتهد في التفكير حول ما يوحّده وما يفرّقه، فما الذي يجمع بين يهوديّ من أصلٍ روسيّ، وآخر بولونيّ ويمنيّ وعراقيّ وسوريّ ومغربيّ وجورجيّ وخزري وكرديّ؟،. وكيف تُبنى العلاقات بين هذه المجموعات؟!. وهذا إن دلّ على شيءٍ، فإنَّما يدلّ في الدرجة الأولى على أنّ الوحدة المادّيّة مستعصيةٌ من الناحية الديمغرافيّة والفكريّة.

والأدب الصهيونيّ أدبٌ حديثٌ، وحصيلةُ ثقافةٍ هجينةٍ، عمد الكُتّاب إلى لملمة شتاتها من الشرق والغرب، كما حدث ذلك في القديم، إذْ من الثابت تاريخيّاً- إلى حدّ التسليم المطلق- أنَّ ما ورد في التوراة من (قِيم) وأفكارٍ، يعود معظمه إلى مرجعيّاتٍ حضاريّةٍ سابقةٍ (سومريةٍ، أكاديةٍ، بابليّةٍ، آشوريّةٍ، مصريّةٍ، وكنعانيّةٍ) ولمّا كانت التوراة «**مقدّسةً**» يهوديّاً، فقد أصبحت الأخلاقيّات والسلوك اليهوديّ منهجاً عند أتْباعه، ولدى أصحاب الرؤى الروحيّة «المحتكّة» بها. فلا غرو إذن، أن يغدو السطو على ثقافات الآخرين فلسفةً ذاتيّةً تنضوي تحت لافتة (القدرة على التكيّف).

لقد حُشيَ الأدب الجديد الذي شبَّ على الأرض المحتلّة، بالمقولات الصهيونيّة الزائفة، وأساطيرها الدينيّة المغلقة منذ البداية، وتبنّى الفلسفةَ «الميكافيليّة» بكلّ أبعادها، فاصطنع أساليب التعبير الفنيّ عنها، وتخلّى عن سمات الأدب الإنسانيّة، لذلك ظهر أدب (**الرواية التاريخيّة**) الذي يسعى إلى إحياء الحياة العبريّة القديمة، وظهر أدب (التراث) الذي يسعى إلى تمجيد تراث الحياة اليهوديّة في (الجيتو) بوصفه الحصن الذي يحمي الشخصيّة اليهوديّة من التحلّل والذوبان.

كما ظهر ما يسمّى أدب (**النكبة**) الذي يؤكّد المعنى الغريزيّ لعقدة الاضطهاد لدى اليهود، وظهر أدب (**الارتباط بالأرض**) الذي يرمي إلى تأكيد خرافة الملكيّة التاريخيّة لفلسطين، ولكن الأوضح بين هذه التشكيلة الأدبيّة، ظهورُ أدب (**الحرب**) الذي يسوّغ استخدام العنف، لِخَلْقِ الأنموذج اليهوديّ المقاتل، وكانت سمات ذلك كلّه التزويرَ والمبالغة، وطمس الحقائق.. والتأثير في الحياة السياسيّة والعسكريّة، التي غدت جزءاً من مسيرة هذا الأدب.

إنَّ الأدب الصهيونيّ- بإيجازٍ شديدٍ- بيانٌ سياسيّ كُتب بأسلوبٍ اتّخذ من الصيغ

الأدبيّة المعروفة؛ من روايةٍ وقصّة وشعرٍ ومسرحٍ.. إطاراً له، وإنَّ «**تجربة الأدب الصهيونيّ هي تجربةٌ (فريدةٌ) من نوعها، في التاريخ، حيث يَستخدم الفنّ بجميع أشكاله ومستوياته، للقيام بأبشع عمليّة تضليلٍ وتزويرٍ وتحقيرٍ لإنسانيّة الإنسان، سواءٌ أجاء ذلك عبر تعبئة الفرد اليهوديّ بكلّ مشاعر الحقد والاحتقار للعرب، أم عبْر تزوير التاريخ ونشر الأضاليل والخرافات**»[٢]

إنَّ القراءة الموثّقة للأدب الصهيونيّ، تقول: «**إذا كانت الصهيونيّة السياسيّة هي نتاجٌ للتعصّب وللعرقيّة، فقد كانت الصهيونيّة الأدبيّة هي أولى إرهاصات ذلك التعصّب وتلك العرقيّة**».[٣]

ولعلّ من المهمّ أن الإشارة هنا إلى أنّ الحدّين الزمنيّين (١٩٤٨- ١٩٦٧م) يُمثّلان- بصورةٍ من الصور- أكثر المراحل حساسيةً وخطورةً في تاريخ الأدب العنصريّ، وقد كان لهما تأثيرهما الواضح في تحوّلات الخطابين الثقافي والأدبيّ. فقد خرج الإسرائيليّ منتشياً بعد إعلان دولته لأوّل مرّةٍ في التاريخ، كما انتشى بانتصاره الحديث في حزيران عام ١٩٦٧م وعكَسَ ذلك على ثقافته وأدبه العنصريين في تحوّلاتٍ مثيرةٍ، أُنتجت داخلَ الكيان الإسرائيليّ، وخارجَه.. فوُجِدت صيغٌ تعبيريّةٌ، ورؤى فكريّةٌ استجابت لحركة الواقع، وعملت على توظيف الشروخ التي أحدثتها (النكبة والنكسة) في البنى المكوّنة للواقع العربيّ؛ السياسيّة، والاجتماعيّة، والثقافيّة..

لقد قام اليهوديّ الإسرائيليّ في القرن العشرين بمهمّةٍ تاريخيّةٍ، أعاد فيها كيان الدولة اليهوديّة بعد ألفي عامٍ، وسجّل صفحاتٍ جديدةً في هذه الحقبة من التاريخ، فكان عمله أقرب إلى «المعجزة» وعلى هذه العقليّة ينشأ الإسرائيليّون، ولهذا السبب، فإنَّ تشريد شعبٍ بأسره وتحويله إلى لاجئين، والسيطرة التامّة على وطنه ومساكنه وأراضيه، يصبح مقبولاً وعاديّاً وفقاً لهذا الوعي، ويستطيع معظم الإسرائيليّين التعايش معه، لأنَّه في نظرهم مسوَّغٌ دينيّاً بوعدٍ إلهي مسبقٍ، ومؤيّدٌ سياسيّاً بدعمٍ عالميّ، ومشروعٌ أخلاقيّاً بمنطق البقاء للأقوى، ولا أحقيّة للعربيّ في هذا المكان أو في هذه الحياة، مادام مستكيناً إلى ضعفه.

زخرت أدبيّات الحركة الصهيونيّة منذ بدايات القرن العشرين، بالنصوص الأدبيّة التي وَصفت الأرض الفلسطينيّة، وصفاً يهوديّاً، ففي مطلع القرن، وبداية الهجرة اليهوديّة، بدأت عمليّة نشر نصوصٍ تُصوِّر فلسطين، بلغات هؤلاء المهاجرين، وباللغة العبريّة عند من تعلّمها، وتصفها بأنها صحراء قاحلةٌ في الجنوب وفي الشمال، تكثر فيها المستنقعات، وأن سكانها من البدو

الرُحَّل البدائيّين والقذرين الذين يكرهون اليهود، وقد نُشرت القصص والقصائد التي تمجّد الإسرائيليّ الذي جاء إلى فلسطين ليحييَ القفار، وأحضر معه الحضارة الغربيّة المتطوّرة والثقافة العصريّة، وبدأت هذه الأدبيّات تصنع الأساطير الثقافيّة، مثل شخصيّة «أهرون ديفيد غوردون» الفلاح اليهوديّ العصريّ والمثقّف، الذي يعرِف كيف يتعامل مع الأرض، خلافاً للبدويّ العربيّ المتنقّل، والذي يهملها ولا يحترمها كمصدرٍ للعيش، وقد كتب المندوب السامي البريطانيّ «هربرت صموئيل» عام ١٩٢٥م تقريراً إلى حكومته يصف هذه العمليّة التي كانت تجري على أرض فلسطين بقوله: «**إن المستوطنين (اليهود) في كلّ أنحاء البلاد يعملون في الأرض بتلهّفٍ وإيمانٍ، ويحوّلون المستنقعات والقفار إلى حدائق غنّاء. بلادٌ متخلّفةٌ تتحوّل إلى دولةٍ متطوّرة**».(٤)

حاول الأدب العبريّ، إيجاد صورةٍ مشوّهةٍ للعربيّ، والعربيّ الفلسطينيّ الذي يطالب بحقّه في العيش على أرضه، وعمل على تسويغ المجازر الإسرائيليّة بحقّ العرب، والترويج لفكرة الوطن القوميّ، الذي يحمل دلالات تقديس الأسطورة الإسرائيليّة، لذلك كانت صورة العربيّ- من وجهة نظر الثقافة العبريّة- مشوّهةً.

ومع اشتداد الصراع على الأرض، وحدوث المواجهات الدمويّة بين العرب واليهود، تمحورت الكتابة حول شخصيّة العربيّ الذي وُصف بأنّه: متخلِّفٌ وخائنٌ، ومجرمٌ يطعن من الخلف، ومنافقٌ ولصٌّ.. هذه الصفات وغيرها كثيرةٌ في المعجم الصهيونيّ الذي يجرّد العربيّ من إنسانيّته، فمنذ البداية، قال «هرتزل» زعيم الحركة الصهيونيّة في يوميّاته: «**يجب علينا القيام بحملةِ صيدٍ كبيرةٍ نجمع فيها (الحيوانات) ونلقي بينهم القنابل المميتة**» وما زالت الأدبيّات الإسرائيليّة حتّى اليوم تذكر ذلك، وتُزوّد السياسيّين والعسكريّين بمفرداتها، وهم بدورهم يضيفون عليها أوصافاً لمخلوقاتٍ حيوانيةٍ حيّةٍ، وثّقوها أدبيّاً، كما في كتاب: «**سرطان في قلب الدولة**» لـ «**الجنرال يانوش بن غال**» وقد عمد الشاعر «**أ.رؤوبيني**» في قصيدته الحربيّة «**خمسة وثلاثون**» إلى وصف العرب بأنهم «**بنات آوى وغربان ووحوش..**» وكذلك كتب «**إسحاق شامير**» كتاب «**حيوانات تسير على قدمين**» الذي يقول: «**لِنَلْتَفِتْ إلى معتقداتنا نحن، حيث لا الأخلاق، ولا التقاليد اليهوديّة تنبذ الإرهاب بوصفه وسيلةً قتاليّةً في مجرى الصراع، لذا فنحن بعيدون كل البعد عن تأنيب الضمير إزاء استخدامنا وسائل الإرهاب. وقد ورد في التوراة «اِمحقوهم**

عن آخرهم، أبيدوا حرثهم ونساءهم».. إنَّ إرهابنا يلعب دوراً كبيراً في معركتنا هذه.»..[٥]

وهذه المفهومات والمقولات لا يزال يتبنّاها زعيم حركة «**شاس/الحاخام عوفاديا يوسف**» والمشهور بـ«**عُبادة**» وهو عربيّ من أصولٍ مغربيّة، حيث وصف العرب بأنهم حشراتٌ دون الآدميين، وقال عنهم في كتاب «**أفاعٍ رقطاء**» : «**بأنهم أولاد الأفاعي، وإنَّ الله ندمٍ لأنه خلقهم، ومن ثم، يجب قتلهم..**» كما صوّرتهم الشاعرة «**دوريت مارتون**» في قصيدتها «**لا أشجار**» بأنهم «**أفاعي هذا الزمان داخل بيتها**» وهذا الوصف- من وجهة نظرٍ يهوديّةٍ- يعدّ «**مرآةً للطريقة التي ينظر بها اليهود إلى العالم**» اعتماداً على مصادر يهوديّةٍ من بينها التلمود.

أمّا «**الجنرال رفائيل إيتان**» زعيم حركة «**تسومت**» ومؤلّف كتاب «**صراصير في قنينة**» **فهو من أوائل من أدخلوا العنف والمعاملة الفظّة ضدّ العرب على أيدي الجيش الصهيونيّ، وهو يجاهر بكراهيته للعرب، وقد قال عندما كان قائداً للمنطقة الشمالية في سياق أحد أحاديثه: «علينا أن نقيم فوق كل حجرٍ يقذفونه عشر مستوطناتٍ، وهنا لن يستطيعوا قذفنا بالحجارة، ونكون قد وضعناهم كـ الصراصير في قنينة مسمّمة».**[٦]

ينشأ الإسرائيليّون على هذه الأوصاف المنحطّة، ويلجأ مفكّروهم وقادتهم إلى ترسيخ ذلك، وعلى سبيل المثال، فقد تناول الكاتب «**دان ياهف**» في كتابه «**ما أروع هذه الحرب**» «**مئات النصوص الأدبيّة للتأكيد على أن الأدب العبريّ المعاصر متخمٌ بالمفردات والجمل التي تُنمّي روح العسكرة العنيفة في وعي الإسرائيليّين**».[٧]

ومع ذلك، وبصورةٍ عامّةٍ، فقد كان الأدب الصهيونيّ في فلسطين المحتلّة، صدىً للتربية الصهيونيّة التي تشحن اليهوديّ وغير اليهوديّ بالأفكار العنصريّة. ممّا يجعل هذا الأدب بمجمله فجّاً ساقطاً، خالياً من النزوع الإنسانيّ. وإنَّ ما يرسّخه من الأفكار، يحمل نزعاته التدميريّة، بغية إعادة صياغة الشعب اليهوديّ صياغةً روحيّةً ونفسيّةً وعسكريّةً، تبتدئ من الطفولة التي يزعمون أنَّها سليلة المحارب اليهوديّ القديم.

الهوامش

١- للأدب العنصريّ أربعة مصطلحاتٍ، هي الأدب العبريّ، الأدب اليهوديّ، الأدب الصهيونيّ، والأدب الإسرائيليّ، ولكلّ منها تفريعاته، ومرحلته الزمنيّة. وقد دُرست هذه المصطلحات بالتفصيل في كتاب:

محمّـد قرانيا. النـزوع العنصري في الأدب الصهيـونيّ. اتّحاد الكُتّاب العرب. دمشـق ٢٠١١م، ص(٣٥) ومابعد.

٢- أنطوان شلحت. ثقوب في الثقافة الآخروية. ط١، ١٩٨٨م، ص١٠.

٣- غسان كنفاني. في الأدب الصهيونيّ. بيروت ١٩٦٦م.

٤- محمّـد قرانيا. النـزوع العنصري في الأدب الصهيونيّ. اتّحاد الكُتّاب العرب. دمشق ٢٠١١م، ص(٣٥) وما بعد.

٥- د.صفـا محمود عبد العـال. تربية العنصريّة في المناهـج الإسرائيليّة. الدار المصريّـة اللبنانيّة. القاهرة. إنترنت.

٦- حَسَن البَاش. التربية الصهيونية من عنصرية التوراة -إلى دموية الاحتلال.

٧- د.دان ياهـف. ما أروع هذه الحرب. ترجمة وتقديم: سلمان ناطور. رام الله. المركز الفلسطينيّ للدراسات الإسرائيليّة. فلسطين.

الآلية الفكرية للمجتمع المدني عند هيجل

ترجمة وإعداد: هبة الله الغلاييني ❁

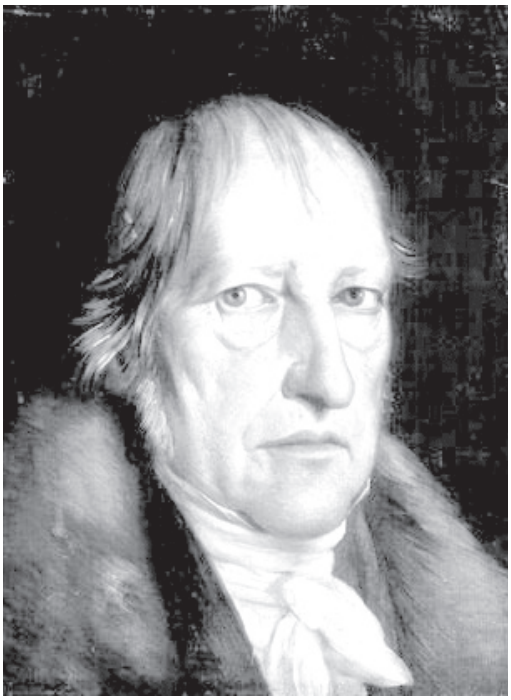

ربما كان التأخر النسبي للدولة البروسية، هو الذي حدا بالفيلسوف الجرماني «هيجل» إلى اعتبار الدولة أُسَّ نظريته السياسية، بل الفلسفيـــة، فالدولة حســـب «المعنى» لديه، هي المناظر لمعنى المطلق. فهيجل في تثمينه لـــدور الدولة، خلافاً للتأخر النسبي للعرش البروسي، لا ينطلق فقط من الواقع العياني والمشخّص لهذا التأخّر، بل إنه يقوم بتجريد هذا المشخّص العياني، إلى مفهومه الفلسفي النظري، ضمـــن منظومته الفلسفية الكليّة. فالمفكّر الألماني هيجل عندما استخدم معنى المجتمع المدني مثلاً لم يستخدم هذا المفهوم إلا لتأكيـــد دور الدولة، في تحقيق التماسك والانضبـــاط «وبلغتنـــا الحاليـــة - الوحدة

❁ مترجمة وكاتبة سورية.

الوطنية داخل المجتمع»، ونفى بذلك أن يكون للمجتمع المدني، أي قدرة على تحقيق تماسكه وانضباطيته الحرفية- من دون أن تكسبه الدولة هذا التماسك والانضباط.

عند هيجل تتحقّق الروح الموضوعية أو مفهوم الحق في لحظات ثلاث هي:

١- الحق المجرّد، حيث لا توجد الإرادة الحرّة أيضاً إلا وجوداً مباشراً.

٢- الأخلاقية الذاتيّة.

٣- الأخلاقية الموضوعية، وهي الأخلاقية المشخّصة الوحيدة، التي حينما وجد هيجل بمناسبتها مثاله الأعلى عن الكل، استطاع أن يقول: ليست الموضوعية الأخلاقية شيئاً آخر غير حياة الشعب.

الدولة ونقد المجتمع المدني عند هيجل:

يصوّب هيجل سهامه النقدية في كتابه «مبادئ فلسفة الحق» الصادر سنة ١٨٢١م، إلى نظرية التعاقد الاجتماعي في الدولة، وهو يعتبر أنَّ المجتمع المدني لا يقوم بنفسه ولنفسه، وهو قاصر عن تحقيق الأمن والحماية لأفراده، وعند موازاته للمفهوم الفلسفي «الدولة مقابل الحرية»؛ تصبح الدولة عندئذ في نظره، وبصفتها المستقلّة عن المجتمع، هي التشخيص الحقيقي للحرية، بل إنه يطابق، بين الدولة «ونظام العقل».

وبمطابقته ما بين مفهوم الدولة «ونظام العقل»، يؤكد هيجل على عجز المجتمع المدني عن إقامة وتحقيق العقل والحرية من تلقاء ذاته، منكراً أصلاً فكرة الانسجام الذي تفترضه النظرية العقدية، ما بين الدولة والمجتمع المدني، وبهذا ينصبّ اقتراح هيجل على الدولة لا على غيرها باعتبارها الإطار القوي القادر على تحقيق العدل والحرية.

ينطلق هيجل من الأسرة التي يعتبرها الجذر الأخلاقي الأول للدولة، وعندما يعتبر أنَّ المجتمع المدني هو أحد مستويات تمظهر الدولة، يعتبر أنَّ المستوى الآخر هو الأسرة، ومعنى هذا أن المجتمع المدني في نظر هيجل هو مجال تقسيم العمل (بالعودة إلى نظرية آدم سميث في كتابه الشهير «ثروة الأمم»، ١٧٧٦م) واتّباع الحاجات المادية.

غير أن المجتمع المدني أيضاً هو لحظة من لحظات الحياة الروحية، وهذه اللحظة تقع ما بين الشكل البسيط للخلية الاجتماعية ألا وهي الأسرة، وبين الشكل الأعلى وهو الدولة المتحكّمة في ذاتها.

يدرس هيجل المجتمع المدني ضمن مبادئ فلسفة الحق، وضمن مبادئ فلسفة الحق يدرسه ضمن مفهومه للأخلاقية الموضوعية، وضمن هذه الموضوعية يدرس

هيجل الأسرة أولاً، ثم المجتمع المدني ثانياً، غير أن دراسته للمجتمع المدني تأتي ضمن نسيج أكبر هو الدولة. ويقسّم هيجل دراسته إلى الفقرات التالية:

- **منظومة الحاجات:**

١- أنماط الحاجات وإرضاؤها.

٢- طرائق العمل.

٣- الثورة.

× القضاء:

١- الحقّ بوصفه قانوناً.

٢- وجود القانون.

٣- المحكمة.

- **الإدارة والهيئات الحرفية.**

١- الإدارة.

٢- الهيئات الحرفية.

لا يفرّق هيجل بداية بين المجتمع المدني والمجتمع البرجوازي، وهو ضمن تشكّل المدن في أوروبة، في ذلك العصر، وتقسيم العمل، وبداية عصر القوميات، والتوجه بالبضاعة الرأسمالية الفائضة نحو أسواق خارجية مما أدى إلى ظاهرة الاستعمار، يستخدم هذا المصطلح، أقصد المجتمع البرجوازي، ويثبته بالجرمانية هكذا: (المجتمع المدني أو البورجوازي)، وينطلق في تحليله الفلسفي العميق من أن المبدأ الأوّل للمجتمع المدني هو الشخص، ويقول: إنَّ الخصوصية لها الحق بالنمو والانتشار في كل الجهات، أما الكليّة فلها الحق بأن تتجلّى بوصفها قاعدة الخصوصية وصورتها الضرورية. وفي مقابل مفهوم الدولة حسب الحداثة، يقول: إنَّ النمو المستقل للخصوصية هو اللحظة التي تتجلّى في «الدول» القديمة. إذن، هو يضع معنى «دولة» بالنسبة لمرحلة ما قبل النهضة (الرينسيانس، ضمن قوسين)، لأن دراسته تتركز على مفهوم الدولة، ودولة الحداثة، وهو لذلك يقول: إن الخصوصي مقسور على أن يرتفع إلى صورة الكلي، فالخصوصي أُسٌّ للدولة القديمة، دولة ما قبل الحداثة، ينهدم، ويتشظى بفعل عوامل كثيرة من ضمنها تزايد الإنتاج، وتشكّل المدن البرجوازية، واتساع الأسواق، وتنظيم الهيئة الحرفية.

فدولة الحداثة تعادل بالمفهوم الهيجلي صورة الكلي، والأفراد بوصفهم مواطني هذه الدولة، «الدولة القديمة» دولة ما قبل الحداثة- هم أشخاص خاصّون، غايتهم منفعتهم الخاصة، وبما أن منفعتهم تُنال من خلال الكلي، تحوّلوا إلى حلقات في السلسلة التي تتألف منها جملة هذه الدولة.

يتضمن المجتمع المدني اللحظات الثلاث التالية:

أ- توسّط الحاجة وإرضاء الفرد بعمله، وبعمل الآخرين جميعاً، وإرضاء حاجاتهم وتلكم هي منظومة الحاجات.

ب- واقعية عنصر الحرية الكلّي، المتضمن في هذه المنظومة، وهي الدفاع عن الملكية بالعدالة.

ج- الحيطة ضد ترسّبات جواز هذه المنظومات، والدفاع عن المصالح الخاصة، وكأنها شيء ما مشترك، بالإرادة والمنظمات الحرفية في الآلية لمنظومة الحاجات.

• إرضاء الحاجة الذاتية التي تبلغ الموضوعية:

١- بوساطة الأشياء الخارجية التي هي ملكية الحاجات ونتاجها، وهي تركّز على أنماط الحاجات وإرضائها، وتتركز هذه على قدرة الإنسان على مضاعفة الحاجات والوسائل، لا بل الإفراط في طلب هذه الحاجات، لا بل تصعّد التجريد الذي يصبح صفة للحاجات وأنماط إرضائها وبالتالي يصبح شيئاً مشخّصاً بما هو اجتماعي، وعندما تصبح الحاجات كليّة ومشخصة بما هو اجتماعي، يصبح إرضاؤها ينبوعاً حقيقياً لمضاعفة الحاجات وتوسّعها، لكن صرامة الضرورة الطبيعية للحاجة اختفت، والإنسان يسلك وفقاً لرؤية الكلّي، ووفقاً لضرورة هي من صنعه، صنعها وفقاً لجواز لم يعد خارجياً، بل داخلياً، جواز من صنع حرية الاختيار والتعارض ما بين الحاجة والإرادة الحرة متيحة صلابة مطلقة.

٢- في آلية طرائق العمل بوصفها توسّطاً بين الحدّين (حدّ الحاجة وإرضاء الحاجة)، إن تخصيص المادة الطبيعية المبذولة هو لغايات متنوعة ومختلفة، وإن الثقافة الناتجة عن الممارسة للعمل تقوم على الحاجة التي تعيد إنتاج ذاتها وبذاتها، وعلى عادة الانشغال عموماً، وتقوم أيضاً على أن تحدّ من طبيعة المادة وإرادة الآخرين من الفعالية، وهذا التدريب يعكس في العادة فعالية موضوعية وصفات كليّة ويجعل من تجريد الإنتاج والعمل أكثر ميكانيكية، ويمكن في النهاية أن تحل الآلة محل الإنسان، وعندما يتطور الإنتاج إلى مثل هذه الآلية يصبح ضمن مفهوم الاقتصاد السياسي الرأسمالي، لمؤسس الاقتصادية الرأسمالية آدم سميث في (ثروة الأمم) (١٧٧٦م) وبعده الاقتصاد السياسي في صيغته الإنتاجية التبادلية (ريكاردو وتراكم الثروة).

في آلية الثروة:

إنَّ هناك توسّطاً للفكرة الجزئية ضمن المفهوم الأعلى وهو الفكرة الكليّة، فتكوين الثروة والحفاظ عليها في الدول والمجتمعات مسألتان تعودان إلى المجتمع المدني وضمن مفهوم الكلي، تعودان إلى الدائرة الأكبر، ألا وهي الدولة، ومشروطية المشاركة في الثروة الكليّة ترجع إلى قوة رأس المال، وبالقابلية

المشروطة بدورها بالقواعد المباشرة الملائمة، لكن هيجل حتى ضمن هذه المشروطية الشخصية يركّز على موضوعية خصوصية الروح، لذلك تتخذ الجماعية - يقصد الكليّة - منظومة جزئية من الحاجات وأساليب إرضاء الحاجات وثقافة نظرية وعمليات تقوم على خصوصية الروح، وهي منظومات يتوزع الأفراد عليها، هذا يؤدي إلى الفرق بين الطبقات، أُسّ توزيع الثروات، وعند هيجل الطبقات، هما طبقتان فقط:

- الطبقة الجوهرية.
- الطبقة الكليّة.

الطبقة الجوهرية:

وهي تستمدّ ثروتها من الأرض كملكية خاصة، وروح هذه الطبقة تتسم بالأخلاقية الموضوعية المباشرة، أس مبحث هيجل، ما يستدعي أن تعتمد على الأسرة والثقة الطيبة.

ويحلو لهيجل هنا أن يعود إلى الموضوعية المفضّلة لدى الجرمان، في هجاء المجتمع الزراعي والطقوسي الشرقي، فهو يعتبر أنَّ الطبقة الزراعية هي الأس الأول للطبقة الجوهرية، أمَّا الأُسُّ الآخر فهو الطبقة الصناعية وهي التي تهتم بتحويل الناتج الطبيعي إلى شكل آخر، إلى التوسط، وفعالية هذه الطبقة قسمان:

- الصناعة الحرفية.
- المعمل.

الطبقة الكليّة:

أمَّا الطبقة الكليّة فهي الطبقة التي تهتم بالمصالح العامة، والنفع العام، ونعود إلى موضوع الخصوصية الذاتية، فهي إذا أثبتت وتمّ الاعتراف بحقّها، تصبح المبدأ الذي يحرّك المجتمع المدني، وحينما تعترف بحق حرية الاختيار بكونه الوسيط الذي ينتج ما هو ضروري عقلياً في المجتمع المدني وفي «الدولة» ونسلّم به، نضع التحديد القريب لما يدعى في التصور الشائع: الحرية. وهيجل في هذه الملحوظة يعيد إلى أُسّه المعرفي حول موازاته الحرية بالدولة.

وأخيراً، تتطلب الحاجات المتفاقمة للفرد وضبطها وإرضاؤها، شيئاً اسمه الحماية، ومن يحمي هذه الحاجات ومن يضبطها؟

ومن يحمي هذه الثروة المتراكمة؟ إنه القضاء.

القضاء كأساس للدولة، وآليته في منظومة المجتمع المدني لدى هيجل، تنعكس علاقات التبادل بين الحاجات والعمل في الحق المجرد.

١- الحقّ بوصفه قانوناً:

إن ما هو في ذاته الحق، يوضع في وجوده الموضوعي من أجل الوعي، ويعرف الحق

بوصفه مـا هو كائن وما لـه قيمة ضبطاً، وذلكم هـو القانون، وبحسب هذا التحديد، يصبح هذا الحق: الحق الموضوعي عموماً، غير أن ما هو قانوني وضعي له وحده القدرة الحقوقية على الإلزام، فقد يحدث أن يبقى القانون في مضمونه، مخالفاً لما هو القانون في ذاته، غـير أنَّ هيجل يقول هنا إنَّ الحق وضعي عامة، ووضعه لقاعدة وضعية الحق، ووضعية القانون تأتي ضمن النسق الأوروبي لمنجـز الحداثة في ترسيـخ وضعية القانون ضمن الأنساق الفكرية الأخرى للأوروبي.

لكـن متى يتحقّق الحـق؟ يقول هيجل: إنَّ الحـق يتحقّق بوصفه مضموناً بالتطبيق ويدخل في علاقات مع المـادة التي تقدمها أوضاع أنواع الملكيـات والعقود في المجتمع المدني، ويدخل أيضاً في علاقة مع الأوضاع الأخلاقيـة ضمن حدّ ووجه من وجوه الحقّ المجرد، وإن الواقـع الوضعي للحق يتضمن قابلية التطبيق على الفردي خارج الجزئي، إنه يدخل ما ليس على الكمّي.

٢- وجود القانون:

يتضمن الالتزام تجـاه القانون، ضرورة كون هـذا القانون معروفـاً للجميع، وربما كانـت العبـارة الحقوقيـة الشائعـة الآن: القانون لا يحمي المغفلين، هي خير معبر عن فكـرة هيجل هذه، وهو يضـرب مثلاً حول وجـوب أن يكون القانـون معروفاً للجميع، حـول أحد الطغاة واسمـه ديونيس، إذ كان يصـدر القانون ويعلقه عاليـاً كي لا يقرأه أحـد، ويستطيع أن ينزل العقاب بمن يشاء، بعد استصداره لهذه القوانين «العالية».

ويناقشـ هيجل هنا المصـادر الرئيسة لتعقيد القوانين، ويقول إنَّ الحق في ذاته هو القانون في المجتمع المـدني، وتعتمد الملكية مثلاً علـى العقد وعلى الشكليـات القابلة لجعـل العقد صحيحـاً، وذا قيمة حقوقية، ويركّز هنا علـى غياب الطرائـق البدائية والمباشـرة للاكتسـاب في المجتمـع المدني، ويصل إلى فكرتـه الأثيرة في فعل الاحتياز، والحيازة، فالملكيـة والشخصية لهما قيمة في المجتمع المدني، والجريمة انتهاك للشيء العام، فمـا دامت هنـاك أصبحت حيازة، وأصبح هناك خطر يتهدّد هذه الحيازة.

إنَّ قـدرة المجتمـع القويـة تنقص من خطـورة انتهاك هذه الحيازة، لكن يجب أن يكون هناك اعتدال في فرض الجزاء، وهذا الاعتدال يأتي من خلال المحكمة.

٣- آلية المحكمة لدى هيجل:

الحق (القانون)، يوجـد لذاته، بوصفه مستقلاً، والفعل الذي يعترف بالمحكمة، يمت أصـلاً إلى المحكمة، وإنَّ حق دفع الجريمة، حـق في ذاتـه، وليس في صـورة الحق، أي

ليس عادلاً في وجوده. ويناقش هيجل هنا آليات انعقاد المحكمة: حضور المحكوم ساعة الحكم، وعليه المثول أمام المحكمة، وأن لا يطلب الاعتراف بحق متنازع عليه إلا أمام المحكمة. ويتصف الحق بوجوب إظهاره أمام المحاكم، من مداولات أعضاء المحكمة الحكم فيما بينهم وتتبع الإجراءات القانونية، والاعتراف بالحالة الخاصة.

ويناقش هيجل صفة القاضي المؤهل الذي يستصدر الحكم، ويقول إن الحالة يجب أن تهيأ لإلحاقها بقاعدة ما، ويجب أن تصبح حقيقة معترفاً بها، وأن تتلقى مواصفات كلية، أي أن الحق يتصف بوجوب إظهاره أمام المحاكم. ولا تتضمن معرفة الحالة أي قرار حقوقي، فهي معرفة وفي متناول كل إنسان مثقف، ويجب أن يكون الحكم القضائي معرفاً، وهنا يأتي دور المجتمع المدني - حاضنته الكبيرة الدولة - كي يعود إلى وحدة الكلي- الدولة، ويؤلف تحقيق وحدة الكلي هنا مهمة هيجل للإدارة بوصفها اتحاداً نسبياً ومهمة الهيئات الحرفية في وحدة مشخصة وإن تكن محدودة.

أما الخصوصية الذاتية مقابل الكلية فترتد إلى حالة نوعية، ويحتفظ الكلّي بمعنى الحق المجرّد. لكن ما هي الهيئات الحكومية الحرفية وإدارتها الشخصية ضمن مفهوم هيجل لوحدة الكلي هنا؟

الإدارة والهيئات الحرفية:

١- الإدارة:

إنَّ القدرة الكليّة تضمن المبدأ الذي يتعلق بتحقيق الغاية ويركّز على حرية الاختيار في تحقيق هذه الغاية، ويقول يجب أن تصبح أعمالي الخاصة جوازياً، تفلت من إرادتي، وتتيح الفرصة لخسارة الآخر، وإن أساس القسر الإرادي، يقابله الإضرار بالآخر، لكن ليس هناك حدّ في ذاته (أي هل هناك حدّ معرّف بذاته، وحاجز ما بين الضرر والإضرار؟). فتنوّع الحاجات، ووسائل إرضائها، يولّد أنواعاً مشتركة من الفعاليات الاجتماعية، الاقتصادية، أو العكس، وهذه المهام الجماعية، والمؤسسات ذات النفع العام، تتطلب سهر السلطة، الدولة هنا، وقدرتها على التوقع بأن تنوع المصالح يؤدي إلى التنازع، وهل هناك إمكانية لمشاركة الأفراد للثروة الجماعية، وجواز هذه الإمكانية من عدمه؟

وهنا يقطع المجتمع المدني رابطة الأسرة، ويعترف بأعضاء الأسرة كأشخاص مستقلّين، ويصبح الفرد ابناً للمجتمع المدني، الذي بإمكانه أن يطالب به، بيد أنَّ الفرد تكون له أيضاً حقوق عليه (على المجتمع المدني)، غير أن هيجل يرجع إلى المفهوم الكلّي مرّة أخرى، في اعتباره أن الأسرة هي مفهوم كلّي، وهذا المفهوم الكلّي يلقي على عاتق

المجتمع واجباً تجاه الأسرة، ألا وهو مفهوم: التربيــة، ويمضي هيجل قدماً في أن التربية لها الحق الواجب في الوصاية على الأفراد، لتحقيق غاية المجتمع.

وأن سلطــة الجماعة تحــل محل الأسرة حيــال الفقراء، ويشرح هيجــل شكل الفاقة والعوز والبؤس، ويلحظ جواز إنشاء المبرّات والصدقات، ويتصور المجتمع المدني هنا في تقدم مستمر وداخلي للسكان والصناعة.

وفي أوروبة في ذلك الوقت (أوائل القرن التاسع عشر)، عند بدء تشكيل المدن الكبرى وهجرة الريف إلى المدينة، وبداية تكوّن طبقة البرجوازية أو ما ندعوه في أدبياتنا (الطبقة الوسطــى)، نشأ كما يقول هيجل انحدار في المعاشــ لوجود دهماء ليســ لديهم ثروات، ووجود ثروات بالمقابل غير متناسبة في عدد قليل من الأيدي، وطالب هنا بحياة الجمهور وبالعمل، ووسّع مــن فكرته الاقتصادية كي يتناول تطــوّر الإنتاجية ونشــوء الاستعمار الذي فتح أسواقاً خارجية لتصريف فائض بضائعه.

٢- الهيئات الحرفية:

خصوصية المجتمع هنا، تبتدئ في التبصّر الإرادي بصورة نظــام خارجي ومؤسسات. والتبصّر كاتجــاه أعلى، يسهر على المصالح الفائضــة عن أطر المجتمــع، وحينما تتخذ الخصوصيــة ذاتها من الكلي المتضمن فيها غايــة وموضوعاً لإرادتهــا وفعاليتها، تعود الأخلاقيــة الموضوعيــة إلى الاندمــاج في المجتمــع المدني، وهذا يــؤدي إلى منفذ إلى لرسالة هيجل في الهيئات الحرفية.

فصل هيجل سابقاً في الطبقة الصناعية كجزء مــن الطبقة الكليّــة حسب تصنيفه، وهو يتجه من الناحية الجوهرية إلى الأصغر ألا وهــو فكرة الجزئي، ولهذا كانت الحرفة خاصة بالمنطقة الصناعيــة، فالزراعة أُسٌّ أول يربــط الطبقة الزراعية بمفهوم الدولة القديمة، دولــة ما قبل الحداثــة، بتعبيرنا الراهن.

وبعد هذا التوصيف للهيئات الحرفية - يبدأ هيجل بالتفكيــك المعرفي حيث تنقسم طبيعة المجتمع المدني إلى فروع مختلفة، حسّ الخصوصية التي في طبيعته، ويصبح عضو المجتمع المدني عضواً في الهيئة الحرفية هنا كأســرة ثانية، ويمت عضــو الهيئة الحرفية بصلة إلى الكل -الكل بمفهوم هيجل- وبما أنه عضــو في المجتمــع عموماً فهــو يهتم بالغايــات غير الأنانية لهذا الكلّي -الدولة- ويجهد من أجله.

إذن تتحدد كرامته في مرتبته الاجتماعية. بدورها تقدم الهيئة الحرفية لمواهب الفرد سمة التصرف وتضمن لموهبته الأمن، وترفع هذه الموهبة إلى كرامة الفعالية الواعية، من أجل تحقيــق غاية اجتماعيــة. وبذا تؤلّف

الهيئة الحرفية هنا الجذر الأخلاقي الثاني للدولة، الجذر المغروس في المجتمع المدني.

وعود على بدء، فإنَّ غاية الهيئة الحرفية تجد حقيقتها في الغاية الكليّة في ذاتها ولذاتها، وفي واقعيتها المطلقة، والمطلق يؤدي بدائرة المجتمع المدني إلى الحاضنة الأكبر، أي بمفهوم هيجل في فقرته الأخيرة، إلى الدولة.

المصدر

من كتاب: «مبادئ فلسفة الحق» تأليف: هيجل- إصدار عام ١٨٢١م.

فرص الإبداع والمبدعين في الحالة العربية الراهنة

❁
د. خير الدين عبد الرحمن

الإبداع من أبرز خصائص الإنسان الناجح، وإطلاق مواهب المبدعين من أبرز مقومات المجتمع المؤهل للتطور والتقدم. يعكس الإبداع تجربة إنسانية عميقة تمنح صاحبها تمايزاً، وكلما ارتبطت هذه التجربة بموضوع حياتي معاش يهم الآخرين، يدركه المبدع بعمق ويسبر أغواره ويكشف خفاياه وارتباطاته وينفعل معه انفعالاً صادقاً.

ويجيء العمل الإبداعي الناجم عن هذه التجربة أشد التصاقاً بمسار التقدم الإنساني، وأكثر تأهلاً لتوليد آفاق واسعة لإبداعات أخرى، وأكثر تجسيداً لأصالة موشحة بالابتكار- وهذا شرط رئيس للإبداع.

والإبداع مشروط دائماً بالحرية، فالطفل يبدأ ممارسة حريته منذ ولادته، مع أنها تكون إذ ذاك حرية قاصرة، وتكون إمكانياته محدودة، لكن الطفل يندفع لتجريب إمكانياته القاصرة على نحو يزداد مع ازدياد قدرته على الحركة المواكبة لنموه ولما يكتسبه من دربة وما يلقاه من تشجيع وتزداد هذه القدرة بازدياد مساحة الحرية المتاحة له.[1]

كما يرتبط الأمر بتنمية خيال الطفل، عبر قدرته على الحلم والتذكر والخلق والتأقلم مع العالم المتغير من حوله، بما يشكل حافزاً له لمواجهة المواقف والتعامل مع المستجدات والمتغيرات.

❁ أديب وباحث ودبلوماسي سابق.

تحدث الطبيب النفسي ديفيد فيسكوت عن هذه المسألة في كتابه (فجّر طاقتك الكامنة في الأوقات الصعبة) وقال: «كم هو رائع لو كنا جميعاً موهوبين بصورة كبيرة في مرحلة الطفولة، لدرجة أن تحدد لنا مواهبنا المسار الذي نتبعه، لكن ذلك لا يحدث في الغالب. ربما يقلل تعليمك من حماسك لما تحبه أكثر مما يدعمه..». عندما تجابه أسئلة الطفل وتساؤلاته وإجاباته وشطحات خياله في البيت بالزجر والقمع أو الاستخفاف أو التجاهل أو أوامر بالصمت من قبل والديه وإخوته الكبار، وعندما تتكرر هذه المعاملة نفسها معه في المدرسة من قبل معلميه، وفي الشارع من قبل الجيران أو المعارف أو المتعاملين معه أو عابري السبيل، يصبح من العبث انتظار تفجر طاقات الإبداع لديه لاحقاً.

وهنا لا نجد غضاضة في الإشارة إلى ملاحظة تتكرر عن حالات إبداع عرب مغتربين في الولايات المتحدة وأوروبة واختراعات بعضهم وابتكارات آخرين على نحو جعلهم شخصيات عالمية بارزة، وغمرهم بالتقدير والجوائز العلمية، بينما تقتل مواهب من كانوا يماثلونهم أو حتى يتفوقون عليهم في طفولتهم وصباهم لأن ظروف بلادنا العربية تقتل أكثر المواهب أو تطمسها.

وإذا ما توافقنا على أن كل إبداع إنساني هو نتاج جزئي ذاتي خاص يتضمن في داخله تكويناً كلياً عاماً ينشئه أو ينتسب إليه أو يفيض فيه، إذ لا إبداع بغير تلاقي واتحاد التفرد والخصوصية مع الكلية والعمومية، فهل نجنح إلى يأس يبعثه تشخيص لحالتنا العربية الراهنة بما يداني رؤية الجاحظ إذ جزم في ثالث أجزاء بيانه وتبيينه أن «كل معنى للعجم فإنما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد وخلوة، وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام»؟، أم نعتمد تشخيص ابن خلدون إذ قال:

«التحقيق قليل، وطرق التنقيح في الغالب كليل، والوهم نسيب للأخبار وخليل، والتقليد عريق في الآدميين وسليل»؟ خاصة وأن مفكراً عربياً معاصراً نقدّره هو أبو يعرب المرزوقي الذي شدد على إرجاع أزمة التخلف العربي الراهنة إلى جذورها الماضية قد أكد على ضرورة مراجعة عوامل النهوض لدى صعود المدّ الحضاري الإسلامي الأول للاقتداء بها وتوظيف روحها وجوهر أفكارها في تجديد النهضة، معتبراً أن أبرز من جسدوا النهضة من المفكرين العرب ابن خلدون في رؤيته العمرانية والحضرية وابن تيمية في نظره العقلي والمنطقي..[٢] أم أنَّ أزمة إبداع الفكر العربي المعاصر من حيث كونه رؤية متكاملة للعالم هي أزمة بنيوية،

أزمة عقل يواجه مفاهيم ومقولات وآليات ذهنية تنتمي إلى نظم معرفية شاذة اكتسحت الطريقة الصوفية والرؤى السحرية ساحتها الاجتماعية والثقافية وأزمة ثقافية ارتبطت بالسياسة منذ بدء تشكلها كما رأى محمد عابد الجابري؟ أم أن هناك (استعصاء) إبداعيّاً مثلما هناك (استعصاء) ديمقراطي للمجتمعات العربية كما يبدأ محسن محمود خضر بحثه المعنون عوائق الإبداع في المجتمع العربي[٣] منطلقاً من فرضية أساسية هي أن فضاء ممانعة الإبداع من حدود المدرسة والنظم التعليمية أنه كامن في بنية النسيج الثقافي ويعززه ويعيد إنتاجه مناخ الاستبداد والقهر السياسي والتنشئة المجتمعية عامة في المجتمع العربي المعاصر؛ فالإبداع دالّ الثقافة.

فلنتفق أن الإبداع هو جوهر الوجود الإنساني، وهو شيء كامن فينا، هو نحن، هو الإنسان كما هو إنسان. «الإنسان يبدع بما هو إنسان، ويبدع فيما له إنسان، فالأولى تعني أن هدفه الإبداع، أمَّا الثانية فهي الوسيلة التي يستخدمها لتحقيق الكمال البشري في وجوده المعنوي والروحي، في وجوده الفردي والاجتماعي والثقافي، وهذا يؤكد أن الإبداع هو تجاوز الواقع لتحقيق ارتقاء معين، سواء كان حل المشكلات أو تغيير الواقع. ومن ثم فإنَّ تنمية الإبداع ضرورة لأنه يفجر الطاقة الخلاقة للفرد والمجتمع والأمة؛ فليس مجرد زائدة دودية يمكن إزالتها، أو مسألة ترفيه يمكن الاستغناء عنها أو إهمالها».

رأى السيد يس أنَّ محددات تنمية إبداع الطفل العربي المستقبلية هي سياسة تعليمية حافزة ومنميّة للإبداع، مع تكافؤ الفرص التعليمية، وإيمان القيادة السياسية بالإبداع، والتقدم في بحوث فهم الإبداع ودراسته، وتدريب المعلمين على وسائل تنمية الإبداع، وتنمية صناعة ألعاب الطفل، ودفع سياسة قومية متكاملة لتنمية الإبداع والموهوبين على امتداد الوطن العربي، بينما مضى باحثون آخرون، مثل رفيقة حمود لطرق أبواب ما تتحاشى أكثر النظم العربية الاقتراب منها مثل اشتراط رفع مستوى المعيشة والقضاء على الفقر المعطل للإبداع والتقدم، ومعالجة كل العوامل المعرقلة لنمو القدرات الإبداعية في المجتمع العربي وخاصة لدى النساء، واتخاذ قرار سياسي يتيح اكتشاف ورعاية ذوي المواهب والقدرات الإبداعية المتميزة مبكراً بمشاركة مؤسسات المجتمع المدني، واحترام حرية المواطن وكرامته (رفيقة حمود، معوقات الإبداع في المجتمع العربي، مجلة مستقبل التربية العربية، مركز ابن خلدون، القاهرة، ٢٠٠٢).

وإذ شـدّد أكثر الباحثـين على مسؤولية التربية المنزلية والمدرسية في اكتشاف ورعاية المبدعين سأل فرناندو سبابتير عمَّا إذا كان على التربية تطوير التفكير النقدي والقدرة على إبـداء الآراء الذاتية لدى كل إنسان أم تربية شخصية مندمجة مـع المجتمع، وهل على التربية تطوير العقلية المبدعة المجددة أم المحافظة على الشخصية التقليدية، وهل عليها المجازفة بتكوين الإنسان المبدع أم ذلك الإنسـان الآلي (الروبوتـي) الروتيني، وهل علـى التربية أن تعكـس النظام الاجتماعي السائد أم تهيئة جيل متمرد يكون أداة التغيير الاجتماعي؟؟(التعليـم والقيـم المعاصـرة، ت.جمـال سليمان وخـوان خيمنيث، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٠، ص١٤).

لكـن مثل هـذه الأسئلة كثـيراً ما يساء استعمالهـا لتبريـر الإبقاء علـى الأوضاع الراهنـة، والحد مـن الدعـوة إلى التغيير والتطـور. إنَّ تقـدم المجتمـع في عصرنـا مرتبـط ارتباطاً وثيقاً بتفاعله الإيجابي مع جوهر التقانـة والمعلوماتية والدفق المعرفي المتعاظم، تفاعل مـن يضيف ويبدع ويبتكر ويخـترع ويطـور، لا من يقـف عند حدود الاستيراد والاستهلاك من فتات الآخر.

تستند التقانة والمعلوماتية إلى المساهمات البشريـة المؤهلـة المبدعـة ذات الكفـاءة المتميزة في ظل تنافس دولي يجعل للميزات التنافسية competitive advantages أهمية فائقة.

إنَّ إعداد المؤهلين لخوض هذا التنافس يبـدأ بمراعـاة وإشبـاع حاجـات الطفل الفطرية من حب وحنان ومشاركة اجتماعية، أي نزوعه الطبيعـي للاختلاط مع جماعة وصفها العالم توسـي بتجمع عدد صغير من الأفـراد على نحو يمكنهم مـن تفاعل دائم عبر اللقاء والمواجهة المباشرة.

إنَّ السياق الثقـافي والاجتماعي محدد رئيسـ لتأسيس النشاط الإبداعي أو خنقه، وفي هـذا الصدد لاحـظ د.خلدون النقيب أنَّ النظـم العربيـة تسعـى إلى الضبـط الاجتماعي بدلاً من تكريس الحرية المترتبة على المعرفة، وإلى توليد المسايرة والانصياع لمعايير الجماعة للحفاظ على الوضع القائم بدلاً من زرع روح التمرد المبدع البنّاء.

فعندمـا تسـود علاقة هرميـة قمعية تسلطيـة في العائلـة والمدرسـة والمجتمع، تولـد ما أسمـاه د.هشام شرابـي الإجماع القسـري الصامـت المبنـي علـى الطاعة والقمع، ونضيف مـن ناحيتنا إدمان النفاق والانتهازيـة وإفـرازات الخـوف الأخرى الناجمة عن هيمنـة الأمني على السياسي، وهيمنـة السياسي على الفكـري والمعرفي، من الطبيعي أن يضمر الإبداع ويختنق، وأن تسود المجتمع ازدواجية ولاء قسري ظاهري

مفتعل مزيف، بينما تمور أعماقه برد فعل تمردي يتراوح ما بين تخريب تحت السطح تنفيساً عن الكبت من جانب، وسعي إلى تغيير ثوري إنقاذي من جانب آخر، مع رضوخ غالبية الناس إلى شعور يائس بالإحباط يعطل إنتاج المجتمع ويعيق تطوره.

وإذا كان تولستوي الذي اهتم بمسألة التربية والتعليم وأسس مدرسة خاصة مفتوحة لتنمية الإبداع قد شدّد على الارتباط العضوي بين الإبداع والحرية باعتبارها شرطاً رئيساً لكل تعليم حقيقي، فإنَّ أغلب علماء السياسة قد توافقوا على أنَّ الدولة تسعى باستمرار إلى تعزيز سلطاتها وإقناع مواطنيها بحاجتها إلى سلطات جديدة استثنائية (مؤقتة) لمواجهة متطلبات كل حالة طارئة أو منعطف حرج.

لكن كل استثنائي أو مؤقت من الصلاحيات والسلطات يضاف إلى الدائم، فلا تتخلى الدولة عن سلطة أضافتها إلى (ترسانتها)، بل يتعاظم عطش الدولة إلى مزيد من السلطات، على حساب حرية المواطنين وحقوقهم، الأمر الذي يؤدي غالباً إلى انفجار تمرد أو ثورة تطالب باسترداد حرية المواطن وحقوقه.

إنَّ حاجة الطفل للإبداع والتفكير من زوايا غير ما ألفه في بيته، وبعيداً عن القيود التي يقاسيها في مدرسته، تجعله يهرب إلى خياله أو إلى أي أفق آخر ينقذه من كبت تلك القيود وعمليات الترويض البليدة التي تحاصره.

ويعتمد إبداع الفرد إلى حد كبير على قدرة تحكمه بالنشاط، حيث تتفاوت إرادة المرء في توجيه نشاطه وممارسته ما بين تحكم إرادي شبه تام في الفعل، أو انسياق شبه كلي استجابة لدوافع وعوامل وعوائق الواقع الخارجي دونما تدخل يذكر للإرادة الذاتية، أو بلا وعي. تتراوح إرادة التحكم فيما بين هذين النقيضين، ويتحدد مدى استعداد المرء للإبداع ومدى قدرته عليه في المدى الواقع بينهما.

وإذ تخضع هذه القدرة لعوامل ذاتية من ناحية، ولتأثيرات المجتمع وعوامل ومعطيات الواقع من ناحية ثانية، فإنَّ أبرز التأثيرات مرتبط بمدى الحرية المتاحة، ومستوى سيطرة الإرادة الحرة للمبدع على واقعه، ودرجة تحديه لسطوة هذا الواقع وطغيانه.

كما يلعب شكل الفعل الإبداعي نفسه ومادته ومضمونه وغرضه دوراً في تشكيل خيارات المبدع وصياغة نشاطه الإبداعي. لا نغفل هنا تأثير المبادأة الذاتية للمبدع، فمبادأته، أو مبادرته، وإقدامه الواعي والشجاع على الخطوة الأولى، استجابة لدافع ذاتي أو لحافز خارجي، سمة رئيسة من سمات المبدع، وعنصر هام وحيوي في سلوكه واستعداداته.

لا غنى هنا أيضاً عن توافر الإرادة الحرة، فالحرية المتلازمة مع الوعي شرط لا غنى عنه للإبداع، وكذلك لصنوه ورديفه الابتكار.

يرتبط الإبداع بالمبادرة، أي بالفعل الحر الذي وصفه هنري برغسون بانبثاق الحياة وطفرة فيها. هذه المبادرة فعل مرتبط بقوة الحدس والإلهام والرؤية والكشف والإدراك المباشر ويقظة الوعي والتركيز على الكيف والإقدام والمغامرة ورفض الجمود والسعي للانعتاق والحركة والتحول من التقليد إلى الابتكار والإبداع.

بل يرتبط أيضاً بالتحرر من الذاكرة، على نحو ما دعا نيتشة، أو اللاوعي النصي على نحو ما قال العالم النفسي الفرنسي أندريه غرين.

الإبداع هو المدخل إلى الحداثة والتحديث والتطور والتقدم، إنَّه تخطي الأفكار والأساليب والنماذج السائدة إلى ما هو أفضل وأحدث وأكثر ابتكاراً، إنَّه تجاوز الحلول المعتادة إلى حلول جديدة أكثر دقة أو جدوى أو عائداً، أو أسهل ارتياداً، إنه «تفجر إمكانات المواجهة والرغبة في تطوير البنى والأداء إلى أفضل.

والإبداع بهذا المعنى قيمة إنسانية عليا، ودالة كاشفة للحيوية الإنسانية»[٤]. وصف علي وطفة الحداثة الحقيقية بأنها «موقف يتصل بالجوهر والروح الحقيقية. إنَّها تعني القدرة على بناء النزعة العقلية في الإنسان، وترسيخ الروح العلمية، والنهوض بالفرد إلى مستوى الحرية الفردية، ومن ثم تربية الإنسان على قيم الإبداع والحرية وحقوق الإنسان. الحداثة الحقيقية تعني انتصار العقل والعقلانية، وهيمنة المعرفة العلمية، وتأكيد الحرية الفردية، وتفجير الإبداع، وبناء المجتمع المدني..». هنا يدخل عامل تراث الثقافة المجتمعية وتأثيراته الراهنة على فلسفة التغيير وسبله.

نلاحظ بسهولة مثلاً تمايز د.عصمت سيف الدولة في كتابه (الاشتراكية العربية) عن فلسفة هيجل المثالية، وعن فلسفة كارل ماركس الجدلية المادية، ناظراً إليهما بنظرة جدلية اعتبرت أنَّ «الأولى تقصر نفسها على مسار الفكر المجرد الخالص وحده، والثانية تقصر نفسها على مسار المادة وحدها، فلماذا لا ننظر إلى هاتين الفلسفتين بنظرة جدلية تجعلهما بمثابة الدعوى ونقيض الدعوى، لنؤلف بين النقيضين في كيان يجمعهما معاً، وهو الإنسان الذي اجتمع فيه الفكر والمادة معاً، بحيث نقول إن الجدل –أي التطور– لا هو مقصور على الفكر النظري وحده، ولا على المادة المجسدة وحدها، بل هو جدل الإنسان».

كما رأى د .نجيب محمود في رؤيته لتمايز عصمت سيف الدولة.[٥] وما دام الجدل مفهوماً يتضمن مساراً تطورياً صاعداً قد جعله هيجل تياراً من فكر، وجعله ماركس تياراً من مادة، فكلما أوغل المرء في تفحص هذا التيار أو ذاك، وكلما تمعن في مسار هذا أو ذاك، يبدو للمتنقل من أحدهما إلى الآخر أنه ينتقل من وضع إلى نقيضه.. فكان الحل لهذا الإشكال يكمن في فكرة مفادها أنَّ الجدل لا يكون للمادة وحدها، ولا للفكر وحده، وإنَّما للإنسان الذي يحتويهما معاً بحكم تكوينه ومقوماته العضوية من مادة وفكر.

فالمادة مجردة لا تعرف السير في التطور التصاعدي، ولا يعرف الفكر المجرد المطلق مثل هذا السير أيضاً ما لم يتجسد في إنسان معين يعيش مشاكله واحتياجاته وطموحاته ورغباته ويبحث له عن حلول.

فتجريد جدل المادة المجردة أو جدل الفكر المثالي أو عزلهما عن الإنسان إنَّما يلغي إرادة الإنسان الحرة ويخضعه لإرادة خارجية توجه مساره، ويلغي بالتالي أو يعطل إبداع الإنسان ويمتهن كرامته. لقد خلق الله الإنسان على طبيعة كان معها «وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً» (سورة الكهف، الآية١٨)، وبالتالي فالجدل يبتعد عن جوهره وقيمته ما لم يجعل الإنسان غايته، وهذا لا يكون من دون مشاركة الإنسان فيه متفاعلاً باستناده إلى خبرة ماضيه ومعطيات حاضره وتطلعاته إلى مستقبله. لن يكون الإنسان فاعلاً بحيث يحقق ذاته الفردية والذات الجمعية التي ينتمي إليها ما لم يكن هو مقصد الجدل وغايته وأداته، وما لم يخضع حركته للقوانين الخاصة به ولحرية إرادته تمايزاً عن الفكر المجرد المنضبط على قوانينه الخاصة، وعن الطبيعة المادية التي تتحول طبقاً لقوانين حتمية. وهنا تبرز حرية إرادة الإنسان رديفاً لحرية فكره وحرية اختياره، شرطاً لمسؤوليته الأخلاقية من ناحية، ولإطلاق كوامن الإبداع فيه من ناحية ثانية.

تحدث باحثون عن الهندسة الاجتماعية الهادفة إلى إعادة تكوين المجتمع تتم وفق د .عبد الله البريدي مثلاً عبر خمس عمليات متكاملة هي التشخيص والتخطيط (أي الهندسة) والبناء والحماية والإبداع.

«من السمات الأساسية للمجتمعات الأكثر ذكاء أنَّها تمارس هندسة اجتماعية ذكية، بخلاف المجتمعات الأقل ذكاء التي تركن إلى ملاحظات عابرة فاترة لأدائها وسلوك أفرادها، (عابرة) إذ لا منهجية ولا تراكم فيها.. و(فاترة) إذ لا همّ إصلاحي ولا تطلع حضاري يحدوها... ولذا فالمجتمعات الأقل ذكاء تكتفي بدور المتفرج، حيث أنَّها

مجتمعات تكبر فتكبر معها مشاكلها وتتفجر أزماتها في جوفها»[٦].

ولئن بدا لنا استخدام وصف ذكاء المجتمع استنساخاً لما راج استخدامه من نعت أسلحة وتقانات أخرى بالذكاء، فإنَّ هذا من سمات عصرنا الذي تخترق التكنولوجيا فيه حياتنا مستهدفة كل خلايانا أفراداً ومجتمعات.

لا سبيل لتراخي المجتمع أو تلكؤه في أداء واجب رعاية الإبداع وتوفير الشروط اللازمة لإطلاق طاقاته وحماية المبدعين، فهذا سبيل نهوض المجتمع المعاصر في زمن باتت المعرفة فيه المعيار الرئيس لمستوى تقدم الأمم والمجتمعات. هذا ما جعل الدول الكبرى والمتحضرة تستثمر في المعرفة أكثر من خمسين في المئة من الناتج الإجمالي لاقتصاداتها، بحيث صار اقتصاد المعرفة Knowledge Economy الركيزة الكبرى لاقتصاد كل من تلك الدول.

إنَّ المعرفة المرتبطة بإمكانات الإنسان هي الثروة الحقيقية للمجتمع، وإذا عدنا إلى تعريف إدوارد تايلور في القرن التاسع عشر للثقافة، إذ اعتبرها «ذلك التكوين المعقد الذي يشمل المعرفة، والإيمان، والأخلاق، والقانون، والتقاليد، وأي خصائص أخرى وعادات يكتسبها الإنسان في مجتمعه»، فإنَّ ثقافة المعرفة في عصرنا تعتمد اعتماداً رئيساً على تحفيز الإبداع وتشجيع الابتكار لإغناء عملية تنمية المجتمع وتصويب مسار تطوره.

الهوامش

١- د. مصري عبد الحميد حنورة، الإبداع والمخاطرة، العربي، الكويت، العدد ٤٠٧، أكتوبر ١٩٩٢م، ص٨٤.

٢- أبو يعرب المرزوقي، آفاق النهضة العربية ومستقبل الإنسان في مهب العولمة، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٩م.

٣- محسن محمود خضر، عوائق الإبداع، مجلة الفيصل، الرياض، العدد المزدوج ٤٢٧/٤٢٨، ك١ /ك٢، ٢٠١٢م، ص٥١.

٤- المصدر السابق، ص٥٢.

٥- د. زكي نجيب محمود، جدل الإنسان، مجلة الفكر المعاصر، القاهرة، العدد٨، أكتوبر ١٩٦٥م، ص٥-٦.

٦- أما يسع المجتمعات الأقل ذكاء زيادة ذكائها؟ صحيفة الجزيرة، الرياض، ٢٠٠٥/١١/١٧م.

القلق آفة العصر

د. معمر نواف الهوارنة ❁

عرف الإنسان القلق منذ أقدم العصور، ويمثل القلق واحداً من أهم الاضطرابات المؤثرة على الناس في أنحاء العالم كافة حتى أطلق بعض علماء النفس على العصر الذي نعيشه اسم عصر القلق، وتقدر الإحصاءات أنَّ واحداً من كل أربعة أشخاص يتعرض يوماً ما على مدار حياته لواحدة أو أكثر من اضطرابات القلق حتى كبار المجرمين يشعرون بهذا الاضطراب. وقد نتج عن شيوع القلق بين إنسان اليوم أن اتصفت حياته بدرجة عالية من الاغتراب، فأصبح مغترباً

❁ باحث وعضو هيئة تدريسية بقسم علم النفس- جامعة دمشق.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

عن نفسه، وعن إنسانيته، وعن أسرته، وعن مجتمعه، وإن كان قريباً منهم بجسمه.

القلق شعور يصيب صاحبه بالتوتر والاضطراب، والقلق خبرة وجدانية غير سارة «Unpleasant»، ويمكن وصفها بأنها حالة من التوتر «Tension» والاضطراب وعدم الاستقرار والخوف وتوقع الخطر، فإذا زاد القلق عن الحد فإنه يجعل صاحبه غير متكيف اجتماعياً، فيعطل إنتاجه وتتأثر فعاليته وتقل سعادته وشعوره بالاطمئنان. والقلق أحد مظاهر الشخصية العصابية الذي يُحدث تأثيراً سلبياً على قدرة الشخص على ممارسة حياة طبيعية مفيدة، ويعوقه عن أداء واجبه كاملاً وعن الاستمتاع بالحياة. ويعتقد البعض أن القلق استجابة انفعالية عامة للمشقة، والقلق شعور أو إحساس بالفزع أو الرهبة أو الهواجس.

لا يوجد جانب من جوانب الخبرة الإنسانية أكثر عمومية وعالمية من القلق. ففي كل ثقافة وفي جميع العصور التاريخية المسجلة، تعرض الكائن الحي الإنساني لتهديدات حقيقية أو متخيلة تستدعي حالة الاستثارة التي نطلق عليها مصطلح القلق. ولهذا كان القلق موضوعاً رئيسياً أو مركزياً في دراسة الإنسان.

وكثيراً من نظريات علم النفس تفرد لظاهرة القلق مكانة كبيرة في نظامها النظري وفي دراستها للشخصية والسلوك، وفي حالات السواء والاضطراب، والصحة والمرض وفي المستويات العمرية المختلفة من مدى حياة الإنسان، فالقلق حقيقة من حقائق الوجود الإنساني، وجانب ديناميكي في بناء الشخصية ومتغير أساسي من متغيرات السلوك.

فاضطرابات القلق تعد أكثر الاضطرابات النفسية شيوعاً وتتسبب في إحداث اختلال وظيفي كبير لدى الفرد وفي شعوره بالضيق والكدر. إنَّ الاختلاف في القلق بين الأفراد، شأنه في ذلك شأن معظم الظاهرات العاملة في حياتنا النفسية، هو اختلاف في الدرجة وليس في النوع، فالقلق ظاهرة يخبرها الناس بدرجات مختلفة من الشدة، وتبدو في مظاهر متباينة من السلوك، وتستثار استجابة لمنبهات أو إشارات متباينة، ومن ثم يمكن فهم القلق في نسق «متصل» يتدرج بين حالات السواء والاضطراب وعلى هذا المتصل يختلف القلق من قلق موضوعي أو عادي إلى قلق عصبي أو مرضي.

وينطوي القلق، في كل مستوياته على حالة انفعالية مؤلمة أو غير سارة إزاء منبهات الخطر أو التهديد، يخبرها الأشخاص في نزعتهم إلى اللذة أو المتعة، وهي نزعة غريزية. ويمكننا تعريف القلق «Anxiety» بأنه: خبرة عنيفة من الخوف

والتوجس يدركها الفرد كشيء ينبعث من داخله ولا يمت بصلة إلى موقف تهديد خارجي واقعي، والإنسان عندما يقترب من مرحلة الشيخوخة، يصبح أكثر عرضة للقلق، ويمكننا تعريف

تفسير القلق عند بعض علماء النفس:

١- تصورات فرويد للقلق:

اهتم عالم النفس «فرويد» بدراسة ظاهرة القلق، وحاول أن يعرف سبب نشأته عند الفرد. حيث أنَّه يميز بين نوعين من القلق هما:

- القلق الموضوعي:

حينما يدرك الفرد أن مصدر القلق خارجي، نقول أن الفرد يعاني قلقاً موضوعيّاً ويعرف «فرويد» القلق الموضوعي بأنه «رد فعل لخطر خارجي معروف» فمصدر الخطر في القلق الموضوعي يوجد في العالم الخارجي وهو خطر محدد. وهذا النوع من القلق أقرب إلى الخوف؛ لأن مصدره يكون واضح المعالم لدى الفرد.

- القلق العصابي:

يمكن تعريف القلق العصابي بأنه خوف غامض غير مفهوم، لا يستطيع الشخص أن يشعر به أو يعرف سببه، فهو رد فعل لخطر غريزي داخلي، ويتضح من هذا التعريف أنَّ مصدر القلق العصابي يكمن داخل الشخص في الجانب الذي يطلق عليه «الهو» فيخاف الفرد من أن تغرقه وتسيطر عليه نزعة غريزية لا يمكن ضبطها أو التحكم بها.

٢- تفسير القلق عند «أتورانك»:

يفسر «أتورانك» القلق على أساس الصدمة الأولى وهي صدمة الميلاد، فانفصال الوليد عن الأم هو الصدمة الأولى. فالفطام سيثير لدى الطفل القلق؛ لأنه يتضمن انفصالاً عن ثدي الأم، والذهاب إلى المدرسة يثير القلق؛ لأنه يتضمن الانفصال عن الأم، وكذلك الزواج يثير القلق لأنه يتضمن الانفصال عن الأم. فالقلق في رأي «أتورانك» هو الخوف الذي تضمنه هذه الانفصالات جميع مراحل حياته هما: خوف الحياة وخوف الموت. يعتقد «يونغ» أن القلق عبارة عن «رد فعل يقوم به الفرد حينما تغزو عقله قوى وخيالات غير معقولة صادرة عن اللاشعور الجمعي». فالقلق هو خوف من سيطرة اللاشعور الجمعي غير المعقولة التي مازالت باقية فيه من حياة الإنسان البدائية.

٣- القلق عند «هورني»:

تحليل «هورني» للقلق يختلف اختلافاً واضحاً عما يذهب إليه «فرويد»، فالتحليل يقود مباشرة إلى القول بوجود ثلاثة عناصر أساسية في هذه الحالات هي الشعور بالعجز والشعور بالعداوة والشعور بالانفراد أو العزلة.

أعراض القلق:

يترافق القلــق باضطرابات فيزيولوجية ونفسية مختلفة تكون بمثابة مظاهر أو أعراض لــه وهي تتفاوت من حيث الشدة تبعاً لشدة القلق. ومن هذه الأعراض مايلي:

أ. الأعراض المزاجية:

تتكون الأعراضــ المزاجية للقلق بشكل أولي من التوتــر والهلع والخشية أو الخوف من الشر أو خطر مرتقب والاكتئاب والتهيج أعراضاً ثانوية للقلق؛ لأنها تنبع من حقيقة أنَّ الفرد ربما لا يرى حلاً لمشكلاته ويستسلم لشعور العجز.

ب. الأعراض المعرفية:

يمكــن تمييز ثلاثة أنواع مــن العمليات المعرفيــة المرتبطة بالقلــق فالأفراد الذين يعانون من القلــق ينتبهون بطريقة انتقائية للمعلومــات المتعلقة بالتهديــد أو الخطر- وتنشــط لديهــم على نحو يزيــد من تدفق المعلومــات المتعلقــة بالخطــر- ويظهرون تحيزاً تفسيرياً يفضل المعاني الأكثر تهديداً والمشتقة من المعلومات الغامضة وفيما يتعلق بمحتوى التفكير فقد وجد أن القلق يشتمل على هموم وسواسيــة والحديث السلبي مع الذات.

ج. الأعراض الجسمية:

تشمل الأعراض الجسمية زيادة ضربات القلب جفاف في الحلق، وضيق في التنفس، وجــع في الرأس، والتعــرّق، وشعور بالتوتر العضلــي وهــذه الأعراضــ الأولية تعكس مستــوى عالياً من الاستثــارة وهي أعراض فورية.

أمَّــا الأعراضــ المتأخــرة فتنتــج عن استمــرار القلق وتبدأ بارتفــاع ضغط الدم المزمن والصداع والاضطرابات المعوية وتعكس هــذه الأعراضــ إجهــاداً أو انهيار الجهاز الفيزيولوجي نابعاً من الاستثارة الممتدة.

د- الأعراض الحركية:

غالباً ما يبدي الأشخاص الذين يعانون القلق أعراضاً من عدم الاستقرار والتململ والنشــاط الحركــي الكلي مثل هــز القدم والاستجابــات الترويعية المفرطة إزاء صوت مفاجئ وتعكســ هذه الأعراضــ الحركية مستويــات عالية مــن الاستثــارة المعرفية والجسميــة لدى الفــرد ومحاولاته لحماية نفسه. وقد يــؤدي القلق بصاحبه إلى تناول الخمر أو الحبوب المنومة والمهدئة كمحاولة للتخفيف من أعراضــ القلق مما قد يؤدي إلى حالات إدمان.

العوامل المؤدية للقلق:

١- العوامل الوراثية:

أكدت الدراسات والأبحاث التي قام بها علماء النفس على التوائم مشابهة الجهاز العصبي اللاإرادي واستجابته للمنبهات الخارجية والداخلية ولهذا قرر علماء النفس أنَّ الوراثة تلعب دوراً فعالاً في الاستعداد للمرض. فالمولود يأتي إلى العالم وهو مزود بقابليات واستعدادات متنوعة. منها ما يجعل بعض الناس أقدر على تحمل الأمراض ومواجهة التجارب الشديدة ومنها ما يؤهل آخرين للوقوع فريسة لعدد من الاضطرابات البدنية والنفسية ومازال البحث في هذا المجال مستمراً.

٢- العوامل الاجتماعية:

يمكن للقلق أن يكون سبباً للظروف الاجتماعية التي ينشأ فيها فالقلق يصيب جميع الطبقات والفئات صغاراً وكباراً نساءً ورجالاً الأغنياء والفقراء. والجو الأسري الذي يسوده الشقاق وسوء التفاهم وإهمال الوالدين، ومطامح الإنسان عندما تتعدى حدود قدراته وإمكانياته، كل ذلك يؤدي إلى زيادة القلق. ويزداد أيضاً في المجتمع الذي ترتكز قيمه على التفوق المادي والصراع من أجل البقاء

٣- العوامل النفسية:

قد ينجم القلق عن أحد الأسباب التالية:

- نزوع الغرائز القوية «كالجنس والعدوان» نحو التحقيق وعدم قدرة الفرد على كبحها.
- تبني الفرد معتقدات متناقضة أو مخالفة لسلوكه الظاهري أي عدم تطابق أقواله مع أفعاله.
- الأفكار والمشاعر المكبوتة والخيالات والتصورات الشاذة والذكريات اللاأخلاقية التي تترك شعوراً بالذنب وامتعاضاً في الضمير.
- الصراع النفسي الذي يعاني منه الفرد ومصدر ذلك الصراع والدوافع الفردية.
- عدم رضا الفرد عن نفسه.

أنواع القلق:

إنَّ القلق يتفاوت من درجات منخفضة إلى درجات شديدة ومن حالات دائمة إلى حالات مؤقتة. ومن أهم أنواع القلق:

- **القلق العادي المؤقت:** وهو القلق الذي تسببه مواقف معينة وتختلف حدته حسب الظروف التي تسببه.
- **القلق المزمن:** هو القلق الذي يحدث عندما يرتكب الإنسان أي مخالفة للضمير.
- **القلق العصابي:** قلق شديد يتشكل

على شكل نوبات وتعبر أعراضه النفسية والفيزيولوجية عن اضطراب داخلي يكون أشد بكثير مما يظهر في حالة القلق المألوفة.

مسار القلق:

- **القلق الحاد:** غالباً ما يبدأ بصورة مفاجئة لسبب واضح ومهم أو بسيط وتزداد الأعراض خلال أيام أو أسابيع وإذا تمت معالجته الصحيحة السريعة يتجاوب بسرعة، ويحتاج لفترة علاج ما بين (٦-٩) شهور.

- **القلق المزمن:** يبدأ بشكل تدريجي وتزداد أعراضه مع الوقت، وفي الغالب هو قلق بدأ بشكل حاد ولكنه لم يعالج ولم يشف منه فتحول إلى مزمن.

- **القلق المتكرر:** ويكون بشكل متكرر بين فترة وأخرى بمناسبة أو من دون مناسبة، وقد يكون التكرار كل بضع سنوات أو شهور، على سبيل المثال يتكرر في مراحل التغير المختلفة من حياة الفرد مثل دخول الجامعة وبداية حياته العملية والزواج.

المواقف المثيرة للقلق:

قد يستثار القلق على وجه العموم بأي موقف يهدد تكامل الكائن الحي فيمكن لأي مثير أن يكتسب هذه الصفة مع التسليم بأنه يتضمن التهديد لقيمة ضرورية، ونظراً لأن هذه المثيرات تتحدد بدرجة كبيرة من خلال خبرة الفرد وتعلمه، فإن مجموعة كبيرة من المثيرات قد تستثير القلق. إلا أننا لا نستطيع أن نميز بين مجموعة المثيرات التي يحتمل أن تكون باعثة للقلق في معظم الناس، ويطلق على هذه المجموعة من المثيرات مصطلح الضغوط. ويمكن أن نتصور وجود كل متصل من المثيرات التي تختلف في معناها بالنسبة للفرد وبالنسبة لآثارها في بعث حالة القلق.

وفي أحد طرفي هذا الكل المتصل توجد مثيرات غاية في الرمزية ليس لها إلا معنى محدد من الأشخاص في حين تبدو لغيرهم تافهة غير ضارة وفي الطرف الآخر توجد المثيرات «الضغوط»التي تكون شبه عامة.

ويمكن اعتبار القلق باعثاً أو حافزاً على السلوك، والمعروف أنَّ الشخص يمتثل للتوقعات الاجتماعية عن طريق إشعاره بما يهدد شعوره بالأمن، إنَّ التهديد يجعله قلقاً إذا لم يمتثل للتوقعات الاجتماعية، إنَّ تهديدات القلق تغذي كثيراً من الممارسات المقبولة لدى المجتمع، وتصبح الضوابط الخارجية داخلية أي يمتصها الشخص، وتظهر في شكل ضميره الخلقي، وعلى ذلك يشعر الشخص بمزيد من الارتياح عندما يتصرف وفقاً لما يتوقع منه المجتمع، عن فكرة سلوكه خلافاً لما يتوقع منه المجتمع

تجعلــه يشعــر بالذنب واللوم ومــن ثم يثير مشاعر القلق. ونظــراً لأنّ القلق شعور غير ســار فإنَّ الإنسان يسعــى لتحاشيه وفقاً لما يمليه عليه ضميره الخلقي.

ويعتــبر القلــق في الظــروف العاديــة مصدراً من مصــادر الدافعية، ويقود مثله في ذلــك مثل بقية مصادر الدافعية، ويوجه السلــوك نحو هدف والهدف في حالة القلق هو خفضــ مستوى القلــق الناتج عن عدم إشباع الدافع.

إنَّ التوافــق الجيد يقتضي قدراً معقولاً مــن القلــق المثــير للدافعيــة، والمعين على الالتفاف حول العوائق، فــإذا فقد الإنسان السيطرة على التحكم في مستوى القلق، فإنَّ زيــادة هذا القلق واستمــراره يعيق التوافق ويقــود إلى آثار سلبية، بل قــد يشتد القلق ويستمــر ليصبح مرضــاً نفسياً، وقد يظهر في صــورة أعراض جسمية مختلفة ليس لها أساس عضــوي فيما يعرف باسم الأمراض النفسجسمية.

ومــن المهم أن نؤكــد أن التحفز في ذاته والاهتمام وبعــد النظر والتفكير للمستقبل، بل الخوف أيضاً من مستلزمات الحياة التي تعين على النجــاح فيها، ولكنها إذا اتخذت صــورة غير عادية بشــكل مبالغ فيه كما في حالات القلق العصابــي فإنها تصبح حرباً على صاحبها.

إذن، لابد أن يجد كل شخص نفسه قلقاً وخائفــاً ومتشــككاً في بعضــ المواقف، ولا يصــح له أن يجزع من ذلــك أو يعتبر نفسه مريضاً. وإنَّما إذا ظهرت عنده هذه الأعراض في صورة شاذة فعليــه أن يستشير المختص النفسي.

علاج القلق:

هناك أربعة أهداف للعلاج:

١- السيطرة على جوهر الأيض.

٢- التغلــب على المخــاوف المرضية أو الفوبيا.

٣- تناول الضغوط النفسية البيئية.

٤- الرعاية على المدى الطويل.

وفي الماضــي كان المســار الشائع للعلاج يتضمــن عدة خطوات، فكان المريض يعالج أولاً بالعــلاج النفســي أي العــلاج بالكلام بهدف تناول الأسبــاب النفسية، فإذا فشل هذا بعــد بضعة شهور يحــول المريض إلى المختصــ النفســي الذي يستخــدم العلاج السلوكــي للتخلص من المخــاوف المرضية مــع تدريبه على طرق الاسترخاء، فإنَّ لم يتم التحسن فإن المريض يعالج عندئذ بالمهدئات الخفيفة أو البسيطة.

والخــبرات الحديثة في علاج القلق تبين أنــه يجب عكســ هذا الترتيــب في العلاج فنحــاول العــلاج بالأدوية أولاً ثــم العلاج

السلوكي ثانياً ثم العــلاج النفسي ثالثاً. إن جوهر الأيض في المرض هو السبب الأقوى في القلــق وأنه من العســير أن نحصل على تقدم مقبول في علاج القلق من دون السيطرة على الأساس الفيزيولوجي له بالأدوية. فإذا ما تحقق ذلك أصبح مــن الأيسر أن نتغلب على المخــاوف المرضية بالعلاج السلوكي ثم نتجــه إلى التخفيف من الضغــوط البيئية التي تزيد من القلق ثم نحاول منع النكسات عن طريق توعية المريض وضمان الرعاية له على المدى الطويل.

المراجع

١- صبحي، سيد(٢٠٠٣م)، الإنسان وصحته النفسية، القاهرة، مكتبة الأسرة.

٢- طــه، فرج عبــد القادر؛ قنديل، شاكــر عطية؛ محمد، حسين عبــد القادر؛ عبد الفتــاح، مصطفى كامل (١٩٩٣م)، موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، ط(١)، الكويت، دار سعاد الصباح.

3- Oliver, P. John. et al.(2008), Handbook of personality; theory and research, 3d ed.Reference and Research Book News. Portland. Vol. (23), Iss. 4, Nov.

4- Wilson, G. & Terence, N. & Peter, E. & OLeary, K. Daniel & Clark, Lee Anna.(1996), Abnormal psychology integrating perspective, Allyn and Bacon, boston.

النفوذ الاجتماعي

بين القوانين الوضعية النافذة والمعطيات الاجتماعية التقليدية

❁
محمد علي درويش

إذا تفحصنا العلاقة بين المدير والموظف، الضابط والجندي، الأب والابن، السياسي والناخب، الطبيب والمريض، والمدرّس والتلميذ، فكل هؤلاء يشتركون في صفة أنَّ أحدهما له نفوذ اجتماعي أكثر من الآخر، وهذا ينطبق على معظم أعضاء أي جماعة لأنَّ النفوذ الاجتماعي لا يقسم بالتساوي إلا نادراً، ويمكن الإشارة هنا إلى وجود النفوذ الاجتماعي النسبي لمجموعتين، غير أننا سنركز هنا على النفوذ الاجتماعي متمثلاً في التفاعل بين شخصين أو بين أعضاء جماعة صغيرة، لأنَّ مركز سيكولوجيا الاجتماع يكون على هذا المستوى، ولأنَّ اتجاهات البحث في وحدات أكبر من حيث النفوذ الاجتماعي تكون نادرة.

يختص النفوذ الاجتماعي بالعلاقة بين شخصين أو أكثر وأفضل فهم له يتمثل في تبادل الرأي، وعلى سبيل المثال فإنَّ قوة النفوذ الاجتماعي للشخص (أ) على الشخص (ب) تعتبر عملاً مشتركا لمقدرته على التأثير على استنتاجات الشخص (ب) بالنسبة لاستنتاجاته هو نفسه.

وتستخدم قوة النفوذ الاجتماعي غالباً في التأثير على سلوك الآخرين غير أنَّ مفهومها يتميز عن التأثير، وربما يتمتع الشخص بنفوذ اجتماعي كبير إلا أنَّه لايستخدمه إلا

❁ ناقد وأديب سوري.

نـــادراً، ولا ينبع النفـــوذ الاجتماعي مباشرة من الصفـــات الشخصية للفرد وإنَّما يعتمد على العلاقة بين الفـــرد ومكان العلاقة في سياق البنية الاجتماعية الأكبر. وعلى سبيل المثال فإنَّ قوة رئيس مؤسسة ما تنبع أساساً من السلطة المناطة بموقعه، والتي تمكنه من اتخاذ القرارات التي تؤثر تأثيراً جذرياً على الموظفين وأسلوب إدارة المؤسسة.

وحتى في العلاقة والتفاعل بين صديقين فـــإنَّ النفـــوذ الاجتماعي لكل منهمـــا ينشأ من صفـــات معينة مـــن العلاقـــات بينهما وعلاقاتهمـــا مع الأشخاصـــ الآخرين، وفي العلاقـــات والتفاعـــلات المستمرة فـــإنَّ أي استخـــدام للنفـــوذ ينطـــوي علـــى تكلفات ومكافآت مـــن الجانبين وينتهـــي بنتاجات معينـــة لهما. فمثلاً الطفـــل الذي يعمل ما يريده هو وسط عاصفة من غضب الوالدين فإنَّه يحصل علـــى نتاج العمل. غير أنَّ ذلك تمَّ بتكلفـــة أنَّ الطفـــل عمل شيئـــاً لا يريده الوالدان. ونلاحظ هنا الاعتمادية المتبادلة من الطفـــل على الوالدين (اللذين يتحكمان في العقـــاب والمكافأة). ومـــن الوالدين على الطفل (الذي يريـــد أن يسلك طبقاً لمستوى معـــين). وهـــذه الاعتماديـــة المتبادلة هي أساس النفوذ الذي يتمتع به أي منهما على الآخر.

وهذا يعني أنَّ أي ممارسة للنفوذ تنطوي على تبـــادل، وإنَّ الشخص الأقوى نفوذاً ربما يحصل على الطاعـــة من الأقل نفوذاً ولكن في المقابل يتوقع منه إبداء الاستحسان والتوصية الحسنة مثلاً.

حدود النفوذ الاجتماعي

هنالك ثـــلاث صفات لعلاقات متداخلة تحـــدد مدى النفوذ الذي يتمكن الأفراد من ممارسته في أوضاع معينة :

١-المورد

٢- الاعتماديات

٣- البدائل.

فالمورد هو صفة أو حال شرطية للفرد- خاصيـــة، تعزى إلى المظهـــر أو للشخصية، الموقـــع الذي يشغلـــه، أو أسلـــوب معين في السلوك. الـــذي يمكنه من تعديـــل المكافأة والتكلفـــة الممارســـة من شخص آخـــر. إنَّ قيمة المـــورد تحددها أساساً الاعتمادية من شخص آخر. وعلى سبيل المثال جمال المرأة مورد فقـــط بالنسبة للرجال الذين يجذبهم الجمال الأنثوي. كما أنَّ قيمة المورد تختلف باختلاف الأوضـــاع: وبعض الأوضاع تخلق اعتماداً مؤقتـــاً، ففي حالات الطوارئ ربما تحتاج مجموعة مـــا إلى خبير لحل المشكلة. إنَّ قابليات التأثير في العلاقة بين شخصين لا تعتمـــد على صفـــات كل شخص والوضع

وإنَّما تمتد أيضاً إلى الموارد البديلة. فإنَّ قوة الخبير مثلاً تعتمد على ندرة الشخص وخبرته وندرة مصادر موارد الخبير، الاعتماديات والبدائل.

المكافأة والنفوذ القسري

أوّل نوع من أنواع النفوذ هو نفوذ المكافأة، وهذا النوع يمارس من الشخص (أ) على الشخص (ب) ويعتمد على إدراك (ب) أن (أ) له القدرة على مكافأته. فالمدير له نفوذ على الموظف لأنَّه يعرف أنَّ المدير له القدرة على التوصية برفع الأجور أو التوصية بالترفيع. أمَّا النوع الثاني من أنواع النفوذ هو النفوذ القسري، ويعتمد على إدراك الشخص (ب) على أن للشخص (أ) القدرة على عقابه. فمثلاً المدير له القدرة على وقف العلاوات أو الترفيع أو حتى الفصل من العمل.

وهذه النوعية من النفوذ تتشابه في بعض جوانبها. وفي كلا النوعين المذكورين من النفوذ يتحدد النفوذ على مدى من السلوك الذي يُظهِرُ فيه الشخص (أ) القدرة على معاقبة الشخص (ب).. إنَّ قوة كليهما تبدو كوظيفة مشتركة لمقدار المكافأة والعقاب المعين والاحتمالات المقدرة، إن هذه الوسائل يمكن التعرض لها إذا رضخ الشخص (ب) أو لم يرضخ لنفوذ الشخص (أ).

وتعتمل هذه الاحتمالات المقدرة بعاملين أولهما المدى الذي يعتقد الشخص (ب) أنَّ الشخص (أ) يشرف عليه فكلما كبر مدى الإشراف من قبل (أ) كلما كبر اعتقاد الشخص (ب) أنَّ سلوكه يعرضه للمكافأة أو العقاب من قبل (أ).

والعامل الآخر تاريخ العلاقة الماضية بين (أ) و(ب) فإذا كان المدير نادراً ما يعاقب أو يكافئ الموظف فإنَّ قوة نفوذه في المكافأة أو النفوذ القسري يكون ضعيفاً بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

كما أن تأثير العقاب أو المكافأة يعتمد أيضاً على مدى دقة تقييم (أ) للسلوك الموجب للمكافأة أو العقاب بالنسبة لـ (ب). وهنالك فرق بين أسلوب المكافأة وأسلوب النفوذ القسري يمكن الإشارة إليه وهو أنَّ الإشراف الأمثل يكون أشد صعوبة في حالة التلويح بأسلوب النفوذ القسري لأنَّ الأشخاص في هذه الحالة يعكسون السلوك الجالب للمكافأة. ويحاولون إخفاء السلوك المؤدي للعقاب.. وهكذا يغدو النفوذ القسري أكثر تكلفة بالنسبة للشخص (أ) من استخدام المكافأة طالما وجب عليه تحويل طاقاته من نشاطات أخرى للاستمرار في المراقبة الضرورية للموقف.

نفوذ الإسناد

يتصف نفــوذ المكافــأة بخاصية يفتقر إليها النفوذ القسري مما يجعل نفوذ المكافأة مؤهلا للتحــول تدريجيا إلى نفــوذ إسناد. ويعتمد نفوذ الإسناد على الارتباط إلى درجة أن انجذاب (ب) إلى (أ) يجعله مندمجاً فيه وبالتــالي متأثراً بسلوكــه. والتفسير الممكن لتحــول المكافــأة إلى نفــوذ اسنــاد أوّلاً أن استخدام أسلوب المكافأة من قبل (أ) يجعله جذاباً لــ(ب) وثانياً جاذبية (أ) تجعله شيئا للارتبــاط. إنَّ نفوذ المكافأة الذي يجعل (أ) جذاباً يظهــر في أنَّ الرؤســاء الذين تتركز أساليبهــم فقط في وسيلــة المكافأة وحدها يكونــون محبوبين أكــثر من أولئــك الذين تنحصر أساليبهم في أسلوب العقاب.

ويــرى بعضــ الباحثــين أنَّ قــوة نفوذ الإسناد لـ(أ) على (ب) وأيضاً مدى السلوك الــذي تطبق عليه سيختلف بجاذبية (أ) إلى (ب). ويفــرق الباحثون بــين نفوذ الوالدين وضابط الشرطــة، فنفوذ الوالدين غالباً ما يكون نفوذ إسناد إلا أنَّ نفوذ الشرطة يعتمد أساساً على النفوذ القسري. وهكذا نجد أنَّ الأطفــال قد يسلكون سلوكاً حسناً في غياب الوالديــن إلا أنَّ قواعد المــرور كثيراً ما يتم خرقها في غياب رجل المرور.

نفوذ الخبير

يعتمــد نفــوذ الخبير علــى تصور (ب) علــى أنَّ (أ) يمتلــك معرفــة خاصة بوضع معــين كما هو ظاهر في حالة المريض الذي يتأثــر بطبيبه عندما يطلب منه اتباع حمية معينــة. إنَّ المكافأة المتحصل عليها بوساطة (ب) مــن خلال التعرف على نفوذ خيرة (أ) تتضمن مشاعر الثقة والتأكد من أن مجريات الأمــور على ما يرام. إن التكلفة التي يمكن تجنبها استشارة الخبير هي الشعور بالشكل والخــوف من ارتــكاب الأخطاء. وتختلف قوة مثل هذا النوع من النفوذ حسب الخبرة المنسوبة إلى (أ) من قبل (ب) ومع أنَّ سلطة الخبير تكون عادة محــدودة بسلوك متصل بمجال خبرته فــإنَّ الخبراء في مجال واحد ربما يدعمون توقعــات الكفاءة في مجالات أخرى أيضاً.

السلطة الشرعية

تعتمد السلطة الشرعية على قبول (ب) معايير وقيم ذاتية تؤدي إلى السلوك بطريقة معينــة. وهذا ربما يتضمــن قبول نفوذ (أ) بمقتضــى صفات معينة مثل العمر، الطبقة الاجتماعيــة، أو بمقتضــى موقعه في هيئة معروفة أو لأنَّه قد تمَّ تعيينه بسلطة أعطته حقــاً شرعياً لمراقبة سلوك (ب) في مجال أو أكثر.

وتتمثل طبيعة تبادل ممارسة السلطة الشرعية في شعور الأفراد بالرضا عندما ينسجم سلوكهم مع المعايير والقيم التي يحملونها، وعندما لا ينسجم شعورهم فإنَّهم يدفعون الثمن في شكل الشعور بالذنب. وربما يتلقى كلا الفريقين مكافآت أو عقاباً من مصادر خارجية. ومثال سيادة السلطة الشرعية: السلطة التي يتمتع بها الضابط العسكري، الهيئة التنفيذية، المسؤولون الحكوميون، والوالدان في بعض الجوانب.

إنَّ استمرار السلوك بسبب ممارسة السلطة الشرعية لا يعتمد على المراقبة ولكن على مقاومة القيم والمعايير الأساسية المتضمنة. وتعتمد قوة السلطة الشرعية على درجة إخلاص (ب) للمعايير والقيم الأساسية.

وعلى الرغم من أنَّ السلطة الشرعية في معظم الأحوال تغطي مساحة واسعة من السلوك إلا أنَّها غالباً ما تكون ضيقة المجال. وعلى سبيل المثال بينما تمارس الأم سلطتها الشرعية على طيف واسع من سلوك أطفالها نجد أنَّ مدير العمل في شركة ما تنحصر سلطته الشرعية على الموظفين في ما يختص بالعمل فقط.

عمليات النفوذ

يتضح لنا مما سبق ذكره أنَّه ينبغي أن لا نفهم السلطة على أنَّها ترجع إلى شخص واحد فإنَّ ممارسة السلطة ما هي إلا عمل لخصائص المؤثر والمتأثر إضافة إلى الآخرين المتواجدين في المجال. إلا أنَّه ينبغي أن تتجه التحاليل إلى أبعد من ذلك. وينبغي أن تختبر السلطة في سياق تفاعل الأساليب الجارية.

ومن وجهة نظر نظرية التبادل فإنَّ فهم السلطة على أنَّها الوسيلة التي يجري بها الشخص تغييرات في سلوك شخص آخر، ليس كافياً لأنَّه يتجاهل الاتساق المتضمن في فكرة التبادل. وبذلك فإنَّ كلا الشخصين يتأثران ويؤثران.. إنَّهما يتبادلان السلوك الناتج عن تفاعلهما مع تكاليف ومكافآت معينة. ويختلف التبادل تبعاً لنوع السلطة الممارسة، فعندما يذعن الموظف بالسلطة الشرعية لمديره فإنَّه يتلقى استحساناً في مقابل ذلك ومن وراء ذلك تكمن بالطبع سلطة المدير في تسهيل أو تصعيب تقدم الموظف في سلم الوظيفة.

تبعات السلطة العليا المتساوية:

العلاقات المتوازنة

إذا كان هنالك عضوان في مجموعة لهما سلطة عليا على بعضهما البعض فإنَّ أي

منهما ربما يبدو بسلطة متوازنة في مقابل الآخر وبذلك يتم إفراز الحد الأدنى من التأثير المتبادل. وربما يبدو أنَّ كل شخص، باعتماده كثيراً على الآخر، فإنَّه يكون متردداً بشأن إعلان مطالبه، لأنَّ الآخر أيضاً تكون له مطالب مماثلة. وربما تكون موجبات النزاع أكثر احتمالاً في مثل هذه الظروف.

وتبرهن الملاحظات اليومية أنَّ الأشخاص الأصدقاء المقربين يمارسون تأثيراً عظيماً على بعضهما البعض وفي الوقت نفسه يحتفظون بعلاقات حبية. ويحدث ذلك بسبب سيادة بعض الإجراءات التي تبعد النزاعات. فمثلاً يلجأ الجانبان إلى تحديد قيم متنوعة لأنشطة مختلفة. ففي نشاط معين يفسح أحد الجانبين المجال للجانب الآخر. فمثلاً صديقان تختلف ميولهما ربما يتفقان على الذهاب إلى التزحلق على الجليد أسبوعاً ثم الذهاب إلى لعب التنس في الأسبوع الذي يليه فهنا تقوم المعايير بالتوجيه. وفي موقف آخر تقوم المعايير بتوجيه المناوبة عندما يكون هنالك طفلان لهما نفوذ متساو ودافع متساو ولهما لعبة واحدة يتفقان على التناوب في استخدامها. وموقف ثالث عندما يكون هنالك شخصان ليسا متساويين تماماً في النفوذ فإنَّ المشكلة يمكن تجنبها باذعان الأقل نفوذاً.

العلاقات غير المتوازنة

يقول الباحث الإنكليزي «إميرسون» (Emerson) إنَّ العلاقة غير المتوازنة تكون غير مستقرة نسبة لأنَّها تشجع على استخدام السلطة وهو ما يقود إلى عمليات التوازن ويظهر ذلك في المثال الافتراضي التالي: على افتراض أنَّ شخصين (أ) و(ب) على علاقة حب فإذا قلّت عاطفة أحدهما (أ) مثلاً وبقيت عاطفة الآخر (ب) كما هي ففي هذه الحالة فإنَّ سلطة (أ) على (ب) أقوى من سلطة (ب) على (أ).

صيانة الخلافات في السلطة

حيث يكون من الأساسي صيانة خلافات السلطة، فإنَّ مختلف أشكال البنية الاجتماعية تتفاعل لإيقاف تقدم الاعتمادية المتبادلة. في الجيش، الضباط. والمتطوعون مميزون بعض الشيء وهنالك درجة من الرسميات في علاقاتهم كما يبدو من ممارسة التحية واستخدام الأسماء والرتب. كذلك في المؤسسات الكبرى يقيم كبار الإداريين حواجز بينهم وبين الموظفين مثل صالات الطعام الخاصة ودورات المياه.

إنَّ أخطر اعتمادية تنمو بين كبار الموظفين وصغارهم هي الصداقة والتي تفسد عنصر النفوذ المطلوب لتسيير المنظمة بشكل صحيح. ويظهر هذا الموقف أيضاً في

حالة العلاقة بين الأستاذ والتلميذ والضابط والجندي.. ففي كل هذا النوع من الأوضاع يظل من الضروري لإنجاز أهداف المنظمة أنَّ يحتفظ المدير بسلطة القرار وضبط العلاقة.

إدراك السلطة

إنَّ السلطة عنصر حيوي وفارض وجوده في المعاملات مما يجعل معظم الناس حساسين اتجاهها. وفي دراسة للسلطة أجريت على معسكرات الأولاد، اتضح أنَّ الأولاد يدركون بشكل دقيق السلطة النسبية لأفراد الجماعة، بما في ذلك سلطاتهم وأنَّ محاولات كل فتى للتأثير على الآخر مقيدة بهذه المفاهيم.. فإنَّ الذين يتصورون أنفسهم أصحاب سلطة عالية يقومون بمحاولات أكثر للتأثير على الآخرين. وأشارت دراسة أخرى أجريت على متطوعي القوات الجوية إلى النتائج نفسها.

وخلاصة القول إنَّه عندما يتم فحص ممارسة السلطة في سياق التفاعل، فإنَّ عدداً من المقومات تكون متصلة بذلك. أي ممارسة هي عبارة عن تبادل بين أشخاص، وغالباً ما يكون تبادلاً متنافراً للسلوك يختلف في القيمة بالنسبة لكل جانب. وتبدو السلطة كوظيفة مباشرة لاعتمادية (ب) على (أ). وكلما امتدت اعتمادية (ب) كلما امتدت سلطة (أ) على (ب).

وربما تكون الاعتمادية متبادلة أو متوازنة، أو ربما تكون مشتقة وغير متوازنة مع أن يكون أحد الشخصين أكثر اعتماداً.. ويقود مثل هذا النوع من الوضع غير المتوازن غالباً إلى جهود لتقييم التوازن.. ومثل هذه التوازنات بما في ذلك الانسحاب من العلاقة، تشكل علاقة بديلة، تزيد حالة ومحصلة اعتمادية الشخص ذي السلطة القوية، وتؤدي إلى تشكيل تحالفات. والتوازن لا يحدث دائماً، وإنَّما تتفاعل عناصر البنية الاجتماعية لحفظ الخلافات في السلطة.

العدالة الاجتماعية.. علم أصيل وفن رصين

❁
منيب هائل اليوسفي

من الثابت أنَّ كل ما له علاقة بالأخلاق له علاقة بالقانون، فالقانون لا يفرض الأخلاق ولا يستحدثها بل هو سياج لها يحميها ويصونها، فالأخلاق أوّلاً ومن ثم القانون ثانياً، ويتجسد ويصبح ذلك أكثر وضوحاً في العلاقات الاجتماعية ولاسيما في العلاقات الأسرية، ويرتبط مفهوم الأخلاق وتقديم الخدمة الإنسانية والاجتماعية في أذهان الكثيرين بأعمال البر والإحسان وإيتاء الصدقات وتقديم العون للمحتاج والمريض والعاجز واليتيم، ويردد بعض من الناس أنَّ الخدمة الإنسانية أو الاجتماعية ليست مهنة ولكنها واجب إنساني وأخلاقي حثت عليه جميع الأديان

❁ محام وباحث في القانون العام.

ومارسه الإنسان لمعونة أخيه الإنسان منذ بدء الخليقة.

ونسمع آخرين ينادون بأنَّ الخدمة الاجتماعية نشاط إنساني دونما حاجة إلى إعداد أو تخصص؛ فالآباء وأعضاء الأسرة الواحدة والأطباء والمعلمون ورجال الدين والقانون.. كل هؤلاء يقومون بدور إيجابي في خدمة الناس والمجتمع مع أنهم لم يتدربوا على الخدمة الاجتماعية ولم يتمرسوا بفنونها في المدارس المهنية المعدة لهذا الغرض.

وفي رأي هذا الفريق أنَّ المعيار الصحيح الذي يمكن اتخاذه أساساً للتمييز بين الأعمال التي تعتبر من الخدمة الاجتماعية والأعمال التي لا تعتبر كذلك، إنَّما هو الدافع من وراء هذا العمل والنوايا التي ينطوي عليها وبمقتضى هذه النظرة اعتبرت الخدمة الإنسانية «جهوداً تنطوي على الإخلاص وتقوم على أسلوب منظم موجه نحو الأفراد الذين تأخر تقدمهم بسبب ضعف صحي أو اضطراب في علاقاتهم العائلية أو الاجتماعية».

ولا شك في أن الدافع الذي يبعث المرء على إتيان الخير أو إسداء النصح للغير هو الجوهر الحقيقي لكل عمل إنساني، وهو الذي يضفي على هذا العمل قيمته الإنسانية.

وما لم يثق الإنسان الذي يتلقى العون من إنسان آخر بأن معونته خالصة من الشوائب منزهة عن المآرب، لا يستطيع أن يتقبل هذا العون وعندما تضطره ظروفه لقبوله فأغلب الظن أنَّه لن يفيد منه الفائدة المرجوة ولن يكون له في نفسه الأثر المستحب.

على أن توافر الدوافع الطيبة والنوايا الصالحة ليس هو كل ما يهم في التعامل مع أناس يتخبطون في مشاكلهم ويتعثرون في خطاهم فالمساعدة التي يسديها الوالد لولده أو المعلم لتلميذه أو الصديق لصديقه بدافع من المحبة والغيرة يمكن أن يكون لها نفعها إذا ما كان الشخص المرغوب في مساعدته يتمتع بشخصية سوية أي إذا كان ينظر للحياة نظرة إيجابية ويرغب في التعاون من أجل إيجاد حل للمشكلة التي يعاني منها إذا كانت لديه مشكلة ما.

ولكن الملاحظ بوجه عام إنَّ كثيراً ممن تستدعي أحوالهم إسداء العون أو النصح لهم هم أناس يعانون من اضطراب في الشخصية، فالأشخاص الذين يتعذر عليهم التعامل مع غيرهم من الناس والمشاكسون والمتهيبون وغير المتعاونين أو أولئك الذين لديهم نزعة إجرامية إنَّما يعانون جميعاً من سوء التوافق النفسي.

و أمثال هؤلاء لن تنفع معهم نصيحة رائدها الصدق أو معونة مبعثها الإخلاص وربما انقلبت النصيحة إساءة والمعونة مضرة بالنسبة إليهم.

ولنضرب لذلك مثلاً بالسيارة التي أقودها

بمهارة لأني بطبعي أتجاوب بسرعة كما أنَّ نظري سليم يميز الرؤية بوضوح فضلاً عن كوني أتقن استخدام أدوات القيادة وكل هذا حسن وجميل طالما كانت السيارة تسير من دون أن يطرأ عليها أي خلل ما.

لكن حينما يصاب أحد أجهزتها بخلل لن يكون في وسعي إلا القعود مكتوف اليدين حتى يهرع لنجدتي من هم أكثر مني خبرة في شؤون ميكانيكية السيارة.

وهكذا الحال بالنسبة للعلاقات الإنسانية إذ قد تكفي النوايا الطيبة وحسن الإدراك في التعامل مع شخص طبيعي وفي وضع سليم.

لكن قدراً كبيراً من الخلل يمكن أن يدب في نفوس البشر وكلما كبر الخلل اشتدت الحاجة إلى المعرفة والتخصص وإلى الخبرة والمهارة لعلاجه وإصلاح أمره.

وفي مقدورنا أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنؤكد بأنَّ الضرر كثيراً ما يصدر عن إنسان خالص النية كريم المقصد، بوسعنا أنّ نسوق هنا بعض الأمثلة العملية على ذلك:

قد تضيق زوجة شابة ذرعاً بحياتها الزوجية الجديدة وتحس بأنَّها قد خدعت وأنَّ زوجها لا يفهمها فتأنس إلى صديقة تزين لها الطلاق من زوجها والسعي إلى العمل مستقلة عنه، وربما لا يمضي أكثر من أسبوع واحد حتى يكون الزوجان الشابان قد سويا خلافاتهما وصفا الجو بينهما.

في حالة كهذه، لم يحدث ضرر كبير في الواقع، اللهم إلا ما يمس سمعة الصديقة ومكانتها، ولكن من يدري؟ فقد تتطور الأمور إلى أسوأ من ذلك وتنتهي إلى دعوى أمام القضاء ومن ثم إلى انفصال الزوجين عن بعضهما.

أو لنفترض أن سيدة نقية السريرة، هالها ما رأت عليه منزل أحد جيرانها من حيث قذارة غرفه وبؤس أهله فبذلت جهدها ونفوذها في إبعاد أطفال تلك الأسرة عن دارهم وإلحاقهم بإحدى دور رعاية الأطفال.

ترى؟ هل علمت تلك السيدة الخيّرة أيهما أشد عذاباً وإيلاماً للأطفال: هل بقاؤهم في مسكنهم الوضيع حيث المفارش المتسخة والوجبات الرخيصة وندرة وسائل اللعب..؟؟ أم عيشهم في جو تتوافر لهم فيه كل أسباب النظافة والعناية والترفيه بينما يبقون محرومين من عطف آبائهم وأمهاتهم ودفء الحياة في بيوتهم؟

هنالك عشرات الأمثلة للمواقف التي يمكن أن يخدع فيها الإنسان ذو النوايا الطيبة والعواطف السخية ويخطئ الحكم على الأمور.

ولهذا كان لابد لمن يريد أن يتصدى لمهمة مساعدة الناس أن يعتمد الفكر العلمي في تناوله للمواقف الإنسانية والاجتماعية.

وقد ساق لنا الفيلسوف الألماني «شوبنهاور» تشبيهاً طريفاً في هذا المعنى

يستند إلى قصة المقعد والأعمى المشهورة، إذ شبه العاطفة بالرجل الأعمى والفكر بالرجل المقعد.

فمن الواضح أنَّ العاطفة كالرجل الأعمى تملك قوة السير والحركة ولكنها محرومة من نعمة البصر، أي إنَّها تعجز عن رؤية الطريق فلا تستطيع أن تعين الاتجاهات التي يجب أن تسير نحوها.

وأمَّا الفكر شأنه كالرجل المقعد يتمتع ببصر حاد يرى الطريق وكل ما يحيط بالطريق فيستطيع أنّ يعين الاتجاهات التي يجب أن يسير نحوها ولكنه محروم من قدرة الحركة فلا يستطيع أن يسير نحو الأماكن التي يشاهدها بعينه مع أنَّه يدرك وجوب التوجه نحوها وضرورة الوصول إليها.

كذلك الأمر في الخدمة الإنسانية إذ إنَّها وليدة عاطفة الخير يهديها السبيل فكر مستنير يقودها بخطا وئيدة في ضوء فهم شامل لنوازع النفس البشرية ودراية تامة بطرق البحث العلمي ومعرفة بصيرة بأساليب العمل مع الأفراد والجماعات والمجتمعات.

وهذا هو التصور الحديث لطريقة تقديم الخدمة الاجتماعية كما عبر عنها عالم الاجتماع الفرنسي (رينيه ساند rene sand) حين قال: إنها وضع الشعور والميل الاجتماعي موضع التنفيذ مع الاستنارة ببحوث العلوم الاجتماعية.

بيد أنَّ الخدمة الاجتماعية لم تصل إلى ما وصلت إليه من تطور وتقدم في عصرنا هذا إلا بعد أن قطعت طريقاً طويلاً حافلاً بالتجارب والمصاعب مليئاً بالنجاح والفشل إذ كان عليها أن تطور فلسفتها وأن تحور أسلوبها باستمرار تبعاً لتطور الفكر الفلسفي والسياسي والقانوني لكل مجتمع وكل عصر.

فمنذ أن استقر الإنسان في الأرض وأنشأ المزارع والقرى واتجهت الأنظار نحو المالك الذي يملك الأرض ويدير شؤون الجماعة باعتباره المسؤول الأوّل عن مهمة الغوث الاجتماعي.

وفي العصور الوسطى التي سادت فيها تعاليم الأديان كانت الوظيفة الأولى للخدمة الاجتماعية هي منح الصدقات والمعونات وكانت المؤسسات والهيئات الدينية هي المسؤولة عن هذه المهمة.

وبدءاً من القرن السابع عشر ظهرت في العالم الأوروبي لأوّل مرة فكرة مسؤولية الدولة تجاه رعاياها وخاصة أولئك الذين يشكون من علة ما، والذين يعيشون في ظل أوضاع غير إنسانية وذلك عندما صدر في انكلترا عام ١٦٠١م قانون الفقراء المشهور بقانون الملكة أليزابيث، ومنذ ذلك الحين استمرت فكرة مسؤولية الدولة تجاه رعاياها تنمو وتتقدم تدريجياً حتى بلغت أوجها في

عصر النهضة الأوروبيــة «عصر الاستنارة» حيث حلت فكرة «العدالة الاجتماعية» محل الإحســان الدينــي وحيث أصبحــت شؤون الرعايــة الاجتماعية للمواطنــين مسؤولية الدولــة أكــثر مما هــي مسؤوليــة الأفراد والهيئات والمنظمات الدينية.

فــكان القرن الثامن عشــر أخرجنا من الفكــرة الضيقة التــي أساسهــا المساعدة بالإحســان إلى فكرة حديثــة واسعة الأفق وهي فكرة احترام الفــرد كإنسان والإيمان بالعدل الاجتماعي وبذلك خطت الإنسانية خطوة واسعة إلى الأمام.

وهذه النظرة الجديدة المتطورة انعكست صورتهــا في مــرآة القوانــين والتشريعات الجديدة التي تقوم على فكرة الديمقراطية وعلى أنَّ المجتمــع الديمقراطي أسرة كبيرة توجــب الصلة بين أفرادها تــواداً وتراحماً وتعاطفاً إضافة إلى مصالح مشتركة تفرض عليهــم التعاون على تأمــين الحياة وترفيه العيش وأن على هذا المجتمع إتاحة الفرصة لكل مواطــن لينال حقه مــن العلم والعمل ويبلغ أقصى ما تسمح به مواهبه حتى يؤدي واجبه كمواطــن على أكمل وجه فإذا أقعده عــن هذا الواجب مرضــ أو عجز أو عاهة أخذت أمته بيــده وتعهدته بالرعاية الرؤوم وهي حين تفعل، إنَّما تؤدي إليه حقه عليها، لا تســدي إليــه حسنة ولا تتصــدق عليه بفضل نوال.

ومــن حقنا نحن -معشر العرب مسلمين ومسيحيــين- أن نباهــي بــأنَّ مجتمعاتنــا الشرقية كانت الأسبق إلى إقرار مبادئ العدل والتكافل الاجتماعي وحقوق الإنسان وذلك حينما أقامت الدولة الإسلامية نظاماً كاملاً للرعاية الاجتماعيــة والتكافل الاجتماعي كان بمثابــة تتويج للمبــادئ الإنسانية التي أعلنتها الديانة المسيحيــة وتكملة لنظامها القانوني الاجتماعي الذي يقوم على اعتبار الصدقة حقاً للفقــير لا منحة متفضل ولا هبة محسن.

على أن أهم ما يميز الخدمة الاجتماعية في القــرن العشرين موضوعيتهــا وتناولها العلاقات والمشــكلات الإنسانيــة بأسلوب البحث العلمــي فلم تعد لتقنــع بتقديم ما يمكــن تسميته بالمعونة المسكنــة أو الملطفة ولم تعد لترضى بالحلول المؤقتة، وإنَّما غدت تبحث عــن المعونات العلاجية الشافية التي يمكــن أن يكون لها صفــة الديمومة والتي تصلح أنّ تكون أساساً في النهوض بشخصية الفرد والجماعــة والمجتمع وتحقيق أقصى درجة من الفعالية والإنتاجية لكل منهم.

ومــا من خطة يرسمها الأخصائي «وهو الشخصــ المؤهــل علمياً وعمليــاً في طرق العمل مع الأفــراد والجماعات والمجتمعات المحلية» إلا وتكــون مسبوقة بدراسة علمية واقية لطبيعة الموقف الذي يستلزم المساعدة وللعوامل المتداخلــة فيه، ويعمل الأخصائي الاجتماعــي في مكاتــب ودوائــر الخدمة الاجتماعية الملحقة بالمدارس والمستشفيات

ومعاهد إصلاح الأحداث المنحرفين وفي السجون وفي مراكز إنعاش الريف وفي المؤسسات المعنية برعاية الأسرة والطفولة.

وقريب وجه الشبه من هذه الناحية فيما بين مهنة الخدمة الاجتماعية ومهن الطب فهذه تعالج آفات البدن وتلك تعالج آفات المجتمع والأخصائي القانوني والاجتماعي ولاسيما الذي يلقى على عاتقه رأب الصدع بين الزوجين شأنه في ذلك شأن الأخصائي الطبي لا يكتفي بدراسة حقيقة المرض مستعيناً بمنهج البحث العلمي ووسائله.

على أنَّ الخدمة الاجتماعية حينما تتصدى لمشكلات المجتمع لا تستطيع أن تقف وحيدة في الميدان إذ لا بدَّ أن تتضافر معها مهن أخرى كثيرة كالطب والزراعة والهندسة والقانون.

هذا ولما كان للقانون قوته وسلطانه في المجتمع فلا مندوحة من أن تشفع الدراسة العلمية والخطط العلاجية بتشريعات وقوانين وقائية وإصلاحية تدعمها وتمكن لها في التنفيذ على أن تستوحي أحكامها من حاجة المجتمع ومصلحته فخير القوانين ما سد نقصاً أو جاء صدى لحاجة ما.

وهذه التشريعات والقوانين الوقائية والإصلاحية إنَّما هي بمثابة عملية تسلح اجتماعي تساعد الخدمة الاجتماعية على دخول معركتها ضد أعدائها التقليديين من الفقر والجهل والتسول والمرض والتشرد، وهي أسباب كفيلة لارتكاب الجريمة.

فتشريع قانوني اجتماعي يحد من الطلاق وتعدد الزوجات أصون لوحدة الأسرة وأسلم لبنائها وأجدى لها من قانون يحدد النفقة لأولاد حيارى بين أب مطلق وأم حاضنة.

وقانون أو تشريع يسقط حق الآباء في الولاية الشرعية على بنيهم إذا ساءت بهم القدوة وتضاءلت منهم العناية، أجدى على الأمة من إنشاء مؤسسات للمتشردين والجانحين من الأطفال الذين خاب حظهم في أبوة صالحة كريمة.

وقانون يوفر للعمال في مصانعهم أسباب الوقاية من أمراض المهنة وحوادث العمل أنفع لهم وللأمة من صرف الأموال الطائلة لتعويضهم عن نواحي العجز والقصور التي يصابون بها فضلاً عن الأموال التي تستلزمها إقامة المؤسسات الاجتماعية المختصة بتأهيل العاجزين ولو أنَّ هذه المؤسسات لا غنى عنها لأي مجتمع طالما أنَّ

مصادر الإصابــة بالعاهات متعددة متنوعة وغير مقتصرة على إصابات العمل.

والعدالــة الاجتماعيــة في كفاحها ضد عوامل التفكك والتخلــف الاجتماعي أشبه بالجيش المحارب فهو لكي يكتب له النصر، لابدَّ من تنسيق جهود وحدته المختلفة لبلوغ الهدف المشترك.

فتنسيــق جهود الهيئــات المعنية بخدمة المجتمع، أهلية وحكومية، ضروري لتماسك المجتمع ونهوضــه، وتكاتف جهود الوحدات الاجتماعيــة المختلفــة مهم لــكل منها فهو ييسر مهمتها ويشــد أزرها فيما هي تسعى بسبيلــه من وجــوه الإصــلاح، فالمدرسة لا تؤتــي ثمارها المرجوة علــى أكمل وجه ما لم تجاوبها الأسرة وتردد صداها البيئة ويعكس تعاليمها المجتمع.

تقنية المحاكاة الحاسوبية وسبر أغوار العلوم

رحاب محمد ❁

في ظل ما يشهده العالم من تغيرات وتحديات في مختلف الميادين العلمية والتكنولوجية، تكثر التساؤلات حول كيفية مواكبة هذه التغيرات ومقاومة التحديات التي تواجهنا، وكيفية السعي نحو فهم أفضل من شأنه خلق أفراد مبدعين وقادرين على العطاء في مختلف الميادين، ولعلَّ هذا الأمر لا يمكن تحقيقه إلا من خلال إدراك الفرد لطبيعة العلاقة المتبادلة بين كل من العلم والتكنولوجيا والمجتمع والبيئة، ومن خلال توفير جميع السبل الكفيلة بذلك ؛ والتي يمكن من خلالها تحقيق هذا الإدراك وتطوير التربية

❁ أديبة وباحثة من سورية.

العلميــة والتكنولوجيــة، وتوظيف ذلك من خلال استحــداث إستراتيجيــات وأساليب متطــورة في التدريس تأخذ بيد المتعلم نحو الإبداع والتميز، وتجعله قادراً على الإنجاز والعطــاء في ظــل عصر ســادت فيه فنون المعرفة والتكنولوجيا، وكثرت فيه المشكلات والتحديات المستقبلية.

ولمواجهة هذه التحديات برزت الحاجة إلى استخــدام التقنيات الحديثة في التعليم كالحاســوب والتلفاز والأفــلام السينمائية لتساعــد المعلم في تعزيز التعلــم، والتركيز علــى أنماط التعلم الذاتــي والتعلم المفتوح والتعلم عن بعد للارتقاء بالتحصيل العلمي لدى الطلبــة. ولعلَّ مــن أفضــل الوسائل التقنية الحديثة التي ظهرت في هذا العصر هي تقنيــة الحاســوب، التــي ساهمت في توفير الوقت لدرجة جعلت المعلم قادراً على تحقيــق المزيد من الأهــداف التي كثيراً ما كانت تهمل بسبــب ضيق الوقت وكان المعلم يعجز عن تحقيقها في الظروف العادية.

الحاسوب أداة تعليمية

إنَّ توظيــف الحاســوب في العمليــة التعليميــة يعد من أبرز المستجدات التربوية التي لقيت اهتماماً متزايداً من قبل صانعي القرار في المجــالات المختلفة وخصوصاً في المجــال التربوي، حيــث أدى ذلك إلى إعادة النظر في المقــررات الدراسية والعمل على تحديثهــا بحيث تتضمــن ظواهر ومعارف وبيانات حديثة شهدها العالم مؤخراً إضافة إلى حوسبة بعض الجوانــب الصعبة فيها، وتفعيل دور المعلم في التعامل مع هذا التطور بشكل يحقق أهدافــه المتفقة مع خصائص الطلبة وخلفياتهم السابقة، وذلك من خلال القدرة على استخدام واختبار طرق وأدوات وأساليــب تدريس فعالــة، تسهم في تحقيق الأهــداف وتعلم أفضــل للمفاهيم العلمية بغية الوصــول بالطلبة إلى مستوى تحصيل أعلى، وزيادة وعيهم لأهمية ما يتعلمونه في حياتهم العلمية والعملية.

ويعــرّف غرلديــن جيــج الحاسوب من الناحيــة التربويــة علــى أنَّــه: «آلة تمنح المتعلــم الفردية في التعلم، وتساعده على أن يتحكــم في الانتقال من خطوة إلى خطوة في دراسته وتحثه على التعمق فيها، كما تساعد في اكتســاب استجابــة مستقلــة في تعلمه الخاص».

وهنالــك تعريفــات أخــرى للحاسوب منهــا تعريف لوهرمان بأنَّــه: «آلة الاتصال الوحيــدة التي تتجــاوب وتتفاعل مع طالب العلم بذكاء، ويمكن استعماله بطريقة بنّاءة ومبدعة كوسيلة للتفكير بالمسائل وحلها».

وبناء علـــى ما سبق فالحاسوب هو أحد وسائـــط التكنولوجيا التي توفـــر للإنسان فرصـــة التفاعـــل مـــع إمكانـــات الآلة من استقبـــال للمعلومـــات وتخزينهـــا، وإجراء عمليـــات بسيطة ومعقـــدة، والحصول على نتائج دقيقة وبسرعة فائقة، واتخاذ قرارات سليمة ومبنية على معلومات يمكن الحصول عليهـــا بسهولة ويسر، وكذلـــك القدرة على التعامل مع برامج متعددة الأنماط والنماذج، وبه يمكن محاكاة مختلـــف المظاهر العلمية والحياتيـــة كما لو كانت حقيقية، مما يسهل على المتعلم إدراكها عندما تعرض عليه.

وإضافة إلى ذلك فـــإنَّ الحاسوب يحث المتعلم علـــى التفكير ويولد لديـــه الدافعية للتعلـــم، كما يمكّنه من تعلم ومواجهة ما قد يكون خطـــراً عليه عند مواجهتـــه مباشرة كالتجـــارب الخطرة، وتعلم تلـــك العمليات المكلفـــة مادياً، أو التي تتطلـــب فترة زمنية طويلـــة لدراستها، كما يزود الحاسوب أيضاً المتعلم بالتعزيز المناســـب والتغذية الراجعة في مكانهـــا الصحيح وجعل التعلم أكثر إثارة وتشويقاً للمتعلم من التعلم التقليدي كما أنَّه يشجع التعلم القائم على الاكتشاف.

إنَّ استخـــدام الحاســـوب كمساعـــد في التعليم القائم علـــى المحاكاة وعمل النماذج يعتـــبر من الجوانـــب الهامـــة في التدريس، وخصوصاً في مجال تدريس العلوم الطبيعية، حيث يمكننا الحاسوب من محاكاة الظواهر الطبيعية والتجـــارب التي يصعب تحقيقها عملياً داخل المختبر وذلك إمّا لخطورتها أو لارتفاع كلفتها، ومن الأمثلة على ذلك محاكاة عمليـــات الاحتراق أو التفاعلات الكيميائية الخطرة، أو محـــاكاة العمليات التي تحدث خـــلال فترة زمنيـــة طويلة كنمـــو النباتات. وهنالك نمط آخر للمحاكاة الحاسوبية وهو ما يعرف بالألعاب التعليمية التي تهدف إلى توفير منـــاخ تعليمي يمتزج فيـــه التحصيل العلمي مع التسلية وتحقيق عنصريّ الإثارة والتشويق أثناء التعليم وزيادة قدرات الطلبة ودافعيتهـــم نحو التعليم بغيـــة الوصول إلى التعلـــم الإستراتيجـــي القائم علـــى الفهم. وانطلاقاً من أهمية المحاكاة الحاسوبية في التدريســـ، كان لابدَّ لنا مـــن توضيح معنى المحاكاة، وأنواعها، وميزات استخدامها.

تعريف المحاكاة

المحاكاة هـــي «طريقة أو أسلوب تعليمي يستخدمـــه المعلم عادة لتقريـــب الطلبة إلى العالم الواقعي الذي يصعب توفيره للمتعلمين بسبـــب التكلفة المادية أو المـــوارد البشرية»، ويعتقد بأنَّ أسلوب المحاكاة قد استخدم منذ أن وجد الإنسان علـــى الأرض، كما أشارت

بعض الدلائل التاريخية إلى أنَّ أوّل لعبة محاكاة في تاريخ البشرية هي لعبة الشطرنج التي ترجع إلى سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد في الصين والتي كانت تهدف إلى التدريب على المناورات العسكرية.

أمَّا جذور لعب المحاكاة فترجع إلى بداية الحضارة اليونانية، فقد بيّن أفلاطون وغيره من الفلاسفة اليونانيين أهمية تقليد المواقف الحياتية من خلال التدريب عليها. ومنذ منتصف ستينيات القرن العشرين ازداد الاهتمام بالمحاكاة كطريقة مناسبة وفعالة في عملية التعليم وخاصةً بعد ظهور الحواسيب، حيث أصبحت عملية المحاكاة للمفاهيم والأنشطة والتجارب تتم من خلال الحاسوب، وأصبح لها دور هام وبارز في العملية التعليمية.

ومع تطور الحواسيب ازدادت المحاكاة الحاسوبية فعالية وإثارة في تدريس المفاهيم والمواضيع العلمية المختلفة وتنوعت لغات المحاكاة واستخداماتها في التدريس وهذا ما جعله أكثر مرونة وحيوية من ذي قبل، كما استخدمت المحاكاة في التقليل من الخسائر المادية والمعنوية، وهذا ما جعلها من النشاطات الفاعلة والممتعة في إرساء أسس التعلم لبعض المهارات والمواضيع الصعبة التي يصعب التعامل معها من دون مخاطر في الواقع، فهي تبسيط لبعض المواقف الحياتية أو لعملية ما يكون لكل فرد فيها دور يتفاعل من خلالها مع الآخرين في ضوء عناصر الموقف المُحاكى.

وفي البرامج التعليمية المعززة بالحاسوب تمثل المحاكاة تكراراً لظاهرة ما في الطبيعة، بحيث يصعب تنفيذها داخل غرفة الصف أو خارجها، نظراً لخطورتها أو لارتفاع تكلفتها؛ ففي هذه البرامج يواجه المتعلم بمواقف واقعية تقدم له بطريقة مشابهة، فهي بذلك تقنية فاعلة للتعلم أو لتدريس مفهوم من الحياة بوساطة تقليد هذا المفهوم أو استحضار شيء يشبهه، ولا ينظر للمحاكاة باعتبارها حافزاً للمتعلمين فحسب بل ينظر إليها على أنَّها قادرة على جعل المتعلمين يتعلمون بطريقه مشابهة للطريقة التي سيتعرضون لها في حياتهم العملية الحقيقية.

أنواع المحاكاة

يمكن تقسيم المحاكاة إلى أربعة أنواع وذلك على النحو التالي:

١ - **محاكاة مادية أو فيزيائية**: وهذا النوع يتعلق بمعالجة أشياء فيزيائية مادية بغرض استخدامها مثل: قيادة الطائرة، استخدام الأدوات والكيماويات.

٢- **محاكاة إجرائية**: ويهدف هذا النوع من المحاكاة إلى تعلم سلسلة من الأعمال أو الخطوات مثل التدرّب على خطوات تشغيل آلة أو جهاز أو تشخيص بعض الأمراض في مجال الطب.

٣ - **محاكاة وضعية**: وهذا النوع يختلف عن المحاكاة الإجرائية حيث يكون للمتعلم دور أساسي في السيناريو الذي يعرض وليس مجرد تعلم قواعد وإستراتيجيات كما هو في الأنواع السابقة، فدور المتعلم اكتشاف استجابات مناسبة لمواقف من خلال تكرار المحاكاة.

٤ - **محاكاة عملية أو معالجة**: وفي هذا النوع لا يؤدي المتعلم أي دور في المحاكاة بل هو مراقب ومجرب خارجي، ففي الوقت الذي لا يستطيع فيه المتعلم أن يشاهد الإلكترونات أو حركة وسرعة الضوء، فإنَّه يمكنه مشاهدة ذلك في المحاكاة العملية مما يسهل عليه إدراك مثل هذه المفاهيم.

ولسهولة التمييز بين أنواع المحاكاة فقد تم تقسيم المحاكاة إلى قسمين رئيسيين هما:

أ - **محاكاة للتعلم عن الأشياء**: أي محاكاة تعلم الأشياء أو التعلم من مشاهدة شخص آخر، ويندرج تحت هذا القسم المحاكاة المادية والعملية.

ب - **محاكاة لتعلم عمل شيء**: هذا يعني تعلم كيفية عمل الأشياء أو كيف يتم التعلم من مشاهدة شخص آخر، ويندرج تحت هذا القسم كل من المحاكاة الوضعية والإجرائية.

مزايا المحاكاة

تعد المحاكاة أحد أهم أساليب التدريب التي يعتمد عليها المديرون لترشيد التكاليف. ليس فقط ترشيد التكاليف المالية بل وتكلفة الوقت وتكاليف الجهد البشري أيضاً، كما أنَّ أسلوب التدريب بالمحاكاة يعتمد عليه لتحقيق مستوى متقدم من الجودة مع بداية دخول المتدرب إلى بيئة العمل الفعلية من دون الاعتماد على مبدأ رفع جودة الأداء عن طريق الصواب والخطأ والتي تؤثر من غير شك على سمعة الموظف والمنظمة. ولا يفوتنا التأكيد على أن هناك مجالات قد يصعب أو يستحيل فيها العمل والتجربة الحقيقية وإنَّما لابدَّ من الاعتماد على التدريب بالمحاكاة.

متطلبات المحاكاة

١ - تهيئة بيئة العمل لتحاكي وتشابه بقدر الإمكان بيئة العمل الفعلية المستهدف التدريب عليها.

٢ - تجهيز المعدات اللازمة للتدريب بالمحاكاة والمتوافقة مع المعدات التي ستستخدم بالواقع العملي وهنا تجدر الإشارة إلى أنَّه من الخطأ أن يتم تجهيز معدات مختلفة تماماً عما سيتم توافره في الواقع الحقيقي.

٣ - توفير المستندات المتطابقة للمستندات التي سيتم التعامل معها.

خطوات التدريب بالمحاكاة

١ - تحليل الأداء لتحديد الاحتياجات التدريبية والشخصيات المستهدف تدريبها وأهداف الخطة التدريبية.

٢ - تحليل الأعمال الحقيقية التي سيتم التدريب عليها لأوّل مرّة أو التدريب عليها لرفع مستوى الأداء بها.

٣ - تحديد العناصر الأساسية لبيئة العمل التي يمكن توفيرها في مقر التدريب.

٤ - تهيئة البيئة التدريبية المشابهة للبيئة الفعلية.

٥ - تنفيذ العملية التدريبية، وذلك من خلال:

- تهيئة البيئة التدريبية المشابهة إلى أكبر درجة ممكنة بالبيئة الحقيقية لمزاولة العمل.

- التدريب على مواقف تحاكي وتشابه تماماً ما يمكن أن يحدث بالبيئة الفعلية من دون إفراط أو تفريط ومن غير المبالغة في حالات غير واقعية.

- يتم تكثيف التدريب في حالة المتدرب قليل الخبرة بينما يقل إلى حد ما للمتدرب الذي له سابق خبرة.

- لا يطبق التدريب بالمحاكاة نظراً لتكلفته إلا في وقت الحاجة الحقيقية له وقد يكون من الأنسب في بعض الحالات تطبيق أساليب أخرى.

٦ - تقييم الأداء التدريبي السابق واللاحق لمزاولة المتدرب للعمل الحقيقي.

المحاكاة والبحث العلمي

لقد تسللت الطريقة الثالثة لصياغة العلم «المحاكاة الحاسوبية» إلى معظم ميادين البحث العلمي خلال نهاية عقد الثمانينيات من القرن الماضي، وكثيراً ما تكون هذه هي الطريقة الوحيدة الممكنة والقابلة لأن تعمل بنجاح، وكلما تقدم الباحثون خطوات باتجاه الزوايا الأكثر غموضاً من العالم الطبيعي، وجدوا مزيداً من التفاصيل والتعقيدات التي لم يكن لأحد أن يتخيلها قبل بضعة عقود، وهو ما يواجههم على الدوام بمحدوديات طرقهم القديمة وعقولهم التي لا تستند إلى ما يساعدها.

وعلى سبيل المثال، فإنَّ الفلكيين صاروا يعرفــون، ومنذ زمن ماهيــة المستعر الأكبر (السوبر نوفــا) وكان (سبر همنيان شاندر شيخار) قد بيّن في ثلاثينيات القرن الماضي أنَّه عندما يستنفد نجم كبير كل وقوده فإنه ينهــار تحت وطأة ثقله، وعرف فيما بعد أنَّ هناك حالات يؤدي فيها هــذا الانهيار إلى إطلاق انفجار -وهو المستعر الأكبر- يقذف بعيداً بالكثير من كتلــة النجم، مخلفاً وراءه نجماً نيترونياً كثيفاً أو ربما ثقباً أسود، وقد اكتشف هــذا كله بوساطــة «فيزياء الورقة والقلم»، ولكن هذه الطرق فشلت في متابعة تفاصيل الأحــداث الأساسية التي تستغرق أجزاء من ألف في الثانية، والتي يتقلص من خلالها قلب النجــم ويرتد فجأة ثم ينفجر، وهناك كثير مما يجري خلال تلك الفسحة الزمنيــة القصــيرة جداً، ممــا لا يستطيع النظريــون مجاراته ومعرفته، وأمَّا التجارب المخبرية فهي مستحيلــة طبعاً في مثل هذه الحالات.

محاكاة قوانين الطبيعة

كانت المحــاكاة الحاسوبية قد بدأت في نهاية عقد الثمانينــات من القرن المنصرم، بسد الفراغ القائم في تفاصيل موت النجم، وبــدأت هذه المحاكيــات بنمــوذج رياضي لنجم يصــف كتلة النجم وتركيبه الكيميائي وبنيته الداخلية، ولبدء المحاكاة تأثير مشابه لإطلاق قوانين الفيزياء، أي أنَّ بداية محاكاة نموذج نجــم ما تشبه بدايــة عملية «طبخ» النجم، حيث تبدأ سلسلة التفاعلات النووية وتتدفق تيارات الحمــل وتضغط الجاذبية قلب النجم، وتتســرب النيوترونات الأخرى عبر طبقات الجو. وفي هــذه الأثناء ينتظر العــالم الفيزيائي مــا سيحصــل، ولا يكون الانتظــار قصير الأمد حتى باستعمال أسرع الحواسيــب، فالمحاكاة قــد تستغرق دقائق عــدّة لتمثيل ما يحصــل في الطبيعة خلال أجزاء من الألف مــن الثانية، ولكن النتائج التي يتم الحصول عليها تستحق الانتظار.

وعلى سبيل المثال فقد كشفت المحاكيات الحاسوبيــة أنَّه ليس من السهل دوماً تفجير نجم ما، ذلك أنَّ موجة الصدمة التي تحمل الزخم من قلــب النجم المنهار إلى الطبقات الخارجية تميــل إلى التلكؤ وتشتيت طاقتها في تفتيــت النوى الذرية، حتــى يعاد إحياء هذه الطاقة بوساطــة النيوترونات القادمة من القلب.

ومن ناحية أخرى فإنَّ مراقبة مستعرات حقيقيــة - وخصوصــاً مستعــرة سحابــة ماجــلان الكبرى- أوحــت بالكثير لواضعي النماذج الحاسوبية، وأصبح حوار العلم أكثر

ضجيجاً وثلاثياً (نظرية، تجربة، محاكاة) مما يجعل كل الأطراف تخرج وهي أكثر معرفة وحكمة.

واستعمال الحواسيب للحصول على نتائج تفصيلية للقوانين الفيزيائية ليس بالأمر الجيد كلياً، ففي القرن الثامن عشر كانت النماذج الكوكبية المجسدة ذات المسننات الساعاتية المعقدة (نماذج كوكبية تبين تجهيزاتها حركات ومواقع الكواكب في النظام الشمسي وتسمى المبيان، وهي حواسيب ميكانيكية عملياً) تحاكي حركات الكواكب وأقمارها، وكان المرء إذا أراد معرفة تشكيلة النظام الشمسي قبل أو بعد سنوات يدير ذراع التدوير فتتحرك الكواكب والشمس فيعرف ما يريد، وكانت بعض الأسطرلابات الأقدم تخدم أغراضاً مشابهة أيضاً.

والواقع أنَّه ربما كانت تكنولوجيا أمثال هذه المحاكيات قديمة جدّاً، ويعتقد أن إحدى قطع المعدن المتآكلة التي عثر عليها في حطام سفينة قرب الجزيرة اليونانية «أنتيكيثيرا» ليست إلا بقايا حاسوب للكواكب صنع في القرن الأوّل قبل الميلاد، ولكن هذه الأجهزة كانت مجرد أدوات لتوفير الجهد، ولم تكن تحل مشكلات لا يمكن حلها بوسائل أخرى، ولم تبرز المحاكاة كسبيل بديل يؤدي إلى معرفة جديدة أصيلة إلا بعد أن حلت الحواسيب الإلكترونية القوية محل الميكانيكية في منتصف القرن الماضي.

طريقة مونتي كارلو

كان أحد أبكر وأشهر الشواهد العلمية التي أنجزت بوساطة المحاكاة قد حصل في مختبرات لوس ألاموس الأمريكية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية مباشرة، وكان الباحثون هناك مازالوا يعملون بجد لإنتاج قنابل ذرية أحسن أداء، وكانوا بحاجة إلى وسيلة للتنبؤ بمصير النيترونات المنتقلة عبر المواد المختلفة، فعندما يصطدم النيترون بذرة ما فإنه يتناثر وقد يجري امتصاصه، أو أنَّ نواة الذرة قد تشطر في بعض الحالات محررة ومطلقة مزيداً من النيوترونات، وكانت النتائج المختلفة لاحتمالات أي اصطدام معين معروفة، ولكن المشكلة بقيت قائمة وصعبة الحل لأن كل نيترون كان يشارك في عدد كبير من الاصطدامات، وقد وضع الرياضي «ستانسلاف أولام» حلاً بسيطاً أو أنَّه بدا بسيطاً عند النظر إليه لاحقاً، أي بعدما توصل إليه وطبقه، وكانت نتيجة كل اصطدام تحدد بالاختيار العشوائي لعدد ما بحسب الاحتمالات المعروفة، وكان يمكن تمثيل المحاكاة من حيث المبدأ بالاستعانة بدولاب لعبة الروليت، وعلى سبيل المثال

فقد قرر المرء أنه إذا توقف دوران الروليت على عدد زوجي فإنَّ النيترون يتناثر أمَّا العدد الفردي فيمثل امتصاص النيترون.

وقد تحصل حالات الانشطار النادرة عندما يتوقف دولاب الروليت على الصفر (ولكن الاحتمالات الحقيقية تختلف عن هذه)، وبعد آلاف الدورات للدولاب يكون متوسط خواص مسارات النيترونات قد بدأ بالظهور، ونظراً لما في هذه الطريقة من عنصر المصادفة والحظ فقد سميت «طريقة مونتي كارلو» (في إشارة إلى كازينوهات ألعاب القمار فيها ومنها الروليت)، وبمرور السنوات جرى تطبيق هذه الطريقة على مشكلات كثيرة غير رسم مسارات النيترونات، ومن الناحية العلمية ليس دولاب الروليت الأداة المختارة لدراسات مونتي كارلو، وقد وظف «أولام» وزملاؤه في حل هذه المشكلة اثنين من أقدم أنواع الحواسيب الإلكترونية الرقمية، وهما الحاسوب «أنياك» والحاسوب «منياك»، وأمَّا اليوم فتتم المحاكيات بوساطة أسرع الحواسيب المتوافرة، والتوافر واسع النطاق لهذه الأجهزة هو الذي مكن المحاكيات الحاسوبية من الازدهار خلال العقدين الماضيين.

حلول للمستحيلات

وليس من المفاجئ أن يكون قد تمَّ اللجوء إلى «العلم المحاكي» بشكل واسع جدّاً في الميادين التي تواجه الطرق ذات العقبات المانعة، وتتم المحاكاة في حدوث المستعرات العظمى لأنَّ مثل هذه الأحداث نادرة وتقع بعيداً جداً عنا وفي الأماكن التي لا يمكن الوصول إليها بأي وسيلة كانت، وكذلك فليست هناك بدائل قليلة للمحاكاة في محاولتنا فهم بنية الكون هائلة الأبعاد، حيث تكون المحاكيات هي الطريقة الوحيدة للوصول إلى نظرة الكون من خارجه، وترينا المحاكيات شبكة واسعة من الخيوط الرفيعة وبيوت العناكب تشبه الخرائط الأولية التي وضعها المراقبون الفلكيون، وهي تعطي على الأقل تلميحات أولية حول كيف يمكن لهذه البنى أن تكون قد تطورت، ولا تقتصر المحاكاة على سد الثغرة الناجمة عن كون التجارب غير عملية في بعض الحالات، بل في سد ثغرة مماثلة أيضاً في نظريات غير ملائمة.

وعلى سبيل المثال ففي سبعينيات القرن الماضي كانت إحدى أعقد مشاكل الفيزياء النظرية هي مشكلة تفسير انحسار الكواركات (الجسيمات المكونة للبروتونات والنيوترونات وأشباههما)، والواقع أنَّ الكواركات تبدو

وكأنَّها تتجول داخل البروتون طليقة من كل قيد، ولكن المحاولات التي جرت للفصل بين هذه الكواركات في مسرعات الجسيمات أظهرت وجود روابط فيما بينها لا تنفصم عراها، وكانت الروابط هي روابط القوة النووية القوية الموصوفة في نظرية تسمى «نظرية التكريك الكوني للكم»، ولكن النظريين لم يجدوا في هذه النظرية عوناً على تفسير سبب هذه الحرية الكبيرة التي تتمتع بها الكواركات وامتناع انفصالها عن بعضها البعض في آن معاً، وكانت المشكلة في الأساس هي كون حقل القوة بين كواركين اثنين أكثر تعقيداً من إمكانية حسابه، ولم يتم العثور بعد على حل نهائي لهذه المشكلة، ولكن أقرب حل تمثل حتى الآن في محاكاة حاسوبية وضعها «كينيت ويلسون» من جامعة كورنيل.

وفي هذه الطريقة يجري تبسيط حساب حقل القوة عن طريق استبدال المكان والزمان المتواصل.

تخيل شبكة رباعية الأبعاد هي أشبه بهيكل من القضبان الحديدية الأفقية والعمودية للمكان والزمان، ولا يمكن للكواركات أن تشكل غير نقاط التقاطع للشبكة، وتمثل الوصلات التي تصل بين هذه النقاط القوى المؤثرة في الكواركات، وهذه الوصلات متغيرة بحيث يصبح عدد التشكيلات الممكنة لحقل القوة بأكمله كبيراً جدّاً، كما لو كل قضيب من قضبان الهيكل قابلاً لأنّ يطلى بلون ما من ألوان عدّة مختلفة.

وفي المعالجة الأصلية التي أجريت على أساس فكرة ويلسون الأصلية لا يأخذ الحاسوب في اعتباره إلا عينة تمثيلية يختارها عشوائياً، كما في طريقة مونتي كارلو، ثم يقوم الحاسوب بحوسبة ترتيب أو تشكيل وسطي، والذي فعلته هذه المحاكيات هو أنَّها أكدت نظرية التحريك اللوني للكم من خلال إظهارها أن النظرية كانت تتوقع فعلاً بقاء الكواركات محصورة بوساطة القوة الشديدة في البروتونات والنيوترونات، وهذا ما يعتبر بحد ذاته انتصاراً علمياً، وعلى العموم وأكثر من ذلك، فقد شكلت المحاكيات أيضاً توقعاً رائعاً، فقد أوحت المحاكيات أنَّ الكواركيات قد تتحرر من روابطها القوية في حرارة درجتها عدة تريليونات وتسبح بحرية في ما يشبه «حساء الكواركات»، ويعتقد باحثون كثيرون اليوم أنَّ الكون كان يتألف من حساء الكواركات هذا في اللحظات التالية مباشرة للانفجار العظيم، وأنَّ حساء الكواركات هذا مازال موجوداً حتى الآن في

النجــوم النيوترونية التي تخلفها المستعرات الأعظم وراءها.

تطوير العلوم التجريبية

هــذه الأمثلــة وسواها قد توحــي بأنَّ المحاكاة الحاسوبية لا تستخدم إلا في الحالات المستعصية وعند فشــل النظرية والتجربة التقليديــين، ولكن في الواقع هو أنَّ المحاكاة الحاسوبية وجدت لها مكاناً في العلوم التي لا تعــاني أمثال هــذه الحواجــز المنهجية، وعلى سبيل المثال فإنَّ الكيمياء علم تجريبي نموذجي، ولكنَّ الكيمياء الحاسوبية أصبحت خلال العقدين الماضيين علماً فرعياً هاماً، ويعمل بعضــ الكيميائيين الحاسوبيين على حســاب بنية الجزيء انطلاقاً من المعادلات الأساسية لميكانيك الكــم، ويستعمل آخرون طرقاً حاسوبية أقل دقة في وصف الجزيئات الكبــيرة كالمتناثــرات، أو لاستطلاع أنظمة معقــدة خاصة بتفاعــلات مترابطة كما في احــتراق الوقــود، وإحدى الفوائــد الكبيرة للطرق الحاسوبية هي أنها تسمح للكيميائي بأنّ يرى بشــكل مباشر أشياء كانت تستنبط من نتائج تجربة تقليدية، وعلى سبيل المثال قام العالم الكيميائي «أنريكو كليمنتي» بإجراء محاكاة بطريقــة مونتي كارلو لجزيئات الماء المحيطة بجديلة (اللولب المزدوج) الحمض الريبــي النــووي (د. ن. أ)، وفي حــين أنَّ التجــارب لم تعط أكثر مــن دليل غير مباشر على كيفية تفاعــل الحمض الريبي النووي مع الماء، فــإنَّ المحاكاة كشفت طرقاً محددة تميــل فيها جزيئات المــاء إلى ترتيب نفسها تبعاً لأنماط هذه التفاعلات.

محاكاة علم الأحياء والمناخ

وقد شــق الحاسوب طريقــه أيضاً إلى مختــبرات علم الأحيــاء، وكان البيولوجيون الذين يدرسون ديناميات الجمهرات سباقين في اللجــوء إلى المحاكيــات الحاسوبيــة، والمشكلــة التقليديــة في هــذا الميدان هي تصور كيف يتقلب عدد جمهرة نوع مفترس جمهرة نوع من الفرائس عندما يكون هذان النوعان على اتصال فيما بينهما، وفي حين أنَّــه يمكن للمراقبة الميدانية في هذا المجال أن تستغرق سنوات، فإنَّه يمكن للحاسوب أنّ يمر خلال دقائق بأجيال من الأرانب البرية وأجيال من الوشــق (وهو حيوان أصغر من النمــر ويفترس الأرانب البرية)، للكشف عن العلاقة الضدية بين الجمهرتين، وتستخدم طريقــة مثيلــة حالياً في دراســة الأمراض السارية، بما في ذلــك انتشار مرض الإيدز (نقص المناعة) بين البشر.

وتشكل تنبؤات المناخ مجالاً آخر تمس فيه

المحاكيات الحاسوبية اهتماماً اجتماعياً آخر مباشـرة، فقد عرفنا جميعاً خلال السنوات الماضيـة أنَّ للجنس البشـري القدرة على تغيير مناخ الأرض من خلال تأثير الدفيئة أو الاحتباس الحراري (البيت الزجاجي)، وكان المصدر الأخير لهـذه المعرفة هو المحاكيات الحاسوبيـة التي تنبـأت بتأثـيرات تزايد تركيزات غاز ثاني أوكسيد الكربون في الجو علـى المناخ، ومازال العلمـاء يدرسون حتى يومنـا هذا مدى هـذه التأثيرات، والنماذج المختلفة تعطي نتائج متباينة إلى حدّ مثبط للعزيمـة، ولكـنَّ يبدو أنَّ معظمهـا يتوافق مـع الفكرة المركزية القائلـة إنَّ العالم يزداد سخونة فعلاً وإنَّ ظاهرة الاحتباس الحراري بدأت تشكل خطراً على مناخ الأرض.

المراجع

١ – المحاكاة بواسطة الحاسوب، د.أحمد طه، مجلة بناة الأجيال، العدد٦١، نقابة المعلمين- سورية.
٢ – المحـاكاة الحاسوبيـة.. الطريقة الثالثة لصياغـة العلم، د.شريف مفلح، مجلة التقـدم العلمي، العدد٥٧، الكويت.
٣ – المحاكاة الحاسوبية في التدريس، د.أحمد المصري، مجلة العلم والتكنولوجيا، العدد٤٣.

حوار العدد

المفكر الفلسفي محمد ياسر شرف
أبرز أعلام التحليلية النقدية العرب

إعداد وحوار: محمد خالد الخضر ❁

الحوار مع الأستاذ الدكتور محمد ياسر شرف يكتسب أهمية خاصة في هذه المرحلة التي تشهد فيها الثقافة العربية ضغطاً غير مسبوق تاريخياً لتغيير كثير من مرجعياتها وقناعاتها واتجاهاتها.

فهو مفكر عربي سوري درّس الفلسفة والعلوم الاجتماعية وأغنى الساحة الثقافية على امتداد الوطن العربي وخارجه بمداخلات ومقالات وكتب كثيرة، جاوز المطبوع منها «مئة» في الشعر والقصة والنقد الأدبي وعلم الاجتماع والفلسفة والتصوف والأنثروبولوجيا (علم الأنسنة) والديانات المقارنة، على مدى أكثر من نصف قرن من حياته العلمية وعمله الدؤوب في

❁ شاعر وناقد سوري

منظومات المجتمع المدني ومؤسساته الثقافية والإعلامية.

كما أتاحت له صلاته بالأساتذة والباحثين والمحققين والمترجمين الجامعيين، من نظرائه في أوروبة الشرقية والغربية وآسيا والدول العربية، أن ينشر غير قليل من آرائه ومواقفه النظرية الخاصة بل بعض النظريات التي لم يسبقه إليها أحد. وهي ما سنحاول التركيز عليه بالدرجة الأولى من خلال هذا الحوار الذي خصّ به مجلة «المعرفة» الصامدة في واحد من أهم مراكز الإشعاع الثقافي العربي- دمشق.

التحليلية النقدية منهج بحثي

نقلنا في بداية الحديث مع الدكتور محمد ياسر شرف تساؤلات كثيرة عن اتجاهه الفكري في مؤلفاته المتنوّعة الموضوعات وضمن التخصصات المتعدّدة التي حصّل فيها شهادات الدبلوم العليا والماجستير والدكتوراه.

• أنا أنتمي إلى مذهب محمد ياسر شرف الفكري حالياً، ولو أنني استفدت من دراسات كثير من المذاهب الفلسفية وغيرها منذ بداية حياتي الجامعية وعبر عشرات السنين، حيث اختبرت الأسس التي تقوم عليها والنقود التي تقع تحتها، وما أدّت إليه من استنتاجات أو حصائل معرفية ذات اعتبارات خاصة.

مذهبي الفكري الفلسفي يقوم أساساً على تقديم منهج البحث على الاتجاه الفكري المسبق، وهو أقرب إلى منهج المشتغلين بالعلوم منه إلى المشتغلين بالدراسات التأملية والتصوّرات والتأويلات، نظراً لأنه يعتمد على دراسة كل موضوع بحثي باعتماد أدواته العلمية المتوافرة خلال هذه المرحلة الزمنية بصورة تفصيلية أي تحليلية. ويوجّه الباحث فيه انتقاداته إلى الصورة التركيبية الخاصة به أي المنجزَة، مقارنةً بالصورة التركيبية التي تنشأ عن إعادة صياغة أي موقف فكري تمّت دراسته، بحسب مقتضى الترتيب الموضوعي المنطقي لمكوّنات البحث.

وهذا ما يوضح للباحث العلمي أهمية النتائج التي أصل إليها، على غير صعيد، لأنها تكون مستندة إلى منهجية دقيقة في تصنيف المعطيات، ورصد العلاقات بينها، ثم إنجاز الصياغة المقترحة العامة للفكرة أو الأطروحة الفكرية الخاصة التي تمّت دراستها من جانب هذا الأديب أو ذاك الباحث.

- هل يمكن أن تقدّم لنا مثالاً على ذلك؟

• نعم، الأمثلة كثيرة، لكن اسمح لي أن أشير إلى أنّ جذور هذه الطريقة التي كانت تُسمّى «طريقة التوليد» في الجانب الأوّل منها تعود إلى أكثر من ألفين وخمسمئة سنة، وقد استمرت عبر القرون في أعمال كبار المفكرين الغربيين والعرب والمسلمين

بدرجات متنوّعة، بسبب أصالتها وجدارتها وفاعليتها. فاتبعها عدد غير قليل من أعلام الفلسفة العربية وأصحاب المصنّفات الإسلامية، حتى اغتنت في العصر الحديث بوضع قواعد المنطق المتعدّد الاحتمالات والمنهج الديالكتيكي في مستوياته المادية والتاريخية والعلمية.

ومثالاً على ذلك يقول الدكتور شرف:

حينما درستُ ما نُسب تأليفه إلى «أبي حامد الغزالي» من مصنّفات منطقية، ورددت عليه في كتابي «وسائل الإقناع عند الغزالي» عمدتُ إلى تحليل الأسس التي اعتمدها في إقامة ما سمّاه «براهين ملزِمة» ووضعتُها في «صيغ ممكنة» أخرى بالطريقة «المنطقية الصورية» نفسها التي اعتمد على قواعدها المعروفة بين الباحثين المختصين، وأظهرتُ أنها تحمل «عكس» ما أراد الغزالي إقامة «الحجة» عليه في ردوده على خصومه والمخالفين من ذوي الاتجاهات الفكرية المغايرة.

وكذا فعلتُ في دراستي أعمال الصوفي الشهير «الحسين بن منصور» الشعرية والنثرية في كتابي «حلاج الأسرار»، ثم تناولت على الطريقة ذاتها أهمَّ أطروحات المفكر الفرنسي «روجيه غارودي» بعد إسلامه في كتابي «غارودي وسراب الحلّ الصوفي»، وكذا في ردّي على المفكر الأميركي «صامويل هنتنجتون» الذي تحدث عن صدام الحضارات الراهنة وتغيير الثقافات السائدة، وذلك في كتابي «إعادة تنظيم العالم» الذي أوضحت بعض ما فيه من أطروحات «عبر حضارية» في كتاب آخر بعنوان «توجيه صراع الحضارات».

النقد الأدبي وفلسفة أطروحاته

يقدم الدكتور محمد ياسر شرف مثالاً آخر على منهجيته التحليلية النقدية فيقول:

• طبّقتُ طريقتي البحثية ذاتها في النقد الأدبي، وذلك في كتب متعدّدة، أهمها «مشكلات في النقد الأدبي» و«النثيرة والقصيدة المضادة» و«أدب الحب المؤلم» و«مستقبل الشعر» وغيرها.

فقد كنتُ أتناول الأثر الأدبي في الشعر أو النثر انطلاقاً من الأغراض الفنّية للجنس الأدبي الذي تُصنّف فيه التجربة المنتجَة أو الأثر الإبداعي. وأعمد إلى تحليل صيغ التركيبات في النصوص، لرؤية مدى «دقة الربط» في خدمة «الفكرة» التي يريد المبدع إيصالها إلى «المتلقي» أي الآخر الذي يقع خارج مداه النفسي والعقلي والجسدي معاً، ثم إصدار الحكم بنجاح ذلك أو إخفاقه، والمدى التقديري لهاتين النتيجتين، قياساً إلى نماذج «معيارية».

يضيف الدكتور شرف قائلاً:

إنني في سياق العمل النقدي على الأعمال الشعرية والنثرية أوضحتُ كثيراً من الأطروحات النظرية التي أعدُّها بمثابة

«أسس» يجب أن يستند إليها الأديب في مجال إنتاجه النثري أو الشعري، كما يجب أن يأخذها بالتقدير ناقدُ العمل الأدبي لدى دراسته في صيغته المنجزة الأخيرة، أي حينما يصبح «شيئاً عاماً» يمثل «منتَجاً خاصاً»، منسوباً للأديب أو المبدع الذي صنعه.

لقد وضعتُ أطروحات نظرية حول «النثيرة» وتأسيسها جنساً أدبياً جديداً، وحول «القصيدة البيانية» و«القصيدة الشعاعية» و«القصيدة المضادة» في أواخر سبعينيات القرن الماضي، وهي اليوم مشهورة ومنتشرة وبعضها ذائع الصيت جدّاً؛ تجد غير قليل من البحوث عنها في الموسوعات الإلكترونية التي سبقت الموسوعات الورقية في تجديد موضوعاتها، التي تجاوزت سعتها آلاف الصفحات بل عشرات آلاف الصفحات الورقية.

وكذلك وضعتُ صياغات فلسفية لما يمكن تسميته «فكر اللغة» العربية المحرّك، وضرورة التوافر على تجويد قواعدها وأدائها وتعيين أصولها. وهناك اقتباسات كثيرة عني مبثوثة في عشرات الكتب والبحوث والمظانّ والمواقع الإلكترونية توضح الأفكار التي أدعو إلى تطبيقها في تلك الشؤون، وهي مستمدة من كتبي «إصلاح الكتابة العربية» و«مصادر اللغة العربية وقواعدها» و«منهج تعليم اللغة العربية» و«تدوين الثقافة العربية». وهذا ينطبق أيضاً على ما أشرتُ إليه من الردود التي وضعتها حول كتب لمفكرين بأعيانهم، على نحو ما ذكرته منذ قليل.

الوضعية المنطقية وفلسفة العلوم

- لقد أشرت إلى أنك تعتمد على ترتيب المعطيات المعرفية في بحوثك على أساس منطقي، هل تعني أنك تحاول تطبيق الفلسفة على الآداب والبحوث الإنسانية، باعتبار أنّ المنطق هو أداة بحث رئيسة في الفلسفة ولا مجال للاستغناء عنها؟

• لا ونعم، فليس هذا ما أفعله بالضبط، لكنّ القضية تقترب من ذلك؛ من دون أن أفرض منهجاً غريباً على موضوع الدراسة. وللإيضاح أشير إلى أنّ الوضعية المنطقية ليست واحدة، بل فيها اتجاهات متعدّدة، وأنا أطبّق جانباً خاصاً بي، ألخّصه بأنّ طريقتي تقوم على إجراء «امتحان معرفي» للنصّ الذي أدرسه، أي إنني أعمد إلى تحليل القضايا التي يقدمها المؤلف في صورة مركّبة -عادة- لنقل أفكاره ومواقفه إلينا.

وبعد أن أطمئن إلى ما تحيل إليه هذه «الأجزاء المتفرّقة» أجمعها في «صيَغ ممكنة» لمعرفة ما إذا كانت صيغة المؤلف أو المفكر الذي أدرسه ذات «تماسك ضمني» أم أنها مجرّد «حشد تلفيقي» لأفكار أراد تقديمها في ما ادّعى أنه صيغة نظرية أو رؤية نظرية ذات بُنية منطقية أو مواصفات مذهبية في التأليف التصنيفي، ومن دون أن يكون ذلك قد تحقّق فعلاً.

هذه الطريقة التي أتّبعها تشبه (أقول تشبه، ولا أقول تطابق) ما يقوم به المشتغلون المختصون في فلسفة العلوم، حينما يعمدون إلى تقديم «تسويغ نظري» يناسب كل تقدّم علمي، ضمن مجاله الفنّي أو التّقني الذي يحدث فيه التغيير، وبيان أنّ هذا يحدث في إطار الارتقاء بمستويات «الشمول والتطبيق» اللذين يفرضهما الترتيب المنطقي والواقع العملي، أي يقومون بوضع الإنجاز الجديد في سياقه من النظرية المتحققة، لتسهيل «التقدّم» بمعنى المضيّ قُدماً في توسيع مجال الفكرة الواحدة وتوجيه «التطور» التكاملي لعلاقاتها المتنوّعة، وليس هدم السابق والبدء من الصفر أو من «افتراضات» لا تتسق مع «الثوابت» الراهنة التي يجري الاعتماد عليها في رفع مستوى التكنولوجيا ومنجزاتها. وأقصد بالتكنولوجيا مجملَ ما يتقدّم من استخدام الطرق والوسائط والمواد الجديدة في تحويل الأفكار النظرية والتصوّرات والفروض إلى وقائع وأدوات وأجهزة وتطبيقات متكاملة.

وهنا أريد أن أشير إلى مسألة غاية في الأهمية، هي أنّ التقدم التكنولوجي الذي حدث في القرن العشرين وضع أمام العلماء خيارات كثيرة جدّاً لاختبار «فروض» متنوّعة في المجالات كافة، ولحلّ مشكلات أيضاً وصل عمرُ بعضها إلى آلاف السنين، على صعيد تشكيل الكون ومصير الإنسان والموجودات الأخرى من ما كان شاغلاً للمفكرين العاملين في الدراسات الاجتماعية والثقافية والسياسية، إضافة إلى المشتغلين بالاقتصاد والتربية والقانون والفنون والآداب.

وقد فتحت التكنولوجيا أبواباً غير مسبوقة في التجريب و«إعادة التحقق»، هذه الأطروحة التي رأى كثير من «الوضعيين المناطقة» أنها تشكّل معياراً جيداً للتمييز بين «قضايا» تدخل في إطار «العلم» وضرورة التصديق أو القبول بها -من جهة- وقضايا لا تتجاوز إطار «التحليل اللغوي» وتعتمد على «تعريفات» لغوية غير قابلة للضبط الجمعي ولا تتمتع بضرورة الإلزام، من جهة ثانية.

توفير النسق السّوي وفقدانه

- كيف يمكن الجمع بين ما ذكرته عن فلسفة العلوم والدراسات الأدبية والنقدية ومعطيات علم الاجتماع والأنثروبولوجيا في بحوثك؟

• حينما يقبل الباحث في التحليلية النقدية التي قلتُ لك إنها طريقتي في البحث، لابدّ له من إجراء «تقييم معرفي» لمحتوى الأطروحات الفكرية التي يقدم على معالجتها. وهذا الإجراء العملي يتضمّن أن يرى مدى «التماسك الداخلي» في طبيعة «ربط الأجزاء» التي تتكوّن منها كل فكرة في الموضوع المبحوث، ومدى ضرورة وجود «العناصر الرئيسة» فيه، أو بالأحرى ما عدّه

منتجُ الأثر الأدبي أو الفكري عناصر رئيسة.

خُذ مثالاً على ذلك الروائي في تركيزه على «حدث أو شخصية» دون أخرى لإيصال رسالته الخاصة (شخصية الفكرة) إلى القارئ أو المتلقّي، من خلال ما تحمله فاعليات الشخصية الروائية وسلوكاتها وأقوالها من «رسائل» يقوم بناء الرواية الشكلي لخدمتها، أي يتمّ استخدامه في توصيلها إلى القارئ بصورة درامية لا تشبه البحث العلمي ولا تتخذ شكل الوعظ أو العمل الإرشادي، كما إنها تبتعد عن إصدار أوامر النهي والحضّ ونصائح القبول وما يتبعها من طرق ترغيب وترهيب تأخذ بها مجالات معرفية أخرى كالتربية والتعليم بأنواع مجالاتهما المختلفة.

النسق السوي في الدراسة التحليلية هو ما يمكن الوصول إليه من استخراج «دعائم الفكرة» أو الأفكار الأساسية في العمل الإبداعي أو المنتَج البحثي، لمقاربته إلى ما تحقق في مجاله من أطروحات، بغرض تصحيح ما ينطوي عليه العمل من «أغلاط» صاحبه أو تجاوزاته والمخالفات المنطقية والعلمية والمعلوماتية التي ارتكبها -قصداً أو عن غير قصد- في أثناء صياغة أفكاره الكبرى، أي التي أقام عليها عمله الإبداعي. يضاف إلى هذا ما يشكّله ذلك الإجراء من اعتماد الناقد التحليلي على ذلك في تصحيح النسق الخاص لكل فكرة أو تسويتها، ثم تسوية النسق العام لمجموع الأفكار في الموضوع المبحوث، بحيث يشكّل ذلك إعداداً منطقياً لنقدها وبيان بدائلها، وهو الجزء الثاني من العملية التحليلية النقدية.

ولذا فإنّ الناقد المتخصص، سواء في الأدب وعلوم الاجتماع والنفس والفيزيولوجيا والفلسفة أو غيرها، يمكن أن يلاحظ اختلال «البناء الوظيفي» عند أي مؤلف خلال ساعات قليلة من قراءة مختارات من العمل الذي يريد دراسته. فالخبير في تاريخ قضايا الشعر وأوزانه وقواعده وموضوعاته يدرك ببساطة عدمَ وجود ثقافة ودربة مرموقتين في أي عمل شعري بعد تقليب قراءته وتصفّح بضع عشرات من المواضع فيه.

وكذا يمكن لمختصّ في الفيزياء أن يلاحظ عدمَ معرفة بعض المؤلفين آخرَ ما صدر في هذا العلم، بعد أن يقرأ كلامه حول الطبيعة وموجوداتها ومصير البيئة النباتية أو الحيوانية، نتيجة ازدياد التلوث بنواتج الاحتراق وارتفاع نسبة ثاني أكسيد الكربون بالنسبة للأوكسجين، على سبيل المثال.

يمكنني أخيراً أن أشير إلى أنّ الطريقة التحليلية النقدية قابلة للتطبيق في مجالات معرفية كثيرة أخرى، وتجد نموذجات لذلك في ما كتبته أيضاً عن تواريخ الأديان المقارنة وعن الأنثروبولوجيا الدبلوماسية، وما أجريته من مقاربات في الفكر الصوفي والعلوم الاجتماعية.

صفحات من النشاط الثقافي

أحمد الحسين ❁

وزيرة الثقافة تكريس ثقافة الحوار:

أقامت وزارة الثقافة السورية في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق فعاليات ندوة «الحوار الوطني من أجل سورية» بمشاركة نخبة من الشخصيات الثقافية والأدبية.

وقالت وزيرة الثقافة الدكتورة لبانة مشوّح في كلمة لها خلال الافتتاح: إنَّ موضوع الحوار الوطني بات اليوم أكثر إلحاحا وأهمية كي تبحث سورية في دور المثقف في هذا الحوار وفي أهمية تكريس ثقافة الحوار وسيلة للتقارب وسبيلا لتفادي انحرافات التعصب التي تؤجج المشاعر السلبية وتفضي لنزاعات مدمرة.

وأضافت وزيرة الثقافة: نجتمع اليوم في هذا الصرح الثقافي إدراكاً منا جميعا لأهمية الحوار «كوسيلة للتقارب والتفاهم للخروج برؤى لحل الأزمة» التي يعيشها وطننا الغالي وتعبيراً عن رغبة صادقة برؤية «حراك ثقافي مثمر يبدد ظلمات الجهل ويسهم في تحقيق التواصل بين أبناء الوطن الواحد» أملاً في مستقبل نريده مشرقا لوطننا الحبيب وشعبنا العظيم.

وتابعت الدكتورة مشوّح قد يرى البعض أن مفهوم الحوار والانفتاح على الآخر وتقبله على اختلافه مفهوم جديد على ثقافتنا العربية لكننا «أبناء سورية العظيمة أرض البطولات والتاريخ المشرف منبع الأبجدية والفنون.. سورية التي وصلت الشرق بالغرب وصدرت الفكر والإبداع منذ آلاف السنين» نحن السوريين من وقف في وجه «الغزاة والمحتلين وصد المغول والصليبيين وسطر ملاحم البطولة ضد المستعمر الفرنسي

❁ أديب وباحث في التراث العربي من (سورية).

والصهاينة المعتدين» فكيف لنا نحن بناة الحضارة أن نرفض التحاور فيما بيننا وهل يمكن لحضارة أن تبنى من دون حوار.

واعتبرت مشوّح أنه من المحزن أن نجتمع ووطننا يمر بأوقات عصيبة فالجرائم «ترتكب بحق شعبنا وتدمر بنانا التحتية ويعتدى على تراثنا وما يمثله من قيم حضارية أثرت الفكر والإبداع الإنساني» بينما يقف العالم «متفرجاً باكياً مؤججاً للفتنة».

ورأت الدكتورة مشوّح أن المطلوب في هذه المرحلة «سلوك الطريق الوطني العريض» تحت سماء الوطن الواسعة في هذه الأرض الطيبة الجامعة «لبناء منظومة اجتماعية تقوم على ثقافة المواطنة التي يتقدم فيها الولاء للوطن على أي ولاء آخر».

ودعت وزيرة الثقافة المثقفين جميعاً لممارسة دورهم كاملاً في «إعادة بناء الأخلاق وتنمية الوعي المجتمعي العام بتعزيز الانتماء الوطني والتمسك بالهوية والوحدة الوطنية وتحصين الفكر ضد انحرافات التعصب والتغييب والإقصاء» حفاظاً على نسيج وطني منيع مشيرة إلى أنَّ الحوار الوطني الناجح لا يكون إلا بتضافر جهود قادة الرأي من مثقفين وأدباء ومفكرين وسياسيين وإعلاميين ورجال دين للوصول إلى التصالح مع الذات والآخر وإلى السكينة والسلام، مشيرة إلى أن ندوة الحوار الوطني من أجل سورية يمكن أن «تؤسس لرؤى وأفكار وآراء تمهد الطريق لبناء وطن سليم آمن مزدهر فما زالت في الأفق صفحات بيضاء نستطيع أن نخط عليها كلمات التسامح والمحبة والتلاقي».

بدوره قال حسين جمعة رئيس اتحاد الكتاب العرب إنه من المهم أن يتنادى المثقفون والأدباء وأبناء الأمة إلى طاولة حوار ليناقشوا كل ما يعنيهم في واقعهم وحاضرهم ومستقبلهم وليقرؤوا ذلك قراءة ذاتية وموضوعية منهجية وعلمية بغية «صياغة عقد اجتماعي يفيض بالأمل والمحبة».

وأوضح رئيس اتحاد الكتّاب العرب أن على «المثقفين والكتّاب أن يواجهوا الحقيقة بعيداً عن التغني بالمصطلحات التي لم يعد لها موقع في حياتنا وثقافتنا» فالمثقف فوق أي تصنيف إلا تصنيف من ينضم إلى خدمة قضاياه النضالية وقضايا مجتمعه وأمته.

من جهته قال أنور رجا مسؤول الإعلام في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين القيادة العامة في كلمة المشاركين..«لا يولد الحرف ولا ينمو العقل إلا بفعل المثاقفة والحوار الذي يترتب عليه مكاشفة وشفافية على قاعدة الرأي قبل شجاعة الشجعان» فلا معنى للحوارات المسترخية على طاولات بعيدة لأنَّ التجارب التي خاضتها أميركا

والصهيونيــة والغرب جعلتهــم يدركون أن «رأســ سورية عصي علــى أعدائه لاسيما أن الدعــوات للتطرف والقتل والذبح أثبتت فشلهــا» وتبدّى عارها متجلياً في قطع رأس تمثــال أبي العــلاء المعري، ودعــا رجا إلى الخروج من «ثقافة الغزو والغواية إلى ثقافة المحبة والحوار» لتلافي ما يرمي إليه الآخرون في تجديد اتفاقية سايكســ بيكو والخروج من أزمة الوعي وسطوة الإعلام الذي كرس في سوريــة فكرة المــوالاة والمعارضة مفسراً الانتماء بالموالاة ومن شذوا على الانتماء هم المعارضة المصطنعة وقادتها في الغرب.

وتحت عنوان «الأزمة السورية والمثقف» قدمت الكاتبة كوليت خوري مداخلة تحدثت فيها عن الأزمــة في سورية ودور المثقف في شرح واقــع الأزمة مقدمــة تعريفاً للمثقف الحقيقــي ومبينة الفارق بين العلم والثقافة والعالم والمثقف وحتمية كون المثقف صاحب أخلاق حميدة.

أمَّــا الدكتــور أشرف بيومــي من مصر فشــارك بمحاضرة تحدث فيهــا عن أبعاد التآمــر على سورية ومــدى خطورة نتائجه على الأمة العربية كلها لافتاً إلى أن «موقف الكثــير من المثقفــين العرب هــو إمَّا عدم الاكــتراث وانتظار ماتحضــره الأحداث أو اتخاذ موقف معاد للدولة والوطن السوري»، وبحث بيومــي في العوامــل والأدوات التي أدت إلى هــذا التحــول الخطير والذي نرى نتائجــه ليســ فقــط بالنسبــة للأزمة في سوريــة بل أيضــاً في دول ما يسمى «الربيع العربي» مناقشاً كيفية مواجهة قوى الهيمنة الأجنبية في محاولاتهــا المستمرة «لإضعاف الدولة الوطنية والتمهيــد الحثيث لتحقيق الهــدف الأكبر وهو المشروع الشرق أوسطي» بأبعــاده السياسيــة والاقتصادية والثقافية الجديدة.[1]

فيلم عن الشاعر عبد الوهاب البياتي:

تجري استعــدادات أوليــة لإنتاج فيلم سينمائــي وثائقي عن الشاعر العراقي عبد الوهاب البياتي ضمن مشروع بغداد عاصمة للثقافــة العربيــة، إعــداد الكاتــب فاروق محمــد، وسيتصدى لإخراجــه المخرج نزار شهيد الفدعم، ويعــد هذا الفيلم الأوَّل عن الشاعر الذي توفي عام ١٩٩٩ عن ٧٣ عاماً، حيث يعد واحداً من أربعة أسهموا في تأسيس مدرســة الشعر العربــي الجديد في العراق (روّاد الشعــر الحر) وهم على التوالي نازك الملائكة وبدر شاكر السياب وشاذل طاقة.

قــال الكاتــب فاروق محمــد: عن عبد الوهاب البياتي صــدرت كتب ولكن لم ينتج عنه فيلــم وثائقــي أو تسجيلي يــؤرخ فيه تاريخ حياة هــذا الشاعر الكبــير وما قدم من نتاج أدبي، والبياتي يعــد شاعراً عالمياً

لأنــه دواوينه الشعريــة ترجمت إلى العديد من اللغات العالمية فضــلاً عن كون شهرته عالمية فعلاً، وهو من جيــل السياب ونازك الملائكة، أصحاب التجديد في الشعر، وليس ابتــكار الشعر الحر فقــط، فهناك تجديد فكري كما نعرف للشعر، مؤكداً أنه لم يتناول كل تفاصيل حياة البياتي، لأن حياته طويلة وتنقلاته كثيرة ودواوين شعره عديدة، هو ليس مسلسلاً تلفزيونياً كي أذكر به كل التفاصيل، بل تناولت لمحــات مهمة وقبســات مؤثرة، وختــم حديثه بالقول: وجــدت أن الرجل لم يكتب عنــه أحد بتفصيل، وهــو منسيّ من بعض الجهات، فهنــاك أجيال من الشباب لا يعرفونه مثلما يعرفون السياب على سبيل المثال، على الرغم من المساحة الزمنية التي عاشها وعلى الرغم مــن المسافة الإبداعية التي قدمها.[٢]

اكتشاف ٣٥ هرماً في السودان:

كشــف علمــاء الآثــار حلقــة ربط بين الحضارة الفرعونية وحضارة السودان حيث وجــدوا ٣٥ هرماً يعود تاريخها إلى أكثر من ٣٠٠٠ عام في منطقة شمال الخرطوم.

واكتشف فريق الباحثين أوّل الأهرامات في عــام ٢٠٠٩م وفي عام ٢٠١١م وصل عدد الأهرامات المكتشفة إلى ١٣ هرماً، انصرف لدراستها خــبراء الآثار من القسم الفرنسي بمديرية الآثار بالســودان، ومع حلول نهاية عام ٢٠١٢م وصــل عدد الأهرامات إلى ٣٥ هرماً.

وقــد وجــدت الأهرامــات في منطقة واحــدة تبلغ مساحتهــا ٥٠٠ متر مربع، وتمَّ بناؤهــا بترتيب معــين، إلا أنهــا قامت في منطقة كانت معبراً للقوافل، وردمتها الرمال فأخفتها عن الأعين، ما أدى لتدمير قطعان الجمــال للكثــير منها، فضلاً عــن تأثرها بعوامل التعرية وتقلبات الطقس.

وتعــد الأهرامات الموجــودة أصغر من الأهرامات المصرية إلا أنها تشبهها ولم تسلم قممها من الاندثار ويرجح علماء الآثار أنَّها كانت على أشكال مختلفة مثل زهرة اللوتس، أو علــى شكل طيور وأيضــاً الشمس، وعثر المنقبــون على العديد من الآثــار بجوارها، وعلى غرف لدفــن الموتى بقيت فارغة بعد أن نهبــت على مــر القرون، مــا يرجح أن المنطقة المحتضنة للأهرامات كانت مقابر منذ أكثر من ألفي سنة.

ويقــول فنسنت فرانسيغنــي عالم الآثار من المتحــف الأمريكي للعلوم الطبيعية: «إن كثافة توضع الأهرامــات تدل على أن هذه المقبرة امتــدت على مدى فــترة طويلة من الزمن واستغرقت الكثير من الوقت فتشييد الأهرامات دام لعدة قرون».

ويبلــغ الطــول العرضــي لأكــبر هذه الأهرامات مــا يقارب ٦,٧ أمتار وأصغرها

يقارب ٧٦ سنتمتراً، ووجد المنقبون في أحد الأهرامات أكثر من ١٥٠٠ خرزة ولوح حجري يحمل نقشاً للإله «أنوبيس» مع رأس حيوان.

ويعود بناء هذه الأهرامات إلى عصر قيام مملكة كوش القديمة التي ظهرت في المنطقة الممتدة بين الحدود الجنوبية لمصر وشمال السودان حالياً وكانت قوة عظمى بين القرنين الثامن والرابع قبل الميلاد وحكمت مصر لقرن ونيف، وأصبحت فيما بعد جزءاً من الإمبراطورية الرومانية. وتتركز أهمية هذا الاكتشاف بكونه إثباتاً ملموساً عن توارث حضارة الفراعنة وانتقالها جنوباً إلى السودان.[٣]

مركز الخطوط يوثق النقوش الأثرية:

أقام مركز الخطوط بمكتبة الإسكندرية ندوة بعنوان «الأديرة القبطية- النقوش الأثرية». تحدث فيها كل من الدكتور يوحنا نسيم يوسف، كبير باحثين بمركز الدراسات المسيحية المبكرة في الجامعة الكاثوليكية بأستراليا، والدكتور عاطف نجيب؛ مدير عام متحف آثار أسوان.

وقدم أحمد منصور نائب مدير مركز دراسات الكتابات والخطوط بمكتبة الإسكندرية، عرضاً لاهتمام المركز بمجال توثيق النقوش والكتابات القديمة بمختلف أنواعها، وركز على نشاط المركز في توثيق ودراسة النقوش والكتابات القبطية في مصر.

وأشار إلى أن عام ٢٠١٠م يمثل خطوة هامة لمركز دراسات الخطوط والكتابات بالدراسات القبطية، حيث جاء تنظيم المؤتمر الدولي الأوَّل للدراسات القبطية تحت عنوان: «الحياة في مصر خلال العصر القبطي...المدن والقرى، رجال القانون والدين، الأساقفة»، مضيفاً إن مركز الخطوط يعلن عن عقد ورشة عمل لتدريب الأثريين والباحثين في مجال الدراسات القبطية على قراءة النقوش القبطية سواء على الأوستراكا أو البرديات، مما يسهم في رفع مستوى البحث العلمي في مجال النقوش القبطية. وسوف تعقد الورشة بالتعاون مع جامعة أيوا الأميركية، والبعثة الأثرية العاملة في الدير الأحمر بسوهاج.

وألقى الدكتور يوحنا نسيم يوس محاضرة بعنوان «الكتابات والنقوش في الأديرة المصرية: من الإسكندرية إلى الفيوم، عرض خلالها اللهجات القبطية المختلفة كاللهجة الصعيدية والبحيرية، وشرح معنى كلمة دير والمعاني العديدة التي تحملها هذه الكلمة فقد تستخدم بمعنى بلدة أو مقابر أو بمعناها الأشهر مسكن للرهبان والراهبات، حيث كان أول ذكر لها في القرن ١٢ الميلادي،

وأشـــار إلى ازدهار الحياة الديرية في مدينة الإسكندريـــة وضواحيها، حيث ذكرت بعض المصـــادر أنَّ عـــدد الأديـــرة أو التجمعـــات الرهبانيـــة فيها وصـــل إلى ٣٠٠ دير، وإن لم يكن الرقم دقيقاً فإنه على الأقل يؤكد كثرة الأديرة بالمدينـــة ومحيطها، وتطرق الباحث في محاضرتـــه إلى منطقة كيليـــا (القلالي)، القريبة من النوبارية، التي اكتشفت في عام ١٩٦٤م؛ وهي ثاني أقـــدم تجمع رهباني في العـــالم حيث بدأت الحياة الرهبانية فيها في منتصف القرن الرابع الميلادي ووصل عدد رهبانها إلى ٦٠٠ راهـــب، كما تحدث حول منطقة وادي النطـــرون التي أنشئت الحياة الرهبانية فيها علـــى يد القديس مكاريوس الكبير، وتعرض الباحـــث كذلك للعديد من الأديـــرة القبطية في تلـــك المنطقة كدير أبو مقار، ديـــر الأنبا بيشوي، دير السريان ودير البراموســـ، والتي عثر فيها على العديد من النقوش التي كتبت بلغات مختلفة كالقبطية، اليونانيـــة، السريانيـــة والعربيـــة، واختتـــم محاضرته بأمثلة من دير الأنبا أرميا بسقارة التي عـــثر فيه على كتابـــات على الخشب، الشاقافـــات والأحجـــار كتبـــت بالقبطي، اليوناني والعربي.

ثم ألقى الدكتور عاطف نجيب محاضرة بعنوان «الكتابات الجدارية في مواقع الآثار القبطيـــة بالنوبة وصعيد مصر»، تناول فيها الآثـــار المسيحية التي عـــثر عليها في مقابر البجـــوات بالـــوادي الجديد؛ وهـــي جبانة مسيحيـــة يرجع تاريخهـــا إلى القرن الثاني حتى السابـــع الميلادي، تحتـــوي على ٢٦٣ هيـــكلاً زخرت بمناظر مختلفـــة من التوراة إضافة إلى المناظر المسيحية.

وعثر في العشـــرات من تلك المقابر على الكثير من الكتابـــات المختلفـــة كاليونانية، القبطية والعربية. وتناول الباحث أمثلة من مزار السلام وهـــو من أهم العناصر الأثرية الموجودة بمنطقة البجوات.

وانتقـــل الباحـــث إلى الحديث عن مثال آخر وهو ديـــر القديس أقلاديوس بأسنا ثم دير الأنبـــا متاؤس الفاخوري الذي عثر فيه على أحد أهـــم اللوحات التي تحمل رسوماً لأنبيـــاء من العهد القديم كتـــب بجانب كل منهـــم اسمه.كما تحدث الباحـــث عن أحد النصوص التي عثر عليها بدير الأنبا متاؤس الفاخوري والتـــي كتبت باليونانية والقبطية الصعيدية مـــا يعني أنَّ «الفنـــان الذي قام بتلـــك الرسومات هو راهب مـــن دير الأنبا شنودة بأخميم». وتطرق الحديث كذلك إلى تمثال وجد بمنشوبيـــة (مكان صغير لتجمع الرهبان) غـــرب أسنا فيه نص يذكر أسماء قديســـي الوجه البحري والقبلـــي بدءًا من الأنبا أرميا بسقارة إلى أبيدوس.

وتناولت المحاضرة النقوش التي عثر عليها

بمملكة النوبة المسيحية التي تحولت إلى الإسلام عام ١٣٢٤م، وبدأ الحديث بإعطاء أمثلة من دير قبة الهوى بأسوان والتي من أهمها النص الذي يحمل اسم البطريرك يعقوب الذي عاش بالقرن التاسع الميلادي، وتطرق الباحث إلى أمثلة لكتابات من دير الأنبا هدرا بأسوان الذي عثر فيه على كتابات تنوعت لغتها ما بين يونانية، نوبية وعربية. وتناول أيضاً نصّاً وُجد بكنيسة المضيق كُتب بالقبطية والنوبية، وأخيراً ختم الباحث محاضرته بالحديث عن نص معبد وادي السبوع؛ وهو عبارة عن قائمة بأسماء أساقفة فرس تحوي أسماء ٢٨ أسقفاً، الأمر الذي يجعلها أكبر قائمة بأسماء أساقفة عثر عليها في مصر القبطية.[٤]

اكتشافات أثرية في شبه الجزيرة العربية:

أظهرت مجموعة اكتشافات أثرية حديثة في شبه الجزيرة العربية دليلاً يشير إلى وجود حضارة تاريخية كانت تتمركز في قلب الصحراء القاحلة الآن، تتيح دليلاً على وجود حضارة ازدهرت قبل آلاف السنين فضلاً عن كونها أثارت الشغف العلمي بشأن الإنسان وتطور عملية تدجين الحيوان، حيث استطاع علماء الآثار الكشف عن نحو ٣٠٠ قطعة أثرية حجرية في منطقة المغار السعودية من بينها أدوات مصنوعة من الحجارة ورؤوس سهام ومكاشط صغيرة وعدد من تماثيل الحيوانات من بينها منحوتات لخراف وماعز ونعام، إضافة لتمثال حجري كبير يجسد حيوان «ايكيد» أحد الحيوانات التي تنتمي لفصيلة الخيليات حظي باهتمام واسع بين علماء الحياة والآثار.

وأكد الأثريون أهمية هذه الاكتشافات التي يعود عمرها إلى تسعة آلاف عام، مايشير إلى أن هذه المنطقة قد تمثل مهد ميلاد حضارة متقدمة تعود لفترة ما قبل التاريخ شهدت تدجين الحيوانات، لاسيما الخيول، للمرة الأولى خلال العصر الحجري.

وقال مايكل بيتراغليا، أستاذ علوم تطور الإنسان وعصر ما قبل التاريخ في جامعة أكسفورد وأحد العاملين في بحوث الكربون المشع، إنَّ تاريخ الموقع يعود لفترة تسبق بكثير ما كان متوقعاً، كما يبرز فترات التأرجح بين فترات الرطوبة والجفاف في شبه الجزيرة العربية، وأضاف بأن الأثر الذي تمَّ اكتشافه للخيول يعود إلى فترة الرطوبة في شبه الجزيرة العربية.

واكتشف العلماء، من خلال تتبع أدوات حجرية أخرى مثل المكاشط التي يقدر تاريخها بأكثر من ٥٠ ألف سنة، أن الموقع كان مألوفاً لاستقرار الإنسان على مدى آلاف السنين، ويرجع ذلك إلى حد ما إلى الطبيعة

الطبوغرافيــة (السمــات التضاريسية) أو الأرض، وقال مايكل بيتراغليا «كانت المنطقة تقع على ضفــاف النهر. وعاش الإنسان في هذه المنطقة قبــل أن يداهمها التصحر أو قبل تغير المناخ الشديد الذي انتهى بظروف جفاف قاسية وتنامــي مساحة الصحراء»، مشيراً إلى أن هــذه الاكتشافات تبرز دلائل بالغــة الأهمية تتعلــق بالتجــارة والهجرة والطقوس.[٥]

ثلاثــون ألــف كتــاب في دار فارغاس يوسا:

أعلنــت وزارة الثقافة البيرونية أن الدار الأثرية في مدينة أريكيبــا أصبحت جاهزة لاستقبال نحو ٣٠ ألف كتاب تبرع بها الكاتب البــيروني الحاصل على جائــزة نوبل ماريو فارغاس، من بينها أرشيفه الشخصي الذي سيتم تسليمه للــدار بعد وفاته, إضافة إلى كتبه القادمة مــن مكتباته الخاصة بمدريد وباريس وليما

وأشارت الوزارة إلى أن الدار التي ستضم كذلــك جميــع البحــوث التــي كتبت حول أعمال يوسا الإبداعيــة ستكون مفتوحة في وجه السياح الذين سيزورون مدينة أريكيبا، متوقعــة أن يــزور هذه الدار التــي اقتنتها الحكومة الإقليمية بمليون و٩٤٥ ألف دولار حوالى ٦٤٩ ألف سائح سنوياً.

وأفــادت الوزارة بــأنَّ الــدار التي تبلغ مساحتها ١٤٥٣ متراً مربعاً وتضم ١٤ غرفة وثلاثــة فنــاءات وأقواس، تعــود إلى القرن الثامن عشــر وكانت في ملكية أسر مهمة في أريكيبا قبــل أن تنتقل ملكيتهــا إلى ثانوية كاثوليكية، وتضمنت المرحلة الأولى من الدار استثمــار ٢٣٦ ألــف دولار ستوجه للصيانة وللحفاظ على هذه الدار الأثرية.

يشــار إلى أن فارغاس ولــد في أريكيبا جنــوب البــيرو في ٢٨ آذار/مارس ١٩٣٦م ونشأ مــع والدتــه وجديــه في كوتشابامبا في بوليفيــا ثم في البــيرو. وبعدما درس في الأكاديميــة العسكرية ليونثيو برادو في ليما حاز شهادة في الآداب من جامعة سان ماركو في ليمــا ثم حصــل على منحــة مكنته من مواصلة دراساتــه حتى حصل على دكتوراه من مدريد.

وعمــل يوســا بــين ١٩٥٩ و١٩٦٠م في القســم الإسبــاني لمكتب وكالــة الصحافة الفرنسيــة في باريس قبــل أن ينجز الرواية التي اكتسب شهرة بعدها «المدينة والكلاب» التي تجري أحداثها في مدرسة عسكرية في ليما، وترشح يوســا في ١٩٩٠م للانتخابات الرئاسية عن يمــين الوسط على الرغم من انخراطه في شبابه في تيار سياسي يساري.

وقــد صعد نجــم بارغاس يوســا سماء العالمية عام ١٩٦٦م بعــد نشر روايته «زمن البطل» التي تدور أحداثها حول عملية قتل

في أكاديمية عسكرية، ومن بين أشهر روايات بارغاس يوسا «ألاعيب الطفلة المشاغبة» عام ٢٠٠٦م و«زمن البطل» عام ١٩٦٢م و«حفلة التيس» عام ٢٠٠٠م، وتستند أعمال يوسا إلى خبرته في الحياة في بيرو في أواخر الأربعينيات والخمسينيات، وقد ترجم إنتاج فارغاس يوسا الذي يضم حوالى ثلاثين عملاً بين الرواية والدراسة والمجموعة القصصية والمسرح في العالم بأسره.

يرى فارغاس أنَّ على الكاتب التزاماً أخلاقياً يقضي بأن ينخرط في الحياة المدنية وأحياناً في السياسة أيضاً، وخلال مساره المهني المديد الذي أخذه إلى أماكن مختلفة، لم يكف فارغاس يوسا إلا نادرا عن الكتابة مازجا «الانضباط» و«الفضول» وهما صفتان يعدهما أساسيتين لأي كاتب، ويرى أنه محظوظ جدّاً لأنه حظي بفرصة رائعة حيث كرس معظم وقته لممارسة النشاطين الأحب بالنسبة إليه ألا وهما الكتابة والقراءة.[٦]

كنز القصائد بقي تحت وسادة الشاعر:

تمَّ العثور مؤخراً على مجموعة تضم أكثر من ٥٠ قصيدة غير منشورة للكاتب البريطاني روديارد كيبلينغ صاحب «كتاب الغاب»، وقد صدرت عن دار النشر التابعة لجامعة كامبريدج على ماورد على موقعها الإلكتروني.

وكانت الوثائق التي جمعها الأستاذ الجامعي الأميركي توماس بيني موجودة في الولايات المتحدة وموزعة في أماكن عدة منها منزل في مانهاتن في مدينة نيويورك حيث عثر على قصائد خلال أشغال ترميم في المكان.

وقال توماس بيني في بيان صادر عن «كامبريدج يونيفيرستي برس» أن «الباحثين الجامعيين لطالما أهملوا أعمال كيبلينغ لأسباب سياسية على الأرجح»، وأضاف «ثمة كنز غير مقدر على مستواه الحقيقي مؤلف من أعمال غير منشورة وغير مكتشفة» أن الأمر يشكل «مرحلة مشوقة جدّاً للباحثين ولمحبي كيبلينغ».

وتحمل هذه القصائد غير المنشورة عناوين مثل «الصحافة» و«عبر جبالنا الشمالية العالية» وتتناول مواضيع مختلفة من عيد ميلاد في نيويورك إلى الحرب العالمية الأولى التي قضى فيها نجل الكاتب جون في سن الثامنة عشرة، وتنشر هذه القصائد في المجموعة الكاملة لشعر روديارد كيبلينغ الصادرة في أجزاء ثلاثة عن دار النشر التابعة لجامعة كامبريدج، «كامبريدج يونيفيرستي برس».

ولـد روديارد كيبلينغ العـام ١٨٦٥م في بومباي في الهند وعاش لسنوات في فيرمونت في شمـال شرق الولايـات المتحدة.وفي سن الثانيـة والأربعـين كان أوّل كاتـب باللغـة الإنكليزيـة يحصل على نوبل للآداب. وكان مدافعاً كبيراً عـن الإمبراطورية البريطانية وهو من محبي اللغة الفرنسية وكتابات جول فيرن.[٧]

وفاة ريزو، مصوّر بيكاسو:

رحـل المصـوّر الشهير ويلـي ريزو عن عمـر يناهـز ٨٤ عاماً، وهو الـذي ارتبط اسمه بصور بابلـو بيكاسو، وسلفادور دالي، ومارلين مونرو، وغيرهم من بين العديد من أسماء نجـوم هوليوود، والمشاهير من جميع أنحاء العالم.

ولـد ويلـي ريـزو (١٩٢٨-٢٠١٣م) في نابولي بإيطاليا، وعندما كان طالباً لم يتجاوز عمـره ١٢ عامـاً، في المدرسـة الإيطالية «سيديلـوت ستريت» بباريس، التقط العديد من الصـور لزملائـه في الصـف بكاميرا «أغفـا بوكس» التي كانـت أعطتها له أمه. وبدأ مسيرته في العاصمة الفرنسية باريس، حيث عمل مصـوراً للنجوم لحساب «وورلد سينما»، وسافـر إلى تونس لالتقاط الصور في أعقاب الصـراع في شمال أفريقيا لمجلّة «بونت دو فو».

واستطاعت عدسة ويلي ريزو أن تلتقط أوّل صورة ملونـة لرئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل (١٨٧٤- ١٩٦٥م)، ونشرها في مجلـة «باري ماتش». ومع ذلك، فقد نال الشهرة والصيـت العالمي عن طريق الصور التـي التقطها لنجوم هوليـوود، والفنانين، وعروض دور الأزياء.

واشتهـر ريزو الـذي أُطلـق عليه اسم «صائـد النجوم»، و«اللـورد الكبير»، خلال أعوام الخمسينيات والستينيات، عن طريق تصويره الملوك، وعارضات الأزياء، والممثلين، ونجوم مهرجان كان وهوليوود، ومن بين أبرز النجوم والمشاهـير الذين وقفوا أمام كاميرا ريزو الممثلة مارلين مونرو، والرسام العبقري بابلو بيكاسو، والرسـام السوريالي سلفادور دالي، والنجمـة بريجيـت بـاردو، والممثلة والمغنية مارلين ديتريش، والممثل السينمائي جـاك نيكلسـون، والراقصـ والمغني جين كيلي، والممثلة والكاتبة والناشطة السياسية جين فوندا.

وخـلال سنوات ما بعد الحرب، انجذب ويلـي ريزو إلى حيـاة المشاهير في الولايات المتحـدة الأمريكيـة، وإلى عـالم نجـوم كاليفورنيا، وقرّر السفر إلى نيويورك للعمل لحسـاب وكالـة «بلاك ستـار». وتمكن في سنوات ما بعد الحرب مـن التقاط الصور وكتابة التقارير عن أساطير هوليوود، أمثال غريغـوري بيـك، وغاري كوبـر، وبريجيت

بـــاردو، وصوفيـــا لورين، ومارلـــين مونرو، وأودري هيبـــورن، وجين فوندا، وجين كيلي، وفريد آستر، الذيـــن قادتهم أرجلهم جميعاً للوقوف أمام عدسته الشهيرة، ولينجز أشهر الصـــور لنجـــوم هوليوود، ما بـــين الأعوام ١٩٤٥- ١٩٧٠م.

عقب زواجه من الممثلة إيلسا مارتينيلي في ١٩٦٨م، قـــرّر ويلي ريزو العودة إلى روما والبدء بالعمـــل في مجال التصميم، لحاجته الشخصيـــة في بـــادئ الأمر.غـــير أن تأثره بالأسماء الكبيرة والمعروفة في عالم التصميم، مثل «لي كوربيسير»، دفعه للعمل من أجل أن تكون لديه مجموعة أعمال خاصة به، وكان أن أنشـــأ شركة ضمّـــت ١٥٠ موظفاً. وبعد مرور عقدٍ من الزمن، عاد إلى فرنسا ليمارس المهنة التي عشقها مذ كان صغيراً، ألا وهي التصوير.[٨]

إحالات

١- وكالة الأنباء العربية السورية «سانا» WWW.SANA.ORG.

٢- موقع إيلاف WWW.ELAPH.COM.

٣- أنباء موسكو /نوفوش AR.RIAN.RU.

٤- وكالة أنباء الشرق الأوسط WWW.MENA.ORG.EG.

٥- موقع بي بي سي WWW.BBC.CO.UK/ARABIC

٦- موقع ميدل إيست أون لاين WWW.MIDDLE-EAST0ONLINE.CO.

٧- شبكة المعلومات العربية المحيط WWW.MOHEET.COM.

٨- موقع البوابة WWW.ALBAWABA.COM.

كتاب الشهر

متعَة المتخيَّل
عالم فسيح من جنون الإبداع

د. إسماعيل مروة ❁

هل عرفنا تفاصيل رحلة الإبداع الروائي لدى المبدعين؟ وهل وصلنا إلى سر النجاح الذي حققه هذا المبدع أو ذاك؟ ماذا نعرف عن الإخفاقات والنجاحات؟ متى يصل المبدع إلى لحظة الألق؟ ومتى يصل إلى حافة الانهيار لينهي حياته بنفسه؟ نجومية المبدع وآليات تحققها، الأثمان التي يدفعها المبدع في رحلته الإبداعية، قراءة المبدع لماهية الإبداع الروائي، ثم تقييمه لمنجزه الروائي، ما تحمله الأعمال الروائية من تحديات للذات والمحيط والإبداع، الغاية النهائية من العمل الروائي فنياً وفكرياً.

أسئلة وقضايا يقف عندها الباحث مطولاً، ويحار أمامها القارئ، وخاصة إن بقي على حدود النص الروائي ولم يدخل في ثنايا حياة الروائي، أو إذا كان الروائي

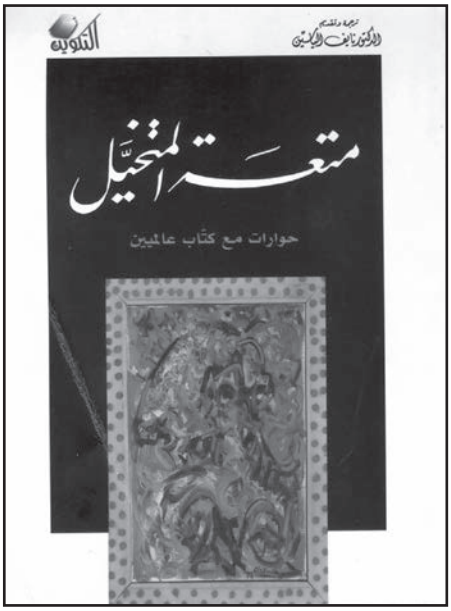

عالماً مغلقاً، وفي أحسن الحالات إن لم يسمح المبدع بدخول الناقد في تفاصيل حياته ورؤيته الإبداعية.

أبدع مبدعونا ورحلوا، ولا يزال بعضهم

❁ كاتب وأديب وشاعر وأستاذ جامعي.

على قيد الحياة، ونحن نجهل منابعهم الحقيقية، ودوافعهم المحفزة لإنجاز هذا الإبداع المتميز من كل الجوانب، بل إن بعضهم يخفي إخفاقاته ليبدو مارداً وناجحاً على الدوام، متناسياً أن إخفاء هذه الإخفاقات يعني ضياع كمّ من القيمة الإبداعية لما جادت به قريحته وسط مؤثرات عامة وخاصة.

التخيل بين المتعة والقراءة

قرأنا روايات الكتَّاب العالميين، وتغنى القرَّاء والنقاد بالشيخ والبحر لهمنغواي، ومئة عام من العزلة وخريف البطريرك لماركيز، وبأعمال أخرى لكتَّاب من الصف الأوَّل على المستوى العالمي ولكن هذه المتعة في القراءة، والفوائد التي جنيناها من قراءة هذه الأعمال الروائية، كيف تحققت؟ ومن أين جاءت؟ وكيف تراكمت وتراكبت؟ وهل كان النجاح هو في لحظة وقوع العمل الروائي بين القرَّاء؟

إنَّ سبل تحقق العالمية والذيوع ليست سهلة، حتى لأولئك الذين ينتمون إلى غير العالم العربي، وهنا لا استثناء بين غرب وشرق، أميركي ولاتيني.

فالحكم بالذيوع والعالمية وصل إلى كل هذه الأصقاع، واستثنى العالم العربي النائم على تاريخ طويل فردي وجمعي أعاق التحليق في آفاق الإبداع العالمي، وحرم المبدعين المشاركة في تكوين جوهر الرواية العالمية، وينبئنا عن ذلك الثورة العالمية في الرواية، فكراً وفناً وحجماً، والتي كانت من أميركا اللاتينية لتحرك المياه الراكدة في الرواية العالمية التقليدية.

إنَّ ما نقرؤه من شذرات هنا وهناك عن همنغواي أو فوكنر أو كونديرا أو يوسا، تعطينا فكرة محددة عن عمل ما، أو عن مرحلة محددة تطول أو تقصر، لكنها تبقى على هامش العملية الإبداعية الروائية.

«متعة المتخيّل» كتاب يجمع حوارات لعدد من أهم الكتَّاب العالميين في عالم المتخيل من العالم الروائي ترجمه وحرره الدكتور نايف الياسين، وصدر عن دار التكوين في دمشق، وهذا الكتاب الذي يجمع حوارات لاثني عشر كاتباً عالمياً هم «أرنست همنغواي، وليم فوكنر، جون شتاينبك، فلاديمير نابوكوف، توني موريسون، مايا آنجيلو، غابرييل غارسيا ماركيز، أوكتافيوباز، ماريوفارغاس يوسا، آلان روب غربيه، غونترغراس، ميلان كونديرا» من الأهمية بمكان، فهو يقدم سيرة مختصرة للكاتب الروائي قبل أن ندلف معه إلى حوار، هذا الحوار يشكل منجماً حقيقياً في قراءة النص الملتصق بكاتبه، بعيداً عن نظرية موت المؤلف، باعتبار

أنَّ الحــوار يشكل راسمــاً للعمل الإبداعي، وإن كان المؤلــف قد مــات على الحقيقة أو علــى الافتراض، وكذلك قريبــاً من نظرية مــوت المؤلف، باعتبار أنَّ النص هو العلامة الباقية أثراً إنسانياً بغض النظر عن الكاتب وماهيته وتجربته، وسنرى كلتا النظريتين في هذه الحوارات الغنيــة للغاية، الصادقة إلى حد الإدهاش الصادمة حد الغيبوبة.

العنوان والدلالة

«متعــة التخيل» قد لا يشي هذا العنوان بما يحمل تحته من مغامرة حياتية وحوارية ولكن العمــل موجّه لمن يقــرأ الدلالة أولاً، ولمن لا يكتفي بقراءة العنوان، فالمتعة غاية، والرواية تخيل وتخييــل، وصناعة عوالم قد تكون واقعاً، لكنهــا تشكل رؤية وخيالاً عند الكاتب والقارئ على السواء.

فالنصــ الروائــي قد ينتقــل من خيال كاتــب ليلامس واقعاً قارئاً، وقد يتحول من تسجيل كاتــب ليداعب خيالاً مجنحاً قارئاً، وفي كل الحــالات هو عالم مــن المتخيل غير مكتمل الواقعية، ليمنح القارئ متعة التخيل، ومتابعــة الحدث المتخيل، وصولاً إلى تجربة وفائدة، وربما محاكاة، وترتفع قيمة المتخيل، وأنت تقرأ نجاحاً وإخفاقاً يظهر إلى العلن، في ســيرة عاصفة تمر مروراً خاطفاً قبل أن تبدأ رحلة العصف الذهني والحوار المجنح لمبــدع يعطي خلاصة صادقــة متماهية مع ذاتــه، أو يرسم عالماً هــو إلى الخيال أقرب بين واقع لا منطقي ونتيجة غير مرتقبة من جانب من الجوانب.

همنغواي والكتمان

«الكتابة هي عمل خاص وشخصي يُؤدى في عزلــة الكاتب من دون الحاجة إلى شهود حتى إنتاج الشكل الأخير للعمل» هكذا يرى محاور همنغــواي رأيه القائــم على التكتم ويكشف عن أنَّ همنغواي المنطلق ليس كذلك في الحديــث عــن الكتابة، ما بــين ١٨٩٨م تاريخ ولادته، و١٩٦١م تاريخ انتحاره، ووفاته يختصر همنغواي رحلة الإنسان وقوته التي مثلها خير تمثيل في رائعته «الشيخ والبحر» التــي قامت على التحــدي في عالم المتخيل، هذا التحدي الــذي عجز عنه همنغواي في مجابهة تراجع قــواه الفنية والجسدية. وها هو يعبر بعفوية عن عاداته الكتابية وطقوسه وأقبس عبــارات منتقاة من إجاباته لتضعنا أمام صورة للكاتب الذي كان:

«دائمــاً أعيد كتابة الجــزء الذي كتبته في اليــوم السابــق.. كتبت وداعــاً للسلاح، الصفحــة الأخيرة منها تسعــاً وثلاثين مرة قبــل أن أشعر بالرضــى.. يمكنك أن تكتب في أي وقــت يتركك فيه الناســ وشأنك ولا يقاطعونك..

أفضل الكتابة هي عندما تكون في حالة حب.. عندما تصبح الكتابة هي رذيلتك الأساسية ومتعتك الأعظم، فإنَّ الموت وحده يمكن أن يوقفها.. الصحافة بعد نقطة معينة تصبح تدميراً للذات لكاتب إبداعي جاد.. أتعلم عن الكتابة من الرسامين بقدر ما أتعلم من الكتَّاب.. أنا أقرأ الكتب دائماً.. إذا شرحت أعمالي بنفسي سأقطع رزق الشارحين..

أحياناً تعرف القصة كاملة، وأحياناً تطورها بالتدريج، ولا يكون لديك فكرة كيف ستنتهي.. عندما يتوقف الكاتب عن المراقبة والملاحظة فإنه ينتهي.. إذا قمت بعملك بشكل جيد فإنك تمنحه الخلود..».

فوكنر والبديل

ولد عام ١٨٩٧م وتوفي عام ١٩٦٢م، وما بين العامين كانت الرحلة الحافلة التي أنجز فيها: أجر الجنود، البعوض، أعلام في الغبار، الصخب والغضب، الملاذ، الذي لم يقهر، القرية، متطفل في الغبار، قداس لراهبة.. وغيرها من الأعمال، عاصف فوكنر في إجاباته، وإشكالي وصادم، لكن هذه الصدامية تروق للمتلقي الذي يراها من قلب الصدق.

«لو لم أكن موجوداً لكتب أحد آخر أعمالي، همنغواي، دوستويفسكي، كلنا..» «كلنا فشلنا في تحقيق حلمنا في الكمال، وهكذا فإن تقييمنا على أساس فشلنا العظيم في فعل المستحيل. في رأيي، لو سنحت لي الفرصة لكتابة كل أعمالي من جديد، فإني مقتنع بأني سأكتبها بشكل أفضل..

بغض النظر عن الرؤية النقدية التي أشرت إليها من حياة المؤلف أو موته، فإنَّ فوكنر يقرر عدم ضرورة تعيين الكاتب من ذاته، فالمنتوج الأدبي يجب أن يظهر، سواء كتبه أو غيره، وهو هنا يتعامل مع العمل الروائي كما لو أنه فكرة مطروحة، وما على الكاتب إلا الصياغة، وهو هنا يتجاوز الفروق الفردية أو الإبداعية، وفي المقطع الثاني يقرّ بأنه لو كتب أعماله من جديد لكتبها بشكل أفضل، وربما كان أكثر دقة لو تحدث بأنه يكتبها بشكل مغاير تماماً..

وما أدقه وهو يتحدث عن خصائص الروائي الجيد.. تسعة وتسعون بالمئة موهبة.. تسعة وتسعون بالمئة انضباط، تسعة وتسعون بالمئة عمل يجب ألا يحس بالرضى عما يفعل. يستحيل أن يكون العمل بالجودة التي يمكن أن يكون بها، احلم دائماً وصوّب أعلى مما تعرف أن بإمكانك فعله، لا تهتم فقط بأن تكون أفضل من معاصريك وأسلافك، حاول أن تكون أفضل من نفسك. الفنان هو مخلوق تدفعه الشياطين..».

وأختم برأي قاطع لفوكنر كلنا في حاجته عند القــراءة والكتابة «لا وقت لدي للتساؤل من يقرؤني.. ليســ هناك طريقة ميكانيكية للكتابة.. علّم نفســك عن طريق أخطائك.. الفنــان الجيــد يعتقد أن لا أحــد جيداً بما يكفي ليعطيه نصائح..».

جون شتاينبك وحرية الكتابة

ولد في كاليفورنيا عام ١٩٠٢م درس علم أحياء البحار، وبــدأ مسيرته الأدبية ١٩٢٩م عــام إلى «شقــة تورتيــلا» ١٩٣٥م و«معركة مشبوهة» و«عن الفئــران والرجال» ١٩٣٧م و«عناقيــد الغضــب» ١٩٣٩م و«شرق عدن» ١٩٥٢م. حاز جائزة نوبل عام ١٩٦٢م..

يقدم هذا الكاتب الكبير خلاصة تجربته الروائيــة في ست نصائح «دعنــي أقدم لك تجربتــي الشخصيــة في مواجهــة أربعمئة صفحة من الورق الأبيض، هذا الفراغ المرعب الذي يجب ملؤه بالكلام: تخلّ عن فكرة أنَّك ستنتهي، لا تفكــر بالأربعمئة صفحة، واكتب صفحة واحدة كل يوم، هذا يساعد، وعندما تنتهي ستندهش بمــا أنجزته/ اكتب بحرية وسرعــة، ولا تصحح ولا تعــد الكتابة حتى يصبح كل شيء على الــورق/ انسَ الجمهور العــام/ إذا استعصى عليــك مشهد أو قسم تجاوزه واستمر في العمل/ احذر من المشهد العزيــز عليــك أكثر مــن الــلازم/ إذا كنت تستعمل الحوار قله بصوت عالٍ..».

وحــين نجد كاتباً يبحث عن لقمة العيش اليوم يتبرع الكثــيرون لشتمه والانتقاص منه ومن ملكاته، ويعيبون عليه أنه يعمل بالأجر، هــذا في الوقت الذي يعملون هم فيه أعمالاً دونية ووضيعة، ويحصلــون على ما يريدون بطرق ملتويــة! ولكن الفكر المتقدم يرى غير ذلك، فهــذا شتاينبك، وهو مــن هو في عالم الروايــة والأدب يقــول من دون تــردد «من الواضــح أنَّ الناس لا يريدون شراء ما أكتبه. ولذلك قررت لكي أحصــل على المبلغ الذي أحتاجــه، أن أكتــب الأشياء التــي يريدون قراءتهــا. بعبارة أخــرى، علــيّ أن أضحي بنزاهتــي الفنية إلى حــين في سبيل نزاهتي الشخصية..».

وعن الشخصية التــي يكتبها يقول جون «أحيانــاً أتخيل الشخصيــة الإنسانية كغابة منتنــة مليئة بالمســوخ والشياطين وقليل من الأضــواء. بدا لي أنَّها مكان خطير لأن يغامر المرء بالدخــول إليها، كأنفــاق جزيرة كوني حيث تقفز الأشياء صارخة..».

وعمَّا يصارعه الروائي يقول «لقد قسّمت نفسي إلى ثلاثة أشخاص. أصبحت أعرفهم، واحد يفترض ويتوقع، والثاني ينتقد، والثالث يحاول أن يتواصل معهما، والثلاثة يتعاركون كثــيراً، لكن مــن هذه المعــارك أستمد عمل

الأسبـوع. وأصبحت هذه الأحداث في ذهني الآن على شكل حوار. إنَّها تجربة غريبة. في مثل هذه الظروف قد تكون واحدة من أعراض انقسـام الشخصية، لكن كتقنيـة عملية، لا أعتقد أنَّها سيئة على الإطلاق..».

نابوكوف والجنسية

ولد فلاديمـير نابوكـوف في بيترسبيرغ عـام ١٨٨٩م لعائلـة أرستقراطيـة هاجرت بعد الثورة البلشفيـة، وفي الولايات المتحدة الأميركيـة عاش أغلب حياتـه، ودرّس اللغة الروسية، وكتب رواياته، ومارس النقد الأدبي حتى وفاته عام ١٩٧٧م، وشغل أستاذ كرسي الأدب الروسي في جامعة كورنيل.. نشر عدداً من الروايات: بنين، نار واهنة، لوليتا، عاطفة متأججـة، ترجـم بوشكين، وكتـب مذكراته (حديث الذاكرة).

في حديثـه تبدو حدّتـه وقسوته، ويظهر انحيـازه الأيديولوجي، والغريب أن نابوكوف يقـف عند جملة الكتَّـاب في الشرق والغرب بشيء من الحدة، فلا قيمة لأدب دوستويفسكي وألكسـي تولستوي! ولا فائدة من فرويد! ولا يعجبه أفلاطون! وهو يعطـي أحكاماً عامة مستنـدة إلى طبعه النقدي، وهو لا يميل إلى أي شيء يؤيد البلشفية، أو حتى يعجب بها.. ملك قدرة التخلي عن الأشياء المهمة، فيقول عن نفسه وببساطة «أرى نفسي ككاتب أميركي كان روسيـاً ذات يوم»! ولعل أهم رأي يقدمه يتعلق بالرواية والخيـال والذاكرة، مستفيداً مـن رؤيته النقدية التي غلبت عليه: «الخيال هـو شكل من أشكال الذاكرة، تعتمد الصورة على قوة الربط والتداعـي، والتداعي يزود ويحفز من قبل الذاكرة».

توني موريسون ومايا أنجيلو

كاتبتـان مبدعتان مـن الكاتبات السود، ومعالجة قضايـا شائكة في المجتمع الأسود، أو في المجتمـع الغني الأفرو- أميركي.. توني موريسون من أوهايـو إلى جائزة نوبل مروراً بجامعة هاوارد وكورنيل، والتحرير في النشر، وكتابة الرواية لإصـدار «أشد العيون زرقة» و«سـولا» و«أغنيـة سولومـون» و«ناربيبي» و«محبوبـة» و«حب» وفي معالجـات متقدمة للسود وقضايا العبودية، كاتبة من رتبة عليا إبداعـاً وتدريساً حملت على عاتقها مهمات كبيرة وترى الروايـة بين الموهبة والاكتساب: «أعتقد أنه إمـا أن يكون لديك ذلك الخيال أو أنـك تكتسبـه.. أنا غير مهتمـة بالناس الحقيقيـين كموضوعات روائية، بما في ذلك أنا نفسي، لماذا علـي أن أسرق حياة شخص حقيقي، لا أحب فعل ذلك، ما أحبه فعلاً هو مسار عملية الإبداع».

أمَّـا مايـا أنجيلـو فمـن ميـزوري إلى الاغتصاب الذي تعرضت له في الثامنة، ومن

ثم أصبحت أماً غير متزوجة في السادسة عشرة، ومواجهة الحياة بشجاعة وكبرياء «اغتصبت وأنا طفلة، أخبرت أخي باسم الشخص الذي فعل ذلك، بعد عدة أيام قتل الرجل، وفي عقلي الطفولي ظننت أن صوتي هو الذي قتله» بهذه المخيلة المبهرة ترى مايا العالم الروائي يجول في الحقيقة «لا أعلم عن كذب الروائيين، أنظر إلى الروائيين العظام، وأفكر بأنهم عظام لأنهم يقولون الحقيقة، الواقع أنهم يستعملون أسماء مستعارة، أمكنة مستعارة، لكنهم يقولون الحقيقة عن الإنسان.. عندما أكتب أحاول أن أعرف من أنا، من نحن، ما بإمكاننا أن نفعله، كيف نشعر، كيف نخسر ونقاوم، وكيف نمضي من ظلمة إلى ظلمة».

ماركيز وأوكتافيو باز وفارغاس ثورة الرواية

استطاع روائيو أميركا اللاتينية تغيير خارطة الأدب الروائي، وخارطة جائزة نوبل للأدب بإبداعاتهم، وأصبح كتَّاب اللاتين الآباء الشرعيين للرواية في عصرنا، فأزاحوا الأوروبيين والأميركيين فعمموا أدبهم، وسيطروا ليس على الساحة، بل على الأسلوب الروائي، والمزاج الروائي، وفي (متعة المتخيل) نقتطف آراء لهؤلاء الكتَّاب الذين وصلوا القمة بأدبهم، ومن دون الخوض في التجربة، فهي أغنى، والذي يعنينا كيف صنع هؤلاء عالمهم.

ماركيز الكاتب الأكثر سيرورة في العالم من الناحية اللاتينية، المتعدد صناعة وصحافة ورواية وسيناريوهات، يكتب لأصدقائه أولاً، ويعمل على إسعادهم «كتبت (أوراق في العاصفة) لأصدقائي الذين كانوا يساعدونني ويعيرونني كتبهم، وكانوا متحمسين لأعمالي بشكل عام أعتقد أنك تكتب من أجل شخص ما.. أنا دائماً أفكر بأناس معينين، في النهاية فكل الكتب تكتبها لأصدقائك.. بعد مئة عام من العزلة لم أعد أعرف من أجل من بين ملايين القراء أكتب!... في كل رواية، الشخصية عبارة عن كولاج: كولاج من عدة شخصيات عرفتها، أو سمعت أو قرأت عنها..».

أوكتافيو الصغير الكبير من مكسيكو إلى جائزة نوبل ١٩٩٠م ووفاته وقف أوكتافيو الصغير حجماً والكبير مكانة وطاقة ناقداً قاسياً «بدأت أفكر بأنَّ كل هذا القتال قد يكون سخيفاً، لكني بالطبع لم أستطع أن أقول ذلك لأحد. كانوا سيظنونني خائناً، ولم أكن خائناً. فهمت أنَّ الأخوّة الحقيقية تعني فيما تعنيه أنك يجب أن تقبل حقيقة أن عدوك هو إنسان أيضاً..» «في النثر الفكرة تأتي أولاً، تتبعها الرغبة بتطوير الفكرة الأصلية، لكن

على الرغم من ذلك فإنَّ الحقيقة الجوهرية تبقى نفسها».

ماريو فارغاس يوسا من البيرو انطلق يوسا، واختار النفي، وتابع دراساته الأكاديمية، كتب «البيت الأخضر» و«حرب نهاية العالم» و«القاص» و«في مديح أيلول» و«ألاعيب الفتاة سيئة السمعة».

وفارغاس من الكتَّاب المهمين متعددي المؤثرات «عندما كنت شاباً، كنت مولعاً بسارتر، وقرأت الروائيين الأميركيين أيضاً خصوصاً الجيل الضائع فوكنر، همنغواي، وفوكنر خصوصاً، هو الوحيد الذي ما زال يعني لي الكثير.. لا أكن لماركيز الكثير من الاحترام كشخص، وأعتقد أن معتقداته انتهازية.. لم أستطع أن أكتب عن شيء قريب مني، القريب يسبب شيئاً من الكبت، بمعنى أنه لا يسمح لك العمل بحرية، المهم أن نتمكن من العمل بحرية.. علاقة الأدب بالإنجازات طويلة الأمد أكبر من علاقة السياسة بها.. أنا مثابر وبوسعي أن أعمل بجد وأن أحصل من نفسي على أكثر مما كنت أعتقده ممكناً..».

غونترغراس المتعدد والروائي المتفرد وآلان روب أوروبيان

أديبان أوروبيان حققا ما حققاه من نجاح بخصوصية وموهبة وكفاح فغونترغراس عرف في مختلف الصنوف الأدبية، وتفوق في كثير منها، لكن الرواية التي بدأت معه عام ١٩٥٨م بـ«الطبل القصديري» جعلته الكاتب الأكثر مبيعاً في العالم، وله «القط والفأر» و«سنوات الكلب» و«الجرذ» و«أخرج لسانك» وباعتراف الكبار يظهر ولادة إبداعه «كنت وأنا طفل كذاباً كبيراً.. بدأت كتابة كذباتي في وقت مبكر جدّاً، وما زلت أفعل ذلك!.. لا أكتب أبداً في الليل.. الكتابة تشبه النحت إلى حد ما، في النحت، عليك أن تعمل من كل الجهات، إذا غيرت شيئاً هنا، فعليك تغيير شيء هناك.. الشخصيات الأدبية، خصوصاً الشخصيات الرئيسية التي يقع على عاتقها دفع الكتاب، هي مزيج من أناس مختلفين، أفكار وتجارب ممزوجة ببعضها..».

آلان روب تجاهله النقاد والقرَّاء في روايتيه الأوليتين «المحايات» و«مسترق النظر» لكن روايته الثالثة«غيرة» لقيت استحساناً خاصة من رولان بارت الناقد المهم.. وعن الرواية والذاكرة والكتاب يقول روب «الذاكرة تنتمي إلى الخيال، الذاكرة الإنسانية ليست كالكمبيوتر الذي يسجل الأشياء، إنَّها جزء من العملية التخيلية، تماماً كالاختراع.. اختراع شخصية أو استعادة ذكرى معينة هي وجوه للعملية نفسها.. عندما يقولون أنَّ الروائي لديه ما يقوله، فإنَّهم يعنون فكرة أو رسالة، لهذا تداعيات سياسية، أو رسالة دينية، أو

وصفــات أخلاقية، ذلك يعنــي الالتزام كما استعملــه سارتر ورفاقه.. أنا ضد كل ذلك.. أقــرأ فلوبــير كروائي دافئ، محــب، وكريم، يحتفظ بصداقــة دافئة مع كل شخصياته.. لقــد كانت الروايــة الجديدة دائمــاً حركة متنوعــة. كل كاتب يكتــب في الاتجاه الذي يجــده مناسباً، لكن العامل المهــم هو أن لنا جميعاً مراجع أدبية واحدة..».

كونديرا التشيكي لا يتحدث عن نفسه

التشيكــي الشيوعــي المفصــول مرات، والفرنسي مواطنة، صاحــب رواية «النكتة» التي حققت نجاحــاً كبيراً، وله «حالات حب مضحكة» و«الحياة في مكان آخر» و«الضحك والنسيــان» و«الهوية» و«الجهل» وعن تقنياته ورأيه يقــول «لكي تتمكن مــن جعل الرواية إنــارة تاريخيــة تعددية للوجــود، عليك أن تجيد تقنيــة الحذف، وفــن التكثيف.. لقد أصبحت الحبكــة ومبالغاتها في الرواية هي أكــثر العناصر سخفاً ورجعية وإملالاً.. أحلم دائماً بعلاقــة غرامية خارجية غير متوقعة، إلا أنني لم أتمكن من الهرب من حالة المضارة التي أعيشها..».

إنَّهم كتَّاب الرواية الذين وصلوا العالمية، وكانوا صادقين وصادمين، وهذه آراؤهم التي لابــد أن توصــف بالجرأة والصــدق، ففيها تعرية للــروح والذات، وفيهــا أحكام نقدية تبتعد بنا عن الثيمات التي حفظناها، وفيها تحطيــم وتحليل لصنمية شخصيات نكن لها الكثير مــن التقدير الذي منعنــا من التقدم وولوج عــوالم أخرى.. «متعــة المتخيَّل» كتاب مهــم لقارئ الرواية وكاتبهــا، ولا أتخيل من لم يقــرأ هذا الكتاب مــن المهتمين لما فيه من تضارب وآراء بعضها يناقض الآخر، ولكنها في المحصلة عالم من جنون الرواية.

آخر الكلام

رئيس التحرير

محمد عيسى
يخفي قصائده تحت غيمة

أعترف بأنني لم أكن أعرف شيئاً عن شاعرية الأديب محمد عيسى،حتى أُتيحت لي الفرصة لأقرأ دواوينه الثلاثة «مائدة البراري» و«شيء ما» و«رتوش ما بعد العاصفة» دفعة واحدة، فوجدت نفسي أمام موهبة وقامة شعرية كبيرة، تستحق كل الحب والتقدير والإعجاب.. لقد قدّم لنا روائع من مقامات العبور والظل والوقت والماء والدروب والهبوب والريح والعنب واليقين والقمح والندم والضجر والشك والنسيان والمكان والغابة، ليشكّل منها مقامات التحوّل، وليقف حارساً على الماء، ويقوم بسحب العابرين من ظلالهم، وليجلس القرفصاء على هيئة جبل، وليطلق كلابه خلف ظلالنا، ويقوم بنفخ الريح ليملأ صفيرها الشبابيك المغلقة، وليرى الطيور نائمة قبل المغيب..

إنَّه يسرد لنا قصائد حنطيّة اللون، ويجلس على قارعة الوطن رافعاً يديه فوق عينيه كواقية يستظل بها من سطوة الشمس.. شاعرنا لا يملك من القطيع سوى العصا، ومع ذلك يرفع الكأس عالياً كعمامة فارس عربي، يستسلم من بداية الصحراء، ويعلن التوبة عن الخطايا حتى تزول المحنة، يجمع الدروب تحت إبطيه، تاركاً لكل خطاه، قميصه الريح، والوديان جيوبه.. لقد أتعبته المسافة ما بين نون البداية ونون النهاية، ومع ذلك فالأرض لا تتعب من الأقدام القلقة، ولا من العابرين..

محمد عيسى في شعره المميّز، يحاول بقوة أن يدخل الخيط بخرم إبرة، وعندما يسحبه من الطرف الآخر، يكتشف أنه قد أدخله في الفراغ الذي يحيط بالإبرة.. إنَّه يحاول أن يخفي أسلحته تحت غيمة، وهو لا يخاف على الأسلحة، ولكنه يخاف أن تضيع الغيمة، وحين تسأله عن الساعة، يقول: الساعة ضد الماء، والماء حياة.. هو بطبعه فضولي ومتسرّع، ما إن سمع بالمستقبل، حتى صعد إلى أعلى قمة ليكون أوَّل من يبشّر بقدومه، مع أنه هشّم جرار العاطفة، وكسر مزهرية الوقت، ومازال يحب الخريف، ومازال ينتظر القصيدة لتفعل به ما تشاء، ومازال الكائن يعبر المسافة، مابين النفختين، نفخة البداية، ونفخة النهاية..يوم نفخ فيه من روحه، ويوم ينفخ في الصور.. في البدء كان الزفير، وفي النهاية، سيكون النفير..

محمد عيسى، في هذا الزمن الذي يحار المرء، ماذا يطلق عليه، يرفع أشرعة ويغني للغربة، ويقطف زنبقة، ويمشي حافياً، يبعثر الضوء كعود ثقاب، يحاول الاشتعال، يعشق المطر وزرقة السماء.. يحمل قنديلاً، ويفتش عن بيت يضعه فيه، ويحمل رأساً يفتش عن ذراع يحنو عليه.. ويحمل قرنفلة لغائبة لا تجيء.. يجول على شرفة التخوم، ويرى الأمكنة تتبادل الأمكنة، ليرى ما لا يُرى.. يرى الأفق

يتدلى فوق مائدة المكان، ورأسه إلى الأسفل يطقطق أصابعه.. يتثاءب كسلاً ويغفو.. بعد أن أيقظه التعب من النوم..

محمد عيسى، يعرف ما يريد، لا يهدأ فيه جناح طائر، ولا تستقر فيه غفوة، مازال قلبه مستعداً للركض والحب والحياة، ومازال يؤمن بأنَّ الحسنة تمحو السيئات، ومازال يكتب الشعر، ويشمّس عظامه، ويراقب لعب الأولاد وركضهم، وكل ما نرجو أن لا يلهيه الركض عن الركض، وأن يستمر بتألقه وحيويته وإشراقاته الشعرية المحببة والجميلة..

❁ ❁ ❁

من إصدارات وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

من كروم الجمال

اللوحة: عيد الحب - الفنان: منير سالم العيد

تطل بين الحين والآخر، تجارب تشكيليّة سوريّة تغرد خارج سرب التوجهات العامة لهذا التشكيل، ما يجعل عملية دراستها، أو تحديد التقنية المنفذة بها، صعبة وشائكة كما هو الحال مع اللوحة المنشورة جانباً والتي تنوس كأسلوب بين التكعيبيّة والتزيينيّة الزخرفيّة.

تتألف اللوحة من رجل وامرأة في وضعية عناق واحتضان واحتواء، وإشارة إلى حيوان خلف رأسيهما يصعب تحديد ماهيته. تحيط بكتلتها مساحات زخرفيّة هندسيّة ونباتيّة مختلفة الحجوم والمساحات والتموضع، وهي بشكل عام، كامدة، عكس كتلة التكوين المشكّل من المرأة والرجل والتي تغلب عليها الألوان الفاتحة والحارة، مايخلق حالة من التضاد تساهم بتأكيد التكوين وإبرازه، والعكس صحيح أيضاً، حيث يساهم التكوين بتأكيد الخلفية وإبرازها، وما أسعف عملية تبادل القيم التشكيليّة هذه بين (التكوين) و(الخلفية) قيام الفنان منير سالم العيد بتبسيط المساحات المشكّلة للخلفيّة، والتنويع في ملامسها والإيقاعات الحركيّة لمحمولاتها من الزخارف الهندسيّة والنباتيّة. وكي يعكس مضمون اللوحة المتمثلة بعلاقة الحب القائمة بين الرجل والمرأة، من خلال ظاهرة (عيد الحب) لجأ الفنان العيد إلى اختيار وضعية احتضان حميميّة ومعبرّة لجسديهما، وأشار إلى الوردة الحمراء التي تحوّلت رمزاً لهذا العيد، كما شغل إحدى مساحات الخلفية بالقلوب الحمراء، واعتمد اللون الأحمر متكأ أساساً في تأليف جسد المرأة، إضافة إلى الأبيض والأخضر، وهي ألوان تعكس النقاء والبهجة والرغبة والحميميّة.

ونتيجة لاعتماد الفنان المساحات اللونيّة المصمطة في بناء أشكال وعناصر اللوحة ومفرداتها (باستثناء نهدي المرأة) يصعب على المتلقي للوهلة الأولى، إدراك أن الألوان المستخدمة في إنجاز اللوحة هي الألوان الزيتيّة القابلة لعملية التدرج عبر مزج بعضها بالبعض الآخر، وهذه خاصيّة أخرى، تكرس تفرد هذا العمل الفني القادر بمحمولاته اللونيّة و الشكليّة والعنصراتيّة المتباينة والمتضادة، المنفذة بتبسيط للمساحات لافت، بتحريكه مساحة واسعة في المكان الذي يتواجد فيه، كما بالإمكان تحويله بسهوله، إلى لوحة أو منسوجة جداريّة منفذة بالفريسك، أو الخيطان والأقمشة، أو أية تقنية أخرى تُستخدم في إنجاز مثل هذه الفنون التشكيليّة - التطبيقيّة.

د. محمود شاهين

حيوية الفلكلور الشعبي

في العدد القادم

- المرأة الأوروبية في التاريخ القديم.
- القبّاني، رائد المسرح الغنائي العربي.
- الصيدلة وصناعة الأدوية في أوروبة القرّوسطية.
- نقّاد الرواية السوريّة.
- ظاهرة السلوك الإجرامي.. السمات والنظريات.
- أحمد شوقي، بؤر الإشعاع في وصف الآثار.
- تبرئة العقل المعاصر.

مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٣م